التيسير في التفسير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي

٤٦١-٥٣٧ هـ

يطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

ماهر أديب حبّوش

المجلد السابع

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّيْسِيرُ

فِي

التَّفْسِيرِ

(٧)

الطبعة الأولىٰ

١٤٤٠هـ-٢٠١٩م

9 786052 279311

دار اللُّبَاب

للدِّرَاسَاتِ وَتَحقِيقِ التُّرَاثِ

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

بيروت - لبنان

009615813966

0096170112990

Www.allobab.com

اسطنبول - تركيا

00905454729850

00902125255551

info@allobab.com

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

سورة الأعراف

(١٥٠) ـ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾: أي: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ من الطور ﴿إِلَىٰ﴾ بني إسرائيل الذين استخلَف عليهم هارونَ وقد أخبره الله تعالى بما كان من ﴿قَوْمِهِۦ﴾ من عبادة[1] العجل بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٥] رجع ﴿غَضْبَٰنَ﴾ من ذلك ﴿أَسِفًا﴾ متأسِّفاً على ما كان منهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حزيناً. وقال أبو الدرداء: شديد الغضب[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾: هي كلمة ذمٍّ؛ أي: ساء ما عملتُم خَلْفي بعد غيبتي، يقال: خَلَفه في أهله بخيرٍ وبسوء، وقد كان قال لهارون عليه السلام: ﴿ٱخْلُفْنِى﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وهاهنا قال: ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾ لأنه كان يجب على كلِّ واحدٍ منهم أن يَحوط[3] صاحبه ويحميَه عن الضلال.

---

(١) في (ف): «عبادتهم».

(٢) رواهما الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٠).

(٣) في (أ): «يحفظ».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: رجع ﴿غَضْبَنَ﴾ لله على قومه بعبادتهم العجلَ ﴿أَسِفًا﴾؛ أي: حزيناً على قومه بما يَلحقُهم من العقوبة بذلك، وكذا ينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يغضبَ للهِ تعالى إذا رأى ارتكابَ منكرٍ ويتأسَّفَ على ما ينال العُصاة، وقد قال الله تعالى في حقِّ نبيِّنا ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، فدل على حزنه وتأسُّفه على ذلك.

وقال في قوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾: له وجهان:

الأول: بئسما اخترتُم من عبادتكم العجلَ على عبادة الله تعالى.

والثاني: بئسما اخترتُم اتِّباعَ[1] السامريِّ إلى ما دعاكم إليه بعد اتِّباعكم إياي وأخي رسولَ الله هارونَ، وأمرِنا إياكم بعبادة الله تعالى[2].

وقوله تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قيل: أي: أسبَقتم أمرَ ربِّكم؛ أي: عبدتُم العجل قبل أن يأتيَ به أمر من الله تعالى؛ أي: لو كان هذا مما يجوز أن يُفعل تقرُّباً إلى الله لأمَر الله عز وجل به، فلِمَ فعَلْتُموه قبل أن يأتي به أمر[3].

وقيل: أي: أعجِلتم وعدَ ربِّكم، فقد قال في سورة طه: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦].

قال الحسن: كان موسى صلوات الله عليه واعَدَهم ثلاثين ليلةً، فلما مضت الثلاثون ولم يرجع قدَّروا أنه قد مات[4].

---

(١) في (ف): «بئسما اخترتم من عبادتكم العجل اتباع»، وعبارة «التأويلات»: (بئسما خلفتموني باتباعكم).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٤).

(٣) ذكر نحو هذا الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٦٩) و«الوسيط» (٢/ ٤١٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٤)، والرازي في «تفسيره» (١٥/ ٣٧١)، وعزوه للكلبي، ولا حاجة لمثل هذه الأقوال، فكيف يُتخيل ولو على سبيل الافتراض أن يأمر الله سبحانه بعبادة العجل.

(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٦٣)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٦٩)، والبغوي =

وقيل: كان واعَدَهم أربعين ليلةً، ولكن عدُّوا عشرين يوماً وعشرين ليلةً وقالوا ذلك.

وقيل: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: وعْدَ ربِّكم بالثواب على عبادته حتى عدَلتُم إلى عبادة غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾: جاء عن قومٍ من المفسِّرين: فطرحها على الأرض غضباً، فرُفع[1] منها كذا وبقي كذا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كُسِر منها لوحان فتطايرا في السماء بما فيهما من النور والبيان[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لكن لا يجوز أن يُفهَم من قوله: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ طَرْحَها لا غير، ألَا ترى أنه قال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ [النحل: ١٥] ليس يفهم منه الطرحُ، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، إذ لا[3] يُظن بموسى عليه السلام ذلك؛ لأنه يُشبه الاستخفافَ، لكن يُفهم منه الوضعُ لأنه قصَد أَخْذَ[4] رأسِ أخيه، فكان لا يمكنه أخذُه مع أن الألواح في يده، فوضعها ثم أخذ ذلك[5].

= في «تفسيره» (٣/ ٢٨٤)، والرازي في «تفسيره» (١٥/ ٣٧١).

(١) في (أ): «فوقع»، وفي (ف): «فرجع».

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وروى عنه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٦) أنه قال: (ألقى موسى الألواح فتكسرت، فرفعت إلا سدسها).

(٣) في (ر): «ولا» بدل: «إذ لا».

(٤) «أخذ»: ليست في (أ).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٥). ولهذا الكلام وجه، لكنه لم يبين أنه إذا كان المعنى كذلك فلمَ قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ ولم يقل مثلاً: ووضع الألواح، أو: وترك الألواح؟ فلا بد أن يكون لاستعمال لفظ الإلقاء دون غيره علة لا تتحقق بغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾: قيل: فعَل ذلك ليناجيَه وليسأله عن السبب الذي وقعوا في ذلك لأجله، وعن الذي منعه عن زجرهم وقتالهم عليه، فتصوَّر عند هارون أنه لغضبه ومؤاخَذته عليه يأخذ لحيته ورأسه يعاقبُه به، فلذلك قال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ فيتوهَّمَ القوم أنك عاقَبْتني من غير ذنبٍ كان لي فاسمع عذري[١].

وقيل: إنما فعل ذلك لا تغضُّباً عليه متعنِّفاً، بل كما يفعله المتوجِّع للمصيبة بالحادث على قومه كما هو عادةُ أهل المصيبة، فإن كثيراً من الناس يتعلَّق الواحد منهم عند المصيبة برقبةِ مَن يَحلُّ منه محلَّ المصاب، ويجعلُ الآخرُ يده في رقبته أيضاً[٢].

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكَر في هذه السورة: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾، وفي سورة طه دليلٌ على أنه أخذ برأسه ولحيته جميعاً؛ لشدة غضبه لله تعالى على صنيع[٣] قومه.

قال: وفيه دليلٌ أنه أخذ شعرَ رأسه؛ لأنه قال: ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، ولو أَخذ عينَ رأسه لم يَحتجْ إلى جرِّه، ودلَّ ذلك على أن مَن مسح رأسَه فوق الشعر ثم زال شعرُه لم

---

(١) كذا ذكر المؤلف هذا القيل، وكأن قائله لم يقرأ الآية، فإن الذي ذكر الأخذ بالرأس والجرَّ هو الله سبحانه لا هارون عليه السلام، وهل يقال فيمن أراد أن يناجي آخر ويسأله عن أمر: إنه أخذ برأسه يجره إليه؟ وقول هارون: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ إنما هو تأكيد للأخذ بالرأس مع بيان الأخذ اللحية كذلك، ولعله اكتفى بذكر الرأس هنا لأن اللحية منه.

(٢) في (أ): «رقبته في يده» بدل: «يده في رقبته أيضاً». وليس هذا القيل بأحسن من سابقه، فإننا لو سلمنا ما ذكر من أنه عند المصيبة يأخذ كل واحد برقبة الآخر، فإن الأخذ هنا بالرأس لا بالرقبة، ثم أين يذهب صاحب هذا القيل بقوله: ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾؟ فهل يحدث مثل ذلك أيضاً عند المصيبة، بأن يأخذ كل واحد برأس من يشاركه في المصيبة ويجره إليه؟!

(٣) في (أ): «صنع»، وفي (ف): «ما صنع».

يسقط عنه حكمُ المسح كما قال أصحابنا، وإذا مسح على لحيته ثم سقطت[١] زال حكمُه ووجب غسلُ ذقنه، لما سمَّى الشَّعرَ رأساً وسمَّى اللحية لحيةً، فسقوطُها يُسقط حكمَ المسح وسقوطُ شعر الرأس لا يُسقط.

قال: ودلَّت الآية على أن الأنبياء كانوا يعملون بالاجتهاد كما كانوا يعملون بالوحي، فإن موسى أخذ برأس أخيه بالاجتهاد إنكاراً على هارون تَرْكَ النكير على قومه، ولو كان بالوحي لم يقل له هارون: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾[٢]، وهارونُ أيضاً عمِل ما عمِل مع قومه بعد عبادتهم العجلَ بالاجتهاد لا بالوحي، ولهذا اعتذر عنه وقال: ﴿خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولو فعل شيئاً بالأمر لم يَعتذر منه إلى موسى[٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ وابن عامر وعاصمٌ في رواية أبي بكر بكسر الميم، وأصله: يا ابن أمي، وحُذفت الياء تخفيفاً لكثرة الاستعمال في النداء، كما في قوله: (يا قوم) وقرأ الباقون: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ بالفتح[٤].

وقيل: كثُر استعمال هاتين الكلمتين فصارتا كاسمين جُعلا اسماً واحداً، فبُنيا على الفتحة كما في حضرَموتَ وبعلَبكَّ وخمسةَ عشرَ.

وقيل: أصله: يا ابن أمَّاه، على النُّدبة، وسقطت الهاء والألفُ تخفيفاً.

وهذا[٥] قول هارون لموسى عليهما السلام، ومعناه: يا أخي، وكان أخاه لأبيه وأمِّه وإنما خصَّ الأمَّ استعطافاً؛ لأن ذكر الأمِّ يوجب ذلك.

---

(١) في (ر): «ثم زالت لحيته»، والمثبت موافق لما في «التأويلات».

(٢) «بلحيتي»: ليست في (أ) و(ف).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٥ ـ ٤٦).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٥)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٥) في (ف): «وهو».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾: أي: لم يَهابوني ولم يَستحُوا مني[١] ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾: لكثرتهم وغلبتهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾: أي: لا[٢] تَسُرَّ المخالفين بما يَسوؤني؛ إذ لا شكَّ أنهم كفروا بعبادة العجل، والكافرُ يفرح بمَساءة المؤمنين، خصوصاً بوقوع التشاجُر بين أخوين رسولين؛ لِمَا في التبايُن من وقوع الوهن في الأمر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: في عدادِ هؤلاء القومِ الذين ظلموا أنفسَهم بعبادةِ العجل ووَضْعِ العبادة في[٣] غيرِ موضعها، فأكونَ مثلهم في موجِدتك وغضبك علينا.

* * *

(١٥١) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾: ولمَّا سمع موسى عذرَ هارون عليهما السلام عرفَ أنه لم يكن منه تقصيرٌ، كفَّ غضبه ودعا لنفسه وله، فقال: ربِّ اغفر لي بما فعلتُه بأخي مما أَوهم ظاهرُه كثيراً من الناس أنه كان موجدةً[٤] مني عليه وعقوبةً له، واغفر لأخي تقصيرَه إن[٥] كان منه شيءٌ من ذلك، وإن كان قد بذل جهده في الوعظ والإرشاد للقوم، وكذا ينبغي للكامل الموقَّر أن يستقصِر نفسَه فيما يجب لله عليه، فأولى الناس بهذه الحالة الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) في (ف): «فلم يستحيوا».

(٢) «لا»: ليست في (أ).

(٣) «في»: ليست في (ف).

(٤) في (أ): «موجوده».

(٥) في (ر): «إنه».

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾: أي: أدخلنا في جملةِ مَن ترحمهم وتُدخلهم الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ترضَى بيَسير الشكر عن عظيم النِّعَم، وتقبلُ العذر الواحد في حق ذنوبٍ كثيرة.

قال الكلبيُّ رحمه الله: لمَّا رجع موسى إلى قومه رآهم حول العجل يرقصون ويعبدونه، فقال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ﴾ بعبادةِ العجل قبل أن يأتيكم أمرٌ من ربِّكم ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ وكان أخاه من أبيه وأمِّه، لكنه قال ذلك ليرفقه عليه ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ قهروني وهمُّوا بقتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ عبدةَ العجل ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿قَالَ﴾ موسى: يا ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما صنعتُ بأخي[1] ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾؛ أي: نعمتك.

* * *

(١٥٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾: أي: معبوداً ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾؛ أي: سيصيبُهم ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: إرادةُ عقوبةٍ لا عفوَ معها.

قيل: قال الله تعالى ذلك لموسى قبل أن يتوب القومُ بقتلهم أنفسَهم.

وقوله تعالى: ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: قتلُهم أنفسَهم بأيديهم فإنه هوانٌ وقُبلت به توبتُهم.

---

(١) في (ف): «وأخي».

وقيل: هذا في حقِّ الذين لم يَقبلوا قتلَ[١] أنفسهم بأيديهم فلم يتوبوا، وأُشربَ في قلوبهم حبُّ العجل، فالغضبُ ـ وهو الانتقام ـ في الآخرة لهم، ﴿وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أَخْذُ الجزية، قاله الحسن[٢]، ويدلُّ عليه ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

وقال مكحولٌ: قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ الآيةَ، فقال الله تعالى: صدَق عبدي موسى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾: أي: الكاذبينَ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية في أهل عصر النبيِّ ﷺ الذين تولَّوا آباءهم الذين فعلوا هذا، لهم عذابُ النار في العُقبى وأخذُ الجزية في الدنيا[٣].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل قولُه: ﴿وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ذمَّهم بصنيعهم[٤]، وثناءَ الشرِّ عليهم[٥].

والمفترُون: الكاذبون، وقد كذَبوا في تسميتِهم العجلَ إلهاً ومعبوداً.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ هذه السينُ للاستقبال، ومَن لا يضرُّه عصيانُ العاصين لا يبالي بتأخير العقوبة عن الحال، ولكن يكون للإمهال لا للأهمال، ولا ينبغي لمن ألَمَّ بذنب ثم لم يؤاخَذ[٦] به أن يَغترَّ بالإمهال[٧].

---

(١) في (ف): «لم يقتلوا».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٦)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩).

(٤) في (ف): «بصنعهم».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٧).

(٦) في (ف): «يؤخذ».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٣).

(١٥٣) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يتناول عبادةَ العجل وغيرَ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾: أي: بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ذكَر الإيمانَ بعد التوبة، والإيمانُ الذي هو بعدها يحتمِل أنهم آمنوا بأنه يَقبل التوبة، أو آمنوا بأن الحقَّ جلَّ جلالُه لا يَضرُّه عصيان، أو آمنوا بأنهم لا ينجُون بتوبتهم من دون فضل الله عز وجل، أو آمنوا؛ أي: عدُّوا ما سبَق منهم من نقض العهد شركاً فآمنوا من الرأس، أو استداموا الإيمان، أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييعِ الأمر لسقطوا عن عين الله تعالى إذ ليس كلَّ مرةٍ تسلَمُ الجرَّةُ[1].

* * *

(١٥٤) ـ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾: أي: سكَن، ولما كان الغضبُ بفَورته دالًّا على ما في النفس للمغضوب عليه، كان بمنزلة الناطق بذلك، فإذا سكنَت تلك الفَورة كان بمنزلة الساكت عما كان متكلِّماً به.

وقال عكرمة: أي: سكت موسى عن الغضب، على القلب[2].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٨٢).

وقوله تعالى: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾: وقد كان وضَعها ليتفرَّغ لِمَا قصَد له لا رغبةً عنها، فلما فرغ عاد إليها فأخذها.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: أي: وفيما نُسخ له فيها من اللوح المحفوظ، والنسخ: النقل، ومنه: نسخُ الحُكم، ونسخ الشمسِ الظلَّ، فيقتضي نقلَ مكتوبٍ من أصلٍ إلى آخر، وقد يُطلق على الكتابة وإن لم يكن من أصلٍ آخرَ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ [الجاثية: ٢٩] فعلى هذا يكون معناه: وفيما كُتب فيها هدى ورحمة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ما انكسر منه أُعيد له في لوح آخر.

وعن عمرِو بن دينار قال: صام موسى عليه السلام أربعين يوماً فأُعطي الألواح، فلما ألقاها وتكسَّرت صام مثلَها فأُعيد له مثلُها(١)، وقد بينَّا ما في أصل هذا الكلامِ من الخلل.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: أي: يخشَون الله تعالى، فيأخذون بهداه ويَقبلون ما فيه لينالوا رحمته.

وإنما قال: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ولا يجوز: يرهبون لربهم؛ لأن المفعول إذا تقدَّم ضعُف عملُ الفعل فيه، فصار كالذي لا(٢) يتعدَّى في دخول اللام عليه، وهو كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

وقيل: هو في معنى: مِن أجْلِ، ويجوز فيه اللام تقدَّمَ أو تأخَّرَ، كما قال تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾؛ أي: وفيما انتَسخ بنو إسرائيل

---

(١) ذكر القولين الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٧)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٥).

(٢) «لا»: من (أ) و(ف).

من الألواح ﴿هُدًى﴾ من كلِّ ضلالةٍ، وبيانٌ من كلِّ عمًى وشبهةٍ، ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ من كل غضبٍ ولعنة، ﴿لِّلَّذِينَ﴾ يخشون ربهم فيعملون به[1].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ يشير إلى حُسن إمهال الله العبدِ إذا تغيَّر عن حاله وغلَب عليه ما لا يُطيق، وإذا كان الأنبياءُ صلوات الله عليهم يَغلبهم ما يَصرفهم عن الاختيار فكيف الظنُّ بـمَن دونهم[2].

***

(١٥٥) ـ ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا﴾: أي: من قومه، ونزعُ الخافض جائزٌ، وإذا نُزع نُصب الاسم، وقال الشاعر:

ومنَّا الـذي اختيـرَ الرِّجـالَ سـماحةً وجُوداً إذا هـبَّ الريـاحُ الزعـازعُ[3]

أي: من الرجال، وقيل: ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ نصبٌ بوقوع ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ عليه.

ثم قوله: ﴿سَبۡعِينَ﴾ بدلٌ عنه، وهو بدلُ البعضِ من الكلِّ، كما في قولك: ضربتُ زيداً رأسه.

وقال الكلبي رحمه الله: اختار موسى سبعين رجلاً لينطلقوا إلى الجبل معه،

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٨).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٤).

(٣) البيت للفرزدق، وهو في «الجمل» للخليل (ص: ١٢٢)، و«الكتاب» لسيبويه (١/ ٣٩)، و«شرح نقائض جرير والفرزدق» لأبي عبيدة (٣/ ٨٢٢)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٣٢)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ٤٧٢).

فلم يُصِبْ إلا ستين شيخاً، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشبان[١] عشرةً، فاختار فأصبحوا شيوخاً، فاختار من كلِّ سبطٍ ستةَ رهطٍ فصاروا اثنين وسبعين، فقال لهم موسى: إنما أُمرتُ بسبعين رجلاً فليتخلَّف منكم رجلان، فتشاحُّوا على ذلك، فقال: إنَّ لمن قعد مثلَ أجرِ مَن خرج، فقعد رجلان أحدهما كالوب بن يوقنا والآخر يوشع بن نون، وخرج موسى بالسبعين معه إلى الجبل، وأمرهم أن ينتظروا في أسفل الجبل، وصعد موسى الجبلَ، وذكر ما كان إلى أن رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً مع السبعين، فلما رأى السبعون أن بني إسرائيل اتَّخذوا العجل أتوا موسى فقالوا: إن لنا عليك حقاً فأرِنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة فاحترقوا عن[٢] آخرهم، فظنَّ موسى أنهم احترقوا بخطيئةِ أصحاب العجل، فقال: يا رب ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وقولُه[٣]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦][٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما بخلافه؛ قال: إن الله تعالى أمَره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختارهم وبرز بهم ليدعُوا ربَّهم، فكان ممَّا[٥] دعَوا الله تعالى أن قالوا: اللهمَّ أعطِنا ما لم تُعطِ أحداً من[٦] قبلِنا، ولا تعطيه[٧] أحداً بعدنا، فكرِه الله

---

(١) في (أ) و(ف): «الشباب».

(٢) في (أ) و(ر): «فاحترقوا من عند».

(٣) «﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وقوله»: من (ف).

(٤) ذكره بنحوه أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٦٨) عن ابن عباس، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٨) عن الكلبي، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٦٨) عن ابن إسحاق.

(٥) في (أ) و(ر): «فكانوا فيما».

(٦) «من»: ليست في (أ) و(ف).

(٧) في (ف): «تعطه».

تعالى ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة(١)، فقال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية(٢).

وقيل في قوله: ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ في هذه الآية: إن الله تعالى وقَّت لموسى وقتاً يأتيه فيه بسبعين رجلاً من خيَار بني إسرائيل ليَعتذروا مما كان من القوم من عبادة العجل، وهذا في(٣) غير الميقات المذكور في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلمَّا خرج موسى معهم وكانوا في أسفل الجبل كان ما ذُكر في هذه الآية، وهو قوله تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: أي: زلزلةُ الجبل، وقيل: زلزلةُ أبدانهم فماتوا.

ثم ليس في هذه الآية بيانُ سببها، واختُلف فيه:

قيل: هو بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] وهي نارٌ محرِقةٌ فيها صوتٌ فرجَفوا بصوتها، فالصاعقةُ والرَّجفة واحدةٌ، وإنما أُحرقوا(٤) بها لكفرهم بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ لا بسؤالِ الرؤية، أو بسؤال الرؤية جهراً(٥)؛ أي: مقابَلة، وهي تشبيهٌ وهو كفرٌ، فأما أصل الرؤية فهو ثابتٌ وليس فيه مقابَلة.

وقيل: أخذتهم الرجفة بسؤالهم ما لم يؤذَنْ لهم فيه(٦)، وهو ما رَوينا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا.

---

(١) في (ر): «الصاعقة».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٩).

(٣) «في»: من (أ).

(٤) في (أ): «احترقوا».

(٥) في (أ): «جهرة» وليس فيها: «أو بسؤال الرؤية».

(٦) في (ف): «به».

وقيل: بل ادَّعَوا عند الله على موسى أنه قتل هارون.

وقيل: بل كانوا من عبَدة العجل، وموسى لم يعلم بذلك.

وقيل: لم يكونوا عبدوا العجل، ولكنهم لم يفارقوهم[1] ولم ينكروا عليهم.

وفي حديث وهب خلافُ هذا كلِّه، وأنَّ أَخْذ الرجفة لم يكن عقوبةً بل هيبةً، وهم خيارٌ ليسوا بجُناة.

قال وهب: إن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: إن طائفة يزعمون أن الله تعالى لا يكلِّمك، ولو كلَّمك ما قمتَ لكلامه، ألم ترَ أن طائفة منا سألوه النظر إليه فلمَّا سمعوا حسَّ جنوده ماتوا، أفلا تسأله أن يُحضركَ طائفةً منا حتى يكلِّمك فيسمعوا كلامه فيؤمنوا وتذهبَ التُّهمة، فأوحى الله تعالى إلى موسى: أن اخترْ من خيارهم سبعين، ثم ارْتَقِ بهم إلى الجبل أنت وهارونُ، واستخلِفْ على بني إسرائيل يوشعَ، فاستخلَف عليهم كما أمره الله تعالى.

ثم انطلق بهم إلى رأس الجبل، فنزل الغمام[2] فألبس الجبل كلَّه، فلمَّا رأوا ما فيه من الهيبة أخذتهم الرعدة[3] وقَلِقوا ورجَفوا حتى كادت تَبِينُ منهم مفاصلُهم وتُنقَضُ ظهورهم، فلما رأى ذلك موسى صلوات الله عليه رَحِمَهم وهم يومئذٍ أحياءٌ، فدعا اللهَ لهم وقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰيَ﴾ وخاف عليهم الموتَ، واشتدَّ عليه فَقْدُهم، وكانوا له وزراءَ على الخير سامعين مطيعين، فعند ذلك قال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ فكشف الله عنهم تلك الرجفةَ والرعدةَ، فسكَنوا واطمأنُّوا وسمعوا كلام الله تعالى موسى، وكانوا عليه شهداء وانصرفوا[4].

---

(١) في (ف): «يوافقوهم».

(٢) «الغمام»: ليس في (أ).

(٣) في (ر): «الرجفة».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

وهـؤلاء السـبعون غـيرُ السبعين الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] أولئك أحرقتهم الصاعقة ثم بُعثوا، وهؤلاء أخذتهم الرعدةُ ثم كشفت عنهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا ندري مَن أولئك السبعون[١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾: وقال مقاتل بن سليمان: وبقي موسى يبكي ويقول: يا رب! ما أقولُ لبني إسرائيل إذا رجعتُ إليهم وقد أهلكتَ خيارَهم؟ لو شئتَ أمتَّهم وإياي معهم من قبلِ أن يَصْحَبوني[٢].

وقيل ـ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ـ: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ بما كان منهم وإياي بقتلِ القِبْطي[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ قال ابن عباس ومقاتل رضي الله عنهما: أي: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ عقوبةً ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؛ أي: الجهَّال، وهم أصحاب العجل، ظنَّ موسى عليه السلام أنهم إنما عذِّبوا باتخاذ بني إسرائيلَ العجلَ[٤].

وإنما قال: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ على معنى: أن إهلاك[٥] هؤلاء إهلاكٌ لي ولبني إسرائيل لأنهم خِيَارُنا.

وقيل: لا يجوز أن يَظنَّ موسى عليه السلام أن هؤلاء أُهلكوا بفعلِ غيرهم؛ لأنه عَلم أن أحداً لا يؤاخَذُ بذنبِ غيرِه، وقد بيَّن ذلك في كتابه، قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النحل: ٣٦ ـ ٣٨]،

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٩).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٦). ورواه الطبري (١٠/ ٤٦٨) عن السدي.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٩) عن وهب، وهو تتمة الخبر الذي تقدم قريباً عنه.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٦).

(٥) في (ف): «هلاك».

لكن[1] معنى قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾: أن هذا استفهامٌ بمعنى النفي كما في قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]؛ أي: إنك لا تهلكنا بما فعَل[2] السفهاء، وقد ذكر قبله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ ومع ذلك لم تفعل، وذلك فضلٌ منك، ثم قال: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾؛ أي: لا تُهلكنا بفعلِ السفهاء، وهذا عدلٌ منك.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: أي: ما هي إلا فتنتُك[3]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: بليَّتُك[4]. وقال الكلبيُّ: عذابُك[5].

وقال الربيع بن أنس ومقاتل: بلاؤك[6]. وهو كقول ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: هو راجعٌ إلى قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ﴾ فقال موسى: هي[7] تلك الفتنة التي أخبرتَني بها، وهي ابتلاءُ اللهِ تعالى عبادَه بما شاء، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾: أي: مَن قال: اختارهم ثم أهلكهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ أي: مَن قال: إن الله لا يعذِّب أحداً من غيرِ ذنب.

---

(١) في (ر): «وليس»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب. انظر: «البسيط» (٩/ ٣٩٠).

(٢) في (ف): «بفعل» بدل: «بما فعل».

(٣) «أي: ما هي إلا فتنتك»: ليس في (أ) و(ف).

(٤) رواه أبو صالح عن ابن عباس بلفظ: (بلاؤك). انظر: «زاد المسير» (٣/ ٢٦٩). ورواه بلفظ المؤلف الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨) من قول أبي العالية وسعيد بن جبير والربيع بن أنس. والمعنى واحد كما سيأتي.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٧٥)، عن ابن عباس.

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٦). ورواه الطبري (١٠/ ٤٧٨) عن الربيع بلفظ: (بليتك) كما ذكرنا قريباً.

(٧) في (ر): «هل».

وقيل: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾: بالفتنة ﴿مَن تَشَآءُ﴾: مَن علمتَ منهم اختيارَ الضلال، وقوله: ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾: مَن علمتَ منهم اختيارَ الهدى.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أي: متولِّي مصالحِ دِيننا ودُنيانا.

وقوله تعالى: ﴿فَاْغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَٰفِرِينَ﴾: تُمْهِلُ ولا تعاجِل، وتغفر الذنب الكثير(١) بالعُذر اليسير، ثم تجود بالعطاء الجزيل الكثير(٢).

قال الإمام القشيري رحمه الله: هم قومٌ اختارهم موسى ونحن قومٌ(٣) اختارنا الله تعالى، قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وشتَّان بين قومٍ وقومٍ، أولئك قوم قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ﴾ ونحن قوم يقول الله تعالى لنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢](٤).

* * *

(١٥٦) ـ ﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: أي: أَثْبت لنا نعمةً، وذكر الكتابة لأنها أدوم.

وقيل: أي: وفِّقْنا في الدنيا للحسنات التي تكتبُها لنا الحفظة.

---

(١) في (أ): «الكبير».

(٢) في (أ) و(ف): «الكبير».

(٣) في (ف): «أمة».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٥).

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾: أي: فيها حسنةً أيضاً؛ كما قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: تُبنا إليك[١]، وأصله الرجوع.

وقيل: أي: مِلنا إليك، وليست اليهودية مشتقَّةً منه، فإنها[٢] اسمُ ذمٍّ والهَود صفةُ مدحٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ الآية [آل عمران: ٦٧]، فنفى الاسم عنه، لكنها مشتقَّةٌ من يهوذا، نُسبوا إليه وغيَّرت العرب الذال في النسبة دالاً.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ جوابُ قول موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ ومعناه: أصيبُ بالعذاب مَن أشاء أن أصيبَه به[٣]، وهو الذي أشاء منه الكفرَ والمعصية، وهو الذي أَعلمُ منه اختيارَ[٤] ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ما من مسلمٍ ولا كافرٍ إلا وعليه من آثار رحمته في الدنيا، وبها يتعيَّشون، وبها يتوادُّون، وفيها يتقلَّبون، لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة، وذلك قوله تعالى:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: أي: سأجعلُها في الآخرة للَّذين يتقون الشرك والمعاصيَ، ويحتمِل أن يكون هذا جواب قولهم: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ سألوا الحسنة[٥]؛ أي: الرحمة، فقال: هي ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٦].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٧٧).

(٢) في (أ): «فإنه».

(٣) «به»: من (ر).

(٤) في (ر): «أعلم أنه اختار».

(٥) في (ر): «الجنة».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥٣).

وقـال الإمام القشـيري رحمه الله: خصَّ بالعذاب مَن يشـاء وعـمَّ بالرحمة كلَّ شـيء، وفيـه مجالٌ لآمـال العصـاة؛ لأنهم إن لـم يكونوا مـن المطيعيـن والعابدين والعارفين فهم شـيء(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: يحتمِل الزكاة المعروفة، ويحتمِل تزكيةَ النفوس؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ أي: طهرها بالتوحيد والطاعة والدِّين(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: بما أنزلناه على الأنبياء قبلك وعليك وعلى الأنبياء بعدك.

وقال الإمام القشيري: الآيات ما يكاشفُهم بها في الأقطار مما يَقِفون عليها بوجوه الاستدلال، وما يلاطفُهم بها في الأسرار مما يجدونها في أنفسهم من فنون الأحوال(٣).

***

(١٥٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وقولـه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾: وخُصَّ من بينهم رسـولُنا محمدٌ ﷺ، وهو بشارةٌ له بمجيئه.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٦).

(٢) «والدين»: من (ف).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٧).

وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾: بغير همزٍ من النَّبْوة وهي الرِّفعةُ، وبالهمز من النبأ وهو الخبر، ومعناه: المخبِر عن الله تعالى. والأميُّ فيه أقاويلُ:

قيل: هو العربيُّ؛ لأن الأميين هم العرب.

وقيل: لأنه كان لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسُب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال النبيُّ ﷺ: «إنا أمَّةٌ أميةٌ لا نكتبُ ولا نحسُب»(١)، وكأنه نُسب إلى الأم؛ لأن النساء لا يَكتبن، أو لأن الولد يُولد من أمِّه غيرَ كاتب ولا قارئ ولا حاسبٍ إلى أن يتعلم.

وقيل: منسوبٌ إلى الأمَّة؛ أي: هو رأسُ الأمَّة، والهاء تسقط في النسبة كما في المكيِّ والمدنيِّ.

وقيل: لأنه كان من أمِّ القرى وهي مكة.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أظهر الله تعالى أنه لم يكن شيءٌ من فضائله وكمالِ عِلمه(٢) من قِبَل نفسه وتعلُّمِه وتكلُّفِه واجتهاده وتصرُّفه، بل من الله تعالى، فإنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب(٣).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾: قد روَينا في قوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ حديثَ ذكرِ رسولنا وأمته، وكذلك في الإنجيل.

وقال الكلبي: ولمَّا نزل: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ قال أهل الكتاب: نحن المتَّقون وأهلُ الكتاب الأول والعلمِ القديم، فلما نزل:

---

(١) رواه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠/ ١٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «عقله».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٧).

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قالوا: نحن نؤتي الزكاة، فلما نزل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ قالوا: نحن آمنا بموسى والتسعِ الآيات[1]، فأكذبهم الله تعالى وأخرجهم منها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ يعني: محمداً، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ خاتم الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: بالتوحيد وشرائعِ الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: ما لا يُعرف في شريعته ولا سنَّته[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان مكتوباً عندهم أنه يَأمر بما أَمر اللهُ ويَنهَى عما نهَى الله. ويحتمِل: يأمرهم بما هو معروف في العقل وشهادةِ الخلقة[3] وهو التوحيد، وينهاهم عما هو منكرٌ في العقل وشهادة الخلقة وهو الكفر والمعاصي[4].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: المعروف هو القيام بحقِّ الله تعالى، والمنكرُ هو البقاءُ بوصف الحظوظ[5] وأحكامِ الهوى، والتعريجِ في أوطان[6] المنَى، وما يُظهره العبد من تزويرات الدعوى[7].

---

(١) في (أ): «بموسى والآيات».

(٢) في (أ) و(ف): «في شريعة ولا سنة».

(٣) في (ر): «الحق»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥٩).

(٥) في (ف): «الحدود».

(٦) في (ف): «أوطار».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٧). والعبارة الأخيرة فيه: (... وما تصوره للعبد تزويرات الدعوى)، والمؤدى واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: قال يمانُ بن رِئابٍ: هو ما أَحلَّ الله تعالى من اللحوم والشحوم وكلِّ ذي ظُفُرٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾: المَيْتةَ والدَّمَ ولحمَ الخنزير ونحوَ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾: قرأ ابن عامر: ﴿آصارهم﴾ على الجمع والباقون: ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾ على التوحيد[١]؛ لأنه جنس فيَصْلح للجمع[٢].

والإصر: الثِّقْل، وهو العهدُ أيضاً.

وقيل: هو ما وُضع عليهم من الأمور الشديدة.

وقيل: هو ما جعَلوه على أنفسهم؛ قال تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾: قال الحسن رحمه الله: قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ أي: محبوسةٌ عن عقوبتنا، فقال الله تعالى: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ أي: غُلَّت أيديهم إلى أعناقهم في النار، فأَخبر أنَّ أمة محمدٍ لمَّا آمنوا به وصدَّقوه رفَع تلك الأغلال عنهم[٣].

وقيل: هي الشرائعُ الشاقَّة والأحكام الغليظة، كانت الأغلالُ في أعناقهم تمنعُهم عن تخطِّيها.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾: ما غلَّظوا على أنفسهم من قطعِ أثر البول وتتبُّع العروقِ في اللحم[٤].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٥)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٢) «للجمع»: ليس من (أ).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٦٠).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٨٣).

وقالوا: من الإصر والأغلال: تحريمُ السبت، وتحريمُ الصلاة في غير المساجد، وتحتُّمُ القصاص في القتل العمد من غيرِ عفوٍ ولا دِيَةٍ، وقطعُ موضع النجاسة، وفَرْضيةُ صلاة الليل، والزكاةُ ربعُ النِّصاب، والصلواتُ خمسون في اليوم والليلة، ووجوبُ قطع اللسان في الكذب، ووجوبُ قطع الذَّكَر في الزنا، وفَقْءِ العين في النظر إلى الأجنبية، وظهورُ الذنوب في السرِّ على أبواب البيوت.

وقال عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلِّي لله لبسوا الـمُسوحَ، وغَلُّوا أيديَهم إلى[1] أعناقهم؛ تواضُعاً لله[2]، وخوفاً من عذابه، وطمعاً في ثوابه، فرفعها الله تعالى عن هذه الأمة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾: قيل: عظَّموه، وقيل: أعانوه، وقيل: حمَوه، وقيل: مدَحوه وأثنَوا عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾: أي: على عدوِّه، وقيل: نصروا دِينه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾: أي: القرآنَ، فعملوا به ولم يخالِفوه.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي: الفائزون بكلِّ خير، والناجُون من كلِّ شرٍّ.

وقال ابن جريج[3] ورَوح بن عُبادة: لمَّا نزل قولُه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قال إبليس: أنا شيء، فنزل قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآيةَ، فقالت

---

(١) في (أ) و(ف): «في».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٠٢) عن عطاء عن ابن عباس.

(٣) في (أ): «سريج».

اليهود والنصارى: نحن نتَّقي الله ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات الله[١]، فنزل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى﴾ الآيةَ، فعزَلها عن إبليس واليهود والنصارى، وجعلها لأمة محمد ﷺ[٢].

وقال القشيريُّ رحمه الله: الذين يتَّقون أن يرَوا استحقاقَ الرحمة[٣] بأفعالهم.

وقال في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾؛ أي: ثِقلهم، ولا شيءَ أثقلُ من كدِّ التدبير، فمَن نُقل من كدِّ التدبير إلى رَوحِ شهودِ التقدير فقد وضع عنه كلَّ إصرٍ[٤] كبير.

وقال في قوله جل جلاله: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾؛ أي: اعتزُّوا هم[٥] بنصرة الرسول، وإلا فالنبيُّ عليه السلام كان الله حسيبَه، ومَن كان استقلالُه بالحقِّ لم يقف انتعاشُه على نصرة الخلق[٦].

وقال عَطيةُ العَوفي: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ولكنْ لا تجبُ إلا للَّذين يتَّقون، الذين هم موصوفون بما في هذه الآية، وذلك أن الكافر يُرزق ويُدفع عنه بالمؤمن لسَعةِ رحمة الله للمؤمن، فيعيش فيها، فإذا صار إلى الآخرة وجبتْ للمؤمن خاصةً، كالمستضيء بسراجِ غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه[٧].

---

(١) في (ف): «ونؤمن بالله».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» عن ابن جريج وقتادة وأبي بكر الهذلي، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٧٩) عن الهذلي وقتادة. وزاد الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٠) عزوه لابن عباس، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤١٦) لسفيان بن عيينة.

(٣) في (أ): «الرؤية»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر.

(٤) في (ر): «أمر».

(٥) في (أ): «أي اعتزازهم» ووقع بدلاً منها في «اللطائف»: «اعترف لهم».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٦ ـ ٥٧٨).

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٠).

(١٥٨) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾: أي: قل يا محمد: يأيها الناس من العرب وأهلِ الكتابين وغيرِهم: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقد قال ذلك للناس كلِّهم، بعضِهم مشافهةً، وبعضِهم برسله، وبعضِهم بكتبه، وبعضِهم بنشر الدعوة حتى بلَّغ ذلك بعضُهم بعضاً، ودلَّ ذلك على أن الكتاب من الغائب كالخطاب من الحاضر، وأن لسان الرسول كلسان المرسَل، وأن ظهور الدعوة كبلوغ الدعوة، وكان كلُّ نبيٍّ مبعوثاً إلى قومه، ورسولنا ﷺ إلى الناس كافةً، بل إلى الإنس والجن.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: صفةُ قوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ذكر إيمانه بالله، وأمره بأن يأمرَ الخلق(١) بالإيمان بالله وبه.

﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾(٢): قيل: القرآن.

وقيل: أي: الأمرُ والنهيُ والوعدُ(٣) والوعيد والأحكام؛ لأنها بالكلمات.

---

(١) «الخلق»: ليس من (ف).

(٢) في (أ): «وكلمة الله»، وفي (ف): «وبكلماته».

(٣) في (ف): «الأمر والنهي وقيل أي الوعد».

وقيل: بالكتب المنزَلة على سائر الأنبياء قبلَه، وهو صفةُ النبيِّ ﷺ أنه يؤمن بذلك كلِّه، ومَن قرأ: (وكلمتِه)[1] فهو عيسى عليه السلام؛ أي: يصدِّق هو بعيسى عليه السلام أيضاً.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ صرِّحْ بما رقَّيناك إليه من المقام، وأَفْصِحْ عمَّا لقَّيناك من الإكرام، وقل: إني إلى جماعتكم مرسَل، وعلى كافَّتكم مفضَّل، وديني لمن نظرَ ذلك واعتبرَ مفصَّل، وإلهي الذي له ملكُ السموات والأرض لا شريكَ له ينازعُه، ولا شبيهَ له يضارعُه، فله حقُّ التصرُّف في ملكه بما يُريدُ من حكمه، ومِن جملةِ ما حَكَم وقضَى، ونفذَ به التقدير وأَمضى، إرسالي إليكم لتطيعوه فيما يأمركم، وتحذَروا ارتكابَ ما يزجرُكم، وإن مما أمركم به أنه قال لكم: آمنوا بالنبيِّ الأمي لتفلحوا في الدنيا والعُقبى، وتستوجِبوا الزُّلفى والحُسنى، وتتخلصوا من البلوى والسُّوأى[2].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: وصفَ متَّبعيه في الآية الأولى ووعدهم بالفلاح، وأمرهم[3] باتِّباعه في هذه الآية ليهتدوا[4]، ثم ذكر جماعةً مهتدين من أمة موسى، وهو قوله تعالى:

(١٥٩) ـ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: يدعون الناس إلى الحق ﴿وَبِهِۦ

---

(١) نسبت لمجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٢).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٨).

(٣) في (أ): «وأمر»، وفي (ف): «وأمرنا».

(٤) في (أ) و(ف): «لتهتدوا».

يَعۡدِلُونَ ﴾ وهم يعملون بالحق والعدل أيضاً؛ أي: وأمةٌ منهم على خلافِ ذلك، وهو تسليةٌ للنبي ﷺ في إجابة البعض دون البعض؛ أي: قوم موسى كانوا كذلك.

واختُلف في هؤلاء مَن هم:

قيل: هم الذين كانوا متَّبِعين لموسى عليه السلام في زمانه.

وقيل: هم قوم منهم كانوا على الحقِّ في عصر محمدٍ ﷺ.

وقيل: هم قومٌ باقون على الحقِّ إلى يوم القيامة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما والكلبيُّ والسدِّيُّ: هم خلفَ الصين(١).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٠١) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده منقطع. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٤)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٠٣)، عن ابن جريج والكلبي والربيع والضحاك وعطاء والسدي. وليس في الأخبار الواردة في هذه الحكاية ما يصح، قال الآلوسي في «روح المعاني» (٩/ ٤١٤): وضعَّف هذه الحكاية ابن الخازن [في «تفسيره» (٢/ ٣٠٠)] وأنا لا أراها شيئاً، ولا أظنك تجد لها سنداً يعول عليه ولو ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء. اهـ. قلت: يعرِّض بما جاء في بعض الأخبار: أن الله تعالى فتح لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين.

وقال أبو شهبة في «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ٢٠٧ ـ ٢٠٨) عن قصة الصين هذه: وهي من خرافات بني إسرائيل ولا محالة... ونحن لا نشك في أن ابن جريج وغيره ممن رووا ذلك إنما أخذوه عن أهل الكتاب الذين أسلموا، ولا يمكن أبدًا أن يكون متلقًّى عن المعصوم ﷺ...

قال: والذي يترجح عندي أن المراد بهم أناس من قوم موسى عليه الصلاة والسلام اهتدوا إلى الحق ودعوا الناس إليه، وبالحق يعدلون فيما يعرض لهم من الأحكام والقضايا، وأن هؤلاء الناس وجدوا في عهد موسى وبعده، بل وفي عهد نبينا ﷺ كعبد الله بن سلام وأضرابه... أما ما ذكروه فليس هناك ما يشهد له من عقل، ولا نقل صحيح، بل هو يخالف الواقع الملموس، والمشاهد المتيقن، =

وروى وهبٌ عن كعبٍ: أن هؤلاء قومٌ كان عندهم اسمُ الله الأكبرُ، فدعوا الله به فاستجاب لهم، وساروا نحو المشرق واعتزلوا بني إسرائيل، فجعل الله لهم سَرَباً في الأرض، وجعل أمامهم المصابيح تضيء لهم بالنهار، فإذا أمسَوا نزلوا وأظلم عليهم السَّرَب، فإذا أصبحوا أضاءت لهم المصابيح، ومعهم نهرٌ من ماء يجري، وأجرى الله عليهم تعالى أرزاقهم، فساروا سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين إلى أرضٍ طاهرةٍ طيبةٍ فنزلوها، وهم مختلطون بالسباع والوحوش والهوامِّ[١]، لا يضرُّ بعضُهم بعضاً من أجْل أنه ليست لهم ذنوبٌ، ولا يخالطُ طيرُنا طيرَهم، ولا سَبُعُنا سَبُعَهم، وهم متمسِّكون بالإسلام لا يعصُون الله طرفةَ عينٍ تصافحُهم الملائكة[٢].

وكذا قال الربيع بن أنس والضحاك، وقالا: لمَّا ظهر التحاسد والتباغي في بني إسرائيل، بعث الله تعالى إليهم جبريلَ عليه السلام، فأدخلهم في نفقٍ[٣] من الأرض لا يوصل إليهم، وجعل لهم فيه قناديلَ معلَّقةً[٤]، وجعل معهم نهراً، فساروا من

= وقد أصبحت الصين وما وراءها معلوماً كل شبر فيها، فأين هم؟ ثم ما هذا النهر من الشهد؟! وما هذا النهر من الرمل؟! وأين هما؟! ثم أي فائدة تعود على الإسلام والمسلمين من التمسك بهذه الروايات التي لا خطام لها، ولا زمام؟! وماذا يكون موقف الداعية إلى الإسلام في هذا العصر الذي نعيش فيه، إذا انتصر لمثل هذه المرويات الخرافية الباطلة؟! إن هذه الروايات لو صحت أسانيدها لكان لها بسبب مخالفتها للمعقول والمشاهد الملموس ما يجعلنا في حل من عدم قبولها فكيف وأسانيدها ضعيفة واهية؟! وقد قلت غير مرة: إن كونها صحيحة السند فرضاً لا ينافي كونها من الإسرائيليات.

(١) «والهوام»: من (ر).

(٢) لم أجده، وظاهر أنه من الإسرائيليات، وانظر التعليق السابق.

(٣) في (ف): «نقب».

(٤) «معلقة»: من (ف).

بيت المقدس إلى مكانهم الذي هم فيه اليومَ سنةً ونصفَ سنةٍ ألفَ فرسخٍ، فهم في منقطَع من الأرض لا يوصَل إليهم كأنهم بنو أبٍ واحدٍ، وليس لأحد منهم مالٌ دون صاحبه، يُمطَرون بالليل ويَصْحون بالنهار ويَزرعون(١).

وقال الربيع: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الإسراء: ١٠٤] هي تلك الأرضُ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: وعدُ الثانية وهو عيسى بن مريم عليه السلام ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾؛ أي: بقوم عيسى(٢) ومحمدٍ جمعاً(٣) يحشرون جميعاً في أمة محمدٍ.

وفي «تفسير مقاتل بن سليمان» وهو لي(٤) بإسناد نرويه(٥) عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام ليلة المعراج: «إني أحبُّ أن أرى القومَ الذين أثنى الله عليهم فقال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾»، فقال: إن بينك وبينهم مسيرةَ ستِّ سنين ذاهباً وستِّ سنين راجعاً، وبينك وبينهم نهرٌ من رمل يجري كجري(٦) السهم لا يقف إلا يومَ السبت، ولكنْ سَلْ ربَّك، فدعا اللهَ النبيُّ ﷺ وأمَّن جبريل عليه السلام، فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أنْ أجبه إلى ما سأل، فركب البراقَ فخطا خطواتٍ فإذا هو بين أظهُر القوم، فسلَّم عليهم وسألوه: مَن أنت: قال: «أنا النبيُّ الأمي»، قالوا: أنت الذي

---

(١) ذكره دون عزو مكي بن أبي طالب في «الهداية» (٤/ ٢٥٩٣) وزاد: (ليس يدخر أحد منهم دون أخيه شيئاً، مقيمين على عبادة الله عز وجل، لا يكون على ميت). وهو كسابقه.

(٢) في (ر): «عيسى».

(٣) في (ف): «جميعاً».

(٤) في (أ): «وبقولي» بدل: «وهو لي».

(٥) في (أ): «يرويه».

(٦) في (أ): «مجرى».

بشَّر بك موسى فمَن هذا معك؟ قال: «أوتَرونه؟»[1]، قالوا: نعم، قال: «هو جبريل»، قال: «فرأيتُ[2] قبورَهم على أبواب دُورهم، فقلتُ لهم: ولم ذلك؟» قالوا: ذاك أجدرُ أن نَذكر الموت صباحاً ومساء، فقال: «إني أرى بنيانكم مستويةً» قالوا: لئلا يُشرفَ بعضُنا على بعضٍ، ولئلا يَسُدَّ أحدٌ على أحدٍ الريحَ والهواء، قال: «فما لي[3] لا أرى لكم قاضياً ولا سلطاناً؟» قالوا: أنصفَ بعضُنا بعضاً وأعطَينا الحقَّ من أنفُسنا، فلم نحتَجْ إلى قاضٍ يُنصِفُ بيننا، قال: «فما لي أرى أسواقكم خاليةً؟» قالوا: نزرعُ جميعاً ونحصدُ جميعاً، فيأخذ[4] كلُّ رجلٍ منا ما يكفيه ويدع الباقيَ لأخيه، قال: «فما لي أرى هؤلاء القومَ[5] يضحكون؟» قالوا: مات لهم ميت يضحكون سروراً بما قُبض عليه من التوحيد، قال: «فما لهؤلاء القوم يبكون؟» قالوا: قد وُلد لهم مولودٌ فهم لا يدرون على أيِّ دِينٍ يُقبض، قال: «فإذا وُلد لكم ذكرٌ فماذا تصنعون؟» قالوا: نصوم لله شكراً شهراً، قال: «فالأنثى؟» قالوا: نصوم لله شكراً شهرين، قال: «ولم؟» قالوا: لأن موسى عليه السلام أخبرنا أن الصبر على الأنثى أعظمُ أجراً من الصبر على الذَّكر، قال: «أفتَزْنون؟»، قالوا: وهل يفعل ذلك أحدٌ، لو فعل ذلك أحدٌ لحصَبَتْه[6] السماء من فوقه، و[7]لخُسفت به الأرض من تحته، قال: «أفتُرْبون؟»، قالوا: إنما يُرْبي مَن لا يؤمن برزق الله تعالى، قال: «أفتمرضون؟» قالوا: لا نمرضُ

---

(١) في (أ): «إذاً ترونه».

(٢) «قال فرأيت» من (أ) و(ف)، وفي (ر): «فإذا».

(٣) في (ف): «فما بالي».

(٤) في (أ): «فيأكل» بدل: «ونحصد جميعاً فيأخذ».

(٥) «القوم»: ليست في (ف).

(٦) في (أ): «لخصته».

(٧) في (ف): «أو».

ولا نُذنب، إنما يُذنب أمتُكَ فيمرضون ليكون ذلك كفارةً لذنوبهم، قال: «أولكم سباعٌ وهَوَامٌّ؟» قالوا: نعم، تمرُّ بنا ونمرُّ بها ولا تؤذينا ولا نؤذيها، فعرَض عليهم النبيُّ ﷺ شريعته والحجَّ، قالوا: وكيف لنا بالحج وبيننا وبينه مسافةٌ بعيدة؟ فدعا النبيُّ ﷺ وأمَّن جبريل عليه السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فتُطوَى لهم الأرضُ طيًّا حتى يحجَّ مَن يحجُّ منهم مع الناس، فإذا انقضى[1] الحج طُويت لهم الأرض فرجعوا إلى بلادهم.

فلمَّا أصبح النبي ﷺ أخبر مَن بحضرته من قومه وفيهم أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر: فإن قوم موسى بالخير، فعلم الله ما في قلوبهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾؛ أي: من هذه الأمة أمة ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] فصام أبو بكر شكراً لله تعالى وأعتق عبداً، إذ لم يفضِّل الله أمةَ موسى على أمةِ محمد ﷺ[2].

وذكر الكلبيُّ والضحاك ووهبٌ وكعبٌ ومقاتلٌ وغيرُهم: مرور النبيِّ ﷺ بهم ليلة المعراج وتعليمَه إياهم الصلواتِ الخمسَ والفاتحةَ وسوراً من القرآن.

وفي حديثنا للضحاك[3]: أنهم كانوا يَسْبِتون، فأمرهم أن يتركوا ويجمِّعوا.

* * *

(١٦٠) ـ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ

---

(١) في (أ) و(ف): «انقطع».

(٢) لم أجده.

(٣) في (ر) و(ف): «وفي حديث الضحاك».

أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ تنصرف الكنايةُ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾؛ أي: فرَّقناهم اثنتي عشرة أسباطاً، والتاء للتأنيث، والهاء في ﴿عَشْرَةَ﴾ كذلك، وفيه لغتان: تسكين الشين، وكسرُها في التأنيث من إحدى عشرةَ إلى تسعَ عشرةَ.

و﴿أَسْبَاطًا﴾ ليس بتفسير العدد، فإنه يُوحَّد ولا يجمع، لكن تقديره: وقطعناهم أسباطاً أمماً اثنتي عشرة قطعةً، و(قطعةً) مضمَرةٌ، وتأنيث العدد لذلك، ويدلُّ عليه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾، ومعناه: وفرَّقناهم اثنتي عشرةَ فرقةً.

والأسباطُ: جمع سبطٍ، وهم أولاد يعقوبَ، وقد شرحناه في سورة البقرة.

و﴿أُمَمًا﴾: جمعُ أمَّة؛ أي: جماعاتٍ، وهو بدلٌ عن قوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ وترجمةٌ له.

والآيةُ في بيان إنعامه على بني إسرائيل، يقول: لمَّا أخرجناهم من أرض مصر وأدخلناهم البرَّ جعلناهم اثنتي عشرةَ فرقةً قبائلَ شتَّى؛ ليكون أمرُ كلِّ سبطٍ متصرِّفاً[1] من جهةِ رئيسهم فيخفَّ الأمر على موسى فيما يَحتاج إليه من تعريف أحوالهم، ويَسهل عليه جمعُهم إذا أراد جمعَهم، ويَعلم كلُّ فريق مرجعَهم في أمورهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: وكان ذلك في التِّيه، والانبجاس: خروج الماء الجاري بقلةٍ، والانفجار: خروجه بكثرة، وكان البدءُ بقلةٍ ثم يَكثر بالاتساع.

---

(١) في (أ) و(ف): «متعرفاً».

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: فسَّرنا هذه الكلمات، وبيَّنا هذه القصةَ في قوله: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟﴾: أي: وقلنا لهم: كلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ مرَّ كلُّ ذلك في سورة البقرة.

***

(١٦١ ـ ١٦٢) ـ ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: أي: قال لهم موسى بأمرنا ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مر ذلك في سورة البقرة[1].

---

(١) كل هذا مر في سورة البقرة كما قال المؤلف، لكن وقع هنا بعض الاختلاف في السياق، ولا شك أن لذلك حكمة وغاية، لأن القرآن هو كلام الله المعجز، فلكل حرف فيه غاية، وأي اختلاف بين لفظين فيه فسيكون بلا شك لحكمة، فلا يصح مجرد الإحالة على المتقدم دون بيان علل الاختلاف، وقد أجمل ابن كمال باشا في تفسيره لهذه الآية بعض ما قيل في ذلك، فقال: (هناك: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ وهنا: ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾ والسكنى يتعقَّب الدخول، فأُمروا هناك بالمبدأ وهنا بما تسبَّب عنه، وهناك: ﴿فَكُلُوا۟﴾ بالفاء وهنا بالواو، وذلك لأن الدخول حالةٌ منقضية فحَسُنَ ذكر فاء التعقيب بعده، والسكنى حالةٌ مستمرَّة فحَسُنَ الأمر بالأكل معه لا بعده، وأثبت ﴿رَغَدًا﴾ هناك بعد الأمر بالدخول لأنها حالةُ قدوم فالأكل فيها ألذُّ، بخلاف السكنى المذكور هنا، فإنها حالة استقرار واطمئنان فليس الأكل فيها كالأكل عند الدخول، وأما تقديم الحِطَّة على الدخول وتأخُّرُها عنه فلا تفاوت فيه لأن الواو =

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ مرَّ أيضاً.

***

(١٦٣) - ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾: أي: سَلِ اليهودَ يا محمدُ عن القرية التي كانت قريبةً من البحر وعلى شاطئه، وهي أَيْلةُ، وقيل: مدينُ، وكلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما[1].

وقيل: طبرية.

وقال محمد بن إسحاق: هي مَقْنَا بين مدينَ وعَيْنُونا[2].

= للجمع لا للترتيب، وأما قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ في مقام ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ على حذف الفاعل فللعلم، وأما (أنزلنا) و(أرسلنا)، و﴿يَفْسُقُونَ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ فمن وادٍ أحد. اهـ. قلت: ولو كانت من واد واحد لما اختلف اللفظ، فلا بد من حكمة لها، والله أعلم.

(١) رواهما عنه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦١) و(١٠/ ٥٠٧ و٥٠٩)

(٢) في (أ): «وعينوتا». والصواب المثبت، وهذا القول رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٩٧)، عن ابن زيد. و(عينونا)، وتكتب أيضاً: (عينونى)، وقد تحذف الألف فيقال: (عينون)، ذكرها ياقوت في «معجمه» (٤/ ١٨٠)، وقال: من قرى باب المقدس، وقيل: قرية من وراء البثنية من دون القلزم، في طرف الشام، ذكرها كثير:

إذ هُنَّ في غَلَسِ الظَّلام قوارِبٌ ... أَعْدادَ عَيْنٍ من عُيُونِ أُثَالِ
يَجْتَزْنَ أَوْدِيَةَ البُضَيْعِ جَوازِعًا ... أَجْوَازَ عَيْنُونَا، فَنَعْفَ قِبَالِ

ومعنى سلهم؛ أي: قل لهم: ألم يكن كذا[١]؟ فإنهم يصدقونك.

وقيل: ليس هذا بأمرٍ بالسؤال، لكنه تمثيلٌ، كأنه قال: لو سألتهم لقالوا لك كذا، وهو كقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]؛ أي: لو سألتهم أكان كذا؟ لأجابوك أنه كان كذا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: أي: يتعدَّون حدَّ[٢] الشرع في دينهم مِن ترك الاصطياد في يوم السبت، وكانوا يكتمون هذه القصة لِمَا فيها من الشُّبه[٣] عليهم، فأَطْلع الله نبيَّه ﷺ على ما كتَموه وقصَّ ذلك، وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾: قال ابن عباس: أي: ظاهرةً على وجه الماء[٤]. جمعُ شارع.

وقال السدِّيُّ: كان إذا كان يومُ السبت لم يبقَ حوتٌ في البحر إلا خرج، فيُخرِجنَ خراطيمهنَّ من الماء، فإذا كان يومُ الأحد غِبْن[٥].

وقال الحسن: ﴿شُرَّعًا﴾ على أبوابهم كأنها الكِبَاش البِيض[٦].

وفي روايةٍ قال: إذا كان يومُ السبت جاءت الحيتان فتبطَّحت[٧] بأفنِيَتهم كأنها المخاض، فإذا غابت الشمس ذهبت فلا تُرى إلى السبت الآخر[٨].

---

(١) في (ر): «هذا».

(٢) في (ف): «حق».

(٣) في (ف): «السيئة».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٠٩).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٣).

(٦) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٧٢).

(٧) في (أ): «فتنطحت».

(٨) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٩٩).

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾: يقال: أَسْبَتَ: إذا دخل في يوم السبت، وسَبَت؛ أي: أقام السبتَ وعَمِل فيه ما يَعمل في السبت، وعلى المقابلة بقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ يكون قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ مصدراً ليكون مقابَلةُ الفعل بتركِ الفعل، وظاهرُه أنه اسم للوقت في الأول.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: أي: كانت لا تظهر لهم في غير يوم السبت، وكانوا يحتاجون إلى استخراجها عن مكامنها ومغائصها بالحيَل.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ مستقبلٌ بمعنى الماضي؛ أي: امتحنَّاهم به تغليظاً للمحنة عليهم بفسقهم ومجاهَرتهم بالمعاصي عقوبةً لهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ابتلاهم بهذا النهي ليُريَ الخَلْقَ المطيعَ منهم والعاصيَ.

قال: وقال قائلون: ابتلاهم بذلك لما كانوا يفسقون في السرِّ؛ ليكون فسقهم وتعدِّيهم ظاهراً عند الخلق كما كان[1] عند الله تعالى؛ لئلا يقولوا عند التعذيب: إنهم عذِّبوا بلا ظلم ولا تعدٍّ.

وقد بيَّنَّا القصة في سورة البقرة: أنها كانت في زمنِ داودَ عليه السلام في أرضٍ يقال لها: أيلة، مجاورةِ البحرِ بين المدينة والشام.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: كانت بين مدين والطور[2].

فكانت الحيتان تظهر على وجه الماء يومَ السبت ولا تظهرُ في غيره، وقد نُهوا عن الاصطياد فيه ابتلاءً حيث اختاروا السبتَ وتركوا يومَ[3] الجمعة، فمكثوا ما شاء الله

---

(١) «كان»: ليست في (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٠٧).

(٣) «يوم»: ليست في (ف).

تعالى، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخرَمه بخيطٍ ثم شدَّه إلى وتدٍ بالساحل وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغداةُ أخذه فأكله سرًّا، ففعلوا مثلَ ذلك وهم ينظرون لا يتناهون إلا بقيةً منهم يَنهونهم، حتى ظهر ذلك في الأسواق وبِيع علانية.

* * *

(١٦٤) ـ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: أخبر أن أمةً منهم ـ أي: جماعةً ـ وهم الصالحون وعَظوهم، فقال لهم جماعةٌ أخرى: لمَ تَعِظون هؤلاء مع إعراضهم عن القبول منكم واستخفافِهم بوعظكم، وقد أشرفوا على أن يُهلكَهم الله تعالى فيَصطَلِمَهم، أو يعذِّبَهم عذاباً شديداً غيرَ مصطَلِم، ويحتمِل: يهلكُهم في الدنيا و[1]يعذبُهم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: قرأ عاصمٌ في رواية حفص: ﴿مَعْذِرَةً﴾ نصباً وهو مفعولٌ له؛ أي: إعذاراً إلى الله، وقرأ الباقون بالرفع[2]، ومعناه: موعظتُنا معذرةٌ إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أي: قالوا: نكرِّر الوعظَ إعذاراً إلى الله فيما يلزمُنا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأميلاً لرجوعهم واتِّقائهم وانتهائهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا أثلاثاً: ثلثاً نَهوا، وثلثاً قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلثاً أصحابَ الخطيئة، فما نجا إلا الذين نَهوا[3].

---

(١) في (أ) و(ف): «أو».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٦)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٢٠).

وقال السدِّي: فجعل الرجل يَحفر الحَفِيرة(١) ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يومُ السبت فَتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيَها في الحَفيرة فلا تطيق الخروج، فإذا كان يومُ الأحد جاؤوا وأخذوا فأكلوا وشوَوا وملَّحوا، وفشى ذلك فيهم، فقال لهم علماؤهم: أتصيدون يوم السبت(٢)؟! قالوا: إنما نصيدها يوم الأحد، فلم ينتهوا، فقال بعض الذين ينهَون لبعضٍ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ فأجابوا بما ذكرنا، فلما أبوا قال المسلمون: لا تُساكِنوهم في قريتهم، فقسَموا القرية بجدارٍ؛ للمسلمين بابٌ وللمعتدِين بابٌ، ولعنهم داود، فيخرج المسلمون من بابهم والمعتدُون من بابهم، فخرج المسلمون ذاتَ يوم ولم يخرج المعتدون، فلما أبطؤوا تسوَّر عليهم المسلمون الجدارَ فإذا هم قردةٌ يَثِبُ بعضُهم على بعضٍ، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(٣).

* * *

(١٦٥) ـ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾: أي: تركوا ما وُعظوا به تَرْكَ الناسي له، يعني: الذين أخذوا الصيد في السبت ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ خلَّصنا الذين كانوا ينهونهم عن هذا الفعل السوء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرٍو وحمزةُ والكسائي(٤): ﴿بَئِيسٍ﴾ على وزن فعيل؛ أي: شديد، والبأس: الشدة وكذلك البؤس.

---

(١) في (أ) و(ف): «الحفرة» في الموضعين.

(٢) في (ر): «لم تصيدون» وفي (ف): «لم تصيدون يوم السبت».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٣).

(٤) وهي أيضاً قراءة عاصم بخلاف عن أبي بكر، وسيأتي الوجه الآخر لأبي بكر.

وقرأ نافع: ﴿بِيسٍ﴾ على وزن بئر غير مهموز.

وقرأ ابن عامر كذلك مهموزاً.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿بَيْئَس﴾ على وزن فَيْعَل[١].

وعن مجاهدٍ: (بائس) على وزن فاعل[٢]، وفيه قراءاتٌ أُخَرُ شاذةٌ[٣].

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾: أي: بخروجهم عن الطاعة[٤].

* * *

(١٦٦) ـ ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: أبوا أن يرجعوا عن المعصية[٥]. وقيل: أي: تمرَّدوا.

وقوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾: أي: جعلناهم قردةً أذلَّاءَ مُبْعدينَ عن الناس، وقد شرحناه في سورة البقرة.

وقال عكرمةُ: أتيتُ ابنَ عباس رضي الله عنهما يوماً وهو يبكي والمصحفُ في حِجره، قلتُ: ما الذي يبكيك؟! قال: هذه الورقات، فإذا هو في سورة الأعراف، قال: أتعرفُ أيلةَ؟ قلتُ: نعم، قال: كان بها حيٌّ من يهودَ سيقتْ إليهم الحيتانُ يوم

---

(١) هي قراءة أبي بكر بخلاف عنه، والوجه الآخر عنه: ﴿بَيِّسٍ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٦)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٩٨)، وذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٦٥) عن أبي رجاء.

(٣) وقد ذكر فيها أبو حيان رحمه الله في «البحر» (١٠/ ٣٧١) اثنتين وعشرين قراءة بسط ضبطها ثم لخصها، وقد خرجناها جميعاً في تحقيقنا له، فلتراجع فيه.

(٤) في (ف): «الطاعات».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٨)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٤).

السبت ثم غاصت فلا يقدرون عليها حتى يغوصوا عليها بعدَ كدٍّ، فكانت تأتيهم يومَ السبت شُرَّعاً بيضاً سِماناً، فكان كذلك برهةً من الدهر، ثم إن الشيطان وَسوس إليهم فقال: إنكم نُهيتم عن أكلها في يوم السبت، فخذوها فيه وكلوها في غيره، وقالت طائفةٌ: بل نُهيتم عن أخذها وأكلها وتنفيرها في يوم السبت، وكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة الأخرى، فقال الأيمنون: اللهَ اللهَ ويلكم لا تتعرَّضوا لعقوبة الله، واعتزلت ذاتَ اليمين وسكتت، وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فقال الأيمنون: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١]، فإن انتهوا فهو[٢] أحبُّ إلينا أنْ[٣] لا يصابوا ولا يُهلكوا، وإن لم ينتهوا فقد أَعْذرنا[٤]، فمضَوا على الخطيئة، فقال الأيمنون: والله ما نبايتكم[٥] الليلةَ في مدينتكم، وما نُرى أن تصبحوا حتى يصيبَكم الله بخسفٍ أو قذفٍ أو ببعضِ ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضَربوا الباب عليهم ونادَوهم فلم يجيبوا[٦]، فوضعوا سلَّماً وأعلَوا سورَها رجلاً، فالتفت إليهم فقال: يا عباد الله! قرود والله تَعَاوى لها أذناب، ففتح الباب ودخلوا، فعرفت القرود [أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنسُ أنسابها من القردة، فجعلت القرود تأتي] نسيبَها من الإنس فجعلت تبكي وتشمُّ ثيابه، فيقولون: ألم ننهكم عن كذا؟ فيقولون برأسها: نعم ثم قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ فأسمعُ ذكر الذين نَهوا ولا أسمعُ ذكر الذين سكتوا،

---

(١) في (ر): «ينتهون»، بدل: «يتقون».

(٢) في (أ): «فإنه».

(٣) في (ر): «إذ».

(٤) في (ف): «عذرنا».

(٥) في (أ) و(ف): «لا نأتيكم».

(٦) في (أ) و(ف): «يجابوا».

ونحن نرى أشياءَ ننكرُها فلا نقول فيها، فقال عكرمة: فقلتُ: جعلني الله فداك! أوَلَا تراهم قد كرهوا ما هم عليه فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾؟ ـ وفي رواية: قال لابن عباس رضي الله عنهما: إن[1] لم يقل الله: أنجيتُهم، لم يقل أيضاً: أهلكتهم ـ قال: فرضيَ وأمر بي فكُسيت بُردين[2].

فصار عن ابن عباس رضي الله عنهما ثلاثةُ أقوال:

أحدها: أنه أهلكهم كما أهلك المعتدين.

والثاني: أنه أنجاهم كما أنجى الناجين[3].

والثالث: أنه توقَّف فيهم.

وقال الحسن: نجت فرقتان وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان[4].

وقال الحسن: وأيُّ نهيٍ يكون أشدُّ من إثبات الوعيد، والتخويفِ بالإهلاك والعذاب الشديد، بقولهم: ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لسنا نَعلم أنهم كانوا مهلَكين أو ناجين، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجةٌ، ولو كان لنا إليه حاجةٌ لبيَّنه[5] لنا، سوى أنه بيَّن مَن نجا منهم بالنهي وعذَّب مَن أَخذ الحيتان بالظلم والفسق[6].

---

(١) في (ف): «إذ».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٥٣)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥١٥)، وما بين معكوفتين منهما. والرواية الأخرى ذكرها الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤١٧)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٤). وفي رواية للطبري أيضاً (١٠/ ٥١٤) أن عكرمة قال: (فلَمْ أَزَلْ به حتى عرَّفْتُه أنهم قد نجَوا، فكساني حُلَّةً)، وفي أخرى: (فما زلت أبصِّره حتى عرف أنهم نجوا، وكساني حُلَّةً).

(٣) في (ف): «الناهين».

(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٢١)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٤).

(٥) في النسخ: «لبين»، والمثبت من «التأويلات».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٧٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا انتهت مدةُ الإمهال فليس بعده غيرُ الاستئصال، وإذا سقط العبد عن عين الله لم ينتعِش بعده أبداً، ومَن أسقطه حكمُ الملوك فلا قبولَ بعد الرد، وفي معناه أنشدوا:

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيءِ لم تَكَدْ ... إليه بوجهٍ آخِرَ الدَّهر تُقبِلُ[1]

***

(١٦٧) - ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ قال الحسن رحمه الله: أي: أعلمَ[2]، وهو قول الزجَّاج[3].

وقيل: أَسْمعَ وأَقْسمَ.

وقوله تعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: أي: ليسلِّطنَّ عليهم؛ أي: اذكر يا محمد إذ أَعْلَمَ الله أسلافهم على ألسنة أنبيائهم أنهم إن غيَّروا وبدَّلوا ولم يؤمنوا بالنبيِّ الأميِّ سلَّط الله عليهم العرب يقاتلونهم إلى أن يُسلموا أو يُعطوا الجزية صاغرين، وهو من سوء العذاب؛ أي: أشدِّه وأشقِّه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾: لا يحتاج إلى إحضارِ أسبابه وإعداد آلاته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: مع هذا لمن تاب وأناب، وقد حقَّق الله

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨١).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٧٣)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٢٢ - ٤٢٣).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٨٧).

ذلك بما كان من رسول الله ﷺ من إجلائهم عن أوطانهم، وقتلِهم وسبي نسائهم وولدانهم، ثم إنهم إلى الآن مقموعون، وكذا يكونون إلى يوم القيامة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾؛ أي: قال ربك[١].

وقال عطاء: وإذ ختَم ربك.

* * *

(١٦٨) - ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾: أي: فرَّقناهم في البلاد فِرقاً.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾: أي: دون الصالح.

﴿وَبَلَوْنَاهُم﴾: أي: اختبَرْناهم، ومعناه: عامَلْناهم معاملةَ المختبِر، وإن كان لا يَخفى على الله شيء لكن ليُظهر للناس ما كان عَلِمَه منهم.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾: أي: الأحوالِ الحسنة من السَّعةِ والخِصب، والأحوال السيئة من الضِّيق والجَدْب؛ أي: صرَّفناهم على أحوال شتى.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: ليرجعوا عن الباطل إلى الحق؛ أي: فلم يرجعوا.

وقال الكلبي: ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾: هم الذين وقعوا وراء الصين، وهم الذين ذكرناهم في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: مَن هاهنا من اليهود[٢].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٥). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٠٣) عن مجاهد وسفيان الثوري.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٢٧)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٥). وقد ذكرنا أن قصة الصين ليست سوى خرافة لا أصل لها في هذا الدين.

وقال عطاء ومجاهد: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الذين آمنوا بمحمد وعيسى ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ مَن لم يؤمِن[١].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ يحتمِل تفريقَهم في وقتٍ واحد في أماكن، ويحتملُ تفريقَهم في الأهواء، ويحتمِل: وقطعناهم في الأرض أمماً أمةً بعد أمةٍ وعصراً بعد عصرٍ، ولذلك قال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: هذا يخرَّج على وجوه:

اختبرناهم بالنعم ليرجعوا إلينا بالشكر والثناء، وبالمحن ليعرفوا قدرتنا فيرجعوا إلينا بالتضرُّع والدعاء.

ويحتمل: وبلوناهم بهذا وبهذا[٢] ليتقرَّر عندهم أن غيرهم أملكُ بهم من أنفسهم، فيرجعوا إليه بتسليم النفوس لأمره وحكمه.

ويحتمل: وبلونا المؤمن والكافر بالحسنات والسيئات، [حتى إذا رأوا الاستواء] في الدنيا وفي الحكمة التفريقُ بينهم، فيضطروا إلى الإيمان بالبعث لذلك.

ويحتمل: أنه إنما جعَل النعيمَ في الدنيا ليعرفوا لذةَ الموعود[٣] في الآخرة، وكذلك الشدة ليعرفوا به[٤] ألم العذاب في الآخرة، فابتلاهم بالأمرين ليرغبوا في نِعَم الجنة ويَحذروا عقوبات النار[٥].

---

(١) ذكره دون عزو لقائل ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٢٧٩).

(٢) في (ف): «وهذا».

(٣) في (ف): «اللذة الموعودة»، والمثبت من باقي النسخ و«التأويلات».

(٤) «به»: ليست في (ف).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٧٦ ـ ٧٧)، وما بين معكوفتين منه.

(١٦٩) - ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾: أي: قومُ سوءٍ يَخْلُفون الأوَّلينَ، ويستعمل الساكن في الذَّم، والخَلَف بفتح اللام: قوم أخيارٌ يخلُفون الأوَّلينَ، ويستعمل هذا في المدح[1].

قال لبيد:

وبقيتُ في خَلْفٍ كجِلْدِ الأجربِ[2]

وقد جاء بالتسكين في المدح في شعرِ حسان رضي الله عنه:

لنا القدمُ الأولى إليك وخَلْفُنا ... لأوَّلنا في طاعةِ الله تابعُ[3]

وقوله تعالى: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أي: التوراةَ، وهم علماء اليهود ورِثوه من أسلافهم، يقول: جاء بعد هذه الطبقة الذين كان فيهم الصالحون ومنهم دون ذلك قومٌ أردياءُ مذمومون[4].

---

(١) وقد يستعمل هذا في الذم عند البصريين، قال الآلوسي رحمه الله في «روح المعاني» (٩/ ٤٤٠): وعن البصريين أنه يجوز التحريك والسكون في الرديء، وأما الجيد فبالتحريك فقط، ووافقهم أهل اللغة إلا الفراء وأبا عبيدة.

(٢) عجز بيت في «ديوان لبيد» (ص: ٢٤ و٢٦)، و«الأمثال» لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص: ٢٧٦)، و«إصلاح المنطق» (ص: ١٧)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ٥٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٣٧٧)، وكلهم أنشدوه في مجيء الساكن في الذم، لكن الآلوسي رحمه الله في «روح المعاني» (٩/ ٤٤٠) أورده في مجيء المتحرك في الذم، وصدر البيت:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم

(٣) انظر: «ديوان حسان» (ص: ٣١٠).

(٤) في (ف): «مذنبون».

وقوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾: العَرَض: حطام الدنيا، وما يصيبُ الإنسانَ منها فهو شيءٌ يَعرِضُ فيزول ولا يبقى، و﴿هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ بمعنى: هذه الدنيا، وإنما ذُكر لأنه لم يذكر الدار أو الحياة، فكأنه جعله صفة للمكان أو للشيء، يعني: يأخذون الرُّشى لتغيير الأحكام وتعطيلِ الحدود من العِلْية والسِّفلة.

وقولـه تعالـى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: أي: إذا عوتبـوا علـى ذلك اعتـذروا بما[1] يرجونه من سـعة رحمـة الله، ويقولـون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾: أي: يصرُّون على ذلك ولا يمتنعون، بل إذا وجدوا شيئاً[2] مثلَه لم يتركوه.

وقولـه تعالـى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾: استـفهامٌ بمعنـى التقريـر؛ أي: قـد أُخـذ عليهـم الميثـاقُ فـي كتابهـم أن لا يقولـوا علـى الله إلا الحـق؛ أي[3]: الصـدق وقـرُّوا[4] ذلـك، والله تعالـى ما وعدهم فـي التـوراة المغفـرةَ مـع الإصرار.

وقال مالك بن دينار رحمه الله: يأتي على الناس زمانٌ إنْ قصَّروا عما أُمروا به قالوا: سيُغفر لنا لم نُشرك بالله شيئاً، كلُّ أمرهم إلى الطمع، خيرهم فيهم[5] المداهنُ، فهم من هذه الأمة أشباهُ الذين ذكرهم الله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[6].

---

(١) في (أ): «مما».

(٢) في (أ): «إذا أمكنهم».

(٣) «الحق أي»: زيادة من (ف).

(٤) في (ر): «وقرأوا».

(٥) في (أ): «فيه».

وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: أي: خير من أخذِ العَرَض للَّذين يتَّقون الشركَ والمعاصيَ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: بما في كتابهم أنه كذلك.

* * *

(١٧٠) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾: قرأ عاصم في رواية أبي بكر بالتخفيف، والباقون بالتشديد[١].

والإمساكُ والتَّمسيك والتمسُّك والاستمساك كلُّه: الاعتصام والتعلُّقُ بالشيء.

ذكَر الممدوحين بعد المذمومين، فقال: والذين يعتصمون بالتوراة، قال مجاهد ومقاتل بن حيان والكلبي: هم مؤمنو أهل الكتاب: عبدُ الله بن سلام وأصحابه، أحلُّوا حلالَه وحرَّموا حرامه، ولم يتخذوه مأكلةً ولم يحرِّفوه ولم يكتُموه[٢].

وقال عطاء: هم أمة محمد عليه السلام، والكتابُ: القرآن[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: ويقيمون الصلاة التي تنهَى عن الفحشاء والمنكر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: في معنى جوابِ أولِ الآية؛ لأن معناه: نوفيهم أجورهم لأنَّا لا نُضيع أجرَ المحسنين، وهو تعليل فيُغني عن إظهار ذكر المعلول.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٧)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٢) ذكره بهذا اللفظ عن مجاهد البغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٧)، ورواه عنه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٤٢) بلفظ: (﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ مِن يهود أو نصارى).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٠١)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٧).

وقال الإمام القشيري رحمه الله في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: من أمارات الاستدراج ارتكابُ الزَّلة، والاغترارُ بزمان المهلة، وحملُ تأخير العقوبة على استحقاقِ الوُصلة.

وقال في قوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾: يعني: التعرُّض لنفَحات فضله سبحانه خيرٌ لمن أمَّل جودَه من مقاساةِ التعب لمن بذَل في تحصيل هواه مجهودَه.

وقال في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: التمسُّك بالكتاب إيمان، وإقامةُ الصلاة إحسانٌ، فبالإيمان وجَدوا الأمان، وبالإحسان وجدوا الرِّضوان.

ويقال: التمسُّك بالكتاب نجاةٌ، وإقامةُ الصلاة مناجاةٌ، والمناجاة في الحال والنجاةُ في المآل.

وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: مَن نقَل إلى بابه قدمَه لم يُعدم في الآجل نعمَه، ومَن رفع إلى ساحات جُوده هممَه نال في الحال كرمَه[1].

* * *

(١٧١) ـ ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾: الآيةُ في تمرُّدهم أيضاً كالتي مضت، ومعناه: وإذ قلعْنا الجبلَ من الأصل وحرَّكناه ورفعناه فوق رؤوسهم، وقد نتَق ما في الجِراب: إذا اقتَلعه عن أصله ونثَره، ونَتَقتِ المرأةُ تَنْتُق نُتوقاً ـ من حدِّ دَخَل ـ وهي مِنْتاقٌ: إذا كثُر ولدها، وأصله: الزعزعةُ والنَّقْض، ونَتَقتِ الدابَّة صاحبَها حين تَعْدوا به؛ أي: حرَّكته ورفعَته.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨٣).

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ﴾: أي: علموا أنه واقع عليهم إن لم يقبَلوا ما في التوراة قاله الحسن[١]. وقيل: غلَب ظنُّهم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾: أي: قُلنا لهم: اقبلوا، وذلك حين جاء موسى بالتوراة وفيها أحكامٌ شاقَّة فامتنعوا عن قبولها، ووعَظهم موسى عليه السلام فلم يقبلوا، فأمر الله تعالى برفع الطور عليهم.

وقيل: هو الطورُ الذي سمع موسى وهو عليه كلامَ الله تعالى وأُعطي الألواح.

وقيل: هو جبلٌ من جبال فلسطين فَرسخاً في فرسخٍ.

وقيل: هو الجبل الذي عند بيت المقدس.

وقيل لهم: إنْ قبلتُم وإلا وقع عليكم فرضَخكم، فقبلوا.

وقوله تعالى: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ يدلُّ على أن قوةَ الفعل مع الفعل، فقد ذكرها مع الأخذ.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: وقد بينَّا القصة وفوائدَها مستوفاةً في سورة البقرة عند قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾.

قال القشيري رحمه الله: قصارى مَن أتى جبراً أن يَنكص على عقبيه طَوعاً، كذلك أهل الكتاب لمَّا قبلوا الكتاب بإجبارِ التكليف ما لبثوا حتى قابَلوه بالتحريف[٢].

* * *

(١٧٢) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٧٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية: قال القشيري رحمه الله: أخبر بهذه الآية عن سابق عهده وصادق وعده، وتأكيدِ ودِّه بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

أَفديكَ والأيامُ أيضاً كلُّها   يَفْدِينَ أياماً عرَفْتُكَ فيها[١]

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: تكلم الناس في تأويل هذه الآية، فمنهم مَن يقول: ذلك عندما خلَق آدم أَخرج مَن يكون من ذرِّيته مثلَ الذرِّ فعرَض عليهم قولَه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ لكنهم اختلفوا.

فمنهم مَن يقول: جُعلوا بالمبلغ الذي يجري على مثله القلم، وهو قول الحسن.

ومنهم مَن يقول: عرَض ذلك على الأرواح دون الأبدان.

ومنهم من يقول: [بلا عَرْضٍ] إنه خلَق صنفين فقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار[٢] ولا أبالي.

ومنهم مَن يقول: عرَض الكلَّ على ما عليه أحوالُهم وآجالُهم في الدنيا.

والله أعلمُ كيف كانت القصة، أو[٣] كيف ترى أحوال الفقر والغنى في الذر، أو[٤] كيف قال: هؤلاء في كذا ولا أبالي، مع اجتماعهم على القول بـ ﴿بَلَىٰ﴾؛ لقوله تعالى[٥]: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

وقد رأينا في تلك الأخبار ما كان حفظُ الناس ـ وبخاصةٍ حفظُ العوام وأهلِ

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨٥).

(٢) في (أ) و(ف): «هؤلاء للجنة... وهؤلاء للنار».

(٣) في (أ) و(ف): «و».

(٤) في (ف): «و».

(٥) في «التأويلات»: (لما عرض عليهم قوله)، بدل: «لقوله تعالى».

الضعف عن تبليغها ـ ألزمَ وأعظمَ في النفع وأبعدَ عن الشبهة من روايتها وتكلُّفِ الكشف عنها، فنسأل الله العصمة عمَّا به الهلاكُ، والتوفيقَ للنُّصح بما به نجاةُ كلِّ سامع، ودفعُ كلِّ شبهةٍ وحيرةٍ، فإنه لا قوة إلا به.

ومنهم مَن ذهب في تأويل الآية إلى أن المعروف من أمرِ ذرية آدم هو الأخذُ عن الأصلاب والأرحام على ما يكون إلى يوم القيامة، وطوَّل وبيَّن على وجهٍ يتعذَّر ضبطُه على أكثر أهل العلم[1].

لكن ذكر الشيخ أبو بكر القفَّالُ الشاشيُّ رحمه الله في[2] معنى ذلك ما فهمه وحفظه، والوقوفُ على حاصله أسهلُ وأقرب، قال: ذكر الله تعالى في هذه الآية والآياتِ التي قبلها أن الله عز وجل بالَغ في إلزام الحجةِ وإبلاءِ العذر بما جمع لهم من دلائل السمع ودلائلِ العقل، وذكَر بعد أخذِ الميثاق على بني إسرائيل أخذَ الميثاق على الكلِّ بالعقول التي ركَّبها فيهم وأشهدَهم بها على أنفسهم بقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أخرجهم من أصلاب آبائهم ونقلهم إلى أرحام أمهاتهم، إلى أن بلغوا بتقليب الأحوال عليهم من نطفةٍ ثم علقةٍ ثم مضغةٍ مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ إلى أن بلَّغهم إلى الحال التي يصلُحون فيها للتكليف بكمالِ عقولهم، وأَشْهَدهم بما شاهدوه[3] من آثار الصنعة فيهم وفي غيرهم على أنفسهم[4] أن لهم صانعاً قادراً حكيماً عالماً فرداً قد ابتدأهم بالنعمة، وأن له بحكم ملكه أن يستأديَهم الشكرَ على نعمه بالطاعة فيما يأمرهم به، ثم أَتبع ذلك إرسال الرسل وإنزال الكتب

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٨٢ ـ ٨٣).

(٢) في (ر): «أن»، بدل: «في».

(٣) في (ف): «شهدوه».

(٤) «أنفسهم»: ليست في (أ).

بما فيها من أوامره ونواهيه، وقال لهم تقديراً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ أنت ربُّنا، بما ظهر عليهم من آثار الصنعة، وهو كما يُتأول عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقولُه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١] على معنى: أنه ما من شيء إلا وهو بما عليه من آثار الصنعة ينزِّه الله تعالى عن الأضداد والأنداد، فأقيمت شهادة الآثار مقامَ شهادة النطق؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، فجعَل لِمَا لا لسان له نطقاً وكلاماً، وهكذا جعل ما يُوجد كلُّ إنسان عليه في نفسه مِن تعاقُب الأحوال كالشهادة منه على نفسه، وما أجراه الله تعالى عليه من ذلك كالتقرير له به، وكأنه قال لهم بما أجراه عليهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وكأنهم قالوا بلسان أحوالهم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ وتمَّ الكلام هاهنا، ثم قال: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ عن أنَّ لنا رباً وصانعاً إذا حُوسبتم يوم القيامة على التوحيد.

وعامةُ المفسرين وجمهورُ الصحابة والتابعين على إخراج ذريةِ آدمَ من ظهره وأخذِه الميثاقَ عليهم في عصره.

وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وقد سئل[1] عن هذه الآية فقال ـ: «خلَق الله تعالى آدمَ ثم مسحَ ظهرَه فاستخرج منه[2] ذرِّيته فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل: يا رسول الله! ففيم العملُ؟ فقال: «إن الله تعالى إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعملِ أهل الجنة حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنة فيُدخلَه الجنة، وإذا خلق العبدَ للنار استعمله

---

(١) في (أ): «سئل»، وفي (ف): «يسأل»، بدل: «يقول وقد سئل».

(٢) «منه»: ليست في (أ) و(ف).

بعملِ أهلِ النار حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل النار فيُدخلَه النار»[١].

وذكر هذه القصةَ على البسطِ والاختصار والإقلالِ والإكثار: ابن عباس وابن مسعود وأبيٌّ بن كعبٍ والكلبيُّ والحسن وعطاءٌ وأبو العاليةِ وسعيد بن جبير وابن جريجٍ ومَعْمَرٌ وعبد العزيز بن يحيى والسدِّي وعوفٌ ومقاتلٌ ومجاهدٌ وأبو مسلمٍ الخَوْلانيُّ وعطاء بن يسارٍ[٢] وعكرمةُ وأبو قِلابةَ وداودُ بن أبي هندٍ رضي الله عنهم.

قال أبو العالية: جمَعهم جميعاً يومئذٍ، فجعلهم أزواجاً[٣]، ثم صوَّرهم، ثم استنطقهم وأخذ عليهم الميثاق ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ قال: فإني أُشهِد عليكم السماواتِ السبعَ والأرضينَ السبعَ، وأُشهد عليكم أباكم آدمَ أن تقولوا يوم القيامة ما لم تعلموا، اعلموا أنه لا إلهَ غيري فلا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً يذكِّرونكم عهدي، وأُنزل عليكم كتبي، قالوا: نشهد أنك إلـهُنا لا إلهَ غيرُك، فأقروا يومئذ بالطاعة ورَفع إليهم أباهم آدم فنظر إليهم فرأى منهم الغنيَّ والفقير وحسَنَ الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب لو شئتَ لسوَّيت بين عبادك؟ فقال: إني أحب أن أُشكر، ورأى منهم الأنبياءَ مثل السُّرج، وخُصُّوا بميثاق

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٨ ـ ٨٩٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وصححه ابن حبان (٦١٦٦). لكن أعله ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٣) بجهالة الراوي عن عمر، ثم قال: لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها، من حديث عمر وغيره. اهـ. قلت: وثمة حديث آخر عن عمر ـ رضي الله عنه ـ في هذا المعنى أورده الآلوسي (٩/ ٤٦٧) هنا، ورواه الحاكم في «المستدرك» (١٦٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٤٠)، وأعله بأبي هارون العبدي، وقال الذهبي في «تلخيص المستدرك»: أبو هارون ساقط.

(٢) في (أ): «السائب».

(٣) في (ر) و(ف): «أرواحاً».

آخر في الرسالة والنبوة، قال: وفي هذا الميثاق قولُه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٦] وقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢][1].

وفي رواية ابن جريج: خرجتْ كلُّ نفس خُلقت للجنة نقيةً بيضاء، وكلُّ نفس خُلقت للنار مظلمةً سوداءَ، وهم أمثالُ الخردل في صوَرِ الذر، فقال: يا عباد الله أجيبوا، يا عباد الله[2] أطيعوا، فقالوا: لبيك اللهم لبيك، فأخذ عليهم العهد بالإيمان به وبأمره[3].

واختلفت الروايات في مكان ذلك:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بدَحْناءِ الطَّائف[4].

وقال سعيد بن جبير: بنَعْمانِ السَّحابِ عند عرفات[5].

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائده على «المسند» (٢١٢٣٢)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٦)، والآجري في «الشريعة» (٤٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٥٥)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٦٦)، والضياء في «المختارة» (١١٥٨)، جميعهم من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه موقوفاً.

(٢) في (ف): «يا عبادي» في الموضعين.

(٣) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٦) من طريق ابن جريج بعضه عن ابن عباس وبعضه عن مجاهد.

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٩) دون كلمة: «الطائف»، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٥) لكن بلفظ: (بدحناء أرض بالهند)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٢٥) (ت: محمود شاكر) بلفظ: (بدهنا أرض بالهند).

(٥) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢٩١١). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٦) بلفظ: (بنَعْمانَ ونَعْمانُ مِن وراءِ عرفةَ). ورواه (١٠/ ٥٥٠) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بلفظ: (ببطن =

وقال الكلبي: بين مكة والمدينة والطائف.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى: بحراءَ خلفَ جبلِ عرفة[(١)].

وروي أنه كان بعدما رفع إلى السماوات على باب الجنة في صحراء عرضُها مسيرةُ ثلاثين ألف سنة.

وقال مقاتل: إن الله تعالى مسح صفحةَ ظهرِ آدم اليمنى فأخرج منه ذريةً بيضاءَ كهيئة الذرِّ يتحرَّكون، ثم مسح صفحةَ ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداءَ كهيئة الذرِّ وهم ألفُ أمَّة، فقال: يا آدم هؤلاء ذريتُك آخُذ[(٢)] ميثاقَهم على أن يعبدوني ولا يشركوا بي شيئاً وعليَّ رزقُهم، فقال: نعم يا رب، فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ثم أفاضهم إفاضةَ القِدَاح فقال للبِيض: هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وأصحابُ الميمنة، وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال وأصحابُ المشئمة، ثم أعادهم جميعاً في صُلب آدم، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلُّهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء، فمَن مات منهم صغيراً دخل الجنة بمعرفته [بربه]، ومَن بلغ العقل منهم أَخذ ميثاقه أيضاً للمعرفة بربِّه والطاعةِ له، ومَن لم يؤمن إذا بلغ العقل لم يُغنِ عنه الميثاقُ الأول شيئاً، وكان العهد الأول حجةً عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾[(٣)].

* * *

= نعمان، واد إلى جنب عرفة). ونعمان السحاب: جبلٌ بالقُرْبِ مِن عَرَفةَ، يقال: إنَّه يتَّصلُ بوادي القُرَى ونواحِيهِ، وهما جَبَلانِ، ونَسَبه إلى السَّحابِ لأنَّه مُشْرفٌ عالٍ، والسَّحابُ يَرْكُدُ دونَ أعلاه. انظر: «مجمع الغرائب» للفارسي (مادة: دحن).

(١) لم أقف عليه، وانظر ما تقدم من روايات عن ابن عباس.

(٢) في (ف): «أخذت».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٢ ـ ٧٤)، وما بين معكوفتين منه.

(١٧٢) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ تقديرُها: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم، وما رَويناه أنه أخذ من ظهر آدم، فالتوفيق بينهما: أن الأخذ من ظهر آدم: أنَّ الله أخرج ذرية آدم بعضَهم من بعضٍ إلى آخر الدنيا على ما يتوالدون، فكان ذلك أخذاً من ظهره، وكان ذلك في أدنى مدةٍ كما يكون في موت الكلِّ بالنفخ في الصور وحياةِ الكل بالنفخة الثانية، وكما في تعليم أسماء الأشياءِ لآدم: وما ذكر في الحديث: «مسَح الله ظهره[1] بيده» فهو مسحُ ملَكٍ بأمره.

وعلى هذا ما روي: «خلقَ اللهُ تعالى جنةَ عدن بيده»[2] و«غرس شجرةَ طوبى بيده»[3] وهو كما يقال: ضرب الأمير فلاناً؛ أي: ضربه ضاربٌ بأمره.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أي: ذريةَ بني آدم، وهم ذريةُ آدم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبي بن كعب: فجعلهم سامعينَ ناطقينَ عقلاءَ مختارين، فإنه أَشهدهم ولا يصحُّ الإشهاد إلا على الموصوفِين بهذه الصفات، ولأنه خاطبهم فدلَّ على سماعهم، وأجابوا فدل على كلامهم، وقالوا: ﴿شَهِدْنَآ﴾ فدل على علمهم وعقلهم، وقال: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فدلَّ على اختيارهم[4]، وليس

---

(١) في (أ) و(ف): «ظهر آدم».

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٥١٨) و«الكبير» (١٢٧٢٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وجوَّد إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٧). ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٢٨) من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعاً، وإسناده ضعيف جداً.

(٤) روى معناه عن ابن عباس وأبيٍّ الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٦ ـ ٥٥٧).

بمستبدَعٍ مستبعَدٍ وضعُ هذه الأشياءِ في الذرِّ الصغارِ من قدرة الله اعتباراً بنمل سليمان وهُدهده، وكلامِ عيسى في المهد، وشهادةِ الرضيع ليوسف عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: أي: فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير، كما في قول الشاعر:

ألستُم خيرَ مَن ركب المطايا وأندَى العالمين بطونَ راحِ[1]

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾: وهو في سؤال النفي إثباتٌ فكان إقراراً، وكان من الكلِّ فكان إيماناً منهم؛ لأنه إقرارٌ وتصديق، والإقرار قولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ والتصديق ثبت بمقتضَى قوله: قالوا: ﴿شَهِدْنَآ﴾ لأن الإقرار بدون الاعتقادِ لا يكون شهادةً، ولهذا رد الله تعالى على المنافقين قولهم: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] فقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنفقون: ١]، وقولُهم: هو رسول الله، لم يكن كذباً، لكن ذكروا أنهم يشهدون به ولم يكن لهم اعتقادٌ، فلم تكن لهم شهادةً، فكانوا كاذبين في دعوى الشهادة.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾: أي: فعلنا هذا لئلا تقولوا يوم القيامة، قرأ أبو عمرو يقولوا بياء المغايبة، وكذا بعده: ﴿أو يقولوا﴾[2]؛ أي: لئلا يقولَ هؤلاء.

وقرأ الباقون بتاء المخاطبة خطاباً لهؤلاء؛ أي: لئلا تحتجُّوا فتقولوا: إنَّا كنا غافلين عن أن لنا رباً وصانعاً.

***

---

(١) البيت لجرير، وهو في «ديوانه» (١/ ٨٩).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٨)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(١٧٣) ـ ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾: أي: لئلا تقولوا يا معشر المشركين من العرب: إنما أشرك آباؤنا من قبلِ خَلْقِنا وكنَّا أولاداً صغاراً من بعدهم فاتَّبعناهم، ولم يكن لنا علمٌ بهم[1] بأنهم على الباطل وأن الحق في غيره.

وقوله تعالى: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾: أي: آباؤنا والعيبُ لهم لا لنا، يقول: سدَدْتُ عليهم[2] هذا البابَ بأَخْذ هذا الميثاق، على قول عامة المفسرين، وبنصب الدلائل العقلية والسمعية على قولِ القائلين[3].

***

(١٧٤) ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾: أي: كما بينَّا هذا نبيِّن جميعَ ما يحتاجون إليه قطعاً لعذرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾: أي: وليرجعوا عن الشرك إلى التوحيد، والواو زائدة عند بعضهم، ومقرِّرة عند آخرين بتقدير إضمارٍ قبلها أو بعدها.

فإنْ قالوا: ما وجهُ إلزامِ الحجة بقوله: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ ونحن لا نذكر هذا الميثاق وإن تفكَّرنا.

---

(١) «بهم»: من (ف).

(٢) في (أ) و(ف): «عليكم».

(٣) في (أ): «القابلين».

قلنا: الله تعالى أنسانا ذلك ابتلاءً؛ لأن الدنيا دارُ غيب وعلينا الإيمانُ بالغيب، ولو تذكَّرنا ذلك زال الابتلاء، وليس ما يُنسى تزول به الحجة ويَثبت به العذر؛ قال الله تعالى في أعمالنا: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وأَخبر أنه سينبئنا به وقال: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [ق: ٢٢]، ولأن الله تعالى جدَّد هذا العهد وذكَّرنا هذا المنسيَّ بإرسال الرسل وإنزال الكتب بعده، فلم يَثبُت العذر.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: وَسَم بالجهل قوماً فألزمهم بالإشهاد الحجةَ، وأَكرم بالتوحيد آخرين فأشهدهم واضحَ المحَجَّة.

وقال: أَسمَعهم وفي نفسِ ما أسمعهم أحضرهم لِمَا أسمعهم، ثم أخذهم عنهم فيما أحضرهم، وقام عنهم فأنطقهم بحُكم التصريف[1]، وحَفِظ عليهم بحُسن التولِّي أحكامَ التكليف، فكان سبحانه وتعالى لهم مكلِّفاً، وعلى ما أراد مصرِّفاً، وبما استخلصهم له معرِّفاً، وبما رقَّاهم إليه مشرِّفاً.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: إذا سدَّت عيونُ البصيرة فما ينفع وضوح الحجة[2].

* * *

(١٧٥) ـ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: اتِّصالُها بما قبلها

---

(١) كذا في النسخ، وفي «لطائف الإشارات»: (التعريف).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨٥ ـ ٥٨٧).

أنه ذكر إيمان الكلِّ يومَ الميثاق، ثم ذكَّر اليوم بكفر بعضهم، فبيَّن[١] أن ذلك الإيمان ليس بمبقٍ على الإيمان، فإن إيمان بلعم مع الآيات لم يكن مُبْقياً له على الإيمان.

واختلف المفسرون فيمَن نزلت فيه[٢] هذه الآية على أقوال:

قال ابن عباس رضي الله عنهما وابن مسعود ومقاتلٌ والكلبي ومجاهدٌ ووهبٌ وعطاءٌ وعبد الكريم بن أبي المخارق والضحَّاك: هو بلعم[٣]، واختلفوا في نسَبه:

قال ابن عباس والكلبي: هو ابن باعوراء[٤].

وقال ابن مسعود ومجاهد: هو ابنُ أَبر[٥].

وقال عطاء: هو ابن باعر[٦].

وقال مقاتل: هو بلعم بن باعورا بن مان بن لوط[٧].

وقال ابن عباس رضي الله عنهم: كان من مدينة الجبارين[٨] التي مرَّت قصتهم في سورة المائدة.

---

(١) في (أ) و(ف): «ثم بين».

(٢) «فيه»: من (أ) و(ف).

(٣) رواه الطبري (١٠/ ٥٦٦ ـ ٥٦٩) عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٧) عن ابن عباس.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٦) عن ابن مسعود، وقيده الطبري في إحدى الروايات عن ابن مسعود (أبُر) بضم الباء، ولعل فيه إشارة إلى أن باقي الروايات بالفتح.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٨) عن ابن عباس.

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٨٩) (ط: دار التفسير)، وفيه: (مأب)، بدل: «مان». وفي «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٤): بلعام بن باعورا بن ماث بن حراز بن آزر.

(٨) رواه الطبري (١٠/ ٥٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٦ ـ ١٦١٧).

وقال مقاتل: كان من مدينةِ بلقاءَ، وسميت بلقاءَ لأن رجلاً ملَكها يقال له: بالقٌ[١].

وكان من قصته: أن موسى عليه السلام أراد أن يغزوَ ملكاً، فقال الملِك لبلعم: إن موسى رجلٌ حديدٌ، ومعه جندٌ كثير، فإن ظهر علينا أهلكَنا، فادْعُ الله تعالى أن يردَّه عنا، فقال: إن فعلتُ ذلك ذهبتْ دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، قالوا: فوقع موسى وبنو إسرائيل في التِّيه بدعائه، فلما انقضت المحنة قال موسى: يا رب! بأيِّ ذنب وقعتْ لنا هذه المحنة؟ قال: بدعاء بلعم، قال: فكما سمعتَ دعاءه عليَّ فاسمع دعائي عليه، فدعا موسى عليه فسلخه الله مما كان عليه، ونزع منه معرفته فخرجت من صدره كحمامة بيضاء، وذلك قوله ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[٢].

وهذا كلامٌ مختلٌّ، واحتباسهم في التِّيه كان بقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] لا بدعاء بلعم، وكيف يُستجاب دعاءُ بلعم وقد انسلخ من الآيات، ولأنه قد دعا على موسى وقومه بالباطل، وكيف دعا موسى على بلعم بزوال الإيمان وكان مبعوثاً إلى الناس ليدعوَهم إلى الإيمان[٣].

وقال مقاتل: قال له ملك بلقاءَ: ادع الله على موسى، فقال: إنه من أهل ديني لا أدعو عليه، فنَصب خشبةً ليَصلبه، فلما رأى ذلك خرج على أتانٍ له ليدعوَ عليه،

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٤)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٤).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٦) عن مقاتل، وسياقه في «تفسير مقاتل» مختلف وسيأتي.

(٣) وقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٦) عن ابن عباس بسند جيد وسياق لا إشكال فيه، ولفظه: هو رجلٌ من مدينةِ الجَبَّارِين يقال له: بَلْعَمُ، وكان يَعْلَمُ اسمَ الله الأكبر، فلمَّا نَزَل بهم موسى أتاه بنو عمِّه وقومُه، فقالوا: إن موسى رجلٌ حديد، ومعه جنودٌ كثيرة، وإنه إنْ يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يردَّ عنَّا موسى ومن معه. قال: إني إنْ دعوت الله أن يردَّ موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي! فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله مما كان عليه، فذلك قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

فلما عاين عسكرَهم قامت به الأتان ووقفت فضربها، فقالت: لمَ تضربُني وهذه نار قد منعَتْني أن أمشي، فرجع فأَخبر الملك بذلك، فقال الملك: لتدعوَنَّ عليه وإلا[١] لأَصْلبنك، فدعا على موسى عليه السلام بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينةَ، فاستُجيب له، وبلغ ذلك موسى صلوات الله عليه فدعا الله تعالى أن ينزع منه الاسمَ الأعظمَ فنزعه، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾[٢].

وقال وهبٌ: لمَّا نزل موسى أرضَ كنعان من الشام بين أريحا وبين أردنَّ وجبلِ البلقاء، والتيهُ بين هذه المواضع، أرسل بالق إلى بلعم بن باعوراء[٣] وكان يسكن قريةً من قرى البلقاء[٤]، فقال: إنَّا رهبنا هؤلاء القومَ لأنه قد جاز البحرَ ليُخرجنا من بلادنا ويَنزلها ببني إسرائيل، ونحن قومُك وليس لك بقاءٌ بعدنا، ولا خير لك في الحياة بعدنا، وأنت مجابُ الدعوة، فاخرج وادْعُ عليهم، فقال بلعم: ويلكم، نبيُّ الله معه الملائكةُ والمؤمنون! كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ فلم يزالوا يترفَّقون به ويتضرَّعون إليه، وكانت له امرأةٌ أشبُّ منه وكان[٥] يحبُّها ويطيعها، فدسوا إليها هدايا فقبِلتها، ثم أتوها فقالوا لها: قد نزل بنا ما تَرَين فكلِّمي بلعم في هذا، فقالت لبلعم: إن لهؤلاء القومِ حقًّا وجواراً وحرمةً، وليس مثلُك أسلمَ جيرانَه عند الشدائد، وقد كانوا محسِنين إليك، وأنت جدير أن تكافئهم وتهتمَّ بأمرهم، فقال لها: لولا أني أعلم أن هذا الأمر من عند الله لأجَبْتُهم، فقالت: انظر في أمرهم، فلم

---

(١) في (أ) و(ف): «أو».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٤ ـ ٧٥).

(٣) في (أ): «باعور».

(٤) في (ف): «بلقاء» هنا وفي الموضع السابق.

(٥) «وكان»: من (ف).

تزَل به حتى ضلَّ وغوى، وكان الله تعالى عزَم له في أول أمره على الرشد ففتنَتْه، فركب حماره فوجَّهها إلى الجبل الذي يُطلعه[١] على بني إسرائيل، فلما[٢] سار غير بعيد ربَضت أتانُه، فنزل عنها فضربها فقامت، فلم تَسِرْ إلا قليلاً حتى ربَضت، ففعل بها مثلَ ذلك، فلم تَسِرْ إلا قليلاً حتى ربَضت، فضربها فأذن لها فكلَّمته[٣] فقالت: يا بلعم! إني مأمورة فلا تظلمني، انظرْ إلى ما بين يديك، ألا ترى أن الملائكة أمامي يردُّوني عن وجهي هذا، يقولون: أتذهبين إلى نبيِّ الله والمؤمنين يدعو عليهم بلعم؟ فخلَّى سبيلها ثم انطلق حتى أشرف على رأس جبلٍ مشرفٍ على بني إسرائيل، فجعل يدعو عليهم، فلا يدعو بشيءٍ من السوء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله لسانه به إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أتدري ما تصنع؟ فقال هذا مما لا أملك، وهذا شيء قد غلبه الله على لساني[٤].

وفي رواية: فجاءته لمعةٌ فذهبت ببصره فعمِيَ، فقال لهم: قد ذهبت الدنيا والآخرة[٥].

وفي رواية: فلما وقفت الأتان وكلَّمته قالت له: انظر أمامك، فإذا بملَكٍ قد قطع عليه الطريق، فخرَّ ساجداً حتى انكشف عنه الملك، فانطلق لوجهه حتى قدم على القوم، فقرَّب قرباناً فتقبَّل الله تعالى منه، وأوحى إليه: أن موسى خِيْرَتي فانصرِفْ، فرجع فما زالوا به حتى فتنوه فقال: لم يبق إلا المكر والحيلة، اعلموا أنهم أهل كتاب

---

(١) في (أ): «يطالعه».

(٢) في (ف): «فما».

(٣) في (ف): «حتى كلمته».

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥).

(٥) ذكرها ابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٤٠٥).

فإذا أذنب مذنبهم ولم يغيِّر عامَّتهم عمَّهم البلاء، فدُسُّوا في عسكرهم النساء فإني لا أعلم فتنةً أَوشَكَ صرعةً للرجل من المرأة، فانظُروا نساءً لهنَّ جمالٌ فأعطوهن السِّلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يَبِعْنها فيه، ولا تَمنعِ امرأةٌ نفسَها عن رجلٍ أرادها، فإنه إنْ زنى[١] منهم رجل كُفِيتُموهم، ففعلوا، فمرت كشي بنت صورا على زمريِّ بن شَلوم[٢] من سبط شمعون بن يعقوب، فأعجبته فأخذ بيدها فأدخلها قبَّته فوقع عليها، فأظهر الله تعالى عليهما كاهن[٣] بن هارون، وكان أعطي بسطةً في الخَلْق وقوةً في البطش[٤]، فأخذ حَربته فدخل عليهما وهو فوقها فطعنهما بحربته حتى أنفذهما، ثم رفعهما كذلك في الهواء وأقبل الناسُ وأنكروا وغيَّروا، فوقاهم الله العذاب، وأقبل موسى وقومُه وحاربوا أهل بلقاء وغلبوهم وقتلوا منهم وأسروا، وأتوا ببلعم أسيراً فقتل، فجاؤوا بما قَبِل من الهدايا وهي عشرُ صحافٍ ذهباً مملوءةٌ ورِقاً وغَنِموها، وذلك قوله تعالى ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾[٥].

قيل: هي اسم الله[٦] الأعظم.

---

(١) في (أ): «يزني».

(٢) في (أ) و(ر): «مري بن شولا»، وفي (ف): «موسى بن شولا». والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٥٨٠)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٥)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٠/ ٤٠٥)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٣٠٢).

(٣) في (أ): «كاهز». والذي في المصادر السابقة أن اسمه: (فنحاص بن العيزار بن هارون).

(٤) في (أ): «الجسم».

(٥) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٠٣ ـ ٤٠٦) عن وهب، وبنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٧٩ ـ ٥٨١) من طريق ابن إسحاق عن سالم بن أبي النضر، ونسب في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٥)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٣٠٢) لابن عباس وابن إسحاق والسدي وغيرهم.

(٦) في (ف): «هو الاسم».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العلم[١].

وقال الحسن: الدِّين الحقُّ.

وما يذكر في بعض الروايات أنها الوحي والكتاب وكان نبيًّا، فما ينبغي أن يقال ذلك أو يُقبل؛ لأن أنبياء الله تعالى[٢] مختارون على العلم، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] وقال تعالى ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فمن المحال أن يكون منهم الانسلاخ عن الدين.

وقيل: الآيات: صحف إبراهيم وكان يحفظُها.

وقيل: هي الكرامات، وكان إذا نظر إلى السماء رأى إلى العرش، وإذا نظر إلى الأرض رأى إلى ما تحت الثرى، وكان وليًّا له كرامات.

قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾؛ أي: ترك الآيات وفارقها، فكان كالمنسلِخ الخارج من الشيء.

قال وهب: الآيات:

أولهن: أنه دعا الله تعالى في المرة الأولى فعزم له على رُشده أن لا يفعل.

والثانية: كلام الأتان.

والثالثة: مقام[٣] الملَك.

والرابعة: الإخبارُ بأن موسى عليه السلام خيرةُ الله تعالى من خلقه[٤] وما ينبغي أن يُدْعى عليه وعلى قومه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٨).

(٢) في (ف): «لأن الأنبياء».

(٣) في (أ) و(ف): «كلام».

(٤) في (أ): «خيَّره الله».

فانسلخ منها كلِّها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: أي: لَحِقه فغرَّه.

قال الأخفش: (أَتْبَعه) بقطع الألف: صار معه وتَبِعه، و(اتَّبعه) بالتشديد: أخذ[1] في أثره أَدركه أو لم يُدركه؛ قال تعالى في الأول بمعنى الإدراك: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]؛ أي: أدركوهم.

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ﴾ أي: فصار، كما في قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقولِه تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] أو: كان في علم الله تعالى أنه ينسلخ من آياته فيكونُ من الكافرين حين ينسلخ[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾: أي: لأَعْلَينا درجتَه في الناس بتلك الآيات.

وقال مجاهد: لرفعنا الكفر عنه[3].

وقال عطاء: لعصمناه من المعاصي[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن جبير والسدِّي: أي: ركَن[5].

---

(١) في (أ): «أخذه».

(٢) «حين ينسلخ»: ليس في (أ).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٨)، و«النكت والعيون» (٢/ ٢٨٠)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٩).

(٤) انظر: «البسيط» (٩/ ٤٦٥).

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٨٤)، وعن سعيد بن جبير ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٩).

وقال مقاتل: أي: رضي بالدنيا(١).

وقيل: أي: أحبَّ الجاه في الدنيا، وقد خَلَد؛ أي: دام، وأَخْلَد؛ أي: سكَن واطمأن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: أي: ترك هداهُ واختار(٢) ما دعَتْه إليه نفسُه وهواه من حبِّ دنياه.

وقال أبو رَوقٍ: أي: اختار الدنيا على الآخرة.

وقال الكلبيُّ: أي: اتَّبع مَسافلَ الأمور وترَكَ معاليَها.

وقال يمان بن رِئاب: أي: اتَّبع امرأته؛ لأنها حملتْه على الخيانة(٣).

وقال عطاء: أي: أطاع شيطانه(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾: اللَّهْث من حدِّ عَلِمَ(٥)، وهو التنفُّس الشديد الذي قد يَلحق الإنسان من شدة الإعياء، وهو في الكلاب طبعٌ، وقد يكون من العطش؛ أي: إن حمَلْتَ عليه لتطرده لَهثَ وإن تركتَه لَهث، فسواءٌ عنده الطردُ وتركُه، فكذا هذا الخبيثُ سواءٌ وَرَدَتْ عليه زواجرُ(٦) آيات الله أو لم تَرِدْ فهو بحاله.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٥).

(٢) في (ر): «واتبع».

(٣) في (أ): «الجناية».

(٤) انظر هذه الأقوال جميعها في «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٨ـ٣٠٩).

(٥) وفي «مختار الصحاح»: بابه قطَع، ومثله في «القاموس» قال: لَهَثَ كمنع لَهْثاً ولُهاثا: أخرج لسانه عطشاً أو تعباً أو إعياءً. وذكر أنه يكون من باب سمع بمعنى العطش.

(٦) في (ر): «واردات».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الكلب منقطِعُ الفؤاد فهو يلهث إن حُمل عليه أو[١] لم يُحمل عليه، كذلك مَثَلُ الذي يترك الهدى لا فؤاد له[٢].

وقال عطاء: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾ ينبح، وإن لم تحمل عليه فكذلك[٣].

وقال القتبي: كلُّ شيء يَلهث فإنما يَلهث من إعياءٍ أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في الكَلال والراحة، والمرض والصحة، والعطش والرِّي، ضرب الله مثلاً للَّذي كفر[٤] بآياته أنه ضالٌّ وُعظ أو لم يُوعظ، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣][٥].

وقوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي: ليتَّعظوا.

وقوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ دليلٌ على أن شقاوته كانت من جهته، وهو أنه انسلخ من الآيات، وكانت مراعاتُه إياها[٦] حافظةً له، فلمَّا ترَكها أَتْبعه الشيطانُ، وهو كاللصِّ لا يصل إلى العِير[٧] ومعهم الرعاةُ، فإذا فارَقوهم وصل إليهم اللصُّ، ولمَّا جَهِل قَدْرها واستخفَّ بها حُرمها وتغيَّرت عليه أحواله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) في (ف): «وإن».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٨٦) عن ابن جريج.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٩).

(٤) في (ر): «مثلًا للذين كفروا».

(٥) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص: ٢١٦)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٩).

(٦) في (ر): «لها».

(٧) في (ف): «الغنم».

وكان انسلاخُه عنها بسبب طاعته امرأتَه في الميل إلى الدنيا، وأخذِ الحطام من أهل الزمان، ولا شيء أضرُّ بالعالم من الطمع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وقال الأنبياء: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ لم يسوِّه بالكلب، بل جعَل مَثَلَه كمَثَلِ الكلب في المعنى الذي ذُكر، ولا مساواة بينهما، بل كلبٌ واحدٌ خيرٌ من ألفٍ أو[1] أكثرَ من بلعم، فإن الكلب عارفٌ بالله موحِّدٌ للهِ لا يعاقَب بالنار، وبلعم كافرٌ بالله خالدٌ في عقوبة الله تعالى.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: إنما ضَرب المثَلَ بالكلب لأن من عادة الكلب أنه[2] يَذلُّ ويَخضع لكلِّ أحد؛ لِمَا يطمع أن ينال منه أدنَى شيءٍ، ولا يبالي ما يصيبه من الذلِّ والهوان، وكذا المكذِّب بالآيات لا يبالي بما يَلحقه من الذلِّ بعد أن يصيب من الدنيا شيئاً.

ويُشْبِهُ أن يكون وجهُ ضربِ هذا المثل: أن مِن عادة الكلب أنه إذا ظَفر بالجيَف ينكبُّ لها[3]، حتى إذا دُعي إلى غيرها لم يلتفت، فكذا الكافر[4].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إن الحق سبحانه وتعالى قد يُظهر الأعداء في لباس الخلَّة ثم يردُّهم إلى سابق القِسمة، ويُبرز الأولياءَ بنعت الخلاف والذِّلَّة ثم تغلب عليهم مقسومات الوُصلة.

---

(١) في (أ) و(ف): «و».

(٢) في (ف): «أن».

(٣) في (ف): «عليها».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٩٢).

(١٧٦) - ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا وَلَكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقال في قوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا ﴾: لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تَلحقه الشقاوةُ الأبدية، ولكن مَن قصَمَتْه السوابق لم تُنعشه اللواحق.

وقال في قوله: ﴿وَلَكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: إذا كانت مساكنةُ آدم الجنةَ وطمعُه في الخلود فيها أوجب خروجَه عنها، فالرُّكون إلى الدنيا متى يُوجب البقاء فيها[1]؟

هذا كلُّه تمشية مَن قال: إنها في بلعم.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيِّب وزيدُ بن أسلم وأبو روقٍ: إنها نزلت في أمية بن أبي الصَّلْت[2].

وكان ابتداء أمره أنه كان قد قرأ الكتب، وعلِم أن الله يُرسل رسولاً في ذلك الوقت، وظن أنه يكون ذلك الرسولَ، فلما أُرسل إلى محمد ﷺ حسَده، وكان قصَد بعضَ الملوك، فلما رجع مرَّ على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل: قتلهم محمد، فقال: لو كان نبيًّا ما قتل أقرباءه، فلما مات أميةُ فأتت أختُه فارعةُ رسولَ الله ﷺ، فسألها عن وفاة أخيها فقالت: بينا هو راقد أتاه آتيان[3] فقعد أحدهما عند رجليه والآخر

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨٧).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٣٠٣). ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٦).

(٣) في (ف): «اثنان».

عند رأسه، فقال الذي عند رجله للَّذي عند رأسه: أَوَعَى؟ قال: وَعَى، قال: أَزكَى؟ قال: أَبَى[١].

وفي رواية الكلبيِّ: كَشَطَ سقفَ البيت آتيان[٢]، فنزل أحدهما وشقَّ بطنه، وناداه الذي على ظهر البيت: أَوَعَى؟ قال: وعى، قال: أَزَكَى؟ قال: أبى، ومعه ابنتاه فذكَرتا له فقال: خير أُريد بأبيكما فلم يقبله[٣].

وفي رواية: نزل طيرانِ فشقَّ أحدُهما بطنه وأخرج قلبه وشمَّه، ثم سأله الآخر ذلك فقال ذلك[٤].

وذكرت فارعةُ من شعره لرسول الله عليه السلام قصيدةً ثم قصيدةً، ثم[٥] أنشدت هذه:

عنـد ذي العـرشِ يُعرَضـون عليـه يَعلـمُ الجهـرَ والسِّـرارَ الخفيَّـا
يـومَ نأتـي الرحمـنَ وهـو رحيـمٌ إنـــه كـــان وعـــدُه مَـأْتـــيّا

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ٢٨٢) من طريق إسحاق بن بِشرٍ عن محمدِ بنِ إسحاقَ عن الزهريِّ عن سعيدِ بن المُسَيِّبِ، وعثمانَ بنِ عبدِ الرحمن عن الزُّهريِّ، عن سعيد بن المسيِّب، قال: قدمَتِ الفارِعةُ أختُ أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ على رسولِ الله ﷺ بعدَ فتحِ مكَّةَ..، فذكره. وإسحاق بن بشر متروك والخبر مرسل. ورواه من طريق آخر عن ابن إسحاق ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٨٩٠) ولم يسقه بتمامه، وفي سنده إلى ابن إسحاق ضعف كما في «الإصابة» (٨/ ٥١). ورواه صاحب «الأغاني» (٤/ ١٣٤) من طريق آخر عن الزهري، ولم يذكر ابن المسيب. وجاء في هذه الروايات: طائران، بدل: آتيان.

(٢) «آتيان»: ليس من (ف).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٥٩). وفيه: (نسران)، بدل: «آتيان».

(٤) هي رواية إسحاق بن بشر. وقد ذكرناها قريباً.

(٥) «قصيدة ثم»: من (أ) و(ف).

يـومَ نأتيـه مثـلَ مـا قـال فـردًا ... ثـم لا بـدَّ راشـداً أو غَوِيّـا
أسـعيداً سعـادةً أنـا أرجـو ... أو مُهانـاً بمـا اكتسـبتُ[١] شَـقِيّا
إن يؤاخِـذْ بمـا اجترمْـتُ فإنـي ... سـوف ألقَـى مـن العـذاب فَرِيّـا
ربِّ إن تَعْـفُ فالمعافـاةُ ظنِّـي ... أو تعاقِـبْ فلـمْ تُعاقِـبْ بَرِيّـا

فقال النبيُّ ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه»[٢].

وفي روايةٍ ذكرت أنه أتاها خبر موته قالت: فانطلقت إليه[٣] فوجدتُه منعوشاً قد سجِّي عليه، فدنوت منه فشهَق شهقة وشَقَّ بصرُه ونظر نحو السقف ورفع صوته فقال: لبَّيكما لبَّيكما ها أنا ذا لديكما، لا ذو مال فيغنيَني، ولا ذو أصل[٤] فيحميَني، ثم أُغمي عليه فشهَق شهقةً فشقَّ بصرُه ورفع صوته فقال: لبَّيكما لبَّيكما ها أنا ذا لديكما لا ذو براءةٍ فأعتذرَ ولا ذو عشيرةٍ فأنتصرَ، ثم أُغمي عليه وشهق[٥] شهقةً ونظر نحو السقف فقال: لبَّيكما لبَّيكما ها أنا ذا لديكما:

ربِّ إن[٦] تغفـرْ تغفـرْ جمّـا ... وأيُّ عبـدٍ لـك لا ألمَّـا

ثم أغمي عليه، ثم شهق شهقة فقال: لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما، ثم قال:

---

(١) في (ف): «كسبت».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٧)، والشعر في «ديوان أمية» (ص: ١٥٥ ـ ١٥٦). والمرفوع منه رواه ابن عبد البر في «التمهيد» (٤/ ٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وروى مسلم (٢٢٥٥) من حديث الشريد بن سويد عن النبي ﷺ قوله: «فلقد كاد يسلم في شعره».

(٣) في (ر): «فأتيته».

(٤) في (أ): «أهل».

(٥) في (أ) و(ف): «ثم شهق».

(٦) المشهور في رواية هذا الشطر هو: «إن تغفر اللهم»، وبه يستقيم وزن البيت.

كلُّ عيشٍ وإنْ تطاوَلَ يوماً   صائرٌ مرَّةً إلى أنْ يَزولا
ليتني كنتُ قبلَ ما قد بدا لي   في قلالِ الجبالِ أرعى الوُعولا
إنَّ يوم الحساب يومٌ عظيمٌ   شابَ فيه الصغيرُ يوماً ثقيلا

ثم مات، قال النبي ﷺ: «كان مَثَلُ أخيكِ كمَثَلِ الذي آتاهُ الله آياته فانْسَلخ منها» الآية[1].

وفيه قولٌ آخرُ: روى أبو الجوزاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أن الآية نزلت في البَسوس[2]، وكان من قصته: أن رجلاً أُعطي له ثلاثُ دعوات مستجابات، وكانت له امرأة يقال لها: البَسوس، وكان له منها ولد فقالت له: اجعل لي منها دعوةً واحدة، فقال: لك منها واحدة فما تريدين؟ قالت: ادعُ الله لي أن يجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل، فدعا لها فجُعلت أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أنه ليس فيهم مثلُها رغبت عنه، فغضب الرجل ودعا عليها فصارت كلبةً نبَّاحةً فذهبت فيها دعوتان، فجاء أولاده[3] فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أمُّنا كلبةً نبَّاحةً والناسُ يعيِّروننا بها[4]،..............

---

(١) قطعة من خبر سعيد بن المسيب الذي رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ٢٨٢)، وقد تقدم قريباً. ورواه دون المرفوع صاحب «الأغاني» (٤/ ١٣٤) عن الزهري، وقد تقدم أيضاً. ورواه دون المرفوع أيضا العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢١) من طريق محمد بن إسماعيل بن طريح الثقفي عن أبيه عن جده عن جد أبيه، قال العقيلي: لا يتابع عليه. ورواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٩٧١) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك.

(٢) في (أ): «الموسوس»، ولعله تحريف.

(٣) في (أ) و(ف): «بنوها».

(٤) في (أ): «بهذا».

ادع الله أن يردَّها إلى[١] الحال التي كانت عليها، فدعا الله تعالى فعادت كما كانت، فذهبت الدعواتُ وبقيت البسوس[٢].

وقال عكرمة: نزلت في اليهود والنصارى ممن آتاه الله كتابه وآياته فانسلخ منها[٣].

وقيل: نزلت في أبي عامر بن النعمان[٤] الراهب، الذي سماه النبيُّ ﷺ: الفاسق، وكان ترهَّب في الجاهلية ولبس المسوح، فقدم المدينةَ فقال للنبيِّ ﷺ: ما هذا الذي جئت به؟ قال: «جئتُ بالحنيفيةِ[٥] دينِ إبراهيم» قال: فأنا عليها، فقال له النبيُّ ﷺ: «لستَ عليها، ولكنك أدخلتَ فيها ما ليس منها» فقال أبو عامر: أمات الله الكاذبَ طريداً وحيداً، فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين: استعدُّوا بالقوة والسلاح وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر وآتي بجندٍ وأُخرِجُ محمداً وأصحابه من المدينة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٧] يعني: انتظاراً لمجيئه، فمات بالشام طريداً وحيداً، فاستجاب الله دعاءه على نفسه[٦].

---

(١) في (ر): «على».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٧) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. والراوي عن عكرمة أبو سعد الأعور ـ واسمه سعيد بن المرزبان ـ وهو ضعيف.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٨). وروى عنه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٦٩) قوله: (هو بلعام)، وفي رواية: (هو بلعم).

(٤) هو أبو عامر بن صيفي بن النعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة، ويقال: بن صيفي بن زيد بن أمية بن ضبيعة، واسمه: عمرو، ويقال: عبد عمرو. انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (١/ ٣٨٠).

(٥) في (ف): «دين الحنيفية» بدل: «جئت بالحنيفية».

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٠٧).

وقال عبادة بن الصامت: هي في قريش، آتاهم الله آياته، فانسلخوا منها فلم يقبلوها فأهلكهم الله، فحذَّر هؤلاء أن يكونوا أمثالهم(١).

وقال قتادة: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لمن عُرض عليه الهدى فأبى أن يقبَله(٢).

وقال الحسن: هو المنافق لا يُنيب إلى الحق دُعي أو لم يُدْعَ، وُعظ أو لم يُوعَظْ، كالكلب يلهثُ طُرد أو تُرك(٣).

وقال ابن كيسان: نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم(٤).

***

(١٧٧) - ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾: ﴿ سَآءَ ﴾ بمعنى: بئس، و﴿مَثَلًا ﴾ نصبٌ على التفسير فإنها تَنصب النكرات، تقول: بئس رجلاً زيدٌ، و﴿ٱلْقَوْمُ ﴾ اسمه المعرفةُ، ومعناه: وما أسوأ هذا المثَلَ الذي ضربناه للَّذين كذَّبوا بآياتنا، وإنما استوجبوا هذا المثل لتقبيحِ(٥) الحال بتكذيبهم بآياتنا، وظلمِهم أنفسَهم إذ جَنَوا عليها بما يوجبُ الذمَّ في الدنيا والعقوبةَ في العُقبى.

وقيل: لا سوء في المثل، إنما السوء في الممثَّل، ومعناه: ساء القومُ الذين مثَلُهم

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٠٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٧).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٠٩)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٦٩). ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٨٧).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٠٨)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٠٤).

(٥) في (أ): «القبيح».

كمثَل الكلب، وهو كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ الآية [الجمعة: ٥].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أيُّ صفةٍ أدنى من صفةِ مَن بُلي بالإعراض الأزليِّ، وأيُّ نعتٍ أعلى من نعتِ مَن أُكرم بالقَبول الأبدي، وأيُّ حيلة تنفع مع مَن يخلق الحيلة، وكيف تصحُّ الوسيلة إلا بمن منه الوسيلة[1].

***

(١٧٨) ـ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾: أي: مَن يهدِه اللهُ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾؛ أي: ومَن يضلِلْهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ كهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا وانسلخوا عنها، وحَّد ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ وجمع (الخاسرين) لأنَّ مَن لفظُه لفظُ الواحد[2] ومعناه جمعٌ فيجوز التوحيد للَفظه والجمعُ لمعناه.

والآية نصٌّ على إثبات الهداية والإضلال من الله تعالى، وهو فيمَن عَلِم أنه يختار ذلك.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فهو المهتدي في الآخرة، والخاسر في الآخرة[3].

***

(١٧٩) ـ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨٨).

(٢) في (أ): «واحد».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٩٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾: أي: خلَقْنا[١] ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم الكفار المعرِضون عن تدبُّر آيات الله، واللهُ تعالى عَلِم منهم اختيارَ ذلك فشاء منهم ذلك، وخلق منهم ذلك[٢]، وجعل مصيرَهم إلى جهنم لذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾: أي: لا يفهمون بها الحقَّ ولا يتفكَّرون فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾: أي: الحقَّ، ولا ينظرون إلى الآيات في الآفاق والأنفُسِ نظرَ اعتبارٍ واستدلال[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: أي: لا يُصغون إلى ما يُتلى عليهم من آيات الله والمواعظِ، فهم لتركهم استعمالَ هذه الآلات[٤] فيما خُلقت لها كأنهم عُدِموها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾: أي: كالبهائم في أنها لا تعقِلُ ولا تميِّز.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾: عن الطريق المستقيم منها؛ لأنها مع عدم العقول تجتنِب مَضارَّها، والكفارُ لا يجتنِبون مضارَّهم بل يقفون على الكفر مع علمهم بأنه يُوردهم النار.

وقال الكلبي ومقاتل[٥]: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تَعرف ربَّها وتذكره وتطيعه والكافر لا يعرفه ولا يذكره ولا يطيعه[٦].

---

(١) في (ف): «أي خلقاً كثيراً».

(٢) «وخلق منهم ذلك»: ليس من (أ).

(٣) في (ف): «الاعتبار والاستدلال»، وفي هامشها ما يوافق المثبت.

(٤) في (أ) و(ف): «الآيات».

(٥) «ومقاتل»: زيادة من (أ) و(ف).

(٦) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٧٧)، وهو في «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٦). ووقع هنا في (ر): «وكذا قال مقاتل».

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾: أي: المتغافلون عمَّا أَعَدَّ الله لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنهم لا يهتدون وإنْ هُدوا، والأنعام تهتدي إذا هُديت، أو هم أضلُّ لأنهم يَضلون ويُضلون غيرَهم والأنعامُ لا تُضل غيرَها، أو لأنهم لا يُنتفَع بهم والأنعامُ يُنتفَع بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾؛ أي: عن فهم ما ألقي إليهم وأُمروا به، وغافلون عما أُوعدوا[١].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَن خَلَقه الله لجهنَّم متى يَستوجِبُ الجِنَانَ؟ ومَن أهَّله لسخطه أنَّى يستحق الرضوان؟ هم اليوم في جحيمِ الجحود والكفران، مقرَّنين في أصفاد الخذلان، مُلْبَسين ثيابَ[٢] الحرمان، طعامهم ضريعُ الوحشة، وشرابُهم حميمُ الفُرقة، كما فصَّل[٣] في الكتاب شرح تلك الحالة.

وقال في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ أي: ليس لهم تمييز بين خواطر الحق وهواجس النفس ووساوس[٤] الشيطان، لا ينظرون إلا من حيث الغفلة، ولا يسمعون[٥] إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا في سلك ركوب الشهوة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام رُفع عنها التكليف فإن لم يكن لها وفاقُ الشرع فليس منها خلافُ الأمر[٦].

* * *

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٩٨).

(٢) في (أ): «بنار»، وفي (ف): «بثياب».

(٣) في (ر): «فسر».

(٤) في (أ): «ووسواس».

(٥) في (أ): «يستمعون».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨٩ ـ ٥٩٠).

(١٨٠) ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾: قال مقاتل: إن رجلاً من الصحابة دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال رجل من المشركين: أليس يزعم محمد وأصحابه[١] أنهم يعبدون ربًّا واحداً، فما بال هذا يدعو ربَّين اثنين؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية، فدعا النبيُّ ﷺ [الرجلَ] وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] رغماً لأنوف المشركين، فإنك ما دعوتَ من هذه[٢] الأسماء ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[٣].

وقيل: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ هي الدلالاتُ على معانيها حقيقةً، دون أسماءِ الأصنام التي هي ألقابٌ لا معانيَ لها ولا حقيقةَ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمِل أنهم ظنوا أن في إثبات عدد الأسماء إثباتَ عدد من الذات، فأخبر أنه ليس كذلك، فإنه تُسمَّى الحركة: حركةً، عَرَضاً، شيئاً، خَلْقاً، ولا يوجب ذلك إثباتَ عددٍ فيها.

ويحتمِل أنهم وصَفوا الله تعالى بما لا يَحسُن أن يوصف به[٤]، وأضافوا إليه أشياء لا يصلُح أن تُضاف إليه، نحو قولهم: يا خالقَ الخنازير، و: يا خالق الخبائث، و: يا إلهَ القِرَدة، ونحوه، فأمرهم أن يَدْعُوه بأسمائه الحسنى التي فيها تعظيمُه، كما يقال: يا رحمن، يا رحيم، يا كريم، يا جواد، يا لطيف، يا هادي، يا مرشد، ونحو ذلك.

---

(١) في (ر): «أليس محمد وأصحابه يزعمون».

(٢) في (أ): «فإنك إذا دعوت من هذه»، وفي (ر): «فإنك إذا دعوته بهذه»، وفي (ف): «لأنك إذا دعوت من هذه»، والمثبت من «تفسير مقاتل».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٦ ـ ٧٧)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) في (ف): «لا يحسن وصفه به»، وفي هامشها ما يوافق المثبت.

ويحتمِـل أنـه أراد بها أنَّ الأسـماء الحسـنى لله لا للأصنام، فادعـوا الله[١] بها لا الأصنام[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾: قرأ حمزة: ﴿يَلْحَدون﴾ بفتح الياء والحاء، من قولهم: لَحَد؛ أي: مال، والباقون: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بضم الياء وكسرِ الحاء من أَلْحد[٣]؛ أي: أمال[٤]، والإلحاد في أسماء الله تعالى: تسميةُ الأصنام بأسمائه، كما سمَّوا اللاتَ من الله، والعزى من العزيز، ومناةَ من المنَّان.

ومـن الإلحاد: تحريـفُ معاني أسـمائه، وتغييرُهـا، وتفسـيرُها[٥] على خلاف حقيقتها .

ومن الإلحاد فيها: تسميةُ الله تعالى بما لم يَرِدْ به الشرع؛ كالجوهر والجسم والعقل والعلة وما يقوله المبطلون.

ومعنى ذرهم؛ أي: دَعْهم فلا تكافئهم بصنيعهم، ولا تُجازِهم بإيذائهم إياك، فإن الله تعالى هو يجزيهم، وذلك قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الإلحاد هو الميلُ عن القصد، وذلك على وجهين: بالزيادة والنقصان: فأهلُ التشبيه زادوا فأَلحدوا، وأهلُ التعطيل نقَصوا فأَلحدوا، فالمشبِّهةُ وصفوه بما لم يَأذن فيه، والمعطِّلة سلَبوه ما اتَّصف به[٦].

---

(١) في (ف): «وادعوه».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٩٨ ـ ٩٩).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٨)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٤) في (أ): «مال»، وسقطت الجملة من (ف)، والمثبت من (ر)، وكلاهما صواب.

(٥) في (ف): «على تفسيرها».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٩١).

وسئل أبو الحسن البوشنجي(١) عن التوحيد، فقال: إثباتُ ذاتٍ غيرِ مشبَّهةٍ بالذَّوات، ولا معطَّلة عن الصِّفات.

***

(١٨١) ـ ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾: أي: وممن خلقْنا للجنة، في مقابَلة الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال النبي ﷺ فيما روى ابن جريج: «هذه أمَّتي بالحقِّ يأخذون ويعطون»(٢).

وقد روَينا قبل هذا أنه لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ تمنَّى أصحاب رسول الله ﷺ مدحاً في حقِّ هذه الأمة، فنزلت هذه الآية.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: هدايتُهم بالحق: أنهم يَدْعون إلى الحق، ويَدلُّون على الحق، ويتحرَّكون بالحق، ويسكنون للحق بالحق، فهم قائمون بالحق، يَصرِفهم الحقُّ للحقِّ بالحقِّ، أولئك هم غياث الخلق(٣).

***

(١٨٢) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

---

(١) واسمه عليّ بن أحمد بن سهل، كان أوحد فتيان خُراسان، لَقِي أبا عثمان وصَحب بالعراق ابن عطاء والجريري، وبالشام طاهراً وأبا عَمْرو الدِّمشقي، وتكلم مع الشبلي في مسائل، وهو من أعلم مشايخ وقته بعلوم التَّوحيد وعلوم المعاملات، وكان ذا خلق متديِّناً متعهداً للفقراء، مات سنة (٣٤٨هـ) وأَسندَ الحديث. انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (ص: ٣٤٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٠).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٩١ ـ ٥٩٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾: وقال الخليل بن أحمد: أي: سنطوي عمرهم في اغترار منهم[(١)].

وقال الضحاك: كلما جدَّدوا لنا معصيةً جدَّدْنا لهم نعمة[(٢)].

وقال النبيُّ ﷺ «إذا رأيتَ الله تعالى أنعَم على عبده وهو مقيمٌ على معصيته فاعْلم أنه مستدرج» ثم تلا هذه الآية[(٣)].

والاستدراج استفعالٌ من الدَّرْج؛ أي: يُدْنيه إلى الهلاك درجةً فدرجةً في كتمانٍ وخُفيَةٍ، وقد دَرَج الكتابَ؛ أي: طواه شيئاً بعد شيء، ودَرَج القوم: إذا[(٤)] مات بعضهم في[(٥)] إثر بعضٍ، ودَرَج الصبيُّ: إذا قارَبَ بين خُطاه في المشي.

وقال عطاء: نزلت الآية في المستهزِئين[(٦)].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الاستدراج أن يُلقى في أوهامهم أنهم من أهل الوُصلة، وفي الحقيقة سبقت لهم في القسمة الفُرقة[(٧)].

وقيل: الاستدراج: انتشارُ الصِّيت بالخير في الخَلْق، والانطواءُ على الشرِّ في السرِّ مع الحق.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣١٢)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٩٤)، و«البحر» (١٠/ ٤١٧).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣١٢)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٤٨٦)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٣٠٨)، و«زاد المسير» (٣/ ٢٩٤).

(٣) لم أجده مسنداً.

(٤) في (ف): «أي».

(٥) في (ر): «على».

(٦) ذكره دون عزو الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣١٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٠٨)، وعزاه الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٨٨) للمفسرين.

(٧) في (ر): «سبقت لهم الفرقة في القسمة»، وفي «اللطائف»: (السابق لهم من القسمة حقائق الفرقة).

وقيل: الاستدراج: الرجوع من توهُّم صفاءِ الأحوال إلى ركوب قبيحِ الأعمال.

وقيل: الاستدراج: دعاوى عريضة صدرت عن أحوالٍ مريضة.

وقيل: هو اتِّساع[١] البِرِّ مع إنساء[٢] الشكر[٣].

***

(١٨٣) ـ ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾: قال الكلبي[٤]: أي: أُمْهِلهم، والملاوة بفتح الميم وضمها وكسرها: القطعة من الدهر؛ أي: أؤخِّر عنهم العذابَ مدةً وهم يتوهَّمون أنه توسعةٌ عليهم وإكرامٌ لهم.

وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قال الكلبي: أي: إن أخذي شديد، وقد قتلهم الله كلَّ رجلٍ منهم بغيرِ قتلِ صاحبه، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]، ونفسِّر ذلك في تلك الآية إن شاء الله تعالى.

قال عطاء: قتَلهم في ليلة واحدة[٥].

والكيدُ: الأخذ على خفاءٍ أو مجازاة كيدهم مع رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. والمتين: القويُّ، والمتانة: القوة.

***

---

(١) في (أ): «إيشاع»، وفي «اللطائف»: (إفاضة).

(٢) في (أ): «إنساع» وفي (ر): «انتشاء». وبُيض لها في مطبوع «اللطائف» لاشتباهها في نسخته الخطية.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٩٢).

(٤) «قال الكلبي»: ليس من (أ) و(ف).

(٥) ذكره دون عزو الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣١٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٠٨)، وعزاه الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٨٨) للمفسرين. وقاله مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٧٧).

(١٨٤) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾: وهذا تعجيبٌ من الله تعالى عبادَه من مقام الكفار على التكذيب بالنبيِّ ﷺ، وتسميتِهم إياه مجنوناً مع علمهم ما الجنون ووجودِهم إياه منزَّهاً عنه، وسماه صاحبَهم لأنه نبيُّهم يصحبهم ويخالطهم.

قال قتادة: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحذِّرهم عقوبةَ الله تعالى، فقام على الصفا ليلاً وجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً: (يا بني فلان، يا بني فلان) إلى الصباح، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوِّت إلى الصباح! فنزلت الآية[1].

وقوله: ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾؛ أي: جنونٍ، من مسِّ الجنِّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾: أي: ما هو إلا مخوِّفٌ ظاهر.

* * *

(١٨٥) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: هو[2] نظرُ القلب بالتفكُّر. والملكوتُ: الملكُ الأعظم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ عطفٌ على ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه: في جميع مخلوقات الله تعالى من الأشياء.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٤) عن قتادة قال: (ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصَّفا فدعا قريشًا، فجعل يفخِّذُهم فخذًا فخذًا..). وانظر: «الكشاف» (٢/ ١٨٢)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٤)، وفيهما: (.. بات يهوت..)، ومعناه: يصيح.

(٢) في (أ): «هذا».

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾: أي: وفي أن يكون أجلُهم لعله اقترب.

وهذا تعجيبٌ من الله تعالى على عباده[١] من مقام الكفار على التكذيب بالساعة والجزاء والحساب، يقول: أو لم ينظروا نظرَ استدلالٍ في السماوات والأرض وغيرهما، الدالَّةِ على قدرة الله تعالى وملكه، فيعلموا أنه لم يخلقْها عبثاً، ولا يترك عبادَه سُدًى، وأنه جعلها قِواماً لهم مدةَ كونهم في الدنيا ليعملوا بطاعة الله، ثم ينقلهم إلى دار الجزاء فيَمِيز بين المطيع والعاصي، وأن مَن مات فقد قامت قيامتُه، وأن آجالهم لعلها قد قربت، وإذا كان كذلك فقد أشرفوا على الهلاك، وإذا هلكوا فلا رجعةَ، ولا تمكِنُ التوبة فيتوبوا.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: بأي كلامٍ بعد أجَلهم يؤمنون؛ أي: ليس بعد الموت مستعتَبٌ، ولا إيمانٌ نافعٌ دافعٌ للعذاب.

وقال عطاء: ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: يومَ بدر وأحد[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ بعد القرآن يصدِّقون[٣]، يعني: أنه كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفِه، ولو اجتمعت الخلائقُ لم يأتوا بمثله، فإذا لم يقبلوا هذا فماذا يقبلون؟

ويحتمل أن يكون المراد: أنهم يقبلون الحديث، فإذا لم يقبلوا حديثَ رسول الله ﷺ فبأيِّ حديثٍ يقبلون.

---

(١) «على عباده» ليست في (ر).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٩٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ دليل على أن الحقَّ يلزمُ وإن كان لا يُعلم إلا بالتدبُّر والتفكُّر؛ لِمَا أنه أُلحق به[1] التهديد والوعيد الشديد[2].

وقال القشيري رحمه الله: أَلَاح الله لقلوب الناظرين حقائقَ التحصيل، فمَن لم يعرِّج في أوطان التَّقصير أنزلته مراكبُ السير بساحات التحقيق.

وقال في قوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾: الناس في مغاليط آمالهم ناسون لوشيك[3] آجالهم، فكم ناسجٍ لأكفانه، وكم بانٍ لأعدائه، وكم زارعٍ لا يحصدُ زرعَه[4].

* * *

(١٨٦) ـ ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ﴾: قرأ حمزة والكسائيُّ وحفصٌ عن عاصم بياء المغايبة، وجزمِ الراء عطفاً على موضع الفاء في جوابِ الشرط، وتقديره: لا يَهده أحد ويذره الله فِي طُغيانِه، وقرأ أبو عمرو بالياء ورفعِ الراء على الابتداء، وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر عن عاصم بالنون والرفع[5].

قوله تعالى ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾: أي: في إفراط ترفُّعهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتردَّدون متحيِّرين.

---

(١) في (ف): «بهذا».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٠٣).

(٣) في (أ): «لوشك».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٩٣).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥). وقراءة حفص عن عاصم فيهما برفع الراء، كقراءة أبي بكر عنه.

والبداية بالوحدان والختمُ بالجمع؛ لِمَا مرَّ: أن (مَن) لفظه واحدٌ وأريد به الجنسُ، فصلح لذا وذا، يقول: مَن علِم الله منه اختيارَ الضلالة أضلَّه، ومَن أضلَّه لم يهتدِ بالنظر والتفكُّر.

❊ ❊ ❊

(١٨٧) ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: أي: متى ثبوتُها وقيامُها؟ وقد رسا يرسو رَسْواً؛ أي: ثَبَت.

وقيل: هو استقرارُ الشيء الثقيل، ومنه: الجبال الراسيات، وأرساه غيرُه إرساءً ومُرْسًى؛ كقوله: إدخالاً ومُدْخلاً، وحقيقتُه: متى إثباتُها وتقديرُها؟

وكان النبيُّ ﷺ يدعوهم إلى الإيمان والطاعة، وينهاهم عن الكفر والمعصية، ويحذِّرُهم قيامَ الساعة، فقالوا: متى هي؟

قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لا يكشفها ولا يُظهرها إلا هو، فهو الذي يُقيمها وعنده عِلمُها.

وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خَفِيَ علمُها على كلِّ أهل السماوات والأرض، وكلُّ ما خفيَ علمه ثقُل على الفؤاد، رُوي معناه عن السدِّي وغيره[1].

وقيل: ثقُل مجيئُها على السماوات والأرض؛ لِمَا يَرِدُ على السماء بقيامها من الانشقاق وانتشارِ النجومِ وسقوطِ الشمس والقمر، وعلى الأرض من ذهاب بحارها

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣١٣)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٧).

وزوالِ جبالها؛ أي: يَستعظِم قيامَها أهلُ السماوات والأرض لهذه الأمور الهائلة وأنتم تسألون عنها مستعجلين لها غافلين عما يكون عليكم فيها؟ كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقيل: أي: عظُم وصفُها على أهل السماوات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾: أي: فجأة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: أي: كأنك ألحَحْتَ في طلب علمِها واستقصيتَ السؤال عنها فعَلِمْتَها، وقد أَحْفَى فلانٌ؛ أي: ألحَّ في المسألة، قال تعالى: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ [محمد: ٣٧].

وقال الفرَّاء: كأنك فَرِحٌ به، يقال: حَفِيتُ به حفاوةً وتحفَّيتُ تحفِّياً؛ أي: فرحتُ به وبَشَشْتُ[١]: وتقديره: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ به[٢].

وقيل: الحفيُّ: البرُّ اللطيف، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وتقديرها: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم؛ أي: برٌّ لطيف، وروي أنهم قالوا: إن بيننا وبينك قرابةً فأخبِرْنا عن وقتها إكراماً منك لنا وعطفاً علينا لقرابتنا، وإنْ كنت تكتمُها عن غيرنا[٣].

---

(١) في (أ): «وتشبثت» بدل: «به وبششت».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٩٩)، وفيه: (كأنك حفي بها). وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٩/ ٥٠٠) بلفظ: (بهم)، وعبارته: (كأنك حفيّ بهم إذا سألوك حين يسألونك عنها؛ أي: فرح بهم، فعلى هذا التقدير: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم؛ أي: بارٌّ بهم لطيف). قلت: وعلى ما قاله الواحدي فهذا الوجه كالذي بعده.

(٣) رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٦٧)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٤ و٦١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٧).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يتوهَّمون أنه موجودٌ علمُها عند غيرِ الله، قطَع الله أطماعَهم عن معرفتها بخبرٍ من النبيِّ ﷺ وإنما أعاد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ بعدما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾؛ لأن ختم الآية بأن الناس لا يعلمونه فقدَّم عليه إثباتَ علمه، ولأن الأول علمُ وقتِها والثاني علمُ كُنْهها.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كانوا يعاودون رسول الله ﷺ في هذا السؤال إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ فكفُّوا[١].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إنْ كان هذا السؤال عن المكذِّبين لها فهو سؤالُ استهزاءٍ، وإن كان عن المصدِّقين فهو سؤالُ استعلامٍ وإشفاقٍ ليتأهَّبوا لها، فإنهم لمَّا سمعوه يقرأ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ويقول: «بعثتُ أنا والساعةُ كهاتين»[٢] و: «كادت الساعة تَسبقُني»[٣] حملهم الخوف على هذا السؤال ليعلموا فيستعدوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أنها كائنة، أو: لا يعلمون أنك لا تعلم متى تكون، أو: لا يعلمون ما لهم وما عليهم فيها[٤].

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وروى ابن راهويه في «مسنده» (٧٧٧)، والبزار في «مسنده» (٢٢٧٩ ـ كشف الأستار)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧) و(٣٨٩٥) وصححه، عن عائشة رضي الله عنها: قالت: لم يزل النبيّ ﷺ يسأل عن الساعة، حتى أنزل الله عزّ وجل: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾. قلت: وعلى هذا يكون السائل هو النبي ﷺ بدليل ما جاء في بعض الروايات في آخره: (قال: فانتهى).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٩٤٧) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٠٦ و١٠٨).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: السائل عنها رجلان: منكِرٌ يتعجَّب لفَرْطِ جهله، وعارفٌ مشتاقٌ يستعجلُ لفَرْط شوقه، والمتحقِّق بوجوده ساكنٌ في حاله(١).

***

(١٨٨) ـ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أي: إنما يعلمُ الغيب من قيامِ الساعة وغيرِها مَن يملك النفع والضرَّ على الإطلاق، وهو الله تعالى، وأنا لا أملك الأمرين إلا ما ملَّكني(٢) الله تعالى منهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾: قال الزجاج: أي: ولو كنت أعلمُ الغيب لاستكثرتُ من معرفته حتى لا يخفَى عليَّ شيء ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾: أي: التكذيب(٣).

وقال الكلبي: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: متى أموتُ ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: العمل الصالح.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا ليس بقويٍّ؛ لأنه وإن كان لا يعلم

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٩٤).

(٢) في (ف): «ملكنيه».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٩٤)، وقد ذكر قولين: الأول ـ وابتدأ به ـ: لادَّخرتُ زمن الخِصْبِ لزمن الجَدْب. والثاني ـ وقدم له بقوله: قيل ـ: لو كنتُ أعلم ما أسأل عنه من الغيب في الساعة وغيرها [لأجبت عنه] ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ أي: لم يَلْحَقْني تكذيبٌ. ولعل مراد المؤلف هو القول الثاني، وقد نقله عنه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٠٠) ولم ينقل غيره، وما بين معكوفتين منه.

متـى يموت كان يَسـتكثر مـن[١] الخيـر ولا يقصِّر[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أهل مكة قالوا: يا محمدُ! ألا يخبرُكَ ربُّك بالسعر الرخيص قبل أن يغلوَ فتشتريَه فتربحَ به، أو يخبرُك بالأرض التي يريد أن تُجدِب فترتحلَ منها إلى ما أخصبَتْ، فأنزل الله هذه الآية[٣].

وروى حيان عن الكلبي: ولو كنتُ أعلم جدوبةَ الأرض وقحطَ المطر لهيَّأت لسنةِ القحط ما يكفيها ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: الضرُّ والفقر[٤].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهذا أيضاً ليس بقويٍّ[٥]؛ لأنه ـ وإن كان يعلم ذلك ـ لا يستكثِر المال، ولكن التأويل الصحيح والله أعلم: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ﴾ قيام الساعة متى يكون وأخبرتُكم به فصدَّقْتُموني وآمنتُم بي لاستكثرتُ الثواب بإيمانكم عند الله تعالى ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ أي: تكذيبُكم.

---

(١) «من»: زيادة من (ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٠٩).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣١٣)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٥٠٧)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٥٦)، و«زاد المسير» (٢/ ١٧٦) عن ابن عباس، و«تفسير أبي الليث» (١/ ٥٧٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٢٨)، عن الكلبي، ولعل الوارد عن ابن عباس هو من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه.

(٤) الظاهر أن هذا من تتمة الخبر السابق، فقد ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٠٩) معه، ولفظه: (وقال ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: وذلك أن أهل مكة قالوا: ألا يخبرك ربك يا مُحَمَّد بالتجارة المربحة فتتجر فيها فتربح، أو لا يخبرك بسنة القحط والجدوبة، أو يخبرك بوقت السعة والخصب؟! فقال عند ذلك: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ من جدوبة الأرض والقحط؛ ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ يقول: لتهيأت لذلك ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ من الضر والشدة).

(٥) في (أ) و(ف): «غير قوي» بدل: «ليس بقوي».

أو: ولو كنت أملك لكم نفعاً وضرًّا؛ نفعَ ما غاب ودفع ما غاب[1] اتبعتُموني، فكثر بذلك ثوابي.

أو: ولا أعلم الغيب إلا قَدْرَ ما أُوحي إليَّ، ولو كنت أعلم أكثرَ مما أُوحي إليَّ لاستكثرت من الخير.

أو: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: مَن يصدِّقني ومَن يكذِّبني، اشتغلتُ بدعوةِ مَن يجيبُ دون مَن لا يجيب، فاستكثرتُ الأتباع والمطيعين.

قال: وقيل في قوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾: أي: الجنون، جواباً لقولهم: إنه مجنون[2]، وقد مر ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: هم المنتفِعون بإنذاري وتبشيري، واتصال هذا بما قبله: أني لستُ بعالمِ الغيب بل أنا رسولُ عالمِ الغيب أرسلني نذيراً وبشيراً.

❊ ❊ ❊

(١٨٩) ـ ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: بيَّن الإنذار وهو للمشركين، وذكر في آخر هذه الآية شركَ الكافرين.

وقوله: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: من آدم.

---

(١) في (أ): «عاب».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٠٩ ـ ١١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: أي: حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾؛ أي: ليستأنس بها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾: أي: وَطِئها، وأصله: التغطية، والرجلُ لباسٌ للمرأة والمرأةُ لباسٌ للرجل(١)، فكان اجتماعهما تغشِّياً.

وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: أي: حين كان نطفةً ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾؛ أي: مضت بالماء على الخفة، أو بالحمل تقوم وتقعد وتمشي على سهولةٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾: أي: صارت ذات ثقلٍ بكبر الولد في البطن ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ أي: سألا الله وقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: ولداً سوي الأعضاء.

وقيل: صالحاً في الدين.

وقيل: أي: له صلاحيةُ كلِّ شيء مما يرجوه الآباءُ والأمهات من الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: لك على نعمائك(٢).

وقرأ يحيى بن يَعْمَرَ: (فمَرَتْ به) بتخفيف الراء(٣)، من مَرَى يَمْري؛ أي: شكَّت أنها حملت أم لا.

وقيل: أي: شكَّت أن في بطنها بشراً مثلَهما أو بهيمةً.

* * *

(١٩٠) ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) في (أ) و(ف): «له».

(٢) في (أ) و(ف): «إنعامك».

(٣) نسبت لابن عباس وأبي العالية ويحيى بن يعمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«المحتسب» (١/ ٢٦٩)، و«الكشاف» (٢/ ١٨٦)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٦)، و«البحر» (١٠/ ٤٤٠).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾: أي: ولداً سويًّا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكرٍ بكسر الشين[١]، ومعناه: نصيباً؛ كما في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؛ أي: نصيب.

وقرأ الباقون: ﴿شُرَكَآءَ﴾ بضم الشين ومدِّ الآخِر، وهو جمع شريك.

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تَنَزَّه الله تعالى عن الشريك.

قال الكلبي: إن إبليس ـ لعنه الله ـ أتى حواءَ حين أَثْقَلت[٢] في صورة رجل فقال: ما هذا الذي في بطنك؟ فقالت: ما أدري، قال: إني أخاف أن يكون بهيمةً، وذلك أولَ ما حملت، فقالت ذلك لآدم، فلم يزالا في همٍّ من ذلك، ثم عاد إليها فقال: إني من الله عز وجل بمنزلةٍ، فإن دعوتِ الله تعالى فولدْتِ إنساناً أَتُسَمِّينَه بي؟ قالت: نعم، قال: فإني أدعو الله تعالى، قال: فأتاها وقد ولدت غلاماً، فقال: سمِّيه باسمي، قالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، فسمَّتْه: عبدَ الحارث[٣].

---

(١) أي: ﴿شِرْكاً﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٢) في (ف): «انقلب» بدل: «حين أثقلت».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣١٥)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١١١ ـ ١١٢)، ورده الماتريدي كما سيأتي. وهذا الخبر وأمثاله مما دخل على كتب التفسير من الإسرائيليات، وقد فندها وبين حقيقتها ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية، وكذا أسهب في ردها وبيان خطأ مَن تناولها من المفسرين العلامة أبو شهبة في «الإسرائيليات والموضوعات» (ص: ٢٠٩ ـ ٢١٥) ثم خلص إلى أن التفسير الصحيح لها على وجهين ـ أحدهما لابن كثير ـ فقال: والمحققون من المفسرين منهم مَن نحا منحى العلامة ابن كثير فجعل الآية الأولى في آدم وحواء، وجعل قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ الآيةَ في المشركين من ذريتهما؛ أي: جعل أولادهما شركاء لله فيما أتاهما، والمراد بهم الجنس؛ أي: جنس الذَّكَر والأُنْثى، فمِن ثَمَّ حسُن قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالجمع، ويكون هذا الكلام من الموصول لفظاً المفصول معنى، ومنهم من جعل الآيتين في ذرية =

وقد ذُكر في هذه القصة زوائدُ وكلُّها باطلة.

وقد ردَّ الإمام أبو منصور رحمه الله وغيرُه من أئمة الحق هذا القولَ، وأبوا أن يكون آخرُ الآية المذكورة في الشرك في حقِّهما، ولئن ثبتَ أنهما سمَّياه عبد الحارث فهو ليس بشرك فإن المملوك يسمى عبد مالكه وهو ليس بشرك[١].

والتأويل الصحيح للآيتين ما قاله الحسن البصري رحمه الله: أن أول الآية في حق آدم وحواء عليهما السلام، وهو كالكلام المعترِض، والآيةُ الثانية المتَّصلة بها في حقِّ المشركين[٢]، وسياقهما على قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ أيها الناسُ ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي آدمُ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواءَ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فلما تَغشَّى آدمُ حواءَ ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ دعا آدم وحواءُ ربَّهما لئن أعطيتَنا ولداً سويًّا صالحاً في الدِّين؛ لأن آدم رأى حين أَخْذِ الميثاق على ذريته[٣] جميعَ أولاده:

= آدم وحواء؛ أي: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي نفس الذَّكَر ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾؛ أي: من جنسها ﴿زَوْجَهَا﴾ وهي: الأنثى، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: بشراً سويًّا كاملاً، ﴿جَعَلَا﴾؛ أي: الزوجان الكافران ﴿لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وبذلك أبدلا شكر الله كفراناً به وجحودًا، وعلى هذا: لا يكون لآدم وحواء ذكر مّا في الآيتين.

قلت: وسيأتي من كلام المؤلف في رد هذه القصة نحو هذا.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١١٢).

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٢٩) عن الحسن قوله: (﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم)، وفي رواية: (عني بهذا ذرية آدم، مَن أشرك منهم بعده) يعني بقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وفي رواية ثالثة: (كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادًا فهوَّدوا ونصَّروا). وساق هذه الروايات ابن كثير عن الطبري بأسانيدها وعقبها بقوله: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية.

(٣) بعدها في (ف): «وهم».

منهم السَّويُّ ومنهم غيرُ السَّويِّ، ومنهم التقيُّ ومنهم غيرُ التقيِّ، فسألا أن يكون هذا الولدُ سويًّا تقيًّا، وقالا: لئن آتيتَنا ذلك لنشكرنَّ لك، فأعطاهما الله تعالى ذلك فشكَرا؛ لأن آدم وحواء لم يكونا ليَعِدَا من أنفسهما ذلك ولا يفعلا، وهذا مفهومٌ وإن لم يذكر، وتمَّ الكلام.

ثم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: فلمَّا أعطى مَن بعدَهما مِن أولادهما كلَّ والدٍ ووالدةٍ من أهل الشرك ولداً صالحاً سويَّ الأعضاء جعَل هذان الأبوان لله شركاءَ فيما أعطاهما، وذلك على وجوه:

منها: أنهم كانوا يسمُّون الأولاد: عبدَ العُزَّى، وعبدَ اللَّات، وعبد مناةَ، وعبد يغوثَ، ونحو ذلك.

ومنها: أنهم كانوا يأتون بالأولاد حالما وُلدوا فيمسحونها بالأصنام، ويسجدون لها شكراً على هذه النعمة.

ومنها: أنهم كانوا يعلِّمون أولادهم الشركَ ويحمِلونهم عليه.

وإنما صحَّ صرفُ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ على هذين الأبوين لأن أول الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ وهو خطابُ الجمع، فتناولَ كلَّ الناس، فكان هذان الأبوان فيهم، ويدلُّ عليه ما بعده، وهو قوله جلَّ جلاله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهو جمعٌ، فدل على أنه على المشركين دون آدم وحواء.

وفيه أقاويلُ كثيرةٌ ووجوهٌ مختلفةٌ، وما ذكرناه أصحُّها وأسلمُها.

* * *

(١٩١) ـ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: أي: الأصنامَ، وإنما أدخل

فيها الواوَ والنون وذلك فيما يَعقل والأصنامُ جمادٌ؛ لأنهم كانوا يعظِّمونها وينزلونها منزلةَ الفاعلين[1] المختارين، فألحقوها بهم كما في قوله: ﴿أَحَدَعَشَرَكَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

* * *

(١٩٢) ـ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾: قال مقاتل: أي: ولا تقدر الأصنام منعَ السوء إذا نزل بعبَدتها، ولا تمتنِعُ الأصنام ممن أراد بها سوءاً مِن كسرٍ ونحوِه، فكيف يعبدون مَن هذا حالُه ويتركون عبادةَ الله[2].

وهو عطفٌ على قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ وهو استفهامٌ بمعنى التوبيخ.

* * *

(١٩٣) ـ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾: قرأ نافع بالتخفيف على الثلاثي، وقرأ الباقون بالتشديد على الافتعال منه[3].

ومعناه: وإن تدعوا[4] أنتم هؤلاء المشركين إلى الهدى لم يتابعوكم عليه.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾: أي: ساكتون، وهو كقوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وهو في قوم معاندين علِم الله منهم ذلك.

---

(١) في (أ): «وينزلونها كفاعلين».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٨٠).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٤) في (أ) و(ف): «تدعوهم».

وقيل: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: الأصنامَ التي تدعونها آلهة[١] ـ فقد مر ذكر ذلك في الآيات التي قبلها ـ لم يكن منها جواب؛ لأنها لا تعقل، فدعاؤها والصمتُ عنها واحد[٢].

* * *

(١٩٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: أي: الأصنام التي تَدْعونها آلهةً عبادٌ لله أمثالكم، وإنما جعلها عباداً له وهي جمادٌ؛ لأنها مخلوقة لله تعالى، وكلُّ مخلوقٍ لله فهو ذليلٌ لله تعالى كالعبد.

وقيل: في قوله: ﴿عِبَادٌ﴾ ألفُ الاستفهام مضمَرةٌ، وتقديره: أعبادٌ أمثالكم، وإضمارُها جائز كما في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩]؛ أي: أيخادعون الله، وقولِه: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦]؛ أي: أهذا ربي، وهذا استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: ليسوا بعبادٍ أمثالكم بل هي دونكم، ودليلُه ما ذكر في الآية التي بعدها: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ الآيَةَ؛ أي: ألَا تأنفون من عبادةِ ما هو دونكم في أنها ليست لها جوارحُ عاملةٌ ولكم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾: هذا الدعاء غيرُ الدعاء المذكور في أول الآية؛ أي: هذا دعاء السؤال؛ أي: سَلُوا حوائجَكم هذه الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: فليُجيبوكم إن كنتم صادقين[٣] أنها آلهةٌ، وهو على وجه التوبيخ والإنكار.

---

(١) بعدها في (ر): «من عباد الله أمثالكم وإنما جعلها عباداً له وهي جماد مضمرة عاجزة».

(٢) في (ر): «والصمت منها سواء».

(٣) «أي: فليجيبوكم إن كنتم صادقين»: ليس في (أ) و(ف).

(١٩٥) - ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: ليست لهم صفاتُ هذه الآلات، ولهم صورُ[1] هذه الجوارح بلا صفاتٍ، ولكم الجوارح والصفات، فهي دونكم، فمحالٌ منكم عبادتُكم إياهم، وهذا تسفيهٌ لهم، وهو كقول إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾: أي: أصنامَكم، فإنهم جعلوها شركاءَ لله، وأضافها إليهم لادِّعائهم ذلك.

وقيل: أي: الذين شاركوكم[2] في الكفر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾: أي: قد ذَممتُ أصنامكم، وسفَّهْتُ عقولكم وأحلامكم، فاقْصِدوني بما شئتُم من الكيد ولا تمهلونِ، فإني لا أخافكم في الله، وهذا مِن صِدْق توكُّله على الله، وهكذا كان سائرُ رسل الله؛ قال تعالى خبراً عن نوح عليه السلام: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١]، وقال تعالى خبراً عن هود عليه السلام: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ [هود: ٥٦] بعد قوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٥]، وقال تعالى خبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الممتحنة: ٤].

---

(١) في (ف): «صورة».

(٢) في (ف): «شاركوهم».

وقال الإمام القشيري رحمه الله: صدقُ التوكُّل على الله يوجبُ تركَ المبالاةِ بغير الله، وكيف لا يكون كذلك والمتفرِّدُ[١] بالقدرة على النفع والضرِّ والخير والشرِّ هو الله تعالى[٢].

* * *

(١٩٦) ـ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: يقول: كيدوني فلا تنظرون، فإنَّ ناصريْ وحافظيْ اللهُ الذي أكرمني بإنزال القرآن عليَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾: أي: يكفي مُهمَّات جميعِ الصالحين أيضاً.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَن قام بحقِّ الله تولَّى الله أموره على وجه الكفاية فلم يُحْوِجْه إلى أمثاله، وأجرى أمورَه على ما يريده بأفضاله، فإنْ لم يَفعل ما يهواه جعَله راضياً بما قضاه، فيكون روح الرضاء أتمَّ له من نفع العطاء[٣].

* * *

(١٩٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾: كرر هذا لأن الأول للتقريع والثاني للتقرير؛ أي: وليي الله الذي ينصرني ومعبودُكم لا ينصركم.

* * *

---

(١) في (ر): «والمنفرد».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٩٧).

(٣) المصدر السابق.

(١٩٨) ـ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾: قيل: أي: الأصنام، وقيل: أي: عبدة الأصنام[١]، كما في قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾، وكذا قوله تعالى:

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: يحتمل الوجهين، فإنْ حُمل على الأصنام فمعنى النظر: المقابلة، كما يقال: دُور بني فلانٍ تتناظر؛ أي: تتقابل.

وقيل: معناه: كأنهم ينظرون إليك وليست لهم أعينٌ باصرة.

وإن حمل على المشركين فمعناه: ينظرون[٢] إلى صورتك وهم لا يبصرونك على صفاتك بحقيقتك، ولو رأوك كما أنت لآمنوا بك واتَّبعوك.

* * *

(١٩٩) ـ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: أَمرَ محمداً ﷺ ـ بعد تعريف المشركين أن كيدهم لا يضرُّه ـ بمكارم الأخلاق الداعيةِ إلى الألفة والاتفاق فقال: خذ من الناس ـ أي: اقبَلْ منهم ـ ما عفا لك من أخلاقهم؛ أي: تيسَّر وسهُل، ولا تكلِّفهم الجهد، من قولك: أخذت حقي عفواً؛ أي: بسهولة.

وروي أنه سأل جبريل[٣] عليهما السلام: «ما الأخذُ بالعفو؟ فقال: أعطِ مَن

(١) «وقيل أي عبدة الأصنام»: زيادة من (أ).

(٢) «إليك وليست لهم أعين باصرة وإن حمل على المشركين فمعناه ينظرون»: ليس في (أ) و(ف).

(٣) في (ف): «قال لجبريل» بدل: «سأل جبريل».

حرَمك، وصِلْ مَن قطَعكَ، واعفُ عمَّن ظلَمك، وأحسِنْ[1] إلى مَن أساء إليك»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾؛ أي: خذ فضلَ أموال الناس، من قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ وذلك قبل فرض الزكاة[3].

وقال الضحاك: أي: خُذ ما عفا لك من أموال الناس ولا تسألهم ما وراء ذلك، وهو قبل فرضِ الزكاة[4]، وبعد ذلك أُمر أن يأخذ منهم طوعاً وكرهاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾: أي: بالمعروف[5]، وهو ما عرفه العقل والشرع، وهو كالنُّكْر بمعنى المنكَر، وقالوا: من العُرف تقوى اللهِ، وصلةُ الأرحام، وصونُ اللسان عن الكذب ونحوِه، وغضُّ البصر عن المحارم، وكفُّ الجوارح عن المآثم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: هو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وهو تحمُّل الأذى، والعفوُ عمَّن جنَى، والحِلمُ عمَّن جفا.

---

(١) في (ف): «وتحسن».

(٢) رواه بنحوه ابن مردويه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٨). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤٣) من طريق سفيان بن عيينة عن رجل قد سماه، ومن طريق سفيان عن أُميٍّ الصيرفي، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٨) من طريق سفيان عن أميٍّ عن الشعبي، وكل هذه مرسلات كما قال ابن كثير عند تفسير الآية، وزاد: (وقد روي له شواهد من وجوه أُخر). قلت: له شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند أحمد (١٧٤٥٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤١).

(٥) «أي: بالمعروف»: ليس في (ف)، وفي (أ): «وأمر بالمعروف».

وقال عطاء: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾[1]: بلا إلهَ إلا الله[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]؛ أي: الأنبياء أرسلوا بلا إلهَ إلا الله.

وقال مقاتل: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يعني: أبا جهل وأصحابَه، ونسخه آيةُ السيف[3].

وقال عبد الرحمن بن زيد: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «كيف يا رب والغضب» فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[4].

(إما) كلمتان: (إنْ) التي هي للشرط، و(ما) التي هي صلةٌ زائدة.

والنون في ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ للتأكيد، والنَّزْغ: الإزعاج بالحركة إلى الشر.

وقال مقاتل: يعني: وإما يفتننَّك من الشيطان فتنةٌ[5].

وقال عطاء: وإما يَعْرِضنَّك من الشيطان عارضٌ[6].

ومعناه: إن اعترض لك الشيطان بإفسادِ شيء من هذه الأخلاق التي أمرتك بها ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فاستعصِم[7] به من الشيطان الرجيم يَعصِمْك ويثبِّتْك، هذا الجواب مضمرٌ في آخره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: سميعٌ لكلامك عليمٌ بمرادك.

---

(١) في (أ): «وأمر بالمعروف».

(٢) ذكره عن عطاء الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣١٨)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٣١٦)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٥٤٤) من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٨١)، وانظر المصادر السابقة، فقد ذكروه من تتمة قول عطاء.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤٦) وهو مرسل.

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٨٢).

(٦) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٥٤٦) من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٧) في (ف): «فاعتصم».

(٢٠١) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزةُ: ﴿طَـٰٓئِفٞ﴾ بالألف، والباقون: ﴿طَيۡفٞ﴾ بغيرِ ألفٍ[1].

وقرأ سعيد بن جبير: (طَيِّفٌ) بتشديد[2] الياء[3]، وهما واحد عند بعضهم كالميْت والمائت والميِّت.

وقيل: الطيْف مصدرٌ، والطائف نعتٌ.

وقال الزجَّاج: طاف الخيال يَطيف بالياء، وطاف عليهم يطوف ـ أي: دار ـ بالواو[4].

ومَن جعل هذا من الطَّوف الواوي قال: (طَيْفٌ) أصله: (طيِّفٌ) بالتشديد ثم خفِّف، وهو كالهَيْن والهَيِّن.

والطَّيْف والطائف: ما ألَمَّ بالإنسان من عوارضِ[5] الشيطان.

يقول: إن المؤمنين المتقين اللهَ إذا نالهم طيفٌ من الشيطان؛ أي: وسوسةٌ بإغراء وتنفيذِ غضبٍ ﴿تَذَكَّرُواْ﴾؛ أي: مواعظَ الله ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾: قيل: أبصروا قبحَ ذلك، وقيل: أي: أبصروا الرُّشدَ فسلكوا طريقَه فسلِموا من نَزْغه، وإن ارتكبوا مأثماً ثم تذكَّروا وتابوا فغفر لهم؛ أي: يا محمد فكذلك فكنْ.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: وفيه دليلٌ أنَّ المتقين قد ينالهم ذلك، وهو في

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠١)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٢) في (أ) و(ف): «بتثقيل».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«البحر» (١٠/ ٤٦٣). وزاد ابن خالويه نسبتها لابن عباس.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٩٦).

(٥) بعدها في (ر): «من».

حال غفلتهم عن ذكر الله تعالى، والذاكر قد يغفلُ، فلكلِّ صارمٍ نَبْوةٌ، ولكلِّ عالمٍ هفوة، ولكلِّ جوادٍ كبوة، ولكلِّ عابد غفوة[١]، ولكلِّ قاصدٍ فترة، ولكلِّ سائرٍ وقفة، ولكلِّ عارفٍ حَجْبة، قال النبي ﷺ «وإنه ليغانُ على قلبي»[٢]، وقال النبيُّ ﷺ «إن الحِدَّة لتعترِي خيارَ أمَّتي»[٣]؛ أي: قد يعتريهم ذلك مع علوِّ رتبتهم فيُخرجهم عن دوام الحِلْم[٤].

***

(٢٠٢) ـ ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ ﴾: أي: وإخوانُ الشيطان، وهم الغُواة.

وقوله تعالى: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ﴾: أي: الشياطين يُديمونهم[٥] في الغي.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾: أي: لا يَكفُّون بعدما مدَّهم الشياطينُ في غيِّهم. أي: مَن عمِل بما يأمر[٦] به الشياطين، فإن الشياطين يزيدون في غيِّهم ويلحُّون

---

(١) في (أ): «ولكل عادم شره»، في (ر): «ولكل عايد شره»، والمثبت من (ف). وفي «اللطائف»: (ولكل عابد شدة).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١١٣٣٢) و(١١٤٧١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٤٥٠)، وابن الجوزي في «العلل» (١٢٢٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن الجوزي: لا يصح، وفيه آفات سلام الطويل. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦): فيه سلام بن سلم الطويل وهو متروك. ورواه ابن أبي شيبة في «مسنده» (٦١٦) من حديث أبي منصور الفارسي، وهو مختلف في صحبته، وقال البخاري: حديثه مرسل. انظر: «الإصابة» (٧/ ٣٨٨).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٩٩).

(٥) في (ر): «يدعونهم»، وفي (ف): «يمدونهم».

(٦) في (ف): «ما يأمر» وفي (ر): «ما تأمره».

عليهم بالإغراء[١]، ثم لا يمسكون عن ذلك حتى يُهلكوهم، فـ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ صفةُ الشياطين على هذا.

وقيل: صفةُ الغواةِ المشركين؛ أي: لا ينتهون عن الغي.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في هذه الآيات تقديمٌ وتأخيرٌ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ ـ أي: هلَّا اختلقتها من تلقاء نفسك ـ الآيةَ، ثم بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾ الآية[٢].

***

(٢٠٣) ـ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾: أي: إن الشياطين ليَمدُّونهم في الغيِّ، ومن ذلك أنهم يحملونهم على أن يطالبوك بالآيات المقترَحة، فإذا سألوك إحياءَ ميت[٣] يكلمهم ونحوَ ذلك فلم تأت[٤] به، قالوا لك: هلا اخترتَ هذا الذي سألناك وأتيتَ به وأنت رسولُ الله بزعمك، وللرسول معجزةٌ، فهلا تأتينا بالمعجزة التي نطلبها[٥] منك.

وقال الكلبي رحمه الله: أي: وإذا لم تأتِ أهلَ مكة بآية سألوكها تعنُّتاً قالوا:

---

(١) بعدها في (أ) و(ف): «من عمل».

(٢) لم أجده.

(٣) في (أ): «ميتة».

(٤) في (ف): «تأتهم».

(٥) في (ف): «طلبناها».

هلا تلقَّيتها فأتيتَنا بها من قبلِ أن نسألكها ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾[١].

وقيل: إذا لم تأتهم بآية اقترحوها قالوا: إنما أنت تتقوَّله فهلا اختَرْتَ شيئاً تقرأه علينا من عند نفسك، وما اعتذارُك بإبطاء الوحي عنك وليس ما تأتي به وحياً؟! ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ ولا أَختلِقُه من عند نفسي.

وقال مجاهد: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾؛ أي: هلا ابتدَعْتَها[٢].

وقال الفرَّاء: تقول العرب: اجتَبيتُ الكلام واختلقْتُه وارتجلْتُه؛ أي: افتعلْتُه[٣].

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لهذا القرآن حججٌ ظاهرةٌ يبصَرُ بها الحقُّ، وهادي إلى الطريق المستقيم، ويرحمُ الله مَن عمل به فيدخلُهم الجنة، وهذا نفعٌ يختصُّ به المؤمنون.

* * *

(٢٠٤) - ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: ويتصل بقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ يعني: القرآن.

وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم حين يسمعون ذكرَ الجنة والنار، فنزلت هذه الآية[٤].

---

(١) انظر: «الوسيط» (٢/ ٤٣٩)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٣١٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٤٤)، وبنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٥٥).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٦٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٢٠)، و«البسيط» (٩/ ٥٥٩)، و«زاد المسير» (٣/ ٣١٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٦٨)، وكلمة: «افتعلته» تحرفت في النسخ إلى: «اقتلعته»، والتصويب من المصادر. وانظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٠٢)، ولفظه: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾: هلا افتعلتها، وهو من كلام العرب جائز أن يُقال: اختار الشيء، وهذا اختياره.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٧٨)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٢١)، والواحدي في =

وقال قتادة: كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسلِّم ويسألهم: كم صلَّيتم؟ وكم بقي؟ فنزلت هذه الآية(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان المسلمون يتكلمون في الصلاة، فحرم الكلام في الصلاة بهذه الآية(٢).

وقال ابن مسعود وسعيد بن جبير وعطاء ومجاهد وعمرو بن دينار وزيد بن أسلم والقاسم بن مخيمرة: هذا في الخطبة(٣).

وقال مجاهد: في الخطبة والصلاة(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبيَّ ﷺ قرأ في المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه، فنزلت هذه الآية(٥).

وكذلك رُوي عن أبي العالية وعلباءَ بن أحمرَ(٦)، وهو نصٌّ على أنه لا قراءةَ على المقتدي، وأن قراءة الإمام قراءةٌ له.

* * *

= «البسيط» (٩/). ووقع بعدها في (ر): «وقال ابن عباس رضي الله عنهما»، ولا وجه لها.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٦٢).

(٢) لم أجده عن ابن عباس بهذا اللفظ، ورواه بنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٣٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٥٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره عنهم ـ عدا ابن مسعود ـ الواحدي في «البسيط» (٩/ ٥٦٥)، والقرطبي في «تفسيره» (٩/ ٤٣١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٦٤) عن مجاهد.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٦٤ ـ ٦٦٦) عن مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٦٤).

(٦) ذكره عنهما الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٢٧). وقوله: «علباء بن أحمر» تحرف في (أ) و(ف) إلى: «علي بن أحمر»، وفي (ر) إلى: «علي بن أحمد».

(٢٠٥) ـ ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: عنَى بالذكر القراءةَ في الصلاة، ﴿تَضَرُّعٗا﴾: جهراً باللسان ﴿وَخِيفَةٗ﴾[1]: سرًّا في القلب ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: لا جهراً مفرطاً[2].

وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾: أي: العشيات، وهي جمع أصيل، وهي ما بين العصر والمغرب؛ كاليمين والأيمان.

وقيل: الأصيل واحدٌ، وجمعه: الأُصُل، وجمع الأُصُل: الآصال، فهي جمعُ جمعٍ.

وقيل: الأُصُل اسم للواحد أيضاً.

وقيل: التضرُّعُ: الاستكانة، والخيفة: الخوف، والذكر: هو ذكر اللسان، والغدوُّ والآصال في حق الصلاة تخصيصٌ لهذين الوقتين بالذكر، كما في قوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤]، وسائرُها ثبتت[3] بغيرها من الآيات.

وقيل: الغدوُّ والآصال عبارةٌ عن الليل والنهار، وأراد به الذكرَ على الدوام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ خاطبه وأراد به أمته؛ أي: لا تقتدوا بالغافلين، لكنْ بالملائكة الذين لا يغفلون، وذلك قوله تعالى:

---

(١) في (أ): «خفية».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٢٢). وروى عنه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٦٤) أنه كان يقول في هذه: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾: هذا في المكتوبة، وأما ما كان من قصص أو قراءة بعد ذلك فإنما هي نافلة.

(٣) في (ف): «يثبت».

(٢٠٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: هم الملائكة، و﴿عِندَ﴾ بيان قربِ الكرامة دون المكان، فإن الله تعالى يتعالى[1] عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾: أي: فكونوا أنتم كذلك.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أثبت لهم عنديَّةَ الكرامة، وحفظ عليهم أحكامَ العبودية؛ لئلا ينفكَّ حالُ جمعهم عن نعتِ تفرقتهم، هذه سنَّةُ الله تعالى مع خواصِّ عباده[2]، يلقِّنهم خصائصَ[3] عين الجمع ويحفظُ عليهم حقائق عين التفرقة؛ لئلا يُخلُّوا بآداب العبودية في أوان وجود الحقيقة[4].

والحمدُ لله ربِّ العالمين، حمداً لا يشوبُه ريب ولا يخالطه عيب، حمداً لا لكثرته يُؤنَف ولا لجمَّته يُستنكَف، حمداً لا يحصَى عددُه ولا ينتهِي أمدُه، حمداً لا يَضجر عنه الجَلَد ولا يَفتُرُ عنه كلُّ أحد، وصلى الله على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبه أجمعين[5].

* * *

(١) في (ف): «نزه».

(٢) في (ف): «عباد الله».

(٣) في «اللطائف»: «يلقاهم بخصائص».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٠١).

(٥) من قوله: «حمداً لا يشوبه ريب...» إلى قوله: «ولا يَفتُرُ عنه كلُّ أحد» من (أ) و(ف). وقوله: «وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين» من (ر).

سُورَةُ الأَنفَالِ

سورة الأنفال

بسم الله الذي مِن عنده النصرُ وهو العزيز الحكيم، الرحمنُ الذي لم يعاجلْ بالعقوبة للقائلين: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، الرحيمُ الذي وعد الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا بالمغفرة والرزق الكريم.

وسورة الأنفال مدنية، وقيل: إلا آيةً، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

وقيل: غيرَ قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] فإنها نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال.

وهي خمسٌ وسبعون آية، وقيل: ستٌّ وسبعون آية، وقيل: سبع وسبعون آية، والاختلاف في ثلاثة مواضع: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، ﴿بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وكلماتُها ألفٌ ومئتان وأربعٌ وثلاثون، وحروفُها خمسةُ آلاف ومئتان وأحدٌ وتسعون[1].

وروَى أُبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة

(١) في (ف): «وسبعون».

الأنفال وبراءةَ فأنا شفيعُه يوم القيامة، شاهدٌ أنه بريء من النفاق، وأعطي عشرَ حسنات بعددِ كلِّ منافقٍ ومنافقةٍ، وكان العرش وحملةُ العرش يستغفرون له أيامَ حياته»[(١)].

وذُكر في «تفسير عبد بن حميد» مسنداً عن أبي أمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه قال: سألتُ عبادة بنَ الصامت رضي الله عنه عن سورة الأنفال، قال: فينا نزلت معشر أصحاب بدرٍ حين اختلفنا في الأنفال وساءت فيه أخلاقُنا، فانتزعها الله من أيدينا فجعلها إلى رسول الله ﷺ بما أَنزل من قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فقسَمها على السَّواء[(٢)].

ثم انتظامُ أولِ هذه السورة بآخر تلك السورة: أن الله تعالى ختم تلك السورةَ بذكر عظماءِ السماء، وهم الملائكةُ الذين وصفَهم الله تعالى بأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وافتتَح هذه السورة بذكر عظماءِ الأرض، وهم المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

ووجهٌ آخر: أنه ذكر في ختمِ تلك السورة الخيفةَ وفي افتتاحِ هذه السورة الوجلةَ، وهما واحد[(٣)].

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٨)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

(٢) رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٤/ ٥)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٢٧٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٥٩) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٣) من قوله: «ووجه آخر...» إلى هنا ليس في (أ) و(ف).

ووجهٌ آخر: ذكر هناك الاستماعَ للقرآن والإنصاتَ، وذكر هنا ما زاد في يقين المؤمنين إذا تُليت عليهم تلك الآياتُ.

ووجهٌ آخَرُ: أنه ذكر هناك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وذكر هاهنا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

وانتظام هذه السورة بتلك السورة: أن سورة الأعراف في بيان نصر المؤمنين ونجاتهم، وإهلاكِ الكافرين وعقوباتهم في أزمنةِ سائرِ المرسَلين، وهذه السورة في نصر[(١)] المؤمنين ونجاتهم[(٢)] وإهلاكِ الكافرين في زمنِ خاتم النبيين، وما وقع ببدرٍ بصناديد المشركين.

***

(١) في (ف): «نصرة».

(٢) «ونجاتهم»: ليست في (أ) و(ف).

سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾: قيل: هو سؤال الاستفتاء.

وقيل: هو سؤال الاستعطاء.

والأنفال: جمع نَفَلٍ، وهو الغنيمةُ، وأصله: الزيادة، ومنه: نوافل العبادات، ونوافل الولادات، والنَّفْل بالسكون: التطوُّع.

وقيل: الأنفالُ هاهنا: ما كان ينفِّلُه رسولُ الله ﷺ بعضَ الغُزاة على الخصوص من سَلَب المقتول ونحوِه.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: أي: يسأَلُك أصحابُك يا محمدُ عن الغنائم التي غنِمْتَها أنت وأصحابُك يوم بدرٍ: لمن هي؟ قل: لله ولرسوله؛ أي: جعَل الله الأمرَ فيه إلى الله ورسوله[1]، لا حقَّ لأحد منكم في شيءٍ منها إلا بإعطاء الرسول، وله البدل والحرمان والزيادة والنقصان، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان يومُ بدر قال النبيُّ ﷺ: «مَن صنَع كذا فله كذا»

---

(١) في (أ): «إلى ما يريد رسوله»، وفي (ر): «إلى ما يراه رسوله».

فتسارع في ذلك الشبَّان وبقيتِ الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله تعالى وكانت الغنائم ثَم[(١)] جاؤوا يطلبون ما جُعل لهم، فقالت الشيوخ: لا تَذهبوا بها دوننا، فقد كنَّا ردءاً لكم، فتنازعوا فنزلت الآية[(٢)].

وقال أبو أمامة الباهلي: سألتُ عبادةَ بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا نزلت، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه[(٣)] أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسوله، فقسمه رسول الله ﷺ بين المؤمنين، فكان في ذلك تقوى الله وطاعةُ رسوله وصلاحُ[(٤)] ذاتِ البين[(٥)].

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: نزلت فيَّ هذه الآيةُ، وذلك أنِّي أتيتُ رسولَ الله ﷺ بسيفٍ فقلتُ: يا رسول الله، هذا السيفُ قد شفَى الله به من المشركين، وإني أصبتُه فأعجبني فهبه لي، فقال: «ليس هذا لي ولا لك» فقلتُ: عسى أن يعطيه مَن لم يَبْلُ بلائي، فإذا رسول الله ﷺ خلفي فقلت: يا رسول الله إني أخاف أن يكون نزل فيَّ شيء، فقال: «إنَّ السيف قد صار لي [فهو لك]»، ونزل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية[(٦)].

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: نزلت هذه الآية

---

(١) «ثم»: زيادة من (أ).

(٢) رواه أبو داود (٢٧٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣)، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٣١).

(٣) في (ر): «به».

(٤) في (ر): «وإصلاح».

(٥) تقدم قريباً.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥) وما بين معكوفتين منه، وبنحوه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٥٦)، وأصل الحديث عند مسلم (١٧٤٨).

أولاً فصارت الأنفال لرسول الله، ثم نزلت ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقسم الله تعالى ذلك الخمس لرسوله ولمن سمِّي في الآية[1].

وروى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبيَّ عليه السلام قال وهو يحرض الناس على القتال: «إن الله تعالى وعدني أن يَفتح لي بدراً وأن يُغْنمكم عسكرهم، فمَن قتل قتيلاً فله كذا من غنائمهم» فلما تواقَعوا أوقع الله في قلوب المشركين الرعبَ وانهزموا، وتبعهم سَرَعان[2] القوم، فأسروا سبعين وقتلوا سبعين، وغنموا العسكر وما فيه، وأقام وجوهُ الناس في مصافِّ رسول الله عليه السلام معه، فلم يشذَّ منهم أحدٌ، ثم قام أبو اليَسَر كعب بن عمرو الأنصاريُّ أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله! إنك قد وعدتَ مَن قتل قتيلاً فله كذا، ومَن أَسر أسيراً فله كذا، وإنَّا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين، فقام سعد بن معاذ فقال: والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادةٌ في الآخرة ولا جبنٌ عن العدوِّ، ولكن كرهنا أن نُعْريَ مصافَّك فيعطفَ عليك خيلٌ من خيلِ المشركين فيصيبوك، فأعرض عنهما رسول الله عليه السلام، ثم قال[3] أبو اليَسَر بمثلِ مقالته وقام سعدٌ بمثل كلامه، وقال: يا رسول الله! إن الناس كثيرٌ، وإن الغنيمة والقتلى دون ذلك، وإن تعطِ هؤلاء الذين ذكرتَ لا يبقى لأصحابك كثيرُ شيء، فنزلت الآية، فقالوا: سمعاً وطاعة يا رسول الله، فرجع القوم وليس لهم من الغنيمة شيء، ثم نزل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ الآية[4].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٨٣)، وأبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٣٤٢)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ١٧٥).

(٢) في (ف): «فرسان». وسرعان الناس: أوائلهم المستبقون إلى الأمر. انظر: «القاموس» (مادة: سرع).

(٣) في (ف): «قام».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٨٨) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وذكره ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٢/ ١٦٤) عن الكلبي، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٢٤) عن ابن عباس، =

فقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ظاهرُه سؤالُ الاستفتاء، وهو السؤال عن الحُكم، وظهر ذلك بجوابه وإن كان السؤال مطلَقاً كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وهذه الأحاديث تدلُّ على أنه سؤالُ الاستعطاء، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (يسألونك الأنفالَ)(١) وهذا ظاهر.

وأما قراءة الجمهور: ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ فلا يقتضي إلا سؤالَ الاستفتاء، إلا أن يُجعل ﴿عَنِ﴾ بمعنى: مِن، ويكونَ للتبعيضِ، وحروف الصِّلات تتناوب.

أو يقال: كانوا يستَعْطون أولاً، ثم لمَّا تأخَّر الإعطاء استفتَوه حكمَها ومَصْرِفها، وقد روِّينا عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو مرويٌّ عن مجاهد وعكرمة ـ: أن الآية نسخت بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية(٢)، فكان في هذه الآية جَعْلُ كلِّها له، وفي الثانية صارت لأهل السُّهمان والغُزاة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي ثابتة لم تنسخ، وإنما معناها: قل الأنفال لله تعالى، ولا شكَّ أنها لله مع الدنيا وما فيها والآخرة، [و]هي لرسول الله ﷺ يضعها في مواضعها التي أمر الله تعالى بوضعها فيها(٣)، وبيَّن ذلك في الآية الثانية:

= وفي رواية عبد الرزاق بعض اختصار. وعلى كلٍّ فالكلبي متروك.

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤)، و«المحتسب» (١/ ٢٧٢). ووقع في النسخ: «يسألونك عن الأنفال»، وهو خطأ ظاهر.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١ ـ ٢٢) عن مجاهد وعكرمة والسدي، وذكره عنهم الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٣) ثم قال: وهذا قول ابن عباس في رواية الوالبي عنه. وذكره عن ابن عباس أيضا الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٤٢).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٢٢)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٢٦)، و«البسيط» (١٠/ ١٤). وما بين معكوفتين مستفاد من هذه المصادر.

أن لله تعالى خمسه ولأهل السهمان، وأربعة أخماسه للغزاة من الرجَّالة والفرسان.

وقيل: قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ هذا للتيمُّن بذكر الله تعالى وتعظيمِ حالِ رسول الله، والحاصل أنها لرسول الله ﷺ يحكم فيها بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي: ولا تنازعوا ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: تآلَفوا على الحق. و(ذات) تأنيث قولهم: ذو، ويكون نعتاً لاسمٍ مؤنَّثٍ مضمَر، كأنه قال: وأصلحوا أُلفة بينكم، وعلى هذا نظائره: كنتُ عند فلانٍ ذات ليلةٍ؛ أي: ساعة ليلة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي: بما تُخفيه الصدورُ، ألقت المرأة ذات بطنها؛ أي: حمل بطنها، وافعل كذا في ذات الله؛ أي: في مرضاة الله.

وقيل: (ذات) هي النَّفس، وسيمرُّ ذلك في هذه الوجوه كلِّها.

وقيل: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ أي: افعلوا فيما بينكم ما يعودُ بصلاح[1] أحوالكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي: أطيعوا الرسول فيما يأمر في الغنيمة وغيرها، فإن طاعته طاعةُ الله فإنها بأمر الله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أي: الإيمانُ يوجب ذلك، وهو كما يقال: افعل كذا إن كنت إنساناً؛ أي: الإنسانية توجبُ ذلك فلا تخالِفْها.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تطيعوا دواعيَ مُناكم، ولا تحكموا بمقتضَى هَواكم، والتقوى: إيثار رضى الحق على مراد النفس ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ بالانسلاخ عن شحِّ النفس وإيثارِ حقِّ الغير على ما لَكَ من الحظ، وتنقيةِ القلوب من الحسد والحقد[2].

---

(١) في (ف): «بإصلاح».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٠٢).

(٢) ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: ولما سمعوا الآية الأولى خافوا واتَّقوا الله وأطاعوا وسلَّموا، وتركوا الأنفال، فمدحهم الله بهذه الآية.

أو يقال: لما قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وصف المؤمنين الكاملين في الصفات بهذه الآيات، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت خوفاً شديداً تعظيماً لله تعالى وهيبة منه[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: أي: قُرئت عليهم بالأمر والنهي والحُكم، قبِلوا هذا الأمر والنهيَ والحكم، وصدَّقوا بالوعد والوعيد، وازدادوا إيماناً إلى إيمانهم بما كان قبل ذلك، وإنْ حُملت على أنهم كانوا آمنوا بها قبل ذلك وهذا على زيادة اليقين أو على الثبات على إيمانهم الكاملِ السابق، وأضاف فعل الزيادة إلى الآيات على التسبيب[2].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أي: يعتمدون، وبه يثقون.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تخرجهم شدةُ الخوف عن أوطان الغفلة، وتزعجهم عن مساكن الغَيبة، فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة، وفاؤوا إلى مشاهد الذكر، نالوا السكون إلى الله عز وجل، فيزيدُهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق، وتحقيقاً على تحقيق، فإذا طالَعوا جلال قدرته توكَّلوا عليه فأمدَّهم برعايته في نهايتهم كما استخلصهم بعنايته في بدايتهم.

---

(١) «منه»: زيادة من (ف).

(٢) في (ف): «التسبب».

قال: وسنَّةُ الله تعالى مع أهل العرفان ترديدُهم بين كشف جلاله وبين لطف جماله، فإذا كاشفَهم بجلاله وجِلت قلوبهم، وإذا لاطفهم بنعت جماله سكنت قلوبهم، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

قال: وقيل: وجلت قلوبهم لخوف فراقه، ثم تطمئنُّ أسرارهم بروح وصاله، فذكرُ الفراق يُفنيهم، وذكر الوصال يحييهم(١).

وقال السدِّي: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عند ذكر الوعيد، وتطمئن قلوبهم بالوعد، وهو كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: بالوعيد، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ أي: بالوعد.

* * *

(٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: أي: يُجْرون الصلاة على الاستقامة اللازمة فيها ويديمونها في أوقاتها.

﴿وَمِمَّا﴾ (من) للتبعيض؛ لأن الرزق منه حلالٌ وحرام، والممدوح هو الإنفاق من الحلال؛ أي: ينفقون الحلال من رزقهم في أداء الزكوات ونوافل الصَّدَقات، وفي مصالح الجهاد وسائر الطاعات.

ويحتمل: رزقناهم من سائر النعم من الأموال.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآيةَ، ليس ذكرُ هذه الصفات لشرط ثبوت الإيمان بإجماع الأمة أن مَن آمَن عن اعتقادٍ وإقرار على الصحة ثم مات من ساعته قبل أن يوجد منه شيءٌ من هذه الصفات فهو مؤمن، ولكن يحتمِل ثلاثة أوجهٍ صحيحة:

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٠٢).

إنما المؤمنون الذين حقَّقوا إيمانهم بهذه الأفعال.

والثاني: إنما المؤمنون الذين ظهر صدقهم عندكم بهذه الأفعال.

والثالث: إنما المؤمنون الذين قبلوا واعتقدوا هذه الأفعال، وهو كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هو على القبول والاعتقاد[١].

* * *

(٤) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: أي: إيماناً حقًّا.

وقيل: المصدِّقون إلهاً[٢] حقًّا.

وقيل: أي: حقيقة، وقيل: هو قسم، وقيل: أي: حقَّقوا أقوالهم بأفعالهم.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أي: درجاتٌ في الجنة.

وقيل: أي: مراتبُ في الآخرة: من إعطاء الكتب بالأيمان، وتلقِّي الملائكة بالبشارة بالجِنان، وتبييضِ الوجوه بالفضل والإحسان[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: سترٌ للذنوب[٤] فلا يُفتضحون.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: أي: جليلُ القَدْر في الجنة، لا يَفنى ولا يَنتقِص، ولا يتكدَّر ولا يتنغَّص.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٥٢ ـ ١٥٤).

(٢) في (أ): «لها».

(٣) في (أ) و(ر): «وتبييضِ الوجوه وسائرِ وجوه الفضل والإحسان».

(٤) في (ف): «أستر الذنوب».

وقال الحسين بن الفضل رحمه الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين فعلوا هذه الأفعال ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لا الذين يقولون بألسنتهم: آمنَّا، وقلوبهم منطويةٌ على خلافه، لا يقيمون صلاةً ولا يؤدُّون زكاة.

وقال ابن أبي نجيح(١): سأل رجلٌ الحسنَ: أمؤمنٌ أنت؟ فقال: إنْ كنتَ تسألُني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن، وإنْ كنتَ تسألُني عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فما أدري أنا منهم أم لا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ على حسبِ ما أهَّلهم له من الرتب، فبسابق قسمتِه لهم استوجبوها، ثم بصادق خدمتهم ـ حيث وفَّقهم لها ـ بلغوها، ﴿وَ﴾ لهم ﴿مغفرةٌ﴾: سترٌ لمسيئهم في المآل ولأكابرهم في الحال، فيَستر مثالب العاصين غداً فلا يفضحهم لئلا يُحجبوا عن مأمول أفضالهم، ويستر مناقب العارفين عليهم في الحال لئلا يُعجبوا بأحوالهم، وشتانَ بين السترين.

وأما الرزق الكريم: فما يعطيه اليومَ من حيث لا يُحتسب، وفي الجنة لا يقدرُ(٢) ما يكتسب.

وقيل: ما لا ينقص بإجرامهم(٣).

وقيل: ما لا يشغلهم به عن شهود الرازق(٤).

---

(١) قوله: «ابن أبي نجيح» كذا نقله المؤلف عن الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٢٨) وهو عبد الله بن أبي نجيح من رجال «التهذيب»، ورواه البيهقي في «الشعب» (٧٦) وفيه: تمام بن نجيح، وهو من رجال «التهذيب» أيضاً.

(٢) في (أ): «بقدر»، وليست هذه العبارة في «اللطائف».

(٣) في النسخ: «ما لا ينقصه بإجرامهم»، والمثبت من «اللطائف».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٠٣).

(٥) ـ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾:

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: لم يخرج لهذا الكلام جوابٌ في الظاهر؛ لأن جوابه أن يقول: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق يفعل[1] بك كذا، ثم أهلُ التأويل اختلفوا في جوابه:

قال بعضهم: هو صلةُ قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِ﴾؛ أي: يجادلونك في الأنفال كما جادلوك إذ أخرجك ربُّك من بيتك، فإنه قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾.

قال: ومنهم من يقول: جوابه في أمره بالقتال، يقول: كما أخرجك ربك من بيتك وهم كارهون، كذلك يكلِّفك القتال وهم كارهون لذلك.

قال: ومنهم مَن يقول: جوابه في قوله: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ كما أجبتُم اللهَ تعالى في الخروج للقتال على غيرِ تدبيرٍ منكم في ذلك ولا نظَر، فعلى ذلك يُجيبكم في النعاس أمنةً منه، وإنزالِ الماء من السماء والتطهيرِ به، وتثبيتِ[2] الأقدام، على غير علم منكم ولا تدبير.

قال: ومنهم مَن يقول: كما أخرجك ربك من بيتك غير متأهِّبين ولا مستعدِّين للقتال، كذلك يَعِدُكم النصرَ والظفر[3].

---

(١) في (ف): «فعل».

(٢) في (أ): «ويثبت».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

وقال غيره: أي: كما أخرجك ربك من بيتك بالمدينة إلى الروحاء، فاذهب[١] من الروحاء إلى بدر.

وقيل: إنه نزع الأفعالَ من أيديهم بالحق كما أخرجك ربُّك من بيتك بالحق.

وقيل: أي: ما بينَّاه لك حق كما أن إخراجك من بيتك كان بالحق.

وقوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ ولم يقل: كما خرجتَ، ولا: خرجوا؛ لأن الحامل لهم على الخروج إلى الروحاء طوعاً وطبعاً هو وعدُ الله لهم إحدى الطائفتين أنها لهم، ولم يكن عندهم أنهم يحتاجون إلى القتال، فكان ذلك إخراجاً لهم.

قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ قال الإمام أبو منصور: يحتمِل: بالحق الذي للهِ عليهم من الأمر بالخروج والقتال، ويحتمِل: بالوعد الذي وعَد من النصر والظفر.

وقيل: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالقرآن؛ أي: بالأمر في القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمِل: فريقاً من المؤمنين في الظاهر وهم المنافقون كرهوا ذلك اعتقاداً، كما قال في صفتهم: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، ويحتمِل أن يكون من المؤمنين في الحقيقة، ويكون هذا كراهيةَ طبعٍ لأنهم أُمروا به وهم غيرُ متأهِّبين له، وهو كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦][٢].

***

(٦) ـ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾: قيل: أي: في القتال، وقيل: أي: في الحق الذي وجب عليهم من ذلك.

---

(١) بعدها في (ف): «به».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٥٦).

وقيل: يعني[١]: في الوعد الذي وعدهم الله تعالى من الظفر والغنيمة.

وقال ابن عباس ومحمد بن إسحاق: إنما جادَلوه طلباً للرخصة في الانصراف، لا ردًّا لأمر الله تعالى[٢].

قوله تعالى: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾: أي: ظهر بقول النبي عليه السلام، وقولُه كان بأمر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾: وهذا كان من بعضهم، فأما أكثرهم فكانوا في أشدِّ رغبة فيه[٣].

رُوي أن سعد بن خيثمة وأباه تنازَعَا في الخروج إلى القتال، وكلٌّ واحدٍ منهما يقول: أنا أخرج[٤] وتتخلَّف أنت، فقال سعد: لو كان غيرَ الجنة لآثَرْتُك، إني لأرجو الشهادةَ في وجهي هذا، فقال خيثمة: آثِرْني به فأقِمْ، فأبى سعد، فقال خيثمة: إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم، فاستَهَما فخرج سهم سعد، فنهض فاستُشهد[٥].

وفي تأويل الآية وجهٌ آخرُ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ فكان خيراً لهم، فكذلك فأصلِحوا ذات بينِكم ولا تنازَعوا في الأنفال،

---

(١) «يعني»: من (ف).

(٢) رواه عنهما بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٧).

(٣) في هذا الكلام نظر، فإن نسبة الأمر للجميع إما أن يكون تعبيراً عن موقف الأكثر، أو أن البعض فعله والباقي وافقهم، أما أن ينسب فعل البعض للجميع والأكثرون منهم راغبون عنه غير راضين به فلا يقبل أن يفسر به كلام الله سبحانه، وما سيأتي من القصة لا يعبر بالضرورة عن موقف الأكثرين.

(٤) من قوله «فصارت الأنفال لرسول الله» إلى هاهنا من (أ) و(ف).

(٥) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٥٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤٨٦٦).

وإن كرهتُم ذلك فهو خير لكم، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ قاله عكرمة[١].

وقيل: هذا أمر من الله تعالى لرسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كُرهٍ من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون.

وقيل: الكاف بمعنى: على؛ أي: امضِ على ما أخرجك ربُّك من بيتك، كما تقول: كن كما أنت؛ أي: اثبت على حالك.

قال الواقدي: كانت وقعة بدر يوم الجمعة السابعَ عشر من شهر رمضان على رأسِ تسعةَ عشر شهراً من الهجرة[٢]، وكانت عيرُ قريش ترجع من الشام، وندب رسول الله ﷺ المسلمين وقال: «هذه عير قريش فيها أموالُهم، لعل الله يُغنِمُكموها فأسرعوا»[٣].

قال مقاتل: كان فيهم أبو سفيان بن حرب، وعمرو بن العاص، وعمرو بن هشام، ومَخْرَمةُ بن نوفلٍ الزُّهريُّ، في أربعين راكباً[٤].

فأخبر جبريل عليه السلام النبيَّ ﷺ بأمر العير، فندب النبيُّ ﷺ أصحابه فساروا، وبلغهم أن النبيَّ ﷺ يريدهم فبعثوا ضمضمَ بن عمرو الغِفاريَّ إلى مكة مستغيثاً، فخرجت قريش، وأَخبر جبريل النبيَّ ﷺ بذلك، فقال لأصحابه: «إن الله يعدُكم إحدى

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٣).

(٢) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢)، ورواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٤٠) عن أبي جعفر محمد بن علي.

(٣) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢٠)، وفيه: «... لعل الله يغنمكموها» فأسرع مَن أسرع... إلخ.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١١٦).

الطائفتين: إمَّا العيرُ، وإما فتحُ بدر، فما ترون؟» فأشاروا إليه بالعير[1]، وكرهوا القتال وقالوا: إنَّا لم نتَّخذ أُهبةً للقتال، إنما ندَبْتَنا إلى العير، فأعاد المشورة فأشاروا بالعير، فقال سعد بن عبادة[2]: يا رسول الله، انظر في أمرك فامضِ له، فوالله لو سرت إلى عدنِ أبينَ[3] ما تخلَّف عنك رجلٌ من الأنصار، ففرح رسول الله ﷺ بذلك.

وقال المقداد بن الأسود الكندي: يا رسول الله، إنَّا لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] بل نقول: امضِ لأمرِ ربِّك فإنا بين يديك مقاتلون ما دامت منا عين تَطرف[4]، فضحك النبيُّ ﷺ وقال له خيراً[5].

وفي رواية: قال المقداد: فوالذي نفسك بيده لو سرتَ إلى بَرْكِ الغِماد ـ وهي مدينة بالحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فدعا له بالخير[6].

---

(١) في (ف): «فأشاروا بالعير»، وفي (ر): «فأشاروا إليه بل العير».

(٢) قوله: «سعد بن عبادة» كذا وقع في بعض الروايات، ومنها ما رواه مسلم (١٩٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه، لكن قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٨٨): فيه نظر؛ لأن سعد بن عبادة لم يشهد بدراً، وإن كان يعد فيهم لكونه ممن ضرب له بسهمه...، قال: ووقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك بالحديبية، وهذا أولى بالصواب.

(٣) في رواية مسلم: (إلى برك الغماد).

(٤) في (أ) و(ف): «تطرف».

(٥) رواه بنحوه البخاري (٤٦٠٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٦) ذكر هذه الرواية الواقدي في «المغازي» (١/ ٤٨)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦١٥)، والقرطبي في «تفسيره» (٩/ ٤٦٢). وعندهم بدل «والذي نفسك بيده»: (والذي بعثك بالحق). وقوله: «وهي مدينة بالحبشة»، وقع مثله عند القرطبي، ولم يرد عند ابن هشام، وجاء عند الواقدي بدلاً منه: (وبَرْكُ الغِمَادِ مِن وراءِ مكة بخمسِ ليالٍ من وراءِ الساحلِ مما يَلي البحرَ، وهو على ثمانِ ليالٍ من مكة إلى اليمن).

وفي رواية الواقدي: لما استشارهم قام أبو بكر رضي الله عنه فأحسنَ، ثم قام عمر رضي الله عنه فأحسنَ، ثم قال: يا رسول الله إنها والله قريش ما ذلَّت مُذ عزَّت، ولا آمنت مُذ كفرتْ، والله لا تُسْلِمُ [عزَّها] أبداً ولتقاتلَنَّك، فتأهَّبْ أُهْبتَه وأَعِدَّ لذلك عُدَّته.

ثم قام المقداد وقال ما ذكرناه، ثم قال النبي ﷺ: «أشيروا علَيَّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصارَ، وكان يظنُّ أن الأنصار لا تنصُره إلا في الدار، وذلك أنهم شرطوا له أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسَهم وأولادهم، فلما قال ذلك قام سعد بن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسولَ الله تريدنا[1]؟ فقال: «أجل»، قال: إنك عسى أن تكون خرجتَ على أمرٍ قد أوحى الله تعالى إليك[2]، فإنَّا قد آمنَّا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئتنا به حقٌّ، وأعطيناك مواثيقَنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامضِ يا نبيَّ الله لِمَا أردْتَ ونحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضْتَ هذا البحر فخُضْتَه لخُضناه معك ما بقي منا رجل، وصِلْ مَن شئتَ واقطَعْ مَن شئتَ، وخُذ من أموالنا ما شئتَ، وما أخذتَ من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركتَ.

فلما فرغ سعدٌ قال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله، فإنَّ الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنِّي أنظر إلى مصارع القوم»، وأرانا رسول الله ﷺ مصارعَهم يومئذ: هذا مصرعُ فلانٍ وهذا مصرع فلان، فما عدا كلُّ رجلٍ مصرعَه[3].

فعلم القوم أنهم ملاقون القتال، وأن العير قد تفلَّتت، ورَجَوُا النصرَ لقول

---

(١) في (ر): «تريدهم»، والمثبت موافق لما في «المغازي».

(٢) العبارة في «المغازي»: (إنّك عَسَى أنْ تكونَ خَرَجْت عن أمرٍ قد أُوحيَ إليك في غيرِه).

(٣) رواه بنحوه مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، كان يُرينا مَصارِعَ أهلِ بدرٍ بالأمسِ، يقولُ: «هذا مَصْرَعُ فلانٍ غدًا، إنْ شاءَ اللهُ»، قال: فقال عمر: فوالذي بَعَثَه بالحقِّ ما أَخطَئوا الحُدودَ التي حَدَّ رسولُ الله ﷺ.

رسول الله ﷺ، ونزل رسول الله ﷺ أدنى بدرٍ عشاءَ ليلةِ الجمعة لسبعَ عَشْرةَ مَضَتْ من رمضان، فبعث عليًّا والزبيرَ وسعد بن أبي وقاص وبسبسَ بن عمرو يتجسسون[١] على الماء، وقال: «أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب»، فجاؤوا فوجدوا على القليب روايا قريش وفيها سُقَّاؤهم، فأَفْلَتَ عامَّتُهم، وكان فيهم عجيرٌ، وهو أولُ مَن جاء قريشاً بخبر رسول الله ﷺ وأصحابه، فنادى في العسكر: يا آل غالبٍ! هذا ابنُ أبي كبشةَ وأصحابُه قد أخذوا سُقَّاءكم، فماج العسكر.

فقال النبيُّ ﷺ للسُّقَّاء: «أين قريش؟» فقالوا: خلف هذا الكثيب الذي تَرى، قال: «كم هم؟» قالوا: بين الألف والتسع مئة[٢]، فقال: «مَن خرج من مكة؟» قالوا: لم يبقَ أحد إلا خرج، فأقبل النبيُّ ﷺ على الناس فقال: «هذه مكةُ قد ألقَتْ أفلاذ كبدها»[٣].

وكان المسلمون مع رسول الله ﷺ ثلاثَ مئةٍ وثلاثةَ عَشَر، ولهم[٤] سبعون بعيراً، وكان يتعاقب الإبلَ الاثنان والثلاثةُ والأربعة، فكان النبيُّ ﷺ وزيدُ بن حارثة وعليٌّ يتعاقبون بعيراً واحداً[٥].

وكان النبيُّ ﷺ قال حين نزل بالمنزل الأول في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان فنظر إلى أصحابه فقال: «يا ربّ، إنهم حفاةٌ فاحملهم، وجياعٌ فأَشْبِعهم، وعُراةٌ فاكسُهم، وعالةٌ فأَغْنِهم من فضلك»، فما رجع أحد إلا ومعه بعيرٌ وبعيران،

---

(١) في مطبوع «المغازي»: (يتحسسون).

(٢) في (ف): «بين ألف وتسعمئة».

(٣) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٤٨ ـ ٥٣).

(٤) في (ف): «ومعهم».

(٥) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢٣ ـ ٢٤).

واكتسَى مَن كان عارياً، وأصابوا طعاماً من أزوادهم، وأصابوا فداء الأسارى فأُغني به كلُّ عائل(١).

وكانت عاتكة بنتُ عبد المطلب رأت قبل قدوم ضمضمِ بن عمرٍو رؤيا أفزعَتْها، فأرسلت إلى أخيها العباسِ بن عبد المطلب وقالت: يا أخي! رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: يا آل غُدَرَ انفِروا إلى مصارعكم، صرخ بها ثلاثاً(٢)، فاتَّبعه الناس فدخل المسجد والناس يتبعونه، إذ مَثَلَ به بعيره على ظهر الكعبة، فصرخ مثلَها ثلاثاً، ثم مَثَل(٣) به بعيره على أبي قُبيس فصرخ مثلها ثلاثاً، ثم أخذ صخرةً من أبي قبيسٍ فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت(٤) فما بقي بيت من بيوت مكة إلا دخلته منها فلذةٌ.

وكان عمرو بن العاص يقول: لقد رأيتُ أنا كلَّ هذا، ورأيت في دارنا فلذةً من الصخرة، ولقد كان فيه عبرةٌ ولكنَّ الله تعالى لم يُرِدْ أن نُسلم يومئذٍ وأخَّر إسلامنا إلى ما أراد الله.

فاغتم(٥) العباس لذلك، وخرج فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعةَ وكان له صديقاً، فذكرها له واستكتمه، ففشا الحديث في الناس، قال: فغدوتُ أطوف بالبيت وأبو جهلٍ في رَهْطٍ من قريش يتحدَّثون برؤيا عاتكة، قال أبو جهل: يا بني عبد المطلب!

---

(١) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢٦).

(٢) في (أ): «ثلاث مرات».

(٣) في (أ) و(ف): «تمثل».

(٤) أي: تفتَّـتَتْ، ووقع في النسخ: «انقضت»، والمثبت من المصادر. انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢٩)، وكذا في رواية ابن إسحاق عن ابن عباس وعروة بن الزبير كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٠٧) و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٠)، ومثله في رواية عروة عند الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٣٤٦).

(٥) في (أ): «فأهم»، وفي (ف): «فاهتم».

أمَا رضيتُم أن يَتنبَّأ رجالكم حتى تتنبَّأ نساؤكم؟ زعمتْ عاتكةُ أنها رأت في المنام كذا، فسنتربَّص بكم ثلاثاً، فإن يكُ ما قالت حقًّا فسيكون، وإن مضت الثلاث ولم يكن نكتُب عليكم كتاباً أنكم أكذبُ أهلِ بيتٍ في العرب، فقال العباس[١]: يا مصفِّر استِهِ، أنت أولى باللوم والكذب منَّا.

فقال العباس: فغدوتُ في اليوم الثالث وأنا حديدٌ مغضَبٌ أرى أنْ قد فاتني منه أمرٌ أحبُّ أن أدركه، فوالله إني لأمشي نحوه وكان رجلاً حديدَ الوجه حديدَ اللسان حديدَ النظر، إذ خرج نحو باب بني سهم يشتدُّ، فقلتُ: ما له لعنه الله؟ أكلُّ هذا فرقاً من أنْ أشاتمَه، فإذا هو قد سمع صوت ضمضمٍ وهو يقول: يا معشر[٢] قريش، العير قد عَرَض لها محمدٌ في أصحابه، الغوثَ الغوثَ، وتجهَّزت قريشٌ فأخرجت أسلحتَها، وأعان قويُّهم ضعيفَهم وخرجوا[٣].

وأقبل أبو سفيان بالعِير، وخافوا خوفاً شديداً حين دنَوا من المدينة، واستبطؤوا ضمضماً والنفير، فلمَّا كانت الليلةُ التي يصبحون فيها على ماء بدرٍ غشيَتْهم تلك الليلةَ ظلمةٌ، وكان اللذان بعثهما رسول الله ﷺ لتجسُّس الخبر نزلا بدراً وسمعا جاريتين تقول إحداهما لصاحبتها: إنما العيرُ غداً أو بعد غد، فرجعا وأصبح أبو سفيان ببدرٍ، فرأى أبعاراً ففتَّها فإذا فيها نوًى، فقال: والله هذه علائفُ يثرب، هذه عيون محمد وأصحابِه ما أُراهم إلا قريباً، فعدَل عيرَه وسار بهم إلى مكة من طريق الساحل، وترك بدراً يساراً وانطلق سريعاً[٤].

---

(١) «العباس»: من (ف).

(٢) في (ف): «معاشر».

(٣) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢٩ ـ ٣٢)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٠٧ ـ ٦١٠)، و«المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).

(٤) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٣٩ ـ ٤١).

وخرج أهل مكة، ونزلوا حيث قلنا في حديث سُؤال النبيِّ ﷺ السُّقَّاءَ، ثم قال لأصحابه: «أشيروا عليَّ في المنزل»، فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلٌ أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدَّمه أو نتأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: «بل هو الرأيُ والمكيدة والحرب»، قال: فإن هذا ليس بمنزلٍ، انطلق بنا إلى أدنى ماءٍ إلى القوم فإني عالمُ بها وبقُلُبها، بها قَليبٌ قد عرفتُ عذوبةَ مائه، وماؤه كثيرٌ لا يُنزَح، ثم نبني عليه حوضاً ونقذفُ فيه الآنية، فنشرب ونقاتل ونغوِّر ما سواه من القُلُب، فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ وقال: الرأي ما أشار به الحباب، فقال ﷺ: «الرأيُ ما أشرتَ إليه» ونهض ﷺ وفعل ذلك.

ولمَّا تحول إلى المنزل أرسل عمار بن ياسر وابن مسعود فأطافا بالقوم، ثم رجعَا إلى النبي ﷺ فقالا: القوم مذعورون فَزِعون، إن الفرس ليريدُ أن يَصْهَل فيُضربُ وجهه، مع أن السماء تَسُحُّ عليهم، فلما أصبحوا قال منبِّه بن الحجَّاج وكان رجلاً يبصر الأثر: هذا أثرُ ابن سمية وأثر ابن أمِّ عبدٍ أعرفهما، قد جاءنا محمد بسفهائنا وسفهاء أهل يثرب.

وبُني لرسول الله ﷺ عَريشٌ من جَريدٍ، فقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشِّحاً بالسيف، فدخل النبيُّ ﷺ العريشَ هو وأبو بكرٍ، ونزل رسول الله ﷺ بالعدوة الشامية ونزلوا بالعدوة اليمانيَة، ثم دعا رسولُ الله ﷺ ربَّه، فنزل جبريل عليه السلام [بهذه الآية]: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٩].

وعدَّل رسولُ الله ﷺ الصفوف، فتقدم سوادُ بن غَزِيَّة أمام الصفِّ، فدفع النبيُّ ﷺ في بطن سوادٍ بقدحٍ وقال: «استوِ يا سواد»، فقال: قد[١] أوجعتني، والذي بعثك بالحق نبيًّا أَقِدْني، فكشف رسول الله ﷺ بطنَه ثم قال: «استَقِدْ»، فاعتنقه وقبَّله، فقال

---

(١) «قد»: ليس في (ف).

له: «ما حملك على ما صنعتَ؟» فقال: حضر مِن أمر الله ما ترى، فخشيتُ القتل، فأردتُ أن يكون آخرَ عهدي بك أن أعتنِقَكَ.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: وجاءت ريحٌ لم أَرَ مثلها قطُّ شدَّةً، ثم ذهبتْ فجاءت مثلُها أخرى، ثم ثالثةٌ، فكانت الأولى جبريلَ في ألفٍ من الملائكة فكانوا مع رسول الله ﷺ، والثانيةُ ميكائيلَ في ألفٍ فكانوا في ميمنة رسول الله ﷺ وأبي بكر، والثالثةُ إسرافيلَ في ألفٍ ونزل على ميسرةِ رسول الله ﷺ، وأنا في الميسرة[1]، ولمَّا هزم الله أعداءه جعلني رسول الله ﷺ على فرسه، فخرَّت بي فلما خرَّت[2] خررْتُ على عنقها، فدعوت ربي فأمسكني حتى استويتُ، وما لي وللخيل؟! إنما كنتُ صاحب غنم، فلما استويتُ طعنتُ بيدي هذه حتى اختضب مني إبطي.

وخطب رسول الله ﷺ فحمِدَ الله وأثنى عليه وقال: «أمَّا بعدُ، فإنِّي أحثُّكم على ما حثَّكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، فإن الله عظيمٌ شأنُه، يأمر بالحق ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهلَه على منازلهم عنده، به يُذْكرون وبه يَتفاضلون، وإنكم قد أصبحتُم بمنزلٍ من منازل الحق، لا يَقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتَغَى به وجهَه، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرِّج الله به الهمَّ، ويُنجي به من الغمّ، به تدرِكون النجاة في الآخرة، فيكم نبيُّ الله يحذِّركم ويأمركم، فاستَحْيُوا اليومَ أن يطَّلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، انظروا إلى الذي أمركم به في كتابه، وأراكم في آياته، وأعزَّكم بعد ذلةٍ، فاستمسِكوا به يرضى به ربُّكم عنكم، وأَبْلوا ربَّكم في هذه المواطن أمراً تستوجِبون به الذي وعَدكم من رحمته ومغفرته، فإن وَعْدَهُ حقٌّ وقولَه

---

(١) في (ف): «وكانوا في ميسرته» بدل: «ونزل على ميسرة رسول الله ﷺ وأنا في الميسرة».

(٢) في مطبوع «المغازي»: (فجمزت بي فلما جمزت)، وفي بعض نسخه: (فجرت بي فلما جرت).

صدقٌ وعقابَه[١] شديد، وإنما أنا وأنتم باللهِ الحيِّ القيوم، إليه ألجأْنا ظهورَنا، وبه اعتصَمْنا، وعليه توكَّلنا، وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين».

ورأى رسول الله ﷺ قريشاً تصوِّب[٢] في الوادي، وكان أولُ مَن طلَع زَمْعَةَ بنَ الأسود على فرسٍ له يتبعُه ابنُه، فاستجال بفرسه يريد أن يتبوَّأ للقوم منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ إنك أنزلتَ عليَّ الكتاب، وأمرتَني بالقتال، ووعدتَني إحدى الطائفتين، وأنت لا تُخلِف الميعاد، اللهمَّ وهذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تجادِلُ وتكذِّب رسولَك، اللهم نصرَك الذي وعدْتَني، اللهم أَحِنْهم الغداة».

ولمَّا نزل القوم أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إلى قريش فقال: ارجعوا فإنه أن[٣] يليَ هذا مني غيرُكم أحبُّ إليَّ مِن أن تَلُوه أنتم، وأَلِيَه من غيرِكم أحبُّ إليَّ من أن أليَه منكم، فقال حكيم بن حزام: قد عَرَض نَصَفاً فاقبلوه، والله لا تُنْصَرونَ عليه بعدما عرَض من النَّصَف، فقال أبو جهل لعنه الله: والله لا نرجع بعد أنْ أَمْكَنَ الله منهم، ولا[٤] نطلبُ أثراً بعد عينٍ، ولا يتعرَّض لعِيرنا بعد هذا أبداً.

فلمَّا تزاحَفَ الناس قال الأسوَدُ بن عبد الأسد المخزوميُّ[٥]: أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم أو لأهدمنَّه أو لأموتنَّ دونه، فشد حتى دنا من الحوض، فاستقبله حمزة ابن عبد المطَّلب فضربه فقطع قدمه، فزحف الأسود حتى وقع في الحوض وهدمه برجله الصحيحة وشرب منه، واتَّبعه حمزة فضربه في الحوض حتى قتله.

---

(١) في (ف): «وعذابه».

(٢) في (ف): «تضرب».

(٣) «أن»: من (ف).

(٤) في (ف): «والله لا».

(٥) «المخزومي»: ليست في (أ) و(ف).

والمشـركون ينظـرون علـى صفوفهـم وهم يرون أنهـم ظاهرون، فدنـا الناس بعضهم مـن بعض.

وقال عكرمة: قال النبيُّ ﷺ: «إن تُطِعْ قريش صاحب الجمل الأحمر رشَدوا» يعني: عتبة؛ لأنه قال: يا معشر قريش، لا تقاتلوا هؤلاء، فإنكم إنْ فعلتُم لم يزلِ الرجلُ منكم ينظر في وجه قاتل أخيه وابنه وابن عمه، فإن[1] يكن محمد ملكاً أكلتُم في مُلك أخيكم، وإن يكن[2] نبياً كنتُم أسعد الناس به، وإن يكن كذَّاباً كفَتْكُموه العرب. فأبوا أن يطيعوه، فقال: أَنشُدُكم الله في هذه الوجوه التي كأنها المصابيحُ أن تجعلوها كأنها وجوهُ الأفاعي، فقال أبو جهل لعنه الله: لقد انتفخَ سَحْرُك[3]، فقال عتبة: يا مصفِّرَ اسْتِهِ[4]، ستعلمُ أيَّنا الجبانُ اللئيم المفسِد لقومه، ثم قال لأخيه شيبةَ وابنِه الوليدِ: انزلا، فخرج عتبةُ وشيبةُ والوليد حتى فصَلوا من الصفوف، ثم دعوا للمبارزة، فخرج إليهم فتيانٌ ثلاثة من الأنصار وهم بنو عفراء: معاذٌ ومعوِّذٌ وعوفٌ، فاستحيا رسول الله ﷺ من ذلك وكرِه أن يكون أولُ قتال[5] لقي فيه المسلمون المشركين في الأنصار، وأحبَّ أن تكون الشوكة ببني عمه وقومه، فأمرهم فرجعوا إلى مصافِّهم، وقال لهم خيراً، ثم نادى منادي المشركين: يا محمد، أخرج لنا الأكفاءَ

---

(١) في (ف): «قاتل أخيه وأبيه وإن».

(٢) في (ر): «كان».

(٣) السَّحْرُ: ما تَعَلَّقَ بالحُلْقوم؛ ولهذا قيل للرجلِ إذا جَبُنَ: انْتَفَخَ سَحْرُه، كأنَّهم أرادوا الرئةَ وما معها. انظر: «مجمع الغرائب» لعبد الغافر الفارسي (مادة: سحر).

(٤) قوله: «يا مصفر استه» قيل: رَمَاه بالأُبْنة، وأنَّه كان يُزَعْفِرُ اسْتَه، وقيل: هي كلمةٌ تقال للمُتَنعِّم الذي لم تحنِّكه التَّجاربُ، وكأنَّه أُخِذ من الصَّفيرِ، يريد أنَّه يُضرِّط نَفْسَه بيده، وهو كقولك: يا ضَرَّاط. انظر: «مجمع الغرائب» (مادة: صفر).

(٥) في (ر): «قتل».

من قومنا، فقال رسول الله ﷺ «قوموا يا بني هاشم فقاتلوا بحقِّكم الذي بعث الله به نبيَّكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله» فقام حمزة بن عبد المطلب وعليٌّ بن أبي طالب وعبيدةُ بن الحارثِ بنِ عبد المطلب بن عبد منافٍ، فمشَوا إليهم، فقال عتبة: تكلَّموا نَعْرِفْكم، وكان عليهم البيضُ فأنكَروهم[١]، فقال حمزةُ: أنا حمزةُ بن عبد المطَّلب أسدُ الله وأسدُ رسوله، فقال عتبة: كفؤٌ كريم، وأنا أسدُ الحلفاء، مَن هذان معك؟ فقال: عليٌّ بن أبي طالب وعُبيدةُ بن الحارث، فقال: كفؤان كريمان، ثم قال عتبة لابنه الوليد: قُم يا وليد، فقام الوليد وقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان أصغرَ النفر، فاختلَفا ضربتين فقتله عليٌّ، ثم قام عتبةُ فقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين فقتله حمزة، ثم قام شيبة فقام إليه عبيدةُ بن الحارث وهو يومئذ أسنُّ أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب شيبةُ رِجل عبيدة بذباب السيف فأصاب عضلةَ ساقه فقطعها، وكرَّ حمزة وعليٌّ على شيبةَ فقتلاه، واحتمَلا عبيدةَ فجاءا به إلى الصفِّ ومخُّ ساقه يسيل، فقال عبيدة: يا رسول الله، ألستُ شهيداً؟ قال: «بلى»، ونزلت فيهم هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ الآية.

وإن إبليس لعنه الله تصوَّر بصورة سُراقة بن جُعْشُمٍ يخبرُ المشركين أنه لا غالبَ لكم[٢] اليوم من الناس، فلما أبصر عدوُّ الله الملائكةَ نكَص على عقبيه وقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فتشبَّث به الحارث بن هشام وهو يَرى أنه سراقةُ لِمَا سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث فسقط، وانطلق إبليس لا يُرى حتى وقع في البحر، ورفع يديه وهو يقول: يا رب موعدَك الذي وعدْتَني.

فأقبل أبو جهل لعنه الله على أصحابه فحضَّهم على القتال، وقال: لا يغرنَّكم

---

(١) «فأنكروهم»: ليس من (ف).

(٢) في (ف): «لهم».

خذلانُ سراقةَ إياكم، فإنما كان على ميعادٍ من محمد وأصحابه، سيعلم إذا رجعنا إلى قومه[١] ما نصنع بقومه، ولا يهولنَّكم مقتلُ عتبةَ وشيبةَ والوليدِ فإنهم عَجِلوا وبَطِروا حين قاتلوا، وايمُ الله لا نرجعُ اليوم حتى نفرِّق محمداً وأصحابه في الجبال، فلا أُلْفِيَنَّ[٢] أحداً منكم قتلَ محمداً[٣]، ولكنْ خذوهم أخذاً حتى نعرِّفهم[٤] بالذي صنعوا بمفارقتهم دينكم ورغبتِهم عما كان يَعبد[٥] آباؤهم.

وكان فتيةٌ من قريشٍ سبعةٌ قد أسلَموا فاحتبَسهم آباؤهم، فخرجوا معهم إلى بدرٍ وهم على الارتياب، فلمَّا رأوا قلَّة أصحاب النبيِّ ﷺ قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ الآيات [الأنفال: ٤٩].

والتحم القتال ورسولُ الله ﷺ رافعٌ يديه يسأَلُ الله النصرَ وما وعَده، ويقول: «اللهم إنْ ظهر عليَّ هذه العصابةُ ظهر الشرك ولا يقومُ لك دِينٌ» وأبو بكر رضي الله عنه يقول: والله لينصرنَّك الله يا رسول الله، وليُبيِّضنَّ الله وجهَك، فأنزل الله تعالى ألفاً من الملائكة مردِفين.

وكان سِيْما الملائكةِ عمائمَ قد أرخَوها بين أكتافهم خضراً وحمراً وصفراً من نُورٍ، والصوفُ في نواصي خيلهم، وفي مغافرهم[٦] وقلانسهم، وكان الملَك يتصوَّر في صورةِ مَن يعرفون من الناس يثبِّتونهم ويقول: إني قد دنوتُ منهم فسمعتُهم

---

(١) في «المغازي»: (إلى قديد)، وقديد: قرية جامعة بين مكة والمدينة كثيرة المياه.

(٢) في (ف): «ألقين».

(٣) في «المغازي»: (قتل أحداً)، وهو الأنسب بالسياق.

(٤) في (ف): «خذوهم أخذاً نعذبهم».

(٥) في (ر): «عليه».

(٦) في (أ): «مفارقهم».

يقولون: لو حملوا علينا ما ثبتنا، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] فأخذ رسول الله ﷺ كفًّا من الحصباء[١] فرماهم بها وقال: «شاهتِ الوجوه، اللهمَّ أرعِبْ قلوبهم وزلزِلْ أقدامهم».

فانهزم أعداء الله لا يَلْوون على شيء، والمسلمون يقتلون ويأسرون، فأقبل عاصم بن عوف كأنه ذئبٌ فقال: يا معشر قريش، عليكم بالقاطِع مفرِّق الجماعات الآتي بما لا نعرف، محمد لا نجوتُ إن نجا، واعترضه أبو دجانة فاختلفا ضربات، وضربه أبو دجانة فقتله، فوقف على سلَبه يسلبه، فمرَّ به عمر وهو على تلك الحال فقال: دَعْ سَلَبه حتى يُجهَض العدوُّ وأنا أشهدُ به لك.

ولما رأت بنو مخزوم مقتَلَ مَن قُتل أجمعوا على أن يُلبسوا لأمة أبي جهل رجلاً منهم، فألبَسوها عبد الله بن المنذر، فقصده عليٌّ فقتله وهو يراه أبا جهلٍ، فضربه فقتله وهو يقول له: خذها وأنا ابن عبد المطلب، ثم ألبَسوها أبا[٢] قيس بن الفاكه، فقصده حمزة وهو يراه أبا جهل فضربه فقتله حمزة وهو يقول له[٣]: خذها وأنا ابن عبد المطلب، ثم ألبسوها آخرَ[٤] فقصده عليٌّ فقتله، وأبو جهل في أصحابه، ثم أرادوا أن يُلبسوها آخر[٥]، فأبى أن يلبسها يومئذ.

فقال معاذ بن عمرو بن الجموح: نظرت إلى أبي جهل يومئذ في مثل الحَرَجة[٦]

---

(١) في (ر): «الحصى».

(٢) في (ف): «ألبسوها آخر وهو أبو».

(٣) في (ف): «فقال» بدل: «حمزة وهو يقول له».

(٤) في «المغازي»: (ثم ألبسوها حرملة بن عمرو).

(٥) في «المغازي»: (أن يلبسوها خالد بن الأعلم).

(٦) الحرجة: الغيضة التي تضايقت لالتفافها. انظر: «الفائق» (١/ ٢٧٣).

وهم يقولون: يا أبا الحكم لا يُخلَص إليك، فعرفتُ أنه هو، فقلتُ: والله لأموتن دونه اليوم أو لأخلصنَّ إليه، فقصدتُه حتى إذا أَمْكنَتْني منه غرةٌ حملتُ عليه فضربتُه ضربةً طرحت رجلَه من الساق، فشبَّهتها بالنواة تنزو من تحت المراضخ(١)، ثم أقبل ابنه عكرمةُ عليَّ فضربني على عاتقي فطرح يدي من العاتق إلا أنه بقيت جلدتُها، فأنا أسحب يدي بجلدة من خلفي، فلما آذَتْني وضعتُ عليها رجلي فتمطَّيت عليها حتى قطعتُها.

ورُوي أن النبي ﷺ نفَّل معاذَ بن عمرو سيفَ أبي جهل وهو عند آله اليومَ، بعد أن أرسل النبيُّ ﷺ إلى عكرمة فسأله: «مَن قتل أباك؟» قال: الذي قطعتُ يده.

ولما وضعتِ الحرب أوزارَها أمر النبيُّ ﷺ أن يُلتمس أبو جهلٍ لعنه الله، قال ابن مسعود: فوجدتُه في آخرِ رَمَقٍ، فوضعت رجلي على عنقه فقلتُ: الحمد لله الذي أخزاك، فقال: إنما أَخزى الله عبدَ بنَ أمِّ عبدٍ، لقد ارتقيتَ مُرتَقاً صعباً يا رويعيَّ الغنم، لمن الدَّبرة(٢)؟ قلت: لله ولرسوله، فاقتلعت بيضته عن قفاه فقلتُ: إني قاتلك يا أبا جهل، قال: لستَ بأول عبد قتل سيده، أمَا إن أشدَّ شيء لقيتُه اليومَ في نفسي لقتلُك إياي، فضربه عبد الله ضربة فوقع رأسه بين يديه، ثم سلبه، فنظر إلى خصره كأنها السياط، وأقبل بسلاحه ودرعه وبيضته فوضعها بين يدي رسول الله ﷺ فقال: أبشر يا نبيَّ الله بقتل عدوِّ الله أبي جهل، فقال النبيُّ ﷺ: «أحقاً يا عبد الله فوالذي نفسي بيده لهو أحبُّ إليَّ من حُمر النَّعم»، وذكرتُ ما به من الآثار فقال: «ذلك ضربُ الملائكة»، وقال: «إنه أصابه جحشٌ(٣) من دفعةٍ دفعتُه في مأدبةِ ابن جدعان

---

(١) المراضخ: جمع المرضخة، والمرضخة حجر يرضخ به النوى؛ أي يكسر. انظر: «النهاية» (مادة: رضخ).

(٢) قوله: «لمن الدبرة»؛ أَيْ: الظَّفَرُ والنَّصْرُ والدَّوْلَة، ويقال: عَلَى مَن الدَّبَرَةُ؟ أَي: الهَزِيْمَةُ. والباء من (الدَّبرة) يجوز فيها الفتح والتسكين. انظر: «مجمع الغرائب» (مادة: دبر)، و«النهاية» (مادة: دبر).

(٣) في (ف): «خمش أي خدش».

فجُحِشت[١] ركبتُه»، فالتمَسوه فوجدوا ذلك الأثرَ، فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ قد أنجزْتَ ما وعدْتَني فتمِّم عليَّ نعمتَك»، وقال: «اللهم اكفِني نوفلَ بن خُويلد».

وأقبل نوفلٌ يومئذٍ وهو مرعوبٌ قد رأى أصحابه قتلى، وكان[٢] أولَ ما التقوا يصيح بصوت له زجل: يا معشر قريش، اليومَ يومُ العلا والرِّفعة، فلما رأى قريشاً قد انكشفت جعل يصيح بالأنصار: ما حاجتُكم إلى دمائنا؟ ألَا[٣] ترون مَن تقتلون؟ أمَا لكم في اللِّين من حاجة؟ فأسره جبَّار بن صخرٍ، وكان[٤] يسوقه أمامه، وأقبل عليٌّ رضي الله عنه فقتله، فأُخبر النبيُّ ﷺ بذلك، فكبَّر وقال: «الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه».

وأقبل العاص بن سعيد يحثُّ للقتال، فالتقى هو وعليٌّ فقتله عليٌّ.

وقال عكاشةُ بن مِحْصَنٍ: انقطع سيفي فأعطاني النبيُّ ﷺ عوداً، فإذا هو سيف أبيضُ، فقاتلتُ به حتى هزَم الله تعالى المشركين، فلم يزل عنده حتى مات.

وبينما حارثةُ بن سُراقةَ رضي الله عنه كارعاً في الحوض إذ أتاه سهمٌ غَرْبٌ[٥] فوقع في نحره، فلقد شرب آخر النهار من دمه، فبلغ أمَّه وأخته وهما بالمدينة مقتلُه، فقالت أمه: والله لا أبكي عليه حتى يَقدَم رسول الله ﷺ فأسألَه، فإن كان[٦] ابني في

---

(١) في (ف): «فخمشت».

(٢) في (ف): «قد رأى قتل أصحابه وهو».

(٣) في (ف): «أما».

(٤) في (ف): «وجعل».

(٥) «سهم غرب»: هو الذي لا يعرف راميه، قال ابن الأثير: يقال: (سَهْم غَرب) بفتحِ الرَّاءِ وسكونها، وبالإضافةِ وغيرِ الإضافةِ. وقيل: هو بالسُّكونِ إذا أَتَاهُ من حيث لا يدري، وبالفتح إذا رماه فأصابَ غيرَه. انظر: «النهاية» (مادة: غرب).

(٦) في (ف): «يكن».

الجنة لم أبكِ عليه، وإن كان في النار بكيتُ عليه[١]، فلما قدم رسول الله ﷺ جاءت وسألت فقالت: يا رسول الله، قد عرفتَ موقع[٢] حارثة من قلبي[٣]، فأردتُ أن أبكيَ عليه ثم قلتُ: لا أفعل حتى أسأل رسول الله ﷺ، فإن كان في الجنة لم أَبْكِ عليه، وإن كان في النار بكيتُه، فقال ﷺ: «أوَجنَّةٌ واحدة، إنها جنانٌ كثيرة، والذي نفسي بيده إنه لفي الفردوس الأعلى»[٤]، فقالت: لا أبكي عليه أبداً، ودعا رسول الله ﷺ بإناءٍ من[٥] ماء، فغمس يده فيه ومضمض فاه، ثم ناول أمَّ حارثة[٦] وأختَه فشربتا منه[٧]، ثم أمرهما أن ينضحا في جيوبهما ففعلتا، فرجعتا وما بالمدينة امرأتان أقرَّ عيناً ولا أسرَّ منهما.

ولما جُمعت الغنائم اختلفوا فيها على ما مرَّ في أول السورة، ونزل ما قلنا، وأخذ عليٌّ رضي الله عنه درعَ الوليد ومِغْفرَه، وأخذ حمزة رضي الله عنه سلاح عتبةَ، وأخذ عبيدةُ بن الحارث رضي الله عنه درعَ شيبة بنِ ربيعة حتى دُفعت إلى ورثته.

وكانت في الغنائم إبلٌ وأنطاعٌ وثياب فقسَّمها بينهم، فجعل يصيب[٨] الرجل البعيرَ ورحلَه معه، وآخرَ بعيران، وآخر أنطاعٌ، وكانت السُّهمان ثلاثَ مئة وسبعةَ

---

(١) في (ف): «بكيته».

(٢) في (ف): «موضع».

(٣) في (ف): «مني».

(٤) رواه بنحوه البخاري (٢٨٠٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) في (ف): «فيه».

(٦) في (ر): «أمه».

(٧) بعدها في (أ) و(ف): «ثم ناول ابنتها فشربت»، وفيها تكرار، وعبارة «المغازي»: (ثُم ناولَ أمَّ حارثةَ فشربَت، ثم ناولَت ابنتَها فشرِبَتْ).

(٨) في النسخ «نصيب»، والمثبت من «المغازي».

عشر سهماً، والرجالُ ثلاثَ مئة وثلاثةَ عشر رجلاً، والخيلُ فرَسان، للراجل سهم وللفارس سهمان.

وكانت إبل الغنيمة(١) مئةً وخمسين بعيراً، وأدَمٌ كثيرٌ حملوه للتجارة فغنِموها، وكان فيما أصابوا قطيفةً حمراءَ، ففقدوها فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ الآية.

وكان غَنِم رسول الله ﷺ جملَ أبي جهل، فلم يزَلْ عنده يَضرب في إبله ويغزو عليه حتى ساقه في هدي الحديبية، فسأله يومئذ المشركون الجملَ بمئة بعير، فقال: «لولا أنا(٢) سمَّيناه في الهدي لفعلْنا».

وأخذ أيضاً ذا الفَقَار صَفيًّا لنفسه، وكان لـمُنبِّه بن الحجَّاج.

ولما أُسر سهيل بن عمرو قال عمر: يا رسول الله، انزِعْ ثنيتيه(٣) فلا يقومَ عليك خطيباً أبداً، فقال: «لا أمثِّله(٤)، ولعله يقوم مقاماً لا تكرهه» فقام سهيلٌ حين جاءه وفاةُ رسول الله ﷺ(٥) بخطبةِ أبي بكر رضي الله عنه بمكة كأنه كان سمعها، فقال عمر حين بلغه كلام سهيل: أشهد أنك رسول الله، يريد حيث قال: «لعله يقوم مقاماً لا تكرهه».

وأمر بالقُلُب أن تغوَّر(٦)، ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلُّهم إلا أميةَ بنَ خلف فإنه كان سميناً انتفخ من يومه وتزايلَ لحمه حين جرُّوه، فقال: «اتركوه»، ونظر إلى

---

(١) في (ف): «القسمة».

(٢) «أنا»: ليس من (ف).

(٣) في (ر): «أنتزع ثنيتاه».

(٤) في «المغازي»: (لا أمثل به).

(٥) بعدها في (ر): «يخطبهم»، والمثبت من (أ) و(ف) و«المغازي».

(٦) في (أ): «يعود»، والمثبت من (ر) و(ف) و«المغازي».

عتبةَ يُجرُّ، وكان جسيماً[١] جميلاً في وجهه أثر الجدري، ورأى وجه ابنه أبي حذيفة تغيَّرَ، فقال: «يا أبا حذيفةَ، كأنك ساءكَ ما أصاب أباك» فقال: لا والله يا رسول الله، ولكني رأيتُ لأبي عقلاً وشرفاً كنتُ أرجو أن يهديَه الله تعالى للإسلام.

وقال ﷺ: «الحمد لله الذي جعل حدَّ[٢] أبي جهلٍ الأسفلَ، فصرعه وشفانا منه».

ولما توافَوا في القليب وقف عليهم وناداهم: «يا عتبةَ بنَ ربيعةَ ويا شيبةَ بنَ ربيعةَ ويا أميةَ بنَ خلفٍ ويا أبا جهل بنَ هشام، هل وجدتُم ما وعدكم[٣] ربُّكم حقّاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، بئس القومُ كنتُم لنبيِّكم، كذَّبتموني وصدَّقني الناس، وأخرجتُموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس» قالوا: يا رسول الله تنادي قوماً قد ماتوا؟! فقال رسول الله ﷺ: «قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقًّا»[٤].

ولما صلَّى العصر بعد انهزام المشركين وصلَّى ركعة تبسَّم، فلما سلَّم سئل عنه فقال: «مر بي ميكائيلُ وعلى جناحه النَّقْع وتبسَّم إليَّ وقال: إني كنت في طلب القوم».

وأتاه جبريل على فرسٍ أنثى قد عصَم ثنيَّتَه الغبارُ وقال: إن ربِّي بعثني إليك وأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى، هل رضيتَ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم».

وأمر النبي ﷺ عاصم بن ثابت أن يضربَ عنقَ عقبة بن أبي مُعيط، فجعل

---

(١) في (ر): «سميناً»، والمثبت من (أ) و(ف) و«المغازي».

(٢) في «المغازي»: (خد).

(٣) في (أ): «وعد».

(٤) روى بعضه البخاري (٣٩٧٦) مسلم (٢٨٧٥) من حديث أنس عن أبي طلحة رضي الله عنهما. والبخاري (٣٩٨٠)، ومسلم (٩٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. ومسلم (٢٨٧٥) من حديث أنس عن عمر رضي الله عنهما، و(٢٨٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

يصيح على ماذا[١] أقتل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لعداوتك لله ولرسوله» فقال: مَن للصِّبْية؟! قال: «النار، قدِّمْه يا عاصمُ فاضْرِبْ عنقَه» فقدَّمه فضرب عنقه، فقال ﷺ: «بئس الرجلُ كنتَ، والله ما علمتُ كافراً بالله ورسوله وكتابه مؤذِياً لنبيِّه أسوأَ منك، فأحمدُ الله الذي قتَلك وأقرَّ عيني منك».

وقدِم رسول الله ﷺ المدينةَ، فقدِم بالأسرى وأمُّ سلمة قيل لها: أُتي بالأسرى، فقالت: يا رسول الله، إن بني عمِّي طلبوا منِّي[٢] أن يُدْخَلَ بهم عليَّ فأُضيِّفَهم وأدهنَ رؤوسَهم وأَلُمَّ من شعَثهم، ولم أحبَّ أن أفعلَ ذلك حتى استأمرَك، فقال ﷺ: «لستُ أكرهُ شيئاً من ذلك، فافعلي من ذلك ما بدا لك».

وبلغ النجاشيَّ مقتلُ قريشٍ ببدرٍ وما أظفر اللهُ به نبيَّه، فخرج في ثوبين أبيضين[٣]، ثم جلس على الأرض، ثم دعا جعفر بن أبي طالب وأصحابه فقال: أيُّكم يعرف بدراً؟ فأخبروه، فقال النجاشي: أنا بها عارفٌ، قد رعيتُ الغنمَ في جوانبها، ولكن أردتُ أن أتثبَّت منكم، قد نصر الله تعالى رسوله ببدرٍ فاحمَدوا الله على ذلك، فقالت بطارقتُه: أصلح الله الملكَ! إن هذا شيءٌ لم تكن تصنعُه، تلبس ثوبين وتجلس على الأرض؟ فقال: إني من قوم إذا أحدثَ الله لهم نعمةً ازدادوا لها[٤] تواضُعاً، و[يقال: إنه] قال: إن عيسى عليه السلام كان إذا حدَثت له نعمةٌ ازداد لها تواضعاً.

ومشت نساءُ قريش إلى هندٍ بنت عُتبة فقلنَ: ألا تبكِينَ على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟ فقالت: أأبكي فيَشمت بنا محمدٌ وأصحابه ونساءُ بني الخزرج،

---

(١) في (ف): «ما».

(٢) «مني»: ليس من (أ) و(ف).

(٣) في (ف): «أصفرين». وفي هامشها ما يوافق المثبت، وهو موافق لما في «المغازي».

(٤) في (أ) و(ف): «بها».

لا والله حتى أثأر[١] محمداً وأصحابه، فلم تمسَّ دهناً ولم تقرَب فراش أبي سفيان حتى كانت وقعة أحد[٢].

* * *

(٧) ـ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾: أصل (إحدى): وِحْدَى، قُلب واوُه همزةً لوقوعها طرفاً، والأصل في أحدٍ: وَحَدٌ على هذا، والطائفتان: الجماعتان، وهما عيرُ قريش تَغنمونها أو الجيشُ تقتلونهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾: أي: تحبُّون بالطباع الطائفةَ غيرَ ذاتِ الشوكة، وهي السلاحُ، ورجلٌ شاكِي السلاح؛ أي: تامُّه، وأصله[٣] الحدَّةُ، مأخوذة من الشوكة المعروفة، وهي التي تَنبُت في المفازة، وأراد بهذه الطائفة العيرَ، وإنما كان كذلك لخروجهم من غير عِدَّةٍ فخافوا الطائفةَ ذاتَ الشوكة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾: أي: يُظهِر الدِّينَ الحقَّ بمواعيده في نصرته ونصرةِ أهله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾: أي: يستأصلَهم، ودابرُ القوم: آخرُهم والآتي بعدهم، وقد دَبَرهم يَدْبُرهم ـ من حدِّ دخَل ـ؛ أي: أتى بعدهم، وإذا قطعَ آخرَهم لم يبقَ منهم أحدٌ.

وقيل: هو قطعُ المدد عنهم.

---

(١) في (ف): «اتبع آثار»، والمثبت من (أ) و(ف) و«المغازي».

(٢) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٥٣ ـ ١٢٤)، وما سلف بين معكوفتين منه. وكل ما ذكر في هذه القصة مختصر من المصدر المذكور.

(٣) في (أ) و(ر): «وأصل».

(٨) ـ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾: أي: يأمرُهم[١] بالقتال ليُحقَّ الحقَّ؛ أي: هذا مضمَر.

﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾: عطف عليه، ومعناه: ليُظهر حقِّيَّة[٢] الحقِّ وبطلانَ الباطل.

وقيل: أي: ليُثبت الحقَّ ويزيلَ الباطل.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: قال الكلبي: أي: كفار مكة.

وقال الحسن: نزلت هذه الآية قبل قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ الآية وهي في القراءة بعدها[٣].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أبى الله تعالى أن يصلَ أحدٌ إلى جلائلِ النِّعم إلا بتجرُّع كاسات الشدائد، والانسلاخِ عن مألوفِ الحظوظ والفوائد، وإذا أراد الله تخصيص عبدٍ بولايته قضى لطوارق نفسه بالأفول، وحكم لغصن شهواته بالذُّبول، وأبى لطوالع الحقائق إلا إشراقَها، ولجوامع[٤] الموانع إلا امتحاقها[٥].

* * *

(٩) ـ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: أي: واذكروا إذ كنتم تَستصرِخون ربَّكم وتسألونه تفريجَ ما بكم من الخوف عند التيقُّن بوقوع القتال ولا عُدَّةَ لكم، وتدعونه أن ينصركم عليهم.

---

(١) في (ف): «يأمر».

(٢) في (أ): «حقيقته».

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٢٩٧).

(٤) في (أ): «وجوامع»، وفي (ر): «وبجوامع».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٠٥).

ثم معنى الاستغاثة ـ مع سبقِ الوعد بإحدى الطائفتين، وكذا الكراهة الطبيعيَّة الشديدة حتى شبِّهت بالسَّوق إلى الموت ـ ما ذكره الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: أن الآية تحتمل وجوهاً:

أحدها: أن الله وعد نبيَّه عليه الصلاة والسلام، وهو لم يبيِّن لهم بعدُ.

والثاني: أنه يبيِّن لهم لكن لم يعرفوا وقته، فلم يأمَنوهم للحال[1].

والثالث: أنهم علموا ذلك بالوعد، لكن هذا كراهةُ طبعٍ لا تخلو النفسُ عنه مع تيقُّن القلب بالوعد.

والرابع: أن يكون النصر موعوداً لهم بالتضرع والاستغاثة، فكان خوفهم من التقصير في ذلك الشرط

والخامس: أنه محنةٌ امتحنهم الله تعالى بها ليثابوا عليها؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥][2].

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾: قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر بفتح الدال، وقرأ[3] الباقون بكسرها[4].

وقد ردِفه؛ أي: جاء بعده، وأَردفه[5] غيرُه، وقد يجيءُ أردف بمعنى رَدِف لازماً، قال الشاعر:

إذا الجوزاءُ أَرْدَفتِ الثُّريَّا ... ظننتُ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا[6]

---

(١) في (ر): «في الحال».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٥٩).

(٣) في (أ) و(ف): «وقرأها».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٤)، و«التيسير» (ص: ١١٦)، والقراءة بفتح الدال فيهما عن نافع فقط.

(٥) في (ف): «وردفه».

(٦) البيت لخزيمة بن نهد كما في «الأغاني» (١٣/ ٨٥)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ١٢٣)، =

ثم تفسيره هاهنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: مردِفٌ كلُّ ملَكٍ ملكاً[١]، فعلى هذا هم ألفان.

وقال قتادة والسُّدِّي: متتابِعين[٢].

وقال مجاهد: أي: مُمِدِّين للمؤمنين[٣].

وقيل: لاحِقين المشركين في انهزامهم، وقد مر وجه الجمع بين ذكر الأَلْف في هذه الآيةِ، وثلاثةِ آلافٍ في قوله تعالى: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، وخمسةِ آلاف في قوله: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] في آل عمران في هذه الآية.

***

(١٠) ـ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾: ولم يجعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارةً لكم وطمأنينةً لقلوبكم.

ثم قوله: ﴿بُشْرَىٰ﴾ اسمٌ، وقوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ فعلٌ، والتقدير: إلا بشرى لكم وطمأنينةً لقلوبكم، أو: إلا ليبشِّركم ولتطمئنَّ به قلوبكم، فيُجعلان فعلين أو مصدرين ليتَّفِقا.

= و«مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٧٥)، وجاء في «الصحاح» (مادة: ردف): خزيمة بن مالك بن نهد، وفي «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٣٤٥): حزيمة بن نهد، بالحاء، وأشار إليه الميداني حيث قال: ويروى: حزيمة، كذا قال أبو الندى في «أمثاله». وفاطمة هي بنت يَذْكُرَ بن عَنَزَةَ، وكان الشاعر يهواها.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٥)، ورواه عن ابن عباس أيضاً.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: أي: ليس ذلك بالملائكة بأنفسهم.

وقولُ مَن قال: إن الملائكة لم يقاتلوا يومئذ وإنما نزلوا تسكيناً للقلوب، ليس يستقيم، فقد قال نصًّا[١]: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: ١٢] وكذا ما ذُكر الصحابة في رؤيتهم ضاربينَ لم يعرفوهم، وقولُ المشركين: ما قهرتمونا وإنما قهرَنا قومٌ لا نراهم الآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: أي: منيعٌ لا يغالَب ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله[٢]، ينصر أولياءه ويَقهر أعداءه.

وقال القشيري رحمه الله: بشَّرهم بالإمداد بالملَك، ثم[٣] رقَّاهم عن هذه الحالة بإشهادهم العونَ[٤] من الملك، فلم يقرِّرهم إلى المساكنة إلى الإمداد، وقرَّر عندهم أن النصر من عنده والإنجاد، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: النجاةُ من البلاء حاصلة، وفنون اللطائف متواصلة، والدعواتُ مسموعة والإجابةُ [غير] ممنوعة، ولكن الله تعالى عزيزٌ، والطالب واجدٌ لكن لعطائه، والراغب واصلٌ لكن إلى مَبَارِّه، والسبيل سهلٌ لكن إلى وجدان لطفه، فأما الحقُّ فهو عزيز وراء كلِّ فصل ووصل وقرب وبعد، وما وصل أحدٌ إلا إلى نصيبه، ولا بقي أحدٌ إلا عن حظِّه، وأنشدوا:

وقلنَ لنا نحن الأهلةُ إنما ... نُضيء لمن يسري بليلٍ ولا نَقْرِي
فلا بذلَ إلا ما تزوَّد ناظرٌ ... ولا وصلَ إلا بالخيالِ الذي يسري[٥]

---

(١) في (ف): «تعالى».
(٢) في (ر): «وأحواله».
(٣) في (ف): «حتى».
(٤) في (ف): «بإشهادهم بالغوث»، وفي «اللطائف»: (بإشهادهم أن الإنجاز).
(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦)، وما بين معكوفتين منه.

(١١) ـ ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً ﴾ قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بضم الياء وتشديد الشين ونصبِ سينِ ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ من التغشية وهي تعديةُ الغِشْيان.

وقرأ نافع بضم الياء وتخفيف الشين من الإغشاء، وهو للتعدية أيضاً، ولذلك نصَب هو ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ أيضاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يغشاكم﴾ بفتح الياء والتخفيف وضمِّ سِين ﴿النعاسُ﴾[١] من الغِشْيان وهو لازمٌ[٢]، و﴿النعاسُ﴾ فاعل.

والنعاس: ابتداءُ حال النوم قبل الاستثقال، يقول: فاطمأنَنْتُم إذا أتاكم النومُ وغطَّى عيونكم، فأَمِنْتُم تلك الليلةَ مع علمكم بقتال العدو.

وقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾: أي: أماناً[٣] من الله تعالى مما[٤] خفتُم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: النعاسُ في القتال أمنةٌ من الله، وهو في الصلاة من الشيطان[٥].

---

(١) انظر هذه القراءات في «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٦)، و«جامع البيان في القراءات السبع» للداني (٣/ ١١٣٥)، و«النشر» (٢/ ٢٧٦)، وسقطت قراءة نافع من مطبوع «التيسير».

(٢) بل متعد، ومفعوله مذكور معه، وهو الكاف في (يغشاكم)، لكن الفرق عن القراءتين الأخريين أنه فيهما متعد لاثنين، وهنا في (يغشاكم) تعدى الفعل لواحد.

(٣) في (ر): «أمنا».

(٤) في (ف): «فما».

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٠٠)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩).

وقال الكلبي: ونزل النبيُّ ﷺ والمسلمون على غيرِ ماءٍ بجانب الوادي الأدنى، ونزل المشركون بجانبه الأقصى على الماء، والوادي بينهما ذو رملٍ تغيب فيه الأقدام، ثم باتوا ليلتهم تلك وناموا، ثم استيقظوا وقد أجنبوا وليس معهم ماء، فأتاهم الشيطان عند ذلك فوسوس إليهم وقال: تزعمون أنكم على دِين الله وإنكم تصلُّون محدِثين مجنِبين والمشركون على الماء، فأمطر الله تعالى السماء على الوادي حتى سال الماء فيه واشتد الرمل، فاغتسل المسلمون وتوضؤوا وشربوا وسَقوا دوابَّهم، وبنوا على عُدوته حياضاً، فنزل: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾: أي: من الحدث والجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: وسوستَه، وحقيقة اللفظ: إيذاءه وتعذيبَه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] إلى قوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] هو الإيذاء والتعذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾: أي: يشدِّدَها ويقوِّيَها بالسكون، وحسنِ الظنِّ، وزوالِ الاضطراب والارتياب.

وقوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾: أي: في مواقف الالتقاء للقتال.

وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك وجماعة من المفسرين؛ أي: لبد الأرض بالماء فصارت الأقدام تثبت فيها(٢).

* * *

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥ و٦٧) عن ابن عباس والضحاك، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٥ ـ ١٦٦٦) عن قتادة.

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥ ـ ٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٥ ـ ١٦٦٦) عن قتادة.

(١٢) ـ ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾: أي: كان غشيانُ النعاس وما بعده حين يُوحي الله تعالى إلى الملائكة أني حافظُكم وناصرُكم ومُعِينكم.

وقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: احملوهم على الثبات بحسنِ الكلام، وكانوا يفعلون كذلك على ما كَتبنا في القصة: سمعتهم يقولون: لو حملوا علينا لانصرفنا.

وقال مقاتل: كان الملَك يمشي أمام الصف [1] في صورة الرجل ويقول: أبشروا فإنكم كثيرٌ وعدوُّكم قليل، واللهُ ناصرُكم، ويَرى الناسُ أنه منهم.

وقوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾: أي: ثبِّتوا أنتم بالكلام قلوبَ المؤمنين، وأنا أخوِّف قلوبَ المشركين.

والرعب: الخوف الذي يقطع القلب، من ترعيب السَّنام: وهو تقطيعُه، والذي يملأ القلب أيضاً، من قولهم: رَعَب السيلُ الواديَ: إذا ملأه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾: جمع بَنَانةٍ، قال السدِّي والضَّحاك وابن جُريجٍ: هي أطراف اليدين والرجلين[2]، ومعناه: أنه أمَر الملائكة بأن يقتلوهم أو[3] يخرجوهم على وجهٍ لا يمتنعون على مَن قَصَد أسرهم.

وقال الزجاج: أباح الله تعالى قتلَهم بكلِّ نوعٍ يكون في الحرب[4].

---

(١) في (ف): «بين الصفين» بدل من «أمام الصف». وفي هامش (ف) ما يوافق المتن.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٧٢ ـ ٧٣) عن ابن عباس والضحاك وعكرمة وابن جريج.

(٣) في (أ) و(ف): «أو».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٠٥).

وقال المبرِّد: فوق العنق[١] هو العنق وهو كقولك رأيت نفس زيد هو زيد.

وقال قطربٌ: هو ما فوق العنق، وهو الرأس.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: اضربوا الأعناقَ فما فوقَها[٢]، كما[٣] قال تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: ١١] أي: اثنتين فما فوقهما.

وقال يمان بن رئابٍ: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾؛ أي[٤]: الصناديدَ، كما قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ﴿وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ أي: السِّفْلة[٥].

* * *

(١٣) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي: ذلك الذي تقدَّم ذكرُه من الضرب فوق الأعناق وضربِ كلِّ بنانٍ بأنهم[٦] خالَفوا وعادَوا اللهَ ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: أي: هذا حُكمي على العموم في حقِّ مَن خالفني وعاداني، وأنا شديد العقاب.

* * *

---

(١) في (ف): «الأعناق».

(٢) انظر: «تفسير السمعاني» (١/ ٤٠٢).

(٣) «كما»: ليست في (ف).

(٤) في (أ) و(ف): «يعني».

(٥) في (أ): «السفل».

(٦) في (أ): «أن»، وفي (ف): «بأن».

(١٤) ـ ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾: أي: قاسُوا ذلك، مفعولٌ مقدَّمٌ في الذكر.

وقيل: أي: ذلكم حكمُ الله، أو: ذلكم عذابُ الله فذوقوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾: أي: هذا الذي أعددْتُ لكم في الدنيا من القتل والجرح والأسر على أيدي أوليائي، ثم لكم في الآخرة مع سائر الكفار عذابُ النار الذي لا ينقطع.

ثم عطَفَ بالواو الخبرَ على الأمر ـ ولا يتفقان ـ لأن هذا الأمرَ في معنى الخبر؛ أي: تذوقونه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ذلكم العذابُ فذوقوه معجَّلاً، واعلموا أن للكافرين عذابَ النار مؤجَّلاً، فللعصيان عقوبتان: معجَّلٌ بنَقد، ومؤجَّلٌ بوَعد[1].

***

(١٥) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾: أي: إذا وقع الالتقاءُ مع الكفار في حين المزاحفة، وهي إذا سوِّيت[2] الصفوفُ، وزحف بعضهم إلى بعض؛ أي: سار سيراً ثقيلاً يدنو به قليلاً قليلاً على زحمةٍ من الجانبين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾: أي: فلا تجعلوا أدباركم تلي أعداءكم[3] وذاك يكون بتحويل الوجوه عنهم، وهو كنايةٌ عن الانهزام.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٠٨). ووقع في (أ): «معجل ينفذ ومؤخر بوعد» وفي «اللطائف»: «محصل بنقد ومؤخر بوعد».

(٢) في (ف): «استوت».

(٣) في (ر): «أدباركم إلى أعدائكم».

وقولـه: ﴿زَحْفًا﴾ مصـدرٌ بمعنـى النعت، وهـو للجمـع، ونصبه علـى الحال، وتقديـره: متزاحِفِينَ.

***

(١٦) - ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾: أي: ومَن ارتكَبَ هذا النهيَ حينئذٍ، واليوم: اسم لبياض النهار إذا أُطلق، فإذا قُرن به فعلٌ لا يمتدُّ يراد به مُطلَق الوقت، فصار قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بمنزلة قوله: حينئذٍ.

والتولية تتعدَّى إلى مفعولين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾: أي: مائلاً، يقال: تحرَّف وانحرف؛ أي: مال إلى جانبٍ، والحرف: الجانب؛ أي: ينتقلُ من مكانٍ إلى مكانٍ آخر[١] للقتال أيضاً.

وقال السدِّي: هو الاستطراد يريد العودةَ[٢]؛ أي: يطردُ فرسَه يطلبُ موضعَ إصابة للعدو.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: أي: منضمًّا إلى جماعة، يعني: إذا كثُر العدوُّ ولم يكن له بهم طاقةٌ، فانصرف إلى إمامه أو إلى جماعةٍ منهم يمتنعُ بهم ثم يقاتل هو وهم العدوَّ، لم يكن من أهل الوعيد.

والتحيُّز: تَفَيْعُلٌ[٣]، ولو كان تَفَعُّلاً لكان: تحوُّزاً بالواو؛ لأن أصله الواو، ويقال:

---

(١) «آخر»: ليست في (ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٠).

(٣) في النسخ: «تفعيل»، والصواب المثبت. انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣/ ١٠٧)، و«تهذيب اللغة» (٥/ ١١٥)، و«البحر المحيط» (١١/ ٤٨)، و«تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

حاز الشيءَ؛ أي: ضمَّه وجمَعه، والحيِّز: مجتمَعُ القوم، فَيْعِلٌ من الحَوْز، ولذلك صارت ياؤه مشدَّدةً، كما في: الجيِّد والسيِّد.

والتحيُّز: الانضمام إليهم والدخولُ في جملتهم، وهو تفعيل من الحيز[1].

والفئة: الجماعة المنقطعة عن غيرها، من الفَأْو: وهو قطع الرأس بالسيف.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي: استوجبه ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المسكنُ والملجأُ؛ أي: لا ملجأ له إلا النار وبئسَ الملجأُ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان هذا الوعيدُ مع كثرة الكفار وقلَّة المؤمنين في الابتداء، حيث كان يجب للعشرين أن يصبروا للمئتين، وللمئة أن يصبروا للألْف، ثم خفَّف الله تعالى ذلك، فكان الجهادُ يومئذ لبذل الأنفس[2] للهلاك، فيجوز أن يكون ذلك مشروعاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦] فجاز الأمر به امتحاناً، وليس في وسع الواحد القيامُ لعشرة إذا أحاطوا به، ثم خفِّف ذلك وصار لا يجوز للواحد أن يولِّي عن اثنين، فأما في هذه الآية فهو على العموم، وكان في الابتداء كان الأمر[3] بالقتال لبذل النفس للهلاك على ما قلنا.

ويحتمِل أن الله تعالى أمر بذلك ليكون آيةً، ويعرفَ كلُّ واحدٍ[4] أنه إنما قام بالله تعالى لا بقوَّة نفسه[5].

***

---

(١) قوله: «وهو تفعيل من الحيز»: كذا في النسخ، وفيه تحريف وتكرار. انظر التعليق السابق.

(٢) في (ر): «النفس».

(٣) في (ر): «أمراً».

(٤) في (ف): «أحد».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٦٥).

(١٧) ـ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾: ووجه الفاء والوصلِ بها: فلا تولُّوهم الأدبار شكراً لِمَا أنعم الله عليكم من إظفاركم عليهم، فإنكم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم.

قال مجاهد: كان يقول كلُّ إنسان: أنا قَتلتُ فلاناً، أنا قتلتُ فلاناً[١]، فنزلت الآية صيانةً لهم عن الإعجاب، وتنبيهاً لهم أن الله هو الذي هيَّأ[٢] لهم هذه الأسبابَ، وكذا قولُه في خطاب نبيِّه ﷺ:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾: قال عكرمة: رمى رسول الله ﷺ كفًّا من ترابٍ إليهم، فما وقع منها شيءٌ إلا في عين رجل[٣].

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: انهزموا بتلك الرمية.

وقال قتادة: أخذ ثلاثةَ أحجار، فرمى بها وجوهَ الكفار فانهزموا[٤] عند الثالثة.

وقال عبد الرحمن بن زيد: أخذ ثلاثَ حصيات، فرمى بحصاةٍ في مَيمَنة القوم، وحصاةٍ في ميسَرتهم، وحصاةٍ بين أظهُرهم، ثم قال: «شاهتِ الوجوهُ» فانهزموا[٥].

---

(١) «أنا قتلت فلاناً»: من (ف). والخبر رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٢).

(٢) في (ف): «سبب».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٤).

(٤) في (أ) و(ف): «فهزموا».

(٥) روى هذه الأخبار الثلاثة الطبري في «تفسيره» (١١/ ٨٥ ـ ٨٦).

ثم ليس في الآية نفيُ وجود الفعل من العبد كما توهَّمتِ[١] الجبرية، بل أثبت الله تعالى الرميَ فعلاً لنبيِّه ﷺ في الآية إذ قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، وأثبت القتلَ من المجاهدين في آيات، منها قوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، لكن معناه: إنكم ما أمتُّم وما أَفتُّم الحياة، وما أزهقتُم الأرواحَ، بل اللهُ تعالى فعَل ذلك، وإنما جَرَحتُم وقطعتُم وطعنتُم، وهي مباشرةُ أفعالٍ من العباد يسمَّون بها قاتلين؛ لزهوقِ الروح عقيبَها بإزهاق اللهِ تعالى.

وكذا قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ أي: ما بَلَّغْتَ ذلك[٢] إلى حيث بَلَغ، بل الله تعالى بلَّغه ذلك.

وفائدته: قطعُ دعواها، والإعجابِ بها، والنظرِ إليها، والاعتمادِ علَيها، والتفاخُرِ بها، وإثباتُ النظر إلى إنعامِ الله تعالى بها.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾: لم تكن جراحاتكم بحيث يغلبُ[٣] عقيبها خروجُ الروح، ولكن الله تعالى جعلها قاتلةً مع أنها لم تكن مصيبةً للمَقتل.

ويحتمِل: فلَمْ تطمَعوا بخروجكم إليهم قدرتَكم على قتلهم، لكنَّ الله تعالى بلَّغ ذلك، وكذا الرميُ، لا يطمع إنسانٌ يرمي كفًّا من ترابِ النكبةَ بكلِّ أعدائه.

ويحتمل: ما قتلتُم بانفرادكم بل بمعونتي، كما تقول: ما أنت فعلتَ ذلك ولكنْ فعَله فلان؛ أي: بمعونته فعلتَ أنت ذلك.

---

(١) في (ف): «توهمه».

(٢) في (ف): «وما رميت ذلك»، بدل: «أي: ما بلغت ذلك».

(٣) في (أ) و(ف): «يبلغ».

ويحتمِل أنه جعَل قَتْلَهم قَتْلاً من نفسه، ورميَ النبيِّ ﷺ رمياً من عند[1] نفسه؛ تشريفاً لأفعالهم بإضافتها إلى نفسه؛ لوقوعها له على الخلوص منهم في ابتغاء وجهه[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾: أي: وفعل ذلك ليُنْعِمَ على المؤمنين إنعاماً حسناً بذلك، هذا مضمر.

وقيل: الإضمار في آخره: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أمرهم بالقتال.

والبلاء يقع على النعمة وعلى[3] المحنة؛ لأن أصله الاختبارُ، وذلك يقع بالمحنة لإظهار الصبر، وبالنعمة لإظهار الشكر.

والاختبارُ من الله تعالى: إظهارُ ما عَلِم كما عَلِم، لا تحصيلُ علمِ ما لا[4] يَعلم.

وقيل: البلاء الحسنُ: توفيق الشكر في النعمة، وتحقيقُ الصبر في المحنة.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: يَحْسُن البلاء لأنه من الله تعالى، ويَطيب لأنه في الله.

قال: وحسنُ البلاء هو أن تَشهد المُبْلِيَ في عين البلاء.

قال: وقيل: البلاء الحسَن: ما لا دعوى فيه لصاحبه إن كان محبوباً، ولا شكوى إن كان مكروهاً.

قال: ويقال: البلاءُ الحسن: ما لا ضجَر فيه إن كان عُسراً، ولا بطَر فيه إن كان يُسراً.

---

(١) «عند»: ليس من (أ) و(ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٣) «على»: من (أ).

(٤) في (أ) و(ف): «لم».

قال: وقيل: بلاءُ كلِّ أحدٍ على حسَب حاله، فأصفاهم ولاءً أوفاهم بلاءً، قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثَلُ فالأمثل»(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾: أي: لدعواتكم ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بحاجاتكم(٢)، ينصرف إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: هذا ترويحٌ لقومٍ وتبريحٌ لقومٍ، ترويحٌ للضعيف اللهيف؛ أي: أسمعُ أنينَك وأعلمُ حنينَك(٣)، وتبريحٌ للعارف العاكف؛ أي: أسمع قالتَك(٤) وأعلم حالتَك، فاسكت واثبُت(٥).

***

(١٨) ـ ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: قيل: أي: اعلموا ذلكم، وقيل: أي: اشكروا ذلكم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ معطوفٌ على ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ بما ذكرنا من الفعلين.

و﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قرأ ابن عامرٍ وحمزةُ والكسائي وعاصمٌ في رواية أبي بكر مخفَّفاً ومنوَّناً(٦) ونصبوا ﴿كيدَ﴾.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١١). والحديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٧٢)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) في (أ): «ما حاجتكم».

(٣) في (أ): «خفيك».

(٤) في (ف): «مقالتك».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١١)، والكلام فيه بنحوه.

(٦) «ومنوناً»: ليس من (ف).

وقرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرٍو مشدَّداً منوَّناً.

وروى حفصٌ عن عاصم مخفَّفاً مضافاً[1]، والمخفَّف من الإيهان، والمشدَّد من التَّوهين، وكلاهما تعديةُ الوَهْن وهو الضعفُ، والإضافة للحال، والتنوينُ للإخبار عن الاستقبال.

وإيهانُ كيدهم بأمور؛ منها: الإطْلاعُ على عوراتهم، ومنها: إبطالُ حيَلهم، ومنها: إلقاءُ الرعب في قلوبهم، ومنها: تفريقُ كلمتهم، ومنها: نقضُ ما أَبرموا من عزائمهم.

* * *

(١٩) ـ ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾: أي: إن تستنصِروا فقد جاءكم النصر.

وقيل: إن تستكشِفوا فقد جاءكم الكشف.

وقيل: إن تستقضُوا فقد جاءكم القضاءُ.

ونزولُه في أبي جهل لعنَه الله، فإنه قال: اللهم اقضِ بيننا وبين محمد، وانصُرْ أحبَّ الدِّيْنَينِ إليك، وأهلِكْ أقطَعَنا للرَّحِم وآتانا بما لا نَعرف[2]، قال ذلك يوم بدر.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

(٢) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٧٠)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٢٨)، ومن طريقه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٦٧٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٦٣١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٩٤)، ومن غير طريقه رواه الطبري أيضاً في الموضع نفسه، جميعهم عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير حليف بني زهرة قال: (كان المستفتِح يوم بدر أبا جهل، قال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأَحِنه الغداة)، فأنزل الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾. =

وفي رواية: قال: اللهمَّ أَهِنْ أفجرَنا وأقطعَنا للرَّحِم[١].

وقال السدِّي: لمَّا أرادوا الخروج إلى بدرٍ أخذوا بأستارِ الكعبة وقالوا[٢]: اللهمَّ انصرْ أعزَّ[٣] الحزبين عليك، فنزلت الآية: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾[٤]؛ أي: إن تستنصِروا أحبَّ الدِّينين فقد جاء نصر الإسلام، وإن تستكشفوا فقد تمَّ الكشف والإعلام، وإن تستَقْضُوا فقد ظهر الحكمُ بحقيَّة[٥] محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي: عن الكفر، فهو خيرٌ لكم في الدارين.

وقولـه تعالـى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾: قيـل: وإن تعـودوا إلـى الكفـر والتكذيـب نَعُـدْ إلـى الانتقـام والتعذيب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وإن تعودوا لقتالِ محمدٍ نَعُدْ عليكم بالقتل والأخذِ والأسرِ كما في يوم بدر[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾: أي: لن تنفعَكم جماعتُكم وكثرتُكم شيئاً ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ في العدد.

= وروى الطبري أيضاً عن يزيد بن رومان وغيره: (قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر أحب الدينين إليك، دينَنا العتيق، أم دينهم الحديث) فأنزل الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٩٣) عن الزهري.

(٢) في (ف): «أخذ... وقال».

(٣) في (ر): «أحب».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٩٢).

(٥) في (ر): «بحقيقة».

(٦) رواه بنحوه أبو صالح عن ابن عباس كما في «زاد المسير» (٣/ ٣٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: في النصر لهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد: استفتحوا بالعذاب فعذِّبوا يوم بدر، وكان استفتاحهم بمكة: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فجاءهم العذاب يوم بدر(١).

* * *

(٢٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: دعا في الآية الأولى الكفارَ إلى الإيمان، ودعا في هذه الآية المؤمنين عامةً إلى ما يُبقيهم على الإيمان، وهو طاعةُ الله وطاعةُ رسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾: أصله: ولا تتولَّوا عنه، فحُذفت إحدى التاءين(٢) تخفيفاً؛ أي: ولا تُعْرِضوا عنه، ولم يقل: عنهما؛ لأنه صرفه إلى الرسول خاصةً؛ لأن التولِّيَ عنه تولٍّ عن الله(٣)، وهو كقوله في هذه السورة: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾: أي: أمره ونهيه. وقيل: تلاوتَه كتابَ الله عليكم.

وقيل: أي: تَقْبلون وتتأمَّلون ما يُورده عليكم؛ أي: هذه صفتُكم فلا تعملوا بخلافِ ما تقتضيه حالتُكم.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٩٢).

(٢) في (أ) و(ف): «إحداهما».

(٣) في (ف): «لأن التولي عن الله تعالى تول عن رسوله».

(٢١) ـ ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾: أي: كالذين قالوا سمعنا القرآنَ وأمرَ الله والرسول، ثم هم لا يَعلمون به كأنهم لم يكن لهم إسماعٌ، أو لم يقعْ لهم سماعٌ.

وقيل: أي: لم ينتفعوا بما سمعوا فكأنهم لم يسمعوا.

وقيل: أي: وهم لا يقبَلون، وقد سمع فلانٌ كلامَ فلان؛ أي: قَبِله.

وقيل: هذا[1] تحذيرٌ للمؤمنين أن يكونوا كاليهود والمشركين والمنافقين، فإن اليهود قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، والمشركون قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦] وقالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ [الأنفال: ٣١]، وقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ [لقمان: ٧]، وقال في حق المنافقين: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا ﴾ [محمد: ٢١]؛ أي: لم يَصْدُقوا.

* * *

(٢٢) ـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾: هي جمعُ دابَّة، وهي كلُّ حيوانٍ دبَّ على وجه الأرض؛ أي: شرُّ الخَلقِ عند الله منزلةً هم الذين لا ينتفِعون بما يسمعون ولا يعملون به، كأنهم صمٌّ بُكمٌ لا عقولَ لهم يتأمَّلون بها ما يسمعون.

---

(١) في (ف): «هو».

واختُلف في المرادِين به، والصحيح قولُ ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم مشركو قريش، فإن السورة في ذكرهم(١).

وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون(٢).

وقيل: هم بنو عبد الدار قُتلوا بأُحُدٍ، وهم: النَّضْر بن الحارث وابناه، والحارث بن علقمة، وطلحة بن عثمان، ومسافعٌ وأبو الجُلَاس وأبو سعدٍ والحارثُ، والقاسط بن شُريحٍ، وأرطأةُ بن شُرَحْبيل.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: دواعي الحقِّ بحُسن البيان ناطقة، وألسنةُ البرهان فيما ورد به التكليفُ صادقة، وخواطرُ الغيب بكشف ظُلَم الريب مُفْصِحة، وزواجرُ التحقيق عن متابعةِ التَّمويه للقلوب مُلازِمة، فمَن صُمَّ عن إدراكِ ما خُوطِب به سرُّه، وعَمِيَ عن شهودِ ما(٣) كُوشف به قلبُه، وخَرِس عن إجابةِ ما أُرشد [إليه] من مناجَحةٍ(٤) عقلُه وفهمُه، فدون رتبةِ البهائم قَدْرُه، وفوق كلِّ خسيسٍ من خَلْق الله صُغْره(٥).

***

(٢٣) ـ ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾: أي: لو كان في علمِ الله منهم اختيارُ فهمٍ لكلام الله تعالى لأسمعهم إسماعَ تفهيم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٧)، بلفظ: (هم نفر من بني عبد الدار).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٠١). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٨) من طريق ابن إسحاق عن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير.

(٣) في (أ): «وعمي عما».

(٤) في: «اللطائف»: (من حجة).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١٤)، وما بين معكوفتين منه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾: أي: إسماعَ تفهيمٍ دون توفيقٍ[1] ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عنه فلم يعملوا به؛ إذ لم يوفِّقهم الله لِمَا علِم من اختيارهم تركَ العمل به.

وقوله تعالى: ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾: أي: للحال، فلا تكرار في الكلمتين؛ إذ قوله: ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ هو عند الإسماع، ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ للحال.

وقال الزجَّاج: ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ جوابَ كلِّ ما يسألونه، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ ذلك لم يعملوا به ولأعرضوا عنه[2].

***

(٢٤) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: ﴿دَعَاكُمْ﴾ فعلُ رسول الله ﷺ، وهو موحَّدٌ ولم يُثَنَّ مع سَبْقِ ذكرِ الله ورسوله؛ لأن دعاء الرسول بأمرِ الله، فهو دعاءُ الله تعالى، ودل الموحَّد لذلك على المثنَّى.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: إلى ما[3] يفيدُكم الحياةَ الأبدية، وهو دعاءٌ إلى الجهاد فإنه[4] سببُ الشهادة، والشهداءُ أحياءٌ غيرُ أموات، واتصالها من هذا الوجه بما قبلها: لا تخرجوا إلى الجهاد[5] كارهين، وأَجيبوا اللهَ ورسوله في الدعوة إلى قتال المشركين، فإنه حياةٌ لكم أبدَ الآبِدين.

---

(١) «دون توفيق»: من (أ) و(ف).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٠٩).

(٣) في (ف): «أي لما».

(٤) في (ف): «فهو».

(٥) في (أ): «للجهاد».

وعن أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: أنه كان يصلي، فدعاه رسول الله ﷺ فأتم الصلاة ثم جاء، فقال ﷺ: «هلا جئتني[١] إذ دعوتُك؟» فقال: كنتُ في الصلاة، فقال: «أمَا سمعتَ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾»[٢]، وهذا يدلُّ على العموم أي[٣]: عموم الآية.

وقيل: قوله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ إعلامٌ منه جلَّ جلالُه أن دعاءه إلى كلِّ شيء فيه حياةُ الدِّين وهو العلم، فإن الجهل موتٌ والعلمَ حياة.

وفي الخبر: إن الله تعالى ليُحيي القلب الميتَ بالعلم كما يُحيي الأرض الميتة بوابل المطر[٤].

وفي غير هذه الآية ذُكرت الحياةُ للإيمان والموتُ للكفر؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ أي: كافراً فهديناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾؛ أي: يبقيكم على الإيمان الذي هو الحياة العظمى.

وقيل: أي: لِمَا يفيدكم الحياةَ الطيبة في الدارين؛ قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]، وحياةُ الكافر غيرُ طيِّبةٍ بحالٍ، فإنه بها في الدنيا يستفيدُ زوائدَ عقوبات العُقبى، وإذا صار في النار فهو لا يموت فيها ولا يحيى، فإذاً ليست الحياةُ الطيبة إلا لمن آمَن واتقى.

---

(١) في (ف): «أجبتني».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٣٤٥)، والترمذي (٢٨٧٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٤١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) «العموم أي»: من (ف).

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٧٨١٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفيه: «بنور الحكمة» بدل: «بالعلم»، وإسناده ضعيف، قال في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٥): فيه عبد الله بن زحر عن علي بن يزيد، وكلاهما ضعيف لا يحتج به.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: إلى عمل الآخرة التي هي دارُ الحياة؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقيل: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: إلى الأعمال التي يُحْيي بها شرفكم، ويُبقي حمدَكم وذكرَكم، ويطيِّب بها أيضاً في الجنة حياتكم[١].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾: أي: القلوبُ بيدِ الله، فيمنعُ المرء عن تقليبِ قلبه فيما يشاء[٢]، وهذا على اتصاله بأول هذه الآية؛ لأنه[٣] تعجيلٌ للعبد إلى الاستجابة قبل أن يُحدث الله له أسباباً لا يتمكَّن العبد معها من تصريف القلب فيما يشاؤه من إصلاح أمره، فيموت غيرَ مستجيبٍ لله ورسوله لم يدرك ما يحييه، ولذلك ذكر الحشر إليه بعده، وهو قوله تعالى:

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: أي: تُبعثون وتُجْمعون إليه للجزاء.

وقال قتادة: أي: هو أقربُ إلى قلبه منه، وهو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦][٤]؛ لأن ما حال بينك وبين الشيء فهو أقربُ إلى الشيء منك، واتصالُه بما قبله وما بعده: استجيبوا لله فإن الله[٥] لا يخفَى عليه ما في قلوبكم وإليه حشرُكم.

وقال الضحاك: يحول بين المؤمن والمعصية، وبين الكافر والطاعة[٦]؛

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٧٧).

(٢) في (ر): «يشاؤه».

(٣) «لأنه»: ليست في (أ) و(ف).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١٢)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٠٨).

(٥) في (أ) و(ف): «فإنه» بدل: «فإن الله».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١٠). وذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٨٩) عن ابن عباس والضحاك.

أي: لا يُخلي المؤمنَ التامَّ في الأفعال وقصدِ[١] المعصية بل يعصمه، والكافر على[٢]عكسه.

وقال مجاهد: يَحولُ بين المرء وعقله فلا يدري ما يعمل به[٣].

وقال القشيري رحمه الله: أي: يصونُ القلوبَ عن تقليب أربابها بما شاء من أسبابها، فيصون قلوبَ العبَّاد عن الجُنوح إلى الكسل فيجدُّون في معاملتهم، ويَصون قلوب المريدين عن التعريج في أوطان الفشل فيَصْدُقون في منازلاتهم[٤]، ويصون قلوب العارفين على حدِّ الاستقامة عن الميل[٥] فيتحقَّقون بدوام مواصلتهم.

قال: ويقال: حال بينهم وبين قلوبهم لئلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله، فإذا سنَح لهم أمر فليس لهم إلى الأغيار سبيل، ولا على قلوبهم تعويل، وكم فرق بين مَن يرجع عند سوانحه إلى قلبه وبين مَن لا يهتدي إلى شيء إلا إلى ربِّه، وقيل في معناه[٦]:

لا يهتدي قلبي إلى غيركُمْ ... لأنه سُدَّ عليه الطريق

قال: ويقال: العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، والعارفون هم الذين فَقدوا قلوبهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٧].

---

(١) في (ف): «بقصد».

(٢) في (ر) و(ف): «وعلى قياسه»، بدل: «والكافر على».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١١)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٠٨).

(٤) في (ف): «منازلتهم»، وفي (أ) و(ر): «منازلهم»، والمثبت من «اللطائف».

(٥) في (أ): «المثل».

(٦) في (أ): «وهو كما قيل».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١٥ ـ ٦١٦).

(٢٥) ـ ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾: النون لتأكيد الجزاء.

وقيل: لتحقيق القسَم، ومعناه: واحذروا عذاباً يَنزل بكم بظُلمكم ـ وهو ترکُکم الإجابةَ إلى الجهاد(١) وغيرُ ذلك ـ لا يصيب الظَّلَمة خاصةً، بل يعمُّ الكلَّ ثم يكون للظَّلَمة عقوبةً ولغير الظَّلمة كفَّارةً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في ترك الأمر بالمعروف عند غلَبة المنكَر، فيصيب الفسقةَ بفسقهم وغيرَ الفسقة بتركهم الأمرَ بالمعروف(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾: أي: إذا نزل عقابُه فهو شديدٌ لا يطاق، ويجوز أن يراد بها فتنةُ الدنيا؛ كما قال: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ﴾ [التوبة: ١٢٦]، ويجوز أن يراد بها فتنةُ الآخرة؛ كما قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣].

وقال الحسن: الآية في حق الصحابة ـ رضي الله عليهم أجمعين ـ عليٍّ وطلحة والزبيرِ وعمَّار(٣).

---

(١) في (ر): «القتال».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٢)، بلفظ: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ قال: أمر الله المؤمنين أن لا يُقرُّوا المنكر بين أظهرهم، فيعمَّهم الله بالعذاب.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١٣).

وقال الزبير بن العوام: نزلت هذه الآية وما ندري زماناً[(١)] أنَّا من أهلها، ونحن عُنينا بها[(٢)].

وقال السدِّي: نزلت في أهل بدرٍ خاصةً، وأصابتهم يوم الجمل[(٣)].

وقال الكلبي رحمه الله: نزلت في رجلين من قريش أَخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ أنها ستكون بعده في أصحابه، وقد كانت تلك الواقعةُ بعد وفاته[(٤)] ومضت[(٥)].

وقرأ ابن الزبير: (لتُصيبنَّ الذين ظلموا)[(٦)].

وقيل: ﴿لَا﴾ زائدة كما في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ومعناه: اتَّقوا عقوبةً في الآخرة تكون للظَّلَمة خاصةً.

* * *

---

(١) في (ف): «زمانها».

(٢) بعدها في (ف): «أم لا»، وليست في المصادر. والخبر رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٠٦)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٢)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٤٤)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٩٨)، ولفظه عند ابن أبي حاتم: لقد قرأناها زمانًا وما نَرَى أَنَّا مِن أهلها، فإذا نحن المَعْنِيُّون بها: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١٥) وزاد: (فاقتتلوا).

(٤) في (أ): «الوقعة بعد وفاته»، وفي (ر): «الوقعة بعده في أصحابه».

(٥) رواه أبو صالح عن ابن عباس مختصرا بلفظ: نزلت في رجلين من قريش، ولم يسمهما. انظر: «زاد المسير» (١١/ ١١٣).

(٦) ذكرها النقاش كما في «المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٦)، و«البحر المحيط» (١١/ ٧٣ ـ ٧٤) عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، ونسبت أيضاً لابن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهما وأبي العالية. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩)، و«الكشاف» (٢/ ٢١٢).

(٢٦) - ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾: أي: وتذكَّروا وأَخطِروا ببالكم أولَ حالكم يا معشر[١] المهاجرين إذ أنتم[٢] قليلٌ في العدد.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: إذ كنتم قليلاً، ودلَّ هذا على صحة قول أبي حنيفة رحمه الله فيمَن قال: هذا الشيء لفلان اشتريتُه منه، أنه يصدَّق ويصير كأنه قال: هذا كان لفلان[٣].

وقوله تعالى: ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: مقهورون في أرض مكة.

قال عبد العزيز بن يحيى: أي: في أول الإسلام قبل أن يَكْملوا أربعين[٤].

وقال الآخرون: قبل الهجرة.

وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾: التخطُّف: الأخذُ والانتزاع بسرعة؛ أي: يأخذونكم ليتحكَّموا[٥] فيكم بما شاؤوا من القتل والأسر.

وقوله: ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ قال الكلبي: أي: أهلُ مكة[٦].

وقيل: أي: مَن حولكم من العرب خارجَ مكة.

وقال وهبٌ: أي: فارسُ والروم.

---

(١) في (ف): «معاشر».

(٢) في (ف): «كنتم».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٨٢).

(٤) انظر: «البسيط» (١٠/ ١٠٣).

(٥) في (أ): «فيحكموا»، وفي (ف): «فيتحكموا».

(٦) وروي عن ابن عباس. انظر: «زاد المسير» (١١/ ١١٣).

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾: أي: في المدينة[١] بالهجرة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ أي: بأيدي الأنصار ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: بما وسَّع بها[٢] من المطاعم.

وقيل: أي: بما أحلَّ من الغنائم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: لتشكروا نعمة الله عليكم، فتبذلوا أنفسكم في إحياء دينه والجهاد مع رسوله، والخروج إلى القتال من غير كراهةٍ ولا استثقال.

وقال الكلبيُّ وقتادة: نزلت الآية في يوم[٣] بدر حثًّا لهم على الجهاد[٤].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ذكَّرهم ما كانوا فيه من القلَّة والذِّلَّة وصنوفِ الخَلة[٥]، وما نقلهم إليه من الإمكان والبَسطة، ووجوهِ الإحسان والحيطة[٦]، وندبهم إلى الشكر على هذه النعم، وحقيقة الشكر: الغَيبة عن النِّعم بالاستغراق في شهود المنعِم[٧].

* * *

(٢٧) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) في (أ) و(ف): «بالمدينة».

(٢) في (ف): «فيها».

(٣) في (ر): «أهل»، والمثبت من باقي النسخ والمصادر.

(٤) رواه عنهما عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٠٧)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٢).

(٥) الخَلة: الحاجة والفقر.

(٦) في (أ): «والغبطة».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١٧ ـ ٦١٨).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾: متصلٌ بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وقولهِ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

والخيانة: خلاف الأمانة.

وقيل: أصلها الإخفاء، من قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقيل: هي منع حقٍّ ضُمِن أداؤه.

وقال محمد ابن إسحاق: أي: لا تُظهروا للرسول ما يُرضيه منكم ثم تخالفونه في السر(١).

ومن ذلك: إظهارُ الطاعة في كلِّ شيء ثم المجادلةُ في أمر الغنيمة، أو الخروجُ إلى القتال المأمورِ به مع الكراهةِ أو تسخُّطِ قَدْرِ ما يعطي عند القسمة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: ولا تخونوا أماناتكم(٢)، وهو معطوف على الأول، وجزمُه بالنهي، وعلامة الجزم حذفُ النون.

وقال السدِّي رحمه الله: أي: إذا خنتُم الرسول فقد خنتُم أماناتكم(٣). وهو على هذا واوُ الصَّرف، وهي ناصبةٌ، وعلامة نصبه حذفُ النون، ومعناه: أن حقوق الشرع

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢٤) بلفظ: (لا تظهروا لله من الحق ما يرضى به منكم ثم...)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٤) من طريق ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير بلفظ: (لا تظهروا له من الحق...) وبهذا اللفظ ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ٦٦٩) عن ابن إسحاق. فكلمة: (له) تحتمل الله سبحانه وتحتمل الرسول ﷺ، ومحصل الكل واحد.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢٣).

أماناتٌ عنده قد قبِلها وضمِن أداءها، فإذا خان الرسول فقد خان هذه[1] الأمانات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: أي: أنها أمانةٌ، وما فعلتُم خيانةٌ؛ أي: وأنتم تعلمون إثم الخيانة وعقوبةَ الخيانة.

***

(٢٨) ـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾: أي: محنةٌ يَظهر بها مُؤْثِرُ حقِّ الله من مُؤْثِر حقِّ نفسِه.

والحامل على الخيانة في الغالب: حبُّ الأموال والأولاد، وتركُ الخروج إلى الجهاد طوعاً وطبعاً كذلك، فبيَّن الله تعالى أنها فتنةٌ وداعيةٌ إلى الخيانة ومُخلَّة بالأمانة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: إن أموالكم وأنفسَكم لله، وهي عندكم أمانةٌ استحفظكم فيها، فلا تستعملوها في غير ما أذن لكم فيه لأنه خيانة، ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾؛ أي: ولا تخونوا أماناتكم التي فيما بينكم.

ومعنىً آخرُ: أن الله تعالى تعبَّدهم بما يرجع إلى منافعهم، فإذا خالفوا فقد خانوا أنفسَهم فضرُّوا أنفسَهم[2]؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[3] [النحل: ٣٣]، وقال: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ [فصلت: ٤٦][4].

---

(١) «هذه» ليست في (ف).

(٢) «فضروا أنفسهم» ليس من (ف). ولفظ «التأويلات»: (خانوا أنفسهم وخانوا أماناتهم).

(٣) في «التأويلات»: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٨٣ ـ ١٨٥).

وقولـه تعالـى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾: لمـن تركهـا ولـم يَخُـن لأجلها، وراعَـى الأمانة[١] بشـرطها.

وقيل: أي: يا أيها الذين آمَنوا صدِّقوا الله ورسوله و[٢] لا تخونوا الله ورسوله، والخيانة: إظهار الإيمان والنصحِ، وإبطانُ الكفر والغشِّ، ودلالةُ المشركين على عورات المسلمين، وإطلاعُهم على خفيَّات أمور المسلمين.

وقال جابر: إن أبا سفيان خرج من مكة، فجاء جبريل النبيَّ ﷺ فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا، فأخبر النبيُّ ﷺ أصحابه بذلك فقال: «فاخرجوا إليه واكتُموا»، فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمداً يريدكم فخذوا حِذْرَكم فأنزل الله هذه الآية[٣].

وقال الزهريُّ والكلبيُّ: نزلت في أبي لبابة مروانَ بنِ عبد المنذر من الأنصار من بني عوف بن مالك[٤] حين حاصر النبيُّ ﷺ قرى يهودِ قريظةَ إحدى وعشرين ليلةً، فسألوا رسول الله ﷺ الصلحَ على ما صالح عليه إخوانَهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابةَ، وكان مناصحاً لهم لأن أهله وولده كانوا عندهم، فبعثه النبيُّ ﷺ إليهم فقالوا له: ما ترى؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال: وما زالت قدماي في مكانهما حتى علمتُ أني خُنْتُ الله ورسوله، فنزلت هذه الآية والتي بعدها: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾.

---

(١) في (ف): «الأمانات».

(٢) في (ف): «أي»، وليست في (أ).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢١). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر.

(٤) «بن مالك» ليس من (ف).

وقال الزهري: قال أبو لبابة: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتاب عليَّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرَّ مغشيًّا عليه، ثم قيل له: تاب الله عليك، قال: لا والله لا أحلُّ نفسي حتى يكون رسولُ الله ﷺ يحلُّني، فجاءه فحله بيده، ثم قال أبو لبابة: تمام توبتي أن أهجرَ دار قومي التي أصبتُ فيها الذنبَ، وأن أنخلع من مالي، فقال النبيُّ ﷺ: يَجزِيك الثلثُ أن تتصدق به(١).

وقال السدِّي: كانوا يسمعون من النبيِّ ﷺ فيُفْشونه حتى يبلغَ المشركين(٢).

وقال الكلبيُّ: كلُّ أحدٍ مؤتمنٌ على ما افترَض الله عليه، إن شاء خانها(٣) وإن شاء أدَّاها، لا يطَّلع عليه أحدٌ إلا الله تعالى(٤).

---

(١) ذكره عنهما بهذا السياق الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٤٦)، ودون نسبة الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٢١٣ ـ ٢١٤). وخبر الزهري رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢١)، وخبر الكلبي رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨). وذكره مطولاً ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨)، ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٥) من طريق ابن إسحاق عن أبيه عن معبد بن كعب بن مالك، ثم قال: هَكذا قال ابن إسحاقَ بإسناده، وزعَم سعيدُ بنُ المسيِّب أنَّ ارتباطَه بساريَة التَّوبة كان بعد تَخَلُّفِه عن غزوةِ تبوكَ، حين أَعْرَض عنه رسولُ اللهِ ﷺ، وهو عليه عاتبٌ بما فَعَل يومَ قُريظةَ، ثُم تَخَلَّف عن غزوة تبوكَ فيمَن تَخَلَّف، واللهُ أعلمُ. وفي روايةِ عليِّ بن أبي طلحةَ، وعَطِيَّةَ بنِ سعدٍ، عن ابن عباسٍ في ارتباطه حين تَخَلَّف عن غزوة تبوكَ، ما يؤكِّد قولَ ابن المسيِّب. اهـ. وروايتي علي بن أبي طلحة وعطية عن ابن عباس رواهما الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥١ ـ ٦٥٢). وأبو لبابة مختلف في اسمه، فقيل: مروان، كما ذكر المؤلف، وقيل: بشير، وقيل غير ذلك. انظر ترجمته في «الإصابة» في الكنى. وانظر ما سيأتي في قصة تبوك والمخلفين في سورة التوبة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢٣).

(٣) في (ر): «خالفها».

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١١٠).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: خيانة كلِّ أحدٍ على حَسَبِ ما وُضع عنده من الأمانة، فمَن اؤتُمِن في مالٍ فتصرُّفُه فيه بغيرِ إذنِ صاحبه خيانةٌ، ومَن اؤتُمن على الحُرَم فملاحظتُه إياهن خيانةٌ، فعلى هذا الخيانةُ في الأعمال: الدعوى فيها بأنها من قِبَلك دون التحقيق بأن منشِئها الله تعالى، والخيانة في الأحوال: ملاحظتُك لها دون غَيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق، فإذا أَخلَلْتَ بسنَّة من السُّنن، أو أدبٍ من آداب الشرع، فتلك خيانةُ الرسول، والخيانة في الأمانات بينك وبين الخلق بإيثارك نصيبَ نفسك على نصيب المسلمين بإرادة القلبِ فضلاً من المعاملة بالفعل(١).

***

(٢٩) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾: فخرجتُم إلى الجهاد كما أمركم ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾: نصراً يفرِّق به بين الحق والباطل(٢)، والمحِقِّ والمبطِل، كما وعد: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٨].

وقيل: أي: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في الْتزامِ جميع ما ألزمناكم من أول السورة إلى هاهنا، وجملتُه: طاعة الله وطاعة رسوله ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾.

قال ابن زيد وابن إسحاق: أي: هدايةً في قلوبكم تفرِّقون بها بين الحقِّ والباطل(٣).

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١٨).

(٢) «الحق والباطل» ليس في (أ).

(٣) ذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣١١)، ورواه عن ابن إسحاق الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣١).

وقال مجاهد: أي: مخرجاً في الدنيا والآخرة(١).

وقيل: مخرجاً عن الشبهات(٢).

وقال السدِّي: نجاةً(٣).

وقال الفرَّاء: فتحاً ونصراً، كما قال: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١](٤).

وقيل: نصراً وعزاً وثواباً لكم، وخذلاناً وإذلالاً(٥) وعقاباً على أعدائكم، وكلُّ ذلك يفرق بينكم وبينهم في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾: وهذا في الآخرة، والأولُ في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾: يجزي بالعمل المنقطِع ثواباً غيرَ منقطعٍ.

***

(٣٠) ـ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي: واذكرْ إذ كان ذلك، ذكر الله

---

(١) ذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣١١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢٨ ـ ١٢٩) عن مجاهد والضحاك وابن عباس.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٤٧) عن مقاتل.

(٣) ذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣١١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٠) عنه وعن مجاهد وعكرمة وقتادة، ورواه أيضاً عن ابن عباس لكن بسند ضعيف جدًّا.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٠٨)، و«النكت والعيون» (٢/ ٣١١).

(٥) في (ر) و(ف): «وذلا».

في هذه الآية من معاملة المشركين وجرأتهم على الله تعالى ما يدعو المؤمنين إلى جهادهم وردِّهم عن سَفَههم وعنادهم، إما بقتلهم أو إدخالهم في الإسلام، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: كفارُ قريش، ومكرُهم: تدبيرهم في إهلاكه أو إفساد[١] أمره على جهة [٢] الاستسرار، بحيث لا يُعلم إلا عند وقوعه.

وجاء أن أوَّل ما وقع من التدبير هو الحبسُ إليه إلى أن يموت، ثم انتقلوا عنه إلى إخراجه من البلد ونَفْيه، ثم استقرَّ تدبيرهم على قتله، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره[٣]، ففارق منزله وبطَل تدبيرُهم أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ فيه أقاويل:

قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة: أي: ليُوْثِقوك بوثاق[٤].

وقال عطاء وعبد الله بن كثير والسدِّي: أي: ليحبسوك[٥].

وقيل: أي: ليَسْحَروك [٦]، فيجعلوك ثابتاً في مكان.

وقيل: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾؛ أي: ليُخرجوك، كما يقال: أثبتَه في الحرب، إذا جرحه جراحةً متلِفةً.

---

(١) في (ف): «هلاكه وفساد».

(٢) في (ف): «وجه».

(٣) في (أ): «وأخبر به»، وفي (ف): «فأخبرهم به».

(٤) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٢).

(٥) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٨). وقول السدي عند الطبري: (الإثبات: الحبس والوثاق)، وعند ابن أبي حاتم: (يحبسوك ويوثقوك)، وهما متقاربان، وفيهما الجمع بين هذا القول وسابقه.

(٦) في (ر): «ليسجروك». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما ذكره الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٣)، واستدل عليه بقصة أبي طالب الآتية.

وقال أبو طالب: يا محمد! ما يأتمرُ بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحروني ويخرجوني ويقتلوني»، قال: مَن خبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نِعْمَ الربُّ ربُّك وذلك قوله جل جلاله: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[1].

﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾: أي: من مكة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: أي: يجازيهم جزاءَ مكرهم، ويصنعُ بهم ما هو وَفْقُ قَصْدهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ لأنه بحقٍّ، ولأنه ماضٍ لا محالة.

وقصتُه: ما قاله الكلبي ومقاتل: أن نفراً من قريش منهم أبو جهل، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وهشام بن عمرو، وأبو البختري بن هشام من بني أسد، وأبو سفيان، وطُعيمةُ بن عَدِيٍّ، والنضر بن الحارث، وزَمْعةُ بن أسودَ، وحكيم بن حزام، ونبيهٌ ومُنبِّهٌ[2] ابنا الحجَّاج، وأمية بن خلف، اجتمعوا في دار الندوة يريدون المكر بالنبيِّ ﷺ فأتاهم إبليس في صورة شيخ فجلس معهم، فقالوا: ما أدخلك علينا بغير إذننا؟! فقال: أنا رجل من نجد لستُ من أهل مكة، رأيتكم حسنةً وجوهُكم طيبةً ريحُكم فأحببتُ أن أسمع حديثكم وأشيرَ عليكم، فإن كرهتُم مجلسي خرجتُ عنكم.

وفي رواية: قال: أنا شيخ من الماضِينَ أحياني اللاتُ لأعينكم في تدبيركم.

فقالوا: هذا رجل من نجد وليس من أهل تِهَامة فتكلَّموا فلا بأس عليكم منه، فقال أبو البختري لعنه الله: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً فتجعلوه في بيت وتسدُّوا بابه غيرَ كوةٍ تُلقون إليه فيها طعامَه وشرابه، وتذرُوه فيه حتى يموت كما مات مَن قبله

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٣) عن المطلب بن أبي وداعة.

(٢) في (أ): «وملبه».

من الشعراء زهيرٍ والنابغةِ، إنما هو رجل[١] كأحدهم فتربَّصوا به رَيبَ المنون، فقال إبليس لعنه الله: بئس الرأيُ رأيُك[٢]، تَعمدون إلى رجل له فيكم آصرةٌ[٣] قد سمع به مَن حولكم تحبسونه فيوشكُ قومُه أن يقاتلوكم عنه؟! قالوا: صدق الشيخ.

وقال هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي: أمَّا أنا فأرى أن تحملوه على بعيرٍ فتخرجوه حيث شاء ويليه غيرُكم، قال إبليس لعنه الله: بئس الرأي رأيك، تعمدون إلى رجل قد أَفسد جماعتكم وتبعه منكم طائفةٌ فتخرجوه إلى غيركم ليفسدهم كما أفسدكم.

وفي رواية: قال: ألم تروا حلاوةَ قوله وطلاقةَ لسانه، والله ليَستجمِعَنَّ عليه خلقٌ[٤] ثم ليأتينكم.

فقال أبو جهل بن هشام لعنه الله: أمَّا أنا فأرى لكم أن تعمدوا إلى كلِّ بطنٍ من قريش فتأخذوا رجلاً منهم، ثم تعطوا كلَّ واحد منهم سيفاً، فيأتونه فيضربونه بأسيافهم فلا يَدري قومه مَن يأخذون به، وتؤدِّي قريش دِيَته، فقال إبليس لعنه الله: صدق والله الشابُّ أن الأمر لكما قال.

فتفرقوا على قول أبي جهل لعنة الله عليه، فنزل جبريل عليه السلام فأخبر النبيَّ ﷺ بأمرهم، وأمره بالخروج، فخرج النبيُّ ﷺ من ليلته تلك إلى الغار، وأنزل الله تعالى هذه الآية[٥].

---

(١) «رجل» ليست في (أ) و(ف).

(٢) في (ف) و(أ): «رأيت».

(٣) الآصرة: الرحم والقرابة. انظر: «القاموس» (مادة: أصر).

(٤) في (ف) و(أ): «خلق».

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨٠٤ ـ ٨٠٥)، وفيه: أن الذي نزل هو قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل عليه هذا بعد قدومه المدينة، ونزل أيضاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[١].

وقال عكرمة: لمَّا خرج النبيُّ ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى الغار أَمر عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه فنام في مضجعه، فبات المشركون يحرسونه فإذا رأوه حَسِبوه النبيَّ ﷺ وتركوه، فلما أصبحوا ثاروا[٢] إليه فرأوا علياً، فقالوا: أين صاحبُك؟ قال: لا أدري، فركبوا الصعبَ والذَّلولَ في طلبه فاقتصُّوا أثره، فمرُّوا بالغار فرأوا على بابه نسجَ العنكبوت، فقالوا: لو دخل لم يكن هذا فمكث فيه ثلاثة أيام[٣].

وفي رواية الكلبي رحمه الله: ثم قال لعليٍّ رضي الله عنه: نم في مضجعي وتَسَجَّ[٤] ببُرْدي فإنه لن يَخلُص إليك منهم[٥] شيء تكرهه، ثم خرج النبي ﷺ فأخذ قبضةً من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: ٨] إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، ثم انصرف حيث أراد، فأتاهم رجل حين أصبحوا فقال: ما تنتظرون هاهنا؟! قالوا:

= ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الزخرف: ٧٩]، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه عندهما أن آية الأنفال نزلت عليه بعد قدومه المدينة، وسينبه المؤلف على هذا لاحقاً.

(١) رواه الطبري وابن أبي حاتم. انظر التعليق السابق.

(٢) في (ر): «بادروا».

(٣) رواه عن عكرمة الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٦)، لكن السياق المذكور رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠١١)، والإمام أحمد في «المسند» (٣٢٥١)، والطبري في«تفسيره» (١١/ ١٣٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف، انظر الكلام عليه في حاشية «المسند».

(٤) في (ف): «واتشح».

(٥) «منهم» ليست في (أ) و(ف).

محمداً، قال: خيَّبكم الله، قد والله خرج عليكم وما ترك رجلاً منكم إلا وضع على رأسه التراب وانطلق لحاجته[١].

ومضى رسول الله ﷺ إلى الغار فدخله وأبو بكر معه، وخلَّف علياً بمكة حتى يؤدِّيَ عنه الودائع التي قبلها، وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته.

وقال الحسين بن الفضل رحمه الله: السورة مدنيةٌ، والله تعالى ذكر مكر المشركين به بمكة، وهو معطوف على قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾ الآية.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ إن مكر الله تعالى مع العوامِّ: شَغلُهم بالدنيا وصرفُ هممهم إليها حتى ينسَوا أمرَ الآخرة، [إذ] يوطِّنون أنفسهم عليها إلى أن يأتيهم من مأمنهم فيأخذَهم بغتةً، ومكره بالخواصِّ اغترارُهم بما يظهر لهم من الصِّيت الجميل بين الناس، وما يَظهر على ظواهرهم من صنوف الطاعات، مع ملاحظتهم لها وسكونهم إلى قبول الناس إياهم، فلا تزال أسرارهم بالأغيار مَنوطة، وهي عن الله في الحقيقة محجوبة، وعند الناس أنهم من أهل الكرامة، وفي معناه أنشدوا:

وقد[٢] حسدوني قربَ داري منكمُ وكم من قريبِ الدار وهو بعيدُ[٣]

* * *

(٣١) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) رواه ابن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٣)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٦٧).

(٢) في (ف): «وهم».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢٠).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: وإذا يُقرأ عليهم القرآن المعجِزُ الذي لا يخفى إعجازه على عاقلٍ متأمِّل قالوا: قد سمعنا ما تلوتُم ولو شئنا لقلنا مثلَ هذا، إنما هو حديثٌ كأحاديث كسرى وقيصرَ والملوك الماضين، هذه غايةُ جرأتهم على الله ونهايةُ وقاحةِ وجوههم ومكابرتهم، فإن النبيَّ ﷺ تحدَّاهم به سنين كثيرةً لمعارضةِ سورةٍ منه، فلم يكن عندهم إلا بذل النفوس والأموال والأولاد، فهم ـ في زعمهم ـ أسفهُ الناس وأجهلهم، وقدَّموا النفوس[1] والأموال مع إمكانهم بزعمهم تكذيبَه بمعارضةِ سورةٍ منه، فإمَّا أن يكونوا بهذا القول مكابِرينَ لعقولهم، أو جاهلين بإدعائهم بما يظهر فيه افتراؤهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا قصَّ رسول الله ﷺ شأنَ القرون الماضية قال النَّضْر بن الحارث بن علقمة أخو بني عبد الدار: لو شئتُ لقلتُ مثلَ هذا إن هذا إلا أساطيرُ الأولين، ـ أي: إلا[2] ما سطر الأوَّلون في كتبهم ـ فقال له عثمان بن مظعون: إن محمداً يقول الحق، قال: وأنا أقول الحق، قال عثمان: فإن محمداً يقول: لا إله إلا الله، قال: وأنا أقول: لا إله إلا الله، لكن هؤلاء بناتُ الله، ـ يعني: اللاتَ والعزَّى ـ فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] قال النضر: ألا ترون أن محمداً قد صدَّقني فيما أقول، ـ يعني قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ ـ قال له المغيرة ابن الوليد[3]: والله ما صدَّقك، ولكنه يقول: ما كان للرحمن ولد، ففَطِن لذلك النضرُ

(١) في (ر): «إذ بذل النفس»، بدل: «وقدموا النفوس».

(٢) «أي» ليست في (أ)، و«إلا» ليست في (ر).

(٣) كذا وقع عند المؤلف والثعلبي على القلب، وصوابه: الوليد بن المغيرة، وكذا جاء في «تفسير مقاتل».

فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١][١].

فوقع به العذاب يوم بدر وقُتل صبراً، لم يُقتل من الأسرى يومئذ غيرُه وغيرُ عقبة بن أبي معيط[٢]، وقد مر في القصة.

وفيه نزلت: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦][٣].

قال عطاء: لقد نزلت فيه بضعَ عشرةَ آيةً من كتاب الله تعالى[٤].

وقال سعيد بن جبير: لمَّا أَمر النبيُّ ﷺ بقتل النَّضْر يوم بدرٍ ـ وكان المقداد أَسَره ـ قال: يا رسول الله أسيري، قال: «إنه كان [يقول] في كتاب الله ما يقول»، فقال المقداد: أسيري يا رسول الله، فقال النبيُّ ﷺ: «اللهم أَغْنِ المقداد من فضلك»، فقال المقداد: هذا الذي أردتُ[٥].

وقال القشيري رحمه الله: فَرْطُ جهلهم ستَر على قلوبهم قُبْحَ دعواهم في القدرة على معارضة القرآن[٦]، فافتُضحوا عند الامتحان لعدم[٧] البرهان، والعجزِ عما وَصفوا من أنفسهم من الفصاحة والبيان.

---

(١) ذكره عن ابن عباس الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٥١)، وهو في «تفسير مقاتل» (٢/ ١١٢ ـ ١١٣).

(٢) كذا قال، وروى ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٦٩٢)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٣)، عن سعيد بن جبير زيادة ثالث، وهو: طعيمة بن عدي. ووصله الطبراني في «الأوسط» (٣٨٠١) فرواه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٥) عن عطاء، وسماه: النضر بن كلدة. وهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار. انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٩٠٤).

(٤) قطعة من الخبر السابق.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٣)، وما بين معكوفتين منه.

(٦) في (ر): «المعارضة للقرآن».

(٧) في: «اللطائف»: (بعدم).

وقيل: لمَّا لاحظوا القرآن بعين الاستصغار حُرِموا بركاتِ الفهم فعدُّوه من جملةِ أساطير الأولين، وكذلك مَن لا يراعي حرمةَ أوليائه يعاقَبُ بأنْ تُستر عليه أحوالهم فيظنَّهم مثلَه فيُطلق فيهم لسانَ الوقيعة وهو بذلك أحقُّ(١).

***

(٣٢) - ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: واذكر إذ قال النضر بن الحارث، وإنما جُمع لأنه أراده وأتباعَه، وكذا في الآية الأولى جُمع حيث قال: ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ لهذا(٢) اللهم إن كان ما أتى به محمدٌ حقًّا من عندك وقد جحَدْناه ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ومَطَر في الرحمة وأَمْطَر في العذاب ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ غيرِ الحجارة من السماء كقوله: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]؛ أي: من غير الماء.

قال محمد بن إسحاق: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أَمْطرتَها على قوم لوط ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أو ببعضِ ما عذَّبت به الأمم(٣).

***

(٣٣) - ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢٠).

(٢) «لهذا» ليست في (ف)، واستدركت في هامش (ر) وعليها علامة التصحيح.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٧٠).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ أخبر أن تأخير العذاب عنهم مع استيجابهم ذلك أنَّ الله تعالى لا يُنزل عذاب الاستئصال بقومٍ إلا بعد خروج نبيِّهم من بينهم، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾؛ أي: هذا الطاغي وأشياعه ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾: أي: يتوبون من كفرهم ويستغفرون منه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فيهم أمانان: نبيُّ الله والاستغفارُ، فخرج النبي ﷺ وبقي الاستغفار[1].

وقال الكلبي: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾؛ أي: يصلُّون الخَمس.

وقال عكرمة: الاستغفار هاهنا هو الإسلام[2].

وقال أبو مالك وابن أبي أَبْزَى والضحاك وعطيةُ وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ أي: وأنت مقيم بين أظهُرهم، نزلت إليه هذه الآية وهو بمكة، ثم خرج من بين أظهرهم فاستغفر مَن بها من المسلمين وأنزلت عليه حينئذ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي: فيهم واحد[3] من المسلمين من النسوان والولدان، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، فخرج المستغفرون من مكة فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فأذن الله تعالى في فتح مكة، وهو العذاب الأليم الذي توعَّدهم به[4].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٢).

(٣) في (ف): «أحد».

(٤) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٨ ـ ١٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٢ ـ ١٦٩٣)، والسياق المذكور هو لخبر ابن أبي أبزى.

وقال محمد بن إسحاق: كان المشركون يقولون: إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفرُ، ولا يعذِّب أمة ونبيُّها معها حتى يخرجَ فقال الله تعالى لنبيه: يذكرُ جهالتهم فقال: يقولون: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ ويقولون: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ ويقولون: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١]، وردَّ عليهم كلَّ ذلك بقوله:

(٣٤) ـ ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: أي: وأيُّ سبب يوجبُ تَرْكَ تعذيبهم بالسيف، وهو حُكم الله في المشركين حتى يسلِموا، وهم غيرُ مستغفرين بل يصدون المؤمنين[٢] عن المسجد الحرام إذا أتوه حاجِّين أو معتمِرين أو مصلِّين، مع إظهار المشركين تعظيمَه وتعزُّزَهم به، وهذا تعجيبٌ منهم في تعظيم المسجد الحرام وهم يمنعون المؤمنين عن الحج إليه والصلاة فيه[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾: أي: وليسوا أولياء الله، وتأخير العذاب عنهم ليس لولائهم[٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾: أي: ما أولياءُ الله سوى المتقين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

وقيل: وما كانوا أولياءَ المسجد الحرام وإنْ سعَوا في عمارته وسقيِ الحجيج وإطعامهم فيه، وكانوا يَرون أنفسَهم ولاةَ البيت لذلك، وبذلك كانوا[٥] يصدون

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٧٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥١).

(٢) «المؤمنين» ليست في (أ) و(ف).

(٣) «فيه» ليست في (أ).

(٤) «أي: وليسوا أولياء الله وتأخير العذاب عنهم ليس لولائهم» ليس من (ف).

(٥) «كانوا» ليست في (أ) و(ف).

عنه مَن شاؤوا ويأذَنون فيه لمن شاؤوا، فأبطل الله تعالى أن تكون لهم تلك الولايةُ وأثبتها للمتقين.

وقيل: أي: وما لهم أنْ لا يعذِّبهم الله في الآخرة، أثبت للمشركين العذابَ بنفي الولاية، وأثبت للمؤمنين الولايةَ بقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] وبقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢] فأشار بذلك إلى أنه لا يعذبهم، ثم[1] ولئن ثبت تعذيبُ مدةٍ فإنه إذا لم يتأبَّد خفَّ على الجسد[2]، وفي ذلك ينشد:

إذا سَلِمَ العهدُ الذي كان بيننا ... فوُدِّي وإن شطَّ المزارُ سليمُ[3]

***

(٣٥) ـ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾: أي: إلا صفيراً بالأفواه كصفيرِ الأطيار، وقد مَكَا يمكُو مُكَاءً.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾: أي: تصفيقاً بالأيدي كفعلِ الصبيان، وإظهاراً للصَّدَى؛ أي: للصوت، وقد صدى يصدي تصدية.

وفسرهما كذلك ابن عباس رضي الله عنهما وابن عمر وعطية ومجاهد والضحاك رضي الله عنهم[4].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم

(١) «ثم» ليس من (أ) و(ف).

(٢) في (أ): «الحد».

(٣) البيت في «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢٢).

(٤) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٦٢ ـ ١٦٦).

عـراةً يَصْفِرون ويصفِّقون، فأنـزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ﴾ الآيـة [الأعراف: ٣٢]، فأُمـروا بالثياب(١).

وكانوا يعارضون النبيَّ ﷺ في الطواف يستهزؤون به يَصْفِرون ويصفِّقون، فأنزل الله هذه الآية(٢).

وقـال سـعيد بن جبيـر: التصديـة صدُّهم عـن البيت وعـن الصـلاة(٣)، وأصله: التصديـد، وقد صدَّده وصـدَّه(٤)، قُلبت إحـدى الدالين(٥) ياء تخفيفـاً كما في قولهم: تَمطَّـطَ وتَمَطَّـى، وتَظنَّنَ وتَظَنَّى، وتقضَّـضَ وتَقَضَّى.

وقال بعضهم: كان المكاء أذاناً لهم والتصفيقُ(٦) إقامة.

وقال مقاتل: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى بمكة في المسجد الحرام قام مشركان عن يمينه وآخران عن يساره يَـمْكون ويصفِّقون ليخلِّطوا عليه صلاته، وهم من بني عبد الدار، فقتلهم الله تعالى ببدر(٧).

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: قيل: قالت الملائكة لهم ذلك يوم بدر.

---

(١) رواه الطبـري فـي «تفسيره» (١١/ ١٦٤)، وابـن أبي حاتم فـي «تفسـيره» (٥/ ١٤٦٦)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٦٤) من قول سعيد بن جبير.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٥٤) من قول سعيد بن جبير وابن إسحاق. وذكره الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٦٧) دون عزو، ويظهر من كلامه أنه مرجوح عنده.

(٤) في (أ): «وصد»، وفي (ر): «وصداه».

(٥) في (ف) و(أ): «الدالات».

(٦) في (ف): «والتصدية».

(٧) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١١٤).

وقيل: يقولون لهم[١] في جهنم.

وقيل هو صيغةُ أمر في معنى الخبر؛ أي: ذاقوا ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]، أي[٢]: كانوا يسيرون فيها كذلك

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان أحسنُ حالهم التي هم عليها هي حالة الصلاة، فإذا كانت صلاتهم مكاءً وتصديَةً فكيف سائر الأحوال[٣]؟!

ثم ذكرُ صلاتهم على هذا الوجه، وبيانُ ما قالوه على السفاهة: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، ودعاؤهم بإمطار الحجارةِ عليهم، وجعلُ ذلك كتاباً يتلى في الصلاة، له أوجهٌ[٤] ثلاثةٌ من الحكمة:

أحدها: تعليم الحِلم عن السفهاء.

والثاني: تعريف المعاملة مع السفهاء عند ارتكاب المناكير من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنهم إذا تمادَوا في غيِّهم، واستقبلوه[٥] بالمكروه والأذى، أن لا يتركَ الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، ولا يُؤْيسَ من خيرهم؛ اقتداءً بالنبي ﷺ.

والثالث: إعلامُ الخلْق أن حجة الله تَلزمُ العبادَ وإن كانوا قد جهِلوها، إذا كان التضييع جاء من قبَلهم في ترك النظر والتفكُّر؛ إذ لو علموا حقيقةَ العلم أنه الحقُّ لم يكونوا ليَدْعوا على أنفسهم بالهلاك.

وقـال الإمـام القشيري رحمه الله: وما كان الله ليعذِّبَ أسلافهم وأنت في

---

(١) «لهم» من (ف).

(٢) في (ر): «قيل».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٩٤).

(٤) في (ر): «وجوه».

(٥) في (ف): «غيهم واستقبلوا»، وفي (ر): «عتوهم واستقبلوا».

أصلابهم، وليس يعذِّبهم اليوم وأنت فيما بينهم؛ إجلالاً لقَدْرك، وإكراماً لمحلِّك، وإذا خرجت من بينهم فلا يعذِّبهم وفيهم خدَمُك الذين يستغفرون.

ويقال[1]: للجوار حرمةٌ، فجار الكرام في ظلِّ إنعامهم، والكفارُ وإنْ لم يمتَّعوا بقرب الرسول، فقد اندفع[2] العذاب عنهم بمجاورته فيهم[3]، وفي معناه أنشدوا:

وأحبُّها وأحبُّ منزلَها الذي نزلت به وأحبُّ أهل المنزلِ[4]

* * *

(٣٦) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: نزلت الآية في إنفاق الكفار يومَ بدر.

وقال الكلبي رحمه الله: إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله؛ أي: دينِ الله لأنه طريقُ ثوابه والخلودِ في جنته لمن سلكه على ما أُمر به.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾: أي: فسيقع إنفاقهم حسرة[5]؛ أي: ندامةً وغيظاً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي: يوم بدر.

---

(١) في (ف): «ويقولون».

(٢) في (ف) و(أ): «اندفع».

(٣) «فيهم» ليس من (أ).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢١).

(٥) قوله: «أي: فسيقع إنفاقهم حسرة» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يبعثون ويجمعون بعد القتل.

قال الكلبي: نزلت في المطعِمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً أطعموا الناس الطعام كل واحدٍ يُطعم مئة[١]، منهم: أبو جهل وأخوه الحارث بن هشام، وعُتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ بنِ عبد شمس، ومنبِّهٌ ونبيهٌ ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَرِيِّ بنُ هشام، والنَّضْر بن الحارث، وحكيم بن حِزام وأُبيٌّ بن خَلَفٍ، وزَمْعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبد المطلب، كلُّهم من قريش[٢].

وقال مقاتل: إن رؤوس كفار قريش استأجروا أعواناً على قتال رسول الله ﷺ، فأطعموا أصحابهم في كلِّ يوم عشرَ جُزر[٣].

وقيل: هو إنفاق الأموال التي كانت في العير في حرب أحد، وقد بينَّا ذلك في أولِ قصة حرب أحد في أول سورة آل عمران[٤].

وقال سعيد بن جبير: نزلت الآية في أبي سفيان، استأجر يوم أحد ألفين من أحابيشِ كنانةَ سوى مَن استجاشَ من العرب، فقاتل بهم رسول الله ﷺ، وهم الذين يقول فيهم كعب بن مالك:

فجئنا إلى موجٍ من البحر وَسْطَه ... أحابيشُ منهم حاسرٌ ومقنَّعُ

---

(١) في (أ): «كل رجل يطعم فئة»، وفي (ر): «كل رجل منهم يطعم فئة».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٥٥). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٦٤-٦٦٦)، و«المغازي» للواقدي (١/ ١٤٤).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١١٤).

(٤) والقول بنزول الآية في المطعمين يوم بدر أولى من القول بنزولها في المنفقين يوم أحد؛ لأن السياق قبلها في غزوة بدر، وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري (٤٦٤٥) عن سورة الأنفال فقال: (نزلت في بدر)، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثـلاثـــةُ آلافٍ ونــحــن بــقــيـــةٌ ثلاثُ مئينَ إنْ كثُرنـا فأربـعُ[١]

وقال سفيان بن عيينة: قال قريش: لا تنفقوا هذا المال الذي أَفْلَتَ إلا في حرب محمد، فنزلت الآية.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: دلَّت الآية على صدق نبوَّةِ محمد ﷺ، حيث أخبر عن عاقبة أمرهم فكان كما أخبر به، وهو غيب، فثبت أنه عرف ذلك بالله[٢].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إنهم وإنْ أَلْهتهم آمالُهم فإلى الخيبة والذِّلة[٣] مآلُهم، لن تغنيَ عنهم أموالُهم، ولن تنفعَهم عند الحاجة أعمالُهم، بل خُتم بالشقاوة أحوالُهم[٤].

***

(٣٧) - ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: أي: يجعلَ نفقاتهم حسراتٍ عليهم، ويغلبَهم وإلى جهنم يحشرَهم؛ ليفترق[٥] الكافر الخبيث الذي نَجست

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٧)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٩٤) (ط: دار التفسير)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٣٧). والبيتان من قصيدة لكعب في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٤). وفي جميع المصادر بدل «بقية»: (نَصِيَّة)، والنصية: الخيار من القوم.

(٢) لم أجده في «تأويلات أهل السنة».

(٣) في (ر): «والذل»، وفي «اللطائف»: (فإلى الهوان والذلة).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢١).

(٥) في (أ): «ليفرق».

عقيدتـه وأعمالـه مـن المؤمـن الطيِّب الذي طابـت عقيدتـه وأعماله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليَمِيزَ الله أهل الشقاوة من أهل السعادة[١].

وقيل: الخبيث: ما لا يصلح لله، والطيِّب: ما يصلح لله.

وقيل: الخبيث: ما حَكَم الشرعُ بقبحه وفساده، والطيِّب: ما شهد العلم بحُسنه وصلاحه.

وقيل: الخبيث: ما يَشغل صاحبه عن الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾: ركَم الشيءَ: راكَبَ[٢] بعضَه على بعضٍ، ومنه: السحاب المركوم.

قال الحسن: أي: يركمَهم مع ما أنفقوا. فيحتمِل أن يكون الخبيثُ والطيِّب اسمين للكافر والمؤمن والرَّكمُ للكفار والجمعُ لهم، ويحتمِل أن يكون اسماً للمال الخبيث والطيب والرَّكمُ لنفقاتهم معهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الآية [التوبة: ٣٥]، وإنْ حُمل[٣] على الكافر فقوله تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ... فَيَجْعَلَهُۥ﴾[٤] على التوحيد يرجعُ على ظاهر اللفظ لأنه فردٌ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل هذا أن يكون معناه: يجعلهم في دركاتٍ بعضُها أسفلَ من بعض، ويحتـمِلُ جَـعْلَ بعضِـهم على بعضٍ مقرَّنين في الأصفاد، ويحتمل جَعْلَ بعضهم على بعض على التضييق، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ [الفرقان: ١٣].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٧٥).

(٢) في (ف): «ركب».

(٣) في (ر): «فإن حمل الآية».

(٤) في (ر) و(ف): «فيركمه جميعا».

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: يرجع إلى المعنى لأنه جمعٌ، أو إلى أول[١] الآيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾: أن تُجعل نفقاتُهم في قَعر جهنم، ثم يقال لهم: الْحَقوا بها[٢].

والآيةُ في الذين قُتلوا يوم بدر، وما بعدها في حقِّ مَن بقي منهم.

* * *

(٣٨) ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾: أي: قلْ يا محمد لمن بقيَ من كفار قريش بعد قَتلِ[٣] مَن قُتل منهم يومَ بدر: إنْ تُقلِعوا عمَّا أنتم عليه من الشرك غَفَر الله لكم ما مضى من الشرك والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٤]: أي: وإن يرجعوا إلى قتال المؤمنين فإنَّ الله يفعل بهم ما هو سنَّةٌ في[٥] الأوَّلين بنصرِ الأولياء وقهرِ الأعداء، فأضاف السنة إليهم في هذه الآية لأنها مجعولةٌ لهم، وأضافها إلى نفسه في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] لأنه هو الذي جعلها، وهو كالأَجَل: أضافه

---

(١) «أو إلى أول» من (أ)، ووقع بدلًا منها في (ر): «وأول»، وفي (ف): «أول».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٥٥)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٤٦).

(٣) «قتل» ليست في (أ).

(٤) في (ف) و(أ): «وإن تعودوا فقد...» بالتاء، وقد جاء في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٦) عن ابن مسعود أنه قرأ: (إن تنتهوا يغفر لكم)، فلعل في قراءته: (وإن تعودوا) ليتجانس الفعلان.

(٥) «في» زيادة من (أ).

تارةً إلى نفسه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وإلى الخلق أخرى بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤] لهذا[١].

وقال ﷺ: «الإسلامُ يَجُبُّ ما قبله»[٢].

وقال الكلبي: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني: أبا سفيان وأصحابه ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾؛ أي[٣]: يُسلموا ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾: يُتجاوَز عنهم من الذنوب ما كان قبل الإسلام ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ لقتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بنصرِ الله رسلَه، ومَن آمَن على مَن كفَر، بقتلهم في الدنيا ولهم العذابُ في العقبى[٤].

وقيل: نزلت في عكرمةَ بن أبي جهلٍ وعمرو بن العاص، فإن النبيَّ ﷺ لمَّا فتَح مكة هرب عكرمةُ إلى الجُدَّة، وركب البحر فهاجت الأمواج وخِيف الغرق، فقال الملاحون: لن ينجيَكم إلا الإخلاصُ ودين محمدٍ، قال عكرمةُ: فإن كان لا يُنجِيني في البحر إلا هذا لا يُنجيني في البر إلا هذا، فعزم على أن يرجع إلى رسول الله ﷺ فيسلمَ، فلمَّا خرج من البحر سالماً أتى المدينة فدخلها بغَلَسٍ، فرأى عمرو بن العاصي قد جاء لذلك، فقال: ما جاء بك يا داهيةَ العرب؟ فقال: ما بقي من مكرٍ إلا عَمِلْتُه فلم يَنفذْ، فعلمتُ أنه الحق، فجئت لأبايع النبيَّ ﷺ، فاجتمعا على إتيانِ رسول الله ﷺ والإسلام وأقبَلا[٥]، فلمَّا قَرُبا من الباب كان يُقدِّم كلُّ واحد منهما

---

(١) «لهذا» ليست في (ف)، وكتبت في (ر) فوق السطر.

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم (١٢١) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وفيه أن النبي ﷺ قال له: «أمَا عَلِمْتَ أنَّ الإسلامَ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَه».

(٣) في (أ): «إن».

(٤) في (ف) و(أ): «الآخرة».

(٥) «وأقبلا» ليست في (ف).

صاحبَه ويتأخَّر حياءً، فلما دخلا بكَيا، فقال ﷺ: «ما يبكيكما؟» قالا: كثرةُ جَفائنا، فقال: «أبشِرا فإن الله يَقْبلُكما» ونزلت الآية.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: قل لهم: إنْ حلُّوا نطاقَ العناد أطلَقْنا عنهم عقالَ البِعاد، وإنْ أبصروا قبحَ أفعالهم جُدْنا عليهم بإصلاح أعمالهم، وإنْ جَنَحوا للاعتذار خلعْنا عليهم خلعة الاغتفار[1].

***

(٣٩) ـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾: أي: شرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؛ أي: حتى يخلُص دينُ الإسلام فلا يعبدَ إلا الله، ويجتمعَ الناس كلُّهم على الطاعة والعبادة لله تعالى.

قال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وابن إسحاق وابن زيد: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾: أي: شرك[2].

وقيل: أي: لا يبقى مشركٌ يُفْتَتنُ به الجاهلون.

وقال الربيع بن أنس: حتى لا يُفْتَنَ مؤمنٌ عن دينه[3].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾: أي: عن الفتنة والشرك وصاروا إلى دين الحق معكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ يعني: بما يعملون من تركِ الكفر

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢٤).

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٧٨ ـ ١٨٠).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٥٦)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٥١).

والمعصيـة وفعلِ الإيمان والطاعة، يـرى أعمالهم فيجزيهم علـى وفق أعمالهم[١].

***

(٤٠) ـ ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾: أي: أعرَضـوا عمـا أنذرتَهم فلم يتدبَّـروا فيه ولـم يَقبلوه[٢].

وقوله تعالـى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾: متولِّي أمورِكـم ونصرِكم وإعلائكم فقاتلوهم.

وقوله تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾: على العدوِّ فثِقُوا به.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إن لم تكونوا له بحيث يقال: نِعْمَ العبيدُ أنتم، فنِعْمَ المولَى ونِعْمَ الناصرُ هو لكم[٣].

ويقال: نعم المولى كان لكم يوم قسمةِ العرفان، ونعم الناصرُ لكم يوم نعمة الغفران[٤].

ويقال: نعم المولى هو لك حين لم تكن، ونعم الناصرُ هو لك حين كنتَ.

وقيل: نعم المولى بالتعريف قبل التكليف، ونعم الناصرُ لك بالتخفيف والتضعيف، يخفِّف عنك الطاعات، ويضاعف لك الحسنات، ويكفِّر عنك السيئات[٥].

---

(١) في (ف) و(أ): «عملهم».

(٢) في (ف): «فلم يتدبروا ولم يقبلوا».

(٣) في (ف): «فنعم المولى ونعم النصير على العدو فثقوا به فهو لكم»، والمثبت من باقي النسخ و«اللطائف».

(٤) في (أ): «الفرقان»، والمثبت من باقي النسخ و«اللطائف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢٥).

(٤١) - ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾: أي: إذا قاتلتم المشركين وقهرتُموهم وأخذتُم أموالهم، فإنها ما كانت تحلُّ للأمم السالفة، وقد أحلَّت لكم أربعةُ أخماسها، وليس هذا في هذه الآية، بل فيها [1] بيانُ خُمسها، فأما أربعة أخماسها فحِلُّها لنا بما ذكر في آخر هذه السورة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

وما ذُكر في هذه الآيةِ فقد بينَّا أنه ناسخٌ لِمَا ذُكر في أول هذه السورة: ﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقال هاهنا: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾.

قيل: هو على تحقيق جعلِ سدسِ الخمس لله، وهذا يُصرف إلى ستر الكعبة.

وقيل: إلى أسلحة الغزاة.

وقيل: بل قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ سهمُ الله وسهمُ الرسول سهمٌ واحد، وهو سهم الرسول، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له، فإنه ﷺ كان بالله ولله، فكان سهمُه سهمَ الله وهو خُمسُ الخمس.

واختُلف في سهمه ﷺ أنه: هل بقي بعد وفاته أو سقط؟

قيل: سقط؛ لأنه لم يَخلُفْه أحد في الرسالة، فلا يَخْلُفه في سهمه.

وقيل: هو باقٍ، وهو لأمير المؤمنين في كلِّ عصرٍ؛ لأنه والي المسلمين كما كان رسول الله ﷺ واليَ المسلمين.

---

(١) في (ف): «بل هو في».

وقوله تعالى: ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾: هو القريب، وليس فيه أنه قريبُ مَن؟ لكن[١] اجتمعت الأمة أنه أريد به قريبُ رسول الله ﷺ، وهو واحدٌ بمعنى الجمع لأنه جنس، فكان سهمٌ من الغنيمة لأقرباءِ رسول الله ﷺ حالَ حياته، وكان النبي ﷺ يُعطيهم، وعُرف بفعل[٢] رسول الله ﷺ أن المراد به أقرباؤه، وما كان يعطيهم كلَّهم.

روي عن جبير بن مطعم قال: لمَّا قسم رسول الله ﷺ سهمَ ذي القربى بين بني هاشم وبني المطَّلب أتيتُ أنا وعثمان رسولَ الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله! هؤلاء بنو هاشم لا نُنكر فضلَهم لمكانك الذي وضعَك الله فيهم، أرأيت بني المطلب، أعطيتَهم وحرَمْتَنا -يعني: بني عبد شمسٍ وبني نوفل- وإنما نحن وهم منك بمنزلةٍ واحدة؟ فقال: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام»؛ أي: في حالِ جاهليتهم وبعد إسلامهم «وإنما بنو هاشمٍ وبنو المطلب شيء واحد»، وشبك بين أصابعه[٣].

وسقط سهم ذوي القربى بوفاة رسول الله ﷺ؛ أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم؛ لِمَا أشار في هذا الحديث أن الإعطاء كان معلولاً بالنُّصرة، وقد[٤] سقطت العلة فسقط[٥] معلولُها، وعمِل به الخلفاءُ الراشدون، واتَّبعهم عليه الآخرون، وهو قولُ علمائنا رضي الله عنهم أجمعين. وقال الشافعي رحمه الله: هو باقٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: وسهمٌ كان لليتامى، وهو

---

(١) في (ف): «وليس قريبٌ مّا ولكن»، في (أ): «وليس فيه أنه قريب من ذلك».

(٢) «بفعل» ليس من (ف).

(٣) رواه البخاري (٣١٤٠)، والإمام أحمد في «المسند» (١٦٧٤١)، والنسائي (٤١٣٧)، ولم يرد في رواية البخاري: «إنَّهم لمْ يفارقُوني في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ»، وليس عنده: (وشبك بين أصابعه).

(٤) في (ف): «وإن».

(٥) في (ر): «فيسقط».

جمع يتيمٍ، وهو الصغيرُ الذي مات أبوه، وسهمٌ كان للمساكين، وهو جمعُ مسكين، وهو الذي أسكنَتْه الحاجة، وسهمٌ كان لابن السبيل، وهو الغريب البعيد عن ماله، واحدٌ أُريد به الجمع لأنه جنس.

وهؤلاء مصارفُ هذا المال بصفةِ الحاجة، فلا يَحلُّ للغنيِّ منهم، ويجوز الصرفُ إلى صنفٍ واحدٍ منهم[1]، وهو بيانُ الصرف دون الاستحقاق كما عُرف في مصارف الصدقات، وهذا عندنا.

وأربعة أخماسه يقسم بين الغزاة: للفارسِ سهمان وللراجل سهمٌ عند أبي حنيفة، وهو قول أكثر الصحابة رضي الله عنهم، وفيه أكثرُ الأحاديث[2]، وعند أبي يوسف ومحمد رحمهم الله: للفارس ثلاثة أسهم سهمٌ له وسهمان لفرسه، وهو قولُ بعض الصحابة[3]، وفيه بعض الأحاديث[4].

---

(١) «منهم» ليس من (أ).

(٢) منها حديث مجمع بن جارية رضي الله عنه عند الإمام أحمد في «المسند» (١٥٤٧٠)، وأبي داود (٢٧٣٦)، وحديث المقداد بن عمرو عند الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٦١)، وحديث الزبير بن العوام في «مغازي الواقدي» (٢/ ٥٢٤)، وحديث عائشة في «تفسير ابن مردويه»، ولا يخلو كل منها من مقال. انظر: «نصب الراية» (٣/ ٤١٦)، و«الدراية» (٢/ ١٢٣).

(٣) وهو قول أكثر أهل العلم كما ذكر ابن المنذر والقرطبي، قال القرطبي: الذي عليه عامة أهل العلم فيما ذكر ابن المنذر أنه يسهم للفارس سهمان وللراجل سهم، وممن قال ذلك مالك بن أنس ومَن تبعه من أهل المدينة، وكذلك قال الأوزاعي ومن وافقه من أهل الشام، وكذلك قال الثوري ومن وافقه من أهل العراق، وهو قول الليث بن سعد ومن تبعه من أهل مصر، وكذلك قال الشافعي رضي الله عنه وأصحابه، وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور ويعقوب ومحمد.
قال بن المنذر: ولا نعلم أحداً خالف في ذلك إلا النعمان، فإنه خالف فيه السنن وما عليه جل أهل العلم في القديم والحديث. قال: لا يسهم للفرس إلا سهم واحد. انظر: «الأوسط» لابن المنذر (١١/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٦).

(٤) منها حديث ابن عمر عند البخاري (٢٨٦٣)، ومسلم (١٧٦٢)، ولفظه: قسم رسول الله ﷺ يوم =

ثم فيمَن شهد الأمر مَن لا يستحِقُّ السهم ويُرضَخُ له، ومنهم مَن لا يُرضخ[١]، وفي موضع الرَّضخ ومقدارِ الرضخ والمالِ الذي منه الرضخُ كلامٌ، وشرحُه في الفقهيات، وقد أشبَعْنا[٢] الكلام فيه على التهذيب والترتيب في «حصائل مسائل الفقه».

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾: يعني: فاعملوا به وارضَوا بهذه القسمة إنْ آمنتُم بالله، فإن الإيمان يوجب الرضا بالحكم والعملَ بالعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: أي: وصدَّقتُم بما أنزلنا على عبدنا ورسولنا محمدٍ ﷺ من الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: يومَ حربِ بدر، وهو يومُ النصر، ويومُ وقوعِ الفرقان بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾: المؤمنون والمشركون ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إدامة علوِّكم ونصرِكم ما دمتُم على طاعاتكم وبِرِّكم.

وقال جعفر بنُ بَرْقانَ: هو يومُ ستَّةَ عَشَرَ أو سبعةَ عَشَرَ[٣] من شهر رمضان[٤].

وقال عروة بن الزبير: هو يومُ سبعةَ عَشَرَ أو تسعةَ عَشَرَ، وهو أولُ مشهدٍ شهِده رسولُ الله ﷺ من قتال المشركين لإعلاء الحقِّ والدين[٥].

= خيبر للفرس سهمين وللرجل سهماً.

(١) «ومنهم من لا يرضخ» ليس في (ف). وانظر الخلاف في الرضخ وعدمه، وفيمن يرضخ له ومن لا يرضخ، مع أدلته وأقوال العلماء فيه في «تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٩ ـ ٣١) بتحقيقنا.

(٢) في (ر): «اتسعنا»، وفي (ف): «استغنى».

(٣) بعدها في (ر): «أو تسعة عشر»، وليست في مصدر التخريج.

(٤) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٣٣٢ ـ زوائد).

(٥) رواه بنحوه مطولا الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٠١)، وليس فيه: (سبعة عشر).

(٤٢) - ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ قرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرو بكسر العين والباقون بضمِّها[1]، وهما لغتان، وهي شفيرُ الوادي.

والدنيا: القُربى، تأنيثُ الأدنى، والقصوى: البعدى، تأنيث الأقصى.

يقول: واذكروا إذ كنتم أنتم يا معشرَ المؤمنين[2] من جانبِ شفير الوادي الأدنى إلى المدينة، ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾؛ أي: الكفارُ بالجانب الأقصى منها إلى جهة مكة.

وقوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: أي: العيرُ، جمع راكب؛ كالصَّحْب جمعُ صاحبٍ في مكان أسفل منكم، على[3] الظرف لا على النعت؛ أي: بقربِ ساحل البحر بينكم وبينهم ثلاثةُ أميالٍ، فلم يمكِنْ للمشركين أن يمضوا إلى عِيرهم فيحمُوها إذ كنتم[4] في وجوههم، ولم يمكنكم أن تمضوا إلى العير فتستولوا عليها إذ كان المشركون في وجوهكم، فتخلَّصت[5] العيرُ وتجرَّد الفريقان للقتال، فنصركم الله وأهلك صناديدهم وأوهَنَ كيدهم، وأعزَّ الإسلام وأَظهر أهله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾: أي: ولو كان بينكم وبينهم تواعُدٌ لاجتماعكم في موضع معيَّنٍ ثم علمتُم بكثرة عددهم وقوتهم وقلةِ عددكم وضعفِكم لدعاكم الضعفُ إلى التخلُّف.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

(٢) في (ف): «المسلمين».

(٣) في (ر): «نصب على».

(٤) في (ف) و(أ): «أنتم».

(٥) في (ف): «فتخلص».

وقيل: ولو تواعدتُم ثم لم يُمدِدْكم بلطفه لاختلفتُم بالعوائق والقواطع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: أي: ولكن وقع ذلك من غير ميعاد[1] ليُتِمَّ الله أمراً كان قد أراده، وما أراد كونَه فهو مفعولٌ لا محالة، وهو عزُّ الإسلام وعلوُّ أهله، وذلُّ الكفر وقهرُ أهله.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾: أي: صار الأمر فيما أراده إلى أن اتَّضَح العذر ولزمت الحجةُ، وظهر الحق والباطل، فيَضلُّ مَن ضلَّ عن[2] تمام البيان ويَهتدي مَن اهتَدَى[3] على كمالِ البرهان، فالهلاكُ الكفرُ والحياةُ الإيمان؛ قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: قولَ الفريقين ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: قصدَ الفريقين.

وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكرٍ ونافعٌ: ﴿مَن حَيِيَ﴾ بإظهار الياءين لامتناع الإدغام في مستقبَله: يَحْيَى، وقرأ الباقون: ﴿مَنْ حَىَّ﴾ على الإدغام[4]؛ للُزوم الحركة في الثاني فجرى مجرى: ردَّ.

* * *

(٤٣) ـ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

---

(١) في (ف): «ميعاده».

(٢) في (ف) و(أ): «عن».

(٣) في (ف) و(أ): «اهتدى».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾: أي: وإنَّ الله سميعٌ عليمٌ بما قالوا وأضمَروا فأراك يا محمد في نومك قلةَ عدد المشركين.

ويحتمِلُ أنه رأى في منامه ما كان تأويلُه ضَعْفَ أمر العدو(١)، كأنه رآهم قليلَ العدد، وتأويلُه ضعفُ أمرهم، ورؤيا الأنبياء وحي، فأَخبر أصحابه به، وقد قال: «إني أُريتُ مصارعَ القوم غداً»(٢) فقَوِيتْ نفوسُهم، وكانوا يخافون ويتحدثون بقلةِ عددِ أنفسهم وكثرةِ عددِهم، فأراه الله تعالى ذلك، ولا يكون هذا إراءةَ الشيء على غير(٣) ما هو به؛ لأن الرؤيا تخييلٌ وتنبيهٌ على شيء بتمثيل(٤)، وقد صوَّرنا نوعَ تأويل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾: أي: ولو رأيتَ في منامك ما يكونُ تأويله قوةَ أمرهم ثم أَخبرتَ أصحابك بذلك لفشلوا؛ أي: جبُنوا وانصرفوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: أي: ولاختلفْتُم فلم تتَّفقوا على قتالهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾: أي: من الفشل والتنازُع بما أراك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بسرائر القلوب؛ أي: فعَل ذلك لِمَا علِم من حُسن نيَّاتكم(٥).

* * *

---

(١) في (ف) و(أ): «العدد».

(٢) رواه بنحوه مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، كان يُرينا مَصارِعَ أهلِ بدرٍ بالأمسِ، يقولُ: «هذا مَصْرَعُ فلانٍ غدًا، إنْ شاءَ اللهُ»، قال: فقال عمر: فوالذي بَعَثَه بالحقِّ ما أَخطَؤوا الحُدودَ التي حَدَّ رسولُ اللهِ ﷺ. وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

(٣) «غير» ليست في (ف).

(٤) في (ر): «يتمثل».

(٥) في (أ): «من جبن ينالكم».

(٤٤) ـ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: وهذا لطفٌ آخرُ؛ قلَّل المشركين في أعينِ المؤمنين حين التقَوا حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قلِّلوا في أعيننا يومَ بدرٍ حتى قلتُ لصاحبٍ لي إلى جنبي: كم تراهم[١] سبعين؟ قال: أراهم مئة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، قال: كنَّا ألفاً[٢].

وقلَّل المؤمنين في أعينِ المشركين، فهان أمرُهم عليهم حتى قال أبو جهل لعنه الله: خذوهم بالأيدي أخذاً ولا تقاتلوهم بالسلاح، وكان ذلك سبباً لحرص الفريقين على الملاقاة، فقضى الله تعالى أمره فيهم إذ[٣] كان أمرُه مفعولاً، ومعناه: يكون، لكنْ لمَّا كان مما يكون لا محالة أَخبر عنه بـ﴿كَانَ﴾ كأنه قد كان.

وقال الكلبي: استقلَّ المؤمنون المشركين والمشركون المؤمنين؛ ليجترئَ بعضُهم على بعض.

وقوله: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كائناً في علمه بنصرِ الإسلام وأهلِه وذلِّ الشرك وأهله.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِلُ التقليلُ من الجانبين: أن المسلمين رأوا الملائكةَ معهم فكان المشركون في مقابَلة المسلمين والملائكةِ

---

(١) في (ف): «ترى القوم».

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٨٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠).

(٣) في (ف): «إنه».

قليـلاً، ولـم يَرَ المشـركون الملائكةَ فكان المسـلمون في مقابَلةِ المشـركين قليلاً[١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: فيَحكم فيها بما يريد.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: وإذا أراد الله نصرةَ عبدٍ فلو كاده جميعُ البشر أو أرادوه بكلِّ ضررٍ لم يَنفلَّ من شفا[٢] نُجحه حدّ، ولم يحصل بينه وبين متاح لطفه له سدّ، وإذا أراد الله بعبدٍ سوءاً فليس له ردّ، ولا ينفعه جِدّ، ولا يُنعشه بعد ما أسقطه حكمُه جهد[٣].

* * *

(٤٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾: أي: لاقيتُم جماعةً مـن المشـركين يقصدونكم فاثبتـوا ولا تنهزموا.

وقولـه تعالـى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي: ادعـوا فـي تلك الحالـة ربَّكم، واسـألوه الثباتَ والصبـر والعلوَّ والنصر؛ كالذيـن قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقـرة: ٢٥٠] فإنكم إذا فعلتُـم ذلـك كان فيـه فلاحُكُم وهو الظَّفـرُ بالعدو.

وقال النبيُّ ﷺ: «لا تتمنَّوا لقاء العدوِّ واسألوا الله العافية، وإن لقيتُموهم فاثبُتوا وأكثِروا ذكرَ الله، وإن أَجْلبوا وصيَّحوا فعليكم بالصَّمت»[٤].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٢٩).

(٢) في (ر): «سنا».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢٨). وكلمة «جهد» تحرفت في النسخ إلى: «حد».

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٥١٨)، والدارمي في «سننه» (٢٤٤٠)، وعبد بن حميد في «مسنده»

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَاثْبُتُواْ﴾ فإني معكم ﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فإنهما خصلتان: الغنيمة أو الشهادة[١]، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

وقيل: أمَر الله تعالى بكثرة الذكر بكلِّ حال وإنْ غلب الهمُّ والشغلُ بالنفس والمال، فقال في حق النفس في هذه الآية: ﴿فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الآية، وقال في حقِّ المال: ﴿فَانتَشِرُواْ فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الآية [الجمعة: ١٠].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكر هاهنا: ﴿فَاثْبُتُواْ﴾ وذكر قبل هذا: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾، فدلَّ أن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضدِّه، والنهيَ عن الشيء أمرٌ بضده[٢].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: جميع الخيراتِ في ثبات القلب، وبه يتبيَّنُ أقدارُ الرجال[٣]؛ كما قال الصدِّيق رضي الله عنه حين صدمته الفجيعةُ بوفاة رسول الله ﷺ حتى[٤] قال: مَن كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات، ومَن كان يعبد ربَّ محمدٍ فإنه حيٌّ لا يموت[٥].

* * *

---

(٣٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١١)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
وروى البخاري (٣٠٢٤) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه مرفوعاً: «أيُّها النَّاسُ، لا تَمنَّوا لقاءَ العدُوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُموهم فاصبِروا، واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلالِ السُّيوفِ».

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٣٠).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢٨).

(٤) في (ف): «حين».

(٥) رواه بنحوه البخاري (٣٦٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤٦) ـ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي: في التآلُف على نصرة الدين.

وقيل: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الأمر بالقتال ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما يأمركم به حالةَ الالتقاء مِن تقدُّمٍ أو تأخُّر أو كفٍّ أو إقدام[١]، أو نحوِ هذا مما يُوجبه تدبير قادة الجيوش.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟﴾: أي: لا تختلفوا، والتنازع: طلَبُ كلِّ واحدٍ من صاحبه أن يَنزِع عما هو عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾: أي: فتَجْبُنوا، نصب بالفاء في جواب النهي؛ أي: في التنازُع قلةُ الأعوان[٢] وفيها الجبن، وفي الجبن غلبةُ العدوِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: هي ريحُ النصرة، قال ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبور»[٣]، وقال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقال مجاهد وقتادة: ويَذهب نصرُكم[٤].

وقال السدي: جرأتُكم وحِدَّتُكم[٥].

---

(١) في (ف): «بكف أو قدم» بدل: «أو كف أو أقدام».

(٢) في (أ): «الإخوان».

(٣) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١١) عن مجاهد.

(٥) في (أ): «أي جرأتكم وحدكم» وفي (ف): «جرأتكم وجدكم»، وبهذا اللفظ ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٦٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٧٦) (تحقيق محمود شاكر) بلفظ: (حدكم وجدكم)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٦٣) بلفظ: (جماعتكم وحدتكم)، وقال الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٨٢): قال السدي: (جرأتكم)، وقال مقاتل: (حدتكم).

وقال عطاء: جَلَدُكم[١].

وقال النَّضْر بن شُميل: قوَّتُكم.

وقال الأخفش: دولتُكم.

وقال يمان بن رئاب: غلَبتُكم[٢].

وقال ابن كيسان: ظَفَرُكم ورعبُ عدوِّكم منكم.

ويعبر عن الدولة بالريح؛ يقال: هبت لفلانٍ ريحٌ، إذا جاءت دولتُه.

وقال بعض المتأخرين:

إذا هبَّت رياحك فاغتنِمْها فعُقْبَى كلِّ خافقةٍ سكونُ
ولا تَغْفُلْ عن الإحسانِ فيها فلا تدري الركونُ متى يكونُ[٣]

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: أي: هو مُعينُهم وحافظُهم.

* * *

(٤٧) - ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٦٣)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٨٢) عن ابن عباس بلفظ: (جلدكم وجدكم).

(٢) ذكر الأقوال الثلاثة الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٦٣).

(٣) انظر: «التمثيل والمحاضرة» (ص: ٢٤١)، و«أساس البلاغة» (مادة: روح)، وعزاهما برهان الدين الوطواط في «غرر الخصائص الواضحة» (ص: ٤٠) لابن هندو، وقال الثعلبي: أنشدني أبو القاسم المذكر قال: أنشدني أبو نصر بن محمد بن الحسين الكرخي الكاتب، فذكرهما. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٣/ ١١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: أي: اشتغالاً عن شكر النعمة بإظهار التطاوُل على الناس بإسرافِ نفقةٍ في غيرِ رضى اللهِ عز وجل ونحوه، وقد بَطِر من حدِّ عَلِمَ؛ قال تعالى: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨].

وقيل: البَطَر: سوءُ احتمال الغِنَى، وهو قريب من الطغيان، قال الشاعر:

وإذا غَنِيْتَ فلا تكن بَطِراً   وإذا افتقرتَ فتُهْ على الدَّهرِ[١]

وقوله: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: مرآةً لهم؛ أي: اخرجوا إلى الجهاد محتسِبين، لا بَطِرين ولا مُرائين كالمشركين، فإنهم خرجوا يفعلون ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: دين الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ أي: عالمٌ، وهو وعيدٌ وتهديد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهدٌ وعروةُ بنُ الزبير ومحمد بن إسحاق: خرج أهل مكة لحماية العير التي كانت مع أبي سفيان، وأخرجوا المعازف والقِيَان، فلما نجا أبو سفيان أرسل إليهم: أن ارجعوا فقد سلِمَت عيرُكم، وهم بالجحفة، فقال أبو جهل لعنه الله: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً وننحرَ جُزراً ونشربَ خمراً، وتعزف علينا القِيَان، ويرانا مَن غشِيَنا من أهل الحجاز، وتسمعَ بنا العرب فلا يزالون يهابوننا[٢].

وروي أنه قيل: يا رسول الله! الرجل يقاتل ليَغْنَم، ويقاتل ليُذكر، ويقاتل ليُرى مكانه، فمَن في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «مَن قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا»[٣].

* * *

---

(١) البيت لمحمد بن جرير الطبري. انظر: «تاريخ بغداد» (٢/ ١٦٦)، و«شعب الإيمان» (٤٦٣١)، و«معجم لأدباء» (٥/ ٢٤٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٧٦)

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١٧ ـ ٢٢٠).

(٣) رواه البخاري (٣١٢٦)، ومسلم (١٩٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤٨) ـ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾: أي: محيطٌ بهم إذ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم[1]؛ أي: حسَّن في قلوبهم ثباتَهم على قتال المسلمين، وأوهمهم القوةَ والغلبة وانتشارَ الصيت في العرب بالجَلادة والمنَعة، وقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من جيش محمد ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: مجيرٌ لكم وضامنٌ لكم السلامة من اعتراض المعترِضين.

والجار: هو المجير الذي يعطي الخائفَ الأمان، وقد استجاره فأجاره؛ أي: استأمَنه فأمَّنه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾: أي: تلاقت ورأى بعضهم بعضاً، و﴿ٱلْفِئَتَانِ﴾: جماعة المؤمنين وجماعة المشركين.

وقوله تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: النكوص: رجوعُ القَهْقَرى خوفاً مما يَرى؛ أي: ولَّى مدبراً حين نظر إلى الملائكة مردِفين زائدين على عدد المشركين ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾؛ أي: رجعتُ عما كنتُ ضمنتُ لكم من الأمان ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ أي: لأني أرى الملائكة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أخاف عقابه على أيدي مَن أراهم ولا ترونهم أنتم ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يردُّ عقابه بشيء ولا يقاوَم.

وقصته: ما ذكرنا: أن إبليس تصوَّر لهم بصورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم[2]

---

(١) «أعمالهم» ليست في (أ) و(ف).

(٢) في (ف): «وحثهم» بدل: «بن جعشم».

وشجَّعهم وضمِن لهم، ثم انهزم حين نزلت الملائكة، وكان هؤلاء المشركون تخوَّفوا من بني بكر بن كنانة إذ كانوا قتلوا منهم قتيلاً، فلم يأمَنوا يوم خروجهم إلى بدر أن يأتوهم من ورائهم، فتصوَّر لهم إبليس بصورة سراقة ـ وهو من بني بكر بن كنانة ـ وقال: إني جار لكم من بني بكر، فركَنوا إلى قوله وساروا وهو معهم إلى أن كان ما قلنا، وهذا جائز في زمن النبوة، ويكونُ علَماً لرسول الله ﷺ ليُخبر أصحابه بذلك، ويخبِرَ به مَن أَفْلتَ من القتل من قريش، فيكون ذلك دلالةً على نبوته، قال ذلك ابن عباس والشعبيُّ وقتادةُ وابن إسحاق(١).

وقال قتادة: قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ كذَب والله، ما به مخافةُ الله، ولكنه علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدوِّ الله لمن أطاعه، حتى إذا التقى الحقُّ والباطل أسلمَهم شرَّ مُسْلَمٍ وتبرَّأ منهم(٢).

وقال الكلبي رحمه الله: خاف اللعين أن يأخذه جبريل عليه السلام ويعرِّفَهم حالَه، ولما نكص على عقبيه أخذ الحارثُ بن هشام بيده فقال: أعَلَى هذه الحالة تخذلنا؟! قال: إني أرى ما لا ترون، قال: والله ما نرى إلا جعاسيس يثرب! قال: إني أخاف الله، قال الحارث: فهلا كان أمس؟ فدفع في صدر الحارث وانطلق، وانهزم الناس، فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناسَ سراقةُ بن مالك، فبلغ ذلك سراقةَ، فقال: بلغني أنكم تقولون: إني هزمتُ الناس، فوالله ما شعرتُ بمسيركم حتى بلغني هزيمتُكم، فقالوا: ما أتيتنا يوم كذا؟ فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان(٣).

***

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٢١ ـ ٢٢٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٢٣).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٦٥)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٦٦).

(٤٩) - ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾: أي: واذكروا إذ كان يقول المنافقون، أو: قال إبليس ذلك إذ يقول المنافقون، وهم المعلِنون للنفاق، المترئِّسون على طبقتهم[1] ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ممن دخل في الإسلام حديثاً وفي قلبه بقيةُ شكٍّ لا يعادي المسلمين ولا يُعِين عليهم: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ توهَّموا أن دينهم يَقيهم ونبيَّهم يحميهم وهم بهذه القلة والمشركون بهذه الكثرة والعدة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: أي: يثقْ بالله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالَبُ ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوِّي بين وليِّه وعدوِّه.

وقال مجاهد: نزلت الآيةُ في قوم كانوا مستضعَفين بمكة، فلما خرجت قريش أخرجوهم كرهاً، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتدُّوا فقتلوا جميعاً، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بنُ الفاكهِ بن المغيرة، والحارث بن زَمْعةَ، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبِّه بن الحجاج، خرجوا من مكة وهم على الارتياب[2].

وقال محمد بن إسحاق: هم ثمانية نفرٍ، من قريش خمسةٌ كانوا أقروا بالإسلام فاحتبسهم آباؤهم عن الهجرة، فخرجوا إلى بدر معهم على الارتياب، فلما رأوا قلة

---

(١) في (ر) و(ف): «طبقاتهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٢٧)، ورواه الطبري أيضاً (٧/ ٣٨٣) عن قتادة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، وكذا قال ابن إسحاق كما سيأتي.

أصحاب النبيِّ ﷺ قالوا: غرَّ هؤلاء دينُهم حتى أقدموا[١] عليه مع قلَّتهم وكثرة عدوهم، وأسماء الخمسة: قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس المخزوميان، والحارث بن زَمْعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية، والعاص بن منبه بن الحجاج[٢].

وزاد فيهم مقاتل: والوليد بن الوليد بن المغيرة، والوليد بن عتبة، وعمرو بن أمية ابن سفيان بن أمية، كان هؤلاء أسلموا بمكة ثم أقاموا بها مع المشركين ولم يهاجروا، فقتل هؤلاء مع المشركين، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، وذلك قوله تعالى:

(٥٠) ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٣]: قدَّم المفعول وهو ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهو منصوب بوقوع التوفِّي عليهم، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رفعٌ لأن فعلَ التوفِّي منهم وهو قبض أرواحهم.

يقول: ولو ترى يا محمد إذ كان يتوفَّى الملائكةُ أرواحَ الكفار ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾: أي: يضربون بآلات الحرب كلَّ أجسادهم ما أَقبل منها وما أدبر، لرأيتَ أمراً عظيماً، جواب (لو) هذا، وهو محذوف، وهذا أبلغُ من الذكر؛ لأن النفس تذهب فيه كلَّ مذهب. وتم الكلام هاهنا.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ هذا في الآخرة؛ أي: يقول الملائكة لهم: ذوقوا عذاب الإحراق.

---

(١) في (ف): «قدموا على ما قدموا».

(٢) قاله ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٤١) لكن في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٢٠ ـ ١٢١).

وقيل: أي: عذابَ النار؛ لأن الحريق اسم للنار.

وقيل: كان مع الملائكة مقامعُ مـن حـديـد كلما ضَربوا التهبتِ النار فـي الجراحات، فذلك قوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: قاسُوا وجرِّبوا.

وقيل: يجوز أن تكون هذه الآيةُ في الذين لم يُقتلوا ببدر، وأخبر الله تعالى عن أحوالهم عند حضور آجالهم: أن الملائكة تقبض أرواحهم بالضرب على وجوههم وأدبارهم، فيكون قبضُ أرواحهم مشاكلاً بقبض أرواح الذين قُتلوا ببدر ضرباً وطعناً، ومِن خلفٍ وقدَّامٍ، وفوق الأعناق وعلى كلِّ بنان، ويكون جوابُ (لو): لعلمْتَ أنَّ مَن مات حتفَ أنفه ومَن مات في الحرب يتقاربان في العذاب الشديد.

* * *

(٥١) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: أي: وتقول الملائكة لهم في النار: ذلك الإحراقُ والتعذيب جزاؤكم بما قدمتُم[1] من الكفر والمعاصي بأنفسكم مباشرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لا يعاقبُهم بغير ذنب منهم[2].

* * *

(٥٢) ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: عادة هؤلاء المشركين بالنبيِّ ﷺ كعادةِ فرعون وآلِهِ بالنبيِّ موسى عليه السلام.

---

(١) في (ر): «قدمت أيديكم».

(٢) «منهم» ليست في (أ)، وسقطت الجملة كلها من (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الكفار ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بما أنزل على نبيِّه ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾: أي: عاقبهم بها، فأهلكهم ببدرٍ كما أهلك أولئك بالإغراق في البحر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾: لا يغلبه شيء ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لا يطاق عقابه ولا يردُّه شيء.

* * *

(٥٣) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾: حُذف حرف[1] النون من (يكن) تخفيفاً لكثرة الاستعمال؛ لأن (كان) و(يكون) أمُّ الأفعال؛ لأن (ضرَب) في معنى: كان ضرَب، و(يضرب) في معنى: يكون يضرب[2]، فلما كانت أمَّ الأفعال وكثر استعمالها للحاجة إليها احتملت هذا الحذف، ولم[3] يحتملْه نظائرها مِن: لم يَصُن ولم يخن.

يقول: إن الله جلَّ جلالُه بكرمه لا يَبتدِئ قوماً بإنزال هذا العذاب عليهم حتى يَسبق منهم ما يستحقُّون به العذاب، فيوقَعُ بهم حينئذ، كذا كانت سنَّته في الأمم الماضية كما هي الآن في مشركي العرب، غيَّروا ما أَنعم الله عليهم من ابتعاث محمدٍ ﷺ فكذَّبوه وأخرجوه، فغيَّرنا نعمَنا عليهم فأنزلنا بأسنا بهم.

---

(١) «حرف» زيادة من (ف).

(٢) «يضرب» ليست في (أ).

(٣) في (ف): «ولا».

وقال السدِّي: أي: النعمةُ محمد ﷺ، أنعم الله تعالى به على قريش فكفروا به وكذَّبوه فنقله إلى الأنصار(١).

وقال الكلبي: أنعم الله على أهل مكة فأطعمهم من جوع وآمَنهم من خوف، وبعث محمداً ﷺ إليهم، ولم يكن يعذِّبُهم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم من النعم كفراً بها وتركاً لشكرها، فغيَّروا ذلك فغيَّر الله تعالى ما بهم، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية [النحل: ١١٢](٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: وبأن الله سميعٌ لا يخفى عليه من كلام خلقه شيء، عليمٌ بما في صدورهم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا أنعم الله على قومٍ وأراد دوامها لهم أكرمهم بتوفيق الشكر، فإذا شكروا نعمته قيَّدوها فدامت لهم، وإذا أراد الله إزالةَ نعمة من عبدٍ أذلَّه(٣) بخذلان الكفران، فإذا حاد عن طريق الشكر فقد عرَّض النعمة للزوال، وما دام العبد لشكرِ النعمة مقيماً كان الله تعالى لإنعامه عليه مُديماً، فإذا قابَل النعمة بالكفران انبتَر سِلكُ نظامه، فبقَدْرِ ما يزيد في إصراره يزول الأمر عن قراره(٤).

* * *

(٥٤) ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: صنيعُ هؤلاء بك كصنيعِ آل

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٦٨).

(٣) في (أ): «أزاله».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٣٣).

فرعون بموسى عليه السلام ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بأنبيائنا، وليس هذا بتكرارٍ، فإن الأولى في الكفر والمخالَفة والمؤاخَذةِ بالمعاقبة، وهذا في كفران النعمة والابتلاء بزوال النعمة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾: على العموم ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ على الخصوص ﴿وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

* * *

(٥٥) ـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: أي: شرَّ الخلائق الدابِّين على وجه الأرض هم أهل الكتاب الذين أَلِفوا الكفر، فهم لإلفهم ذلك لا يؤمنون بك.

قال مقاتل: هم يهود بني قريظة، وذلك أن اليهود لعنهم الله نقضوا العهدَ الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال محمدٍ ﷺ وأصحابِه، وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم الثانيةَ فنقضوا العهد، فذلك قوله تعالى:

(٥٦) ـ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾[1]: ﴿عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: أخذتَ العهد منهم.

وقيل: أي: الذي عاهدتَهم منهم؛ أي: من الذين كفروا من أهل الكتاب.

قال الكلبي: نزلت في بني قريظة من اليهود؛ منهم كعب بن الأشرف وأصحابه

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٢٠ ـ ١٢١).

الذين ينقضون العهدَ ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾؛ أي: في كلِّ حينٍ وعامٍ، فنقضوا العهد يومَ الخندق حين ركب كعبٌ إلى أهل مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ[١]. وكذلك قال مجاهد[٢].

وكان السبب في نقضهم العهد: أنهم كانوا سكان المدينة، فلما رأوا علوَّ أمر رسول الله ﷺ حسدوه، فطابَقوا المشركين وأظهروا لهم المظاهرة إن احتيج إليهم.

***

(٥٧) ـ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: (إمَّا) كلمتان: (إنْ) التي هي للشرط، و(ما) التي هي للتأكيد، ولذلك أدخل نون التأكيد في ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ كما تكون في القسم؛ لأن كل واحد منهما للتأكيد.

والثَّقف: الأخذ بسرعة، يقول: فإن أظهروا نقضَ عهدك وكاشَفوك وبادَوك بالمحاربة فظَفِرْتَ بهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾: أي: نكِّل هؤلاء تنكيلاً يكون سبباً لشرود مَن خلفهم؛ أي: نُفورهم وهربهم وخوفهم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي: يتَّعِظون فيمتنِعون لهذا الخوف عن نقض العهد.

قال عطاء: أثخِنْ فيهم القتلَ حتى يخافَك غيرهم من أهل مكة وأهل اليمن[٣].

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٣٦٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٩).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٦٨)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٠٧).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: (فشرِّذ بهم) بالذال[١]، قيل: هو في معناه.

وقال قطربٌ: بالدال: التنكيل، وبالذال المعجمةِ: التفريق.

* * *

(٥٨) ـ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴾: هي كقوله: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ في أنها[٢] كلمتان والنون للتأكيد، وهذا حكمُ مَن ظهرت منه دلالةُ خيانةٍ لا كشفُ خيانة، والآيةُ الأولى في كشف الخيانة، ونقضِ العهد على الإبانة[٣].

والخوف: العلم؛ أي: وإنْ علمت ﴿مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ وهمًّا بنقض العهد ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾؛ أي: أَلْقِ إليهم الخبرَ أنك نقضتَ العهد الذي بينك وبينهم لتكونوا أنتم وهم في العلم بالنقض على سواء؛ أي: على استواء[٤]؛ أي: مستوِين فيه، ولا تحاربْهم قبل الإعلام لأنه خيانة والله لا يحب ذلك، وذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾: وقد كان بنو قينُقاع لمَّا انصرف رسول الله ﷺ من غزوةِ بدرٍ أظهروا ما يدلُّ على إضمارهم الخيانةَ إلى أن انكشف أمرهم بما فعلوه، فسار إليهم رسول الله ﷺ وحاصرهم وأنزلهم على حكمه، فكتَّفهم ليقتلهم، فكلَّمه ابن أبيٍّ في أمرهم وألحَّ عليه، فأخذ رسول الله ﷺ من أموالهم ما أحبَّ ونفاهم، فخرجوا إلى أذرعات، ولما كان يومُ الأحزاب وظهر من بني قريظةَ مظاهرةُ أبي سفيان على حرب رسول الله ﷺ، فعل بهم ما فعل من قتلِ المقاتِلة وسبي الذرِّية

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥)، و«المحتسب» (١/ ٢٨٠).

(٢) في (ف): «فإنها» بدل: «في أنها».

(٣) في (ف) و(أ): «الأمانة».

(٤) «أي: على استواء» ليست في (ف).

وأخذِ الأموال، ثم كان من بني النضير ما كان، وأجلاهم بعد أن خرَّب ديارهم وقطع نخيلَهم وأخَذ من أموالهم ما أحبَّ، وكلُّ هذا عقوبةٌ غليظة تردع السامعين مِن فعلِ ما أوجبَها، ويقع بها الاتِّعاظ والتذكُّر لمن عقَل.

* * *

(٥٩) ـ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾[١]: قرأ عاصم في رواية حفص وابنُ عامرٍ وحمزة: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بياء المغايبة وفتحِ السين، والباقون بتاء المخاطبة وكسرِ السين[٢]؛ أي: يا محمد لا تظنَّنَّ الكافرين السابقين.

و﴿سَبَقُوا﴾ في معنى الحال، وعلى ياء المغايَبة لا بد من إضمارِ اسم قبل الذين كفروا أو بعد ذلك، وتقديره: ولا يحسبنَّ أحدٌ أو حاسِبٌ الذين كفروا سبقوا، أو: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسَهم أو قومَهم أو سلفَهم سبَقوا.

وقال الزجَّاج رحمه الله: تقديره: لا يحسبن المؤمنون الذين كفروا سبَقوا[٣].

ومعنى الآية: ولا تحسبن مَن بقي من المشركين بعد وقعة بدرٍ ممن كان شهدَها فأفلَتَ أو لم يكن شهدها سبقوا؛ أي: فاتوا فلا يلحقهم عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾: أي: لا يفوتون، وقرأ ابن عامر: ﴿أنهم﴾ بفتح الألف[٤]، ومعناه: لأنهم، يقال: طلبت فلاناً فأعجزني؛ أي: فاتني فعجزتُ عن إدراكه.

---

(١) في (ف) و(أ): «ولا تحسبن...»، وهما قراءتان كما سيأتي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٧)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢١).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٧)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

وقال الحسن: لا يعجزون الله؛ أي: لا يفوتونه حتى لا يبعثُهم الله يوم القيامة.

وقيل: أي: لا يعجزونك يا محمد حتى يُظْفِرَكَ الله بهم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: كيف يعارضُ الحقَّ أو ينازعُه مَن في قبضته تقلُّبُه، وبقدرته تَصَرُّفه، وبتصريفه إياه عدمه وثبوته[١].

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: أي: هيِّئوا للكفار ما قدرتُم عليه، ﴿مَّا﴾ نصبٌ لأنه مفعولٌ به بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾.

﴿مِّن قُوَّةٍ﴾؛ أي: من الأشياء التي تكون قوةً لكم عليهم من الرجال والكراع والسلاح.

وروى عقبةُ بن عامر عن النبيِّ ﷺ: أن القوة هي الرميُ[٢]، وهو لا ينفي[٣] غيره، لكنه من جليل ما يُعَدُّ لذلك.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مدَّ الناس أيديَهم إلى شيء من السلاح إلا وللقوس عليه فضل»[٤].

وقال عمر رضي الله عنه: نِعْمَ السلاحُ القوسُ[٥].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٣٥).

(٢) رواه مسلم (١٩١٧).

(٣) في (ر) و(ف): «وهي لا تنفي».

(٤) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٦٣١٣)

(٥) قوله: «وقال عمر رضي الله عنه: نعم السلاح القوس» زيادة من (أ) و(ف). ولم أقف عليه.

وروى مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن رمَى بسهم في سبيل الله بَلَغ أو قصَّر كان له عدل رقبة»(١).

وقال مكحول رضي الله عنه: تعلَّموا الرمي فإن ما بين الهدفين روضةٌ من رياض الجنة(٢).

وروى عقبة(٣) عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كلُّ شيء يلهو به ابنُ آدم باطلٌ إلا ثلاثاً: رميَه بقوسه، وتأديبَه فرسَه، وملاعبتَه امرأته» ثم قال: «ارمُوا واركبوا، والرميُ أحبُّ إليَّ من الركوب، ومَن ترَكَ الرميَ بعد ما عَلِمه فقد كفر من علمه»(٤).

وعن أبي المعتمر قال: قال رسول الله ﷺ: «علِّموا أبناءكم السباحةَ والرميَ، ونعمَ الملتَهى المغزلُ(٥) للمرأة المؤمنة»(٦).

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٥٣٩) من طريق مكحول عن بعض الصحابة عن النبي ﷺ. ورواه الطبراني في «الكبير» (٧٦١٠) من طريق مكحول عن أبي أمامة عن النبي ﷺ. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٠٢٠)، والنسائي (٣١٤٢)، من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه. وهو حديث صحيح.

(٢) رواه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٤/ ٨٣). وروي مرفوعاً من طريق مكحول عن أبي هريرة، لكن في إسناده ضعف وانقطاع. انظر: «التلخيص الحبير» (٤/ ١٦٤).

(٣) «عقبة» ليس من (أ) و(ف).

(٤) رواه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (٢٨١١)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: «ومَن ترَكَ الرميَ بعد ما عَلِمه فقد كفر من علمه» كذا في النسخ، والذي في المصادر: «ومن تركَ الرَّميَ بعد ما عَلِمَه رَغْبةً عنه، فإنها نعمةٌ تركَها» أو قال: «كَفَرَها». وأخرج نحو هذه القطعة الأخيرة مسلم (١٩١٩) عن عقبة بن عامر مرفوعا، ولفظه: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصى».

(٥) في (ف): «الغزل».

(٦) رواه بنحوه البيهقي في «الشعب» (٨٦٦٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال: عبيد العطار منكر الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: هو مصدر رابطْتُ العدوَّ مرابطةً ورِباطاً، وهو أن يَربط المسلمون خيولهم في الثَّغر بمقابلةِ ربطِ الكفار خيولَهم لقصد المسلمين، والمفاعَلة بين اثنين أو حزبين، وهو عطف على قوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾؛ أي: وأعدُّوا ما قدرتُم عليه من رميٍ ورباطِ الخيل.

وقوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾: أي: تخيفون بسبب الرباط الكفار، وهم ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهو واحدٌ أُريدَ به الجمع؛ كما في قوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]، وهم الكفار من المشركين واليهودِ الذين هم بقرب المسلمين ويعرفونهم.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾: أي: وتُرهبون أعداءً آخَرين من دونهم؛ أي: سوَى هؤلاء.

قال مجاهد: هم بنو قريظة.

وقال السدِّي: هم أهل فارسَ.

وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون[1].

وقيل: هم كفَرةُ الجن، وهم يَفزعون من صهيل الخيل.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنهم الجنُّ» ثم قال: «إن الشيطان لا يُخبِّلُ أحداً في دارٍ فيها فرسٌ عتيق»[2].

---

(١) ذكره عنهم الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٣٠) ورواه عنهم ـ عدا الحسن ـ الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٣ ـ ١٧٢٤).

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٦٥٢ ـ زوائد)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٣)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٦٠)، من حديث عريب المليكي. وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: هذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧): فيه مجاهيل.

وقيل: كلُّ عدوٍّ خافٍ.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾: أي: قد أعدَّ لهم جزاء عملهم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾: (ما) كلمة شرطٍ، ولذلك جَزَم فحُذفَ النونُ في ﴿تُنفِقُواْ﴾ وحُذف الياء في ﴿يُوَفَّ﴾.

أي: وكلُّ نفقةٍ قلَّتْ أو كثُرتْ تنفقونها في طاعة الله وخصوصاً في الجهاد فأجرُه موفَّرٌ عليكم بالواحد سبعُ مئة إلى ما فوقَ ذلك، وأنتم لا تُنقَصون من أجورِ أعمالكم شيئاً.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾؛ أي: لا تَخرجوا إلى الحروب كما خرجتُم إلى بدرٍ بغير السلاح؛ لأن حرب بدر كانت آيةً، فأمَركم بالخروج إليها بغير سلاح ليميزَ بين الحقِّ والباطل بهذه الآية، وفي غيرها أمَر بالاستعداد تعلُّقاً بالأسباب التي دبَّر بها أمورَ العباد[2].

قوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ هي الاستطاعةُ التي هي سلامةُ الآلات، ولذلك كانت قبل الفعل، فأما القوةُ التي هي علةُ الفعل فإنها تكون مع الفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ قيل: هم الشياطين، وهو كما قال: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] ويقع الإرهابُ بالخيل في حقِّهم بما فيه من قمع أوليائهم، أو يكون فيه إرهاب أوليائهم وينسب إليهم.

ويجوز أن يراد به كلُّ عدوٍّ يَظهر من بعد ذلك إلى يوم القيامة، ودلَّ ذلك على قيام فرض الجهاد إلى يوم القيامة.

---

(١) في (ر) و(ف): «مثلهم».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٤٧).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الناس مختلفون في قوة القلب على حسَب اختلاف أحوالهم(١)، فواحدٌ يقوَى قلبه بموعود(٢) نصره، وآخرُ يقوَى قلبه بأن الحقَّ عالم بحاله، وآخرُ يقوى قلبه بتحققه بأنه بمشهدٍ من ربه، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وآخرُ يقوى قلبه بإيثار رضى الله تعالى على مراد نفسه.

وآخرُ يقوى قلبه برضاه بما يفعله مولاه.

وقيل: أقوى جُنَّةِ العبد في مجاهدةِ العدوِّ تبرؤُه من حوله وقوَّته(٣).

وقد قال النبيُّ ﷺ: «بك أقاتل وبك أحاول»(٤).

* * *

(٦١) ـ ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾: أي: مالوا إلى الصلح فمِلْ إليها، جنَحت السفينة: إذا(٥) مالت، وجَناح الطائر يقع به الميل في أحد شقيه، والجُناح: الميل إلى المأثم.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿للسِّلم﴾ بكسر السين، والباقون بفتحها(٦)،

---

(١) في (ف): «حالاتهم».

(٢) في (ف): «بموعد».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٣٥).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٩٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٧٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٧٥)، من حديث صهيب رضي الله عنه. وهو حديث صحيح.

(٥) في (ف): «أي».

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

وهما لغتان، وهي مؤنَّثة ـ أي: سماعاً ـ أي[1]: استعدَّ لقتالهم وقاتِلْهم، وإذا مالوا إلى الصلح فصالحهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي: في خيانةٍ[2] يُضْمرونها، أو كيدٍ يريدونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لِمَا يجري بينك وبينهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يضمرونه من كيد وهو كافيك.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تخَفْ خيانتَهم ونقضَهم العهدَ فإن الله يُطلعك عليه ويكفيك.

قال: وقال الحسن رحمه الله: نسخها: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩].

قال: وقال بعضهم: نسخها قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

قال: وقال بعضهم: نسخها ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥].

قال: والوجه فيه: أن الإمام إذا رأى الصلح والموادعة للمسلمين أنفعَ، وهم طلبوا ذلك، أجابهم إليه، وإذا طلبوا هم منه الصلحَ وبالمسلمين قوةٌ للقتال والحرب معهم لم يُجبهم إلى ذلك، وكذا قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ هو نهيٌ أن ندعوَهم نحن إلى السَّلم ونحن الأعلَون وبنا قوةٌ، وما ذكر هؤلاء من نسخه فذلك لا نعرفه[3]، والله أعلم.

* * *

(١) «سماعاً أي» من (ر).

(٢) في (ف): «جناية».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

(٦٢) ـ ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾: أي: إن يريدوا بجنوحهم للسَّلم أن يخدعوك لضعفٍ يكون فيهم في ذلك الوقتِ فيلتمسوا السَّلْم ليَسلَموا إلى أن يَقْوَوا ويُمكنَهم انتهازُ الفرصة منك ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيَكَ خداعَهم وناصرَك عليهم.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾: بمددِ الملائكة يومَ بدر ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذين أَلَّف بين قلوبهم على نصرتك، ومجاهدةِ الكفار على طاعتك، بعد تبايُنٍ وتباغُضٍ كان بينهم.

وقوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾: هم الأوس والخزرج، ما كان يطمع في تألُّفهم بإنفاق الكثير من الأموال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾: بفضله ولطفه ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ لا يُرَدُّ ما يفعله ﴿حَكِيمٞ﴾ لا يَنتقِض تدبيره ولا يختلُّ سلطانه.

قال الكلبي: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ يعني: يهود بني قريظةَ يخدعوك بالصلح لتكفَّ عنهم، فالله حسبُك، هو الذي أعانك وقوَّاك ﴿بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ـ يعني: الأوسَ والخزرج ـ يومَ بدر، وألَّف وجمع بين قلوبهم بالإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾: وليس بتكرارٍ؛ لأن قوله: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ معناه: فإنه يكفيك خداعهم، وهذا الثاني عامٌّ في كلِّ كفايةٍ يحتاج إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: له وجوه:

أحدها: النصب، بمعنى: يكفيك ويكفي مَن اتَّبعك؛ كما قال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقال الشاعر:

إذا كانـت الهيجاءُ[١] وانشـقَّتِ العصا ... فـحـسبُـك والضحَّاكَ سـيفٌ مهنَّدُ[٢]

وهذا معنى قولِ الشعبيِّ وابنِ زيد[٣].

والثاني: الرفع بالعطف على اسم الله عز وجل، وهو معنى قول الحسن[٤]، ومعناه: كافيك الله وكافيك أيضاً مَن اتبعك من المؤمنين.

وأجاز الوجهين الكسائيُّ والفرَّاءُ والزجَّاج[٥]، ويجوز أن يكونا مرادَين[٦] بالآية.

و(مَن اتَّبعك) على قول أكثرهم للجمع؛ أي: ومتَّبِعونك من المؤمنين يَكْفونك أيضاً، وعلى القول الأول: الله يكفيك ويكفي متَّبِعيك من المؤمنين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال[٧].

قال: وسورة الأنفال كلُّها مدنية إلا هذه الآيةَ فإنها نزلت بالبيداء[٨].

---

(١) في (أ): «إذا كنت في الهيجاء».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١٧)، و«الصحاح» (مادة: عصا)، و«شرح المفصل» لابن يعيش (٢/ ٤٨)، وعزاه في «ذيل الأمالي» (ص: ١٤٠) لجرير، وليس في ديوانه.

(٣) بل هو صريح قولهما كما رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٧).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٦٨).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢٣).

(٦) في (ف): «ويجوز أن المرادين»، وفي (أ): «ويجوز أن يكونوا مرادين».

(٧) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٣١)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٣١) عن الكلبي، فلعله مما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكر هذا القول أيضا ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٤٩) عن النقاش. وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري (٤٦٤٥) عن سورة الأنفال فقال: (نزلت في بدر).

(٨) ذكره عنه الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٣١).

وقال مقاتل: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: الأنصار[١].

وقال عطاءٌ: المهاجرون والأنصار[٢].

ومنهم مَن جعل ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ للواحد و(مِن) للتبعيض، وهو ما روَى الكلبيُّ[٣] عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الآية نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه[٤]، فإنْ صح فالآية مكية في السورة المدنية.

* * *

(٦٤) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾: أي: حُثَّهم ورغِّبْهم في القتال بذكر ثواب الآخرة، ووجودِ النصر والظَّفرِ في العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾: ﴿يَكُن﴾ هاهنا تامٌّ؛ له اسم ولا خبر له[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]،

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٢٤)، و«البسيط» (١٠/ ٢٣٢). والذي في «تفسير مقاتل» أنه في الآية التي قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٣٢) من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٣) «الكلبي» ليست في (ف).

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٤٧٠)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨): (فيه إسحاق بن بشر الكاهلي، وهو كذاب). قلت: وليست طريق الكلبي بأصلح من هذه، وقد رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٨) عن سعيد بن جبير، لكن قال القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٦٧): (وقع في السيرة خلافه..) وانظر باقي كلامه ثمة، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٤٢).

(٥) «له» ليس من (أ) و(ف).

وتقديره: إن يَحضر منكم القتالَ عشرون، وقوله: ﴿صَٰبِرُونَ﴾ نعتٌ للعشرين، وهو خبر بمعنى الأمر؛ أي: ليَثبُتِ العشرون للمئتين ولا يُولُّوا، فأمر بمقاومة الواحد العشرةَ، وكان هذا في الابتداء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هو كذلك؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كتب عليهم ألا يَفِرَّ الواحد من العشرة ثم خفِّف[1] عنهم وأُمروا ألا يَفِرَّ الواحد من الاثنين[2]، وطريق إثبات الأمرِ بهذا الخبر: أن ظاهره: إنْ يصبر العشرون يَغلبوا مئتين، وتقديره: فاصبروا تَغْلِبوا.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾: الفقه: هو إخراج ما لم يُذكر مما ذُكر، يعني: أن الكفار إنما يقاتلون على الدنيا لا علم لهم بما وعد الله عليه إذا كان على الحق من الجزاء والعطاء، وأنتم أيها المؤمنون تفقهون وقد سمعتُم أَثْنية المجاهدين وأجزيَةَ المقاتلين، فهذا يشجعكم ويثبِّتكم ويصبِّر قليلَكم على قتال كثير المشركين.

وقال محمد ابن إسحاق رحمه الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يقاتلون على[3] بيِّنةٍ وحقٍّ، ولا معرفةٍ لخيرٍ ولا شرٍّ[4].

وقال مقاتل بن حيان: لما نزل ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ قام النبي ﷺ فقال: «مَن قتل قتيلاً فله كذا ومَن أسر أسيراً فله كذا»، وبعث حمزة في ثلاثين راكباً، فلقي أبا جهل لعنه الله في ثلاثِ مئة راكب، ونزلت هذه الآية، ولما كان يوم بدر خفَّف الله عنهم[5]. فذلك قوله تعالى:

---

(١) في (ف) و(أ): «خففت».

(٢) رواه البخاري (٤٦٥٣).

(٣) في (ف): «عن».

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٧٥).

(٥) انظر: «البسيط» (١٠/ ٢٤٤) وعزاه للمفسرين، و«الكشاف» (٢/ ٢٣٥) وعزاه لابن جريج. وانظر =

(٦٦) - ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: قرأ عاصم وحمزة: ﴿ضَعْفًا﴾ بفتح الضاد، والباقون بضمِّها[1]، وهما لغتان كالـمَكْث والـمُكْث.

أي: كان الله عَلِم منكم في الأزل أنكم تَضعفون في هذه الحالة عن مقاومة الواحد العشرةَ، وكان في أول الأمر لخواصِّ أصحاب النبيِّ ﷺ زيادةُ استبصارٍ وقوةُ قلب، فلما اختلط بهم سائر الناس وفيهم مَن يكون به حبُّ الأهل والولد والمال، وأنه يضعف القلبُ عن مقاومة الكثير من الكفار، خفَّف عنهم وفرَض أن يقاوم الواحد الاثنين.

وقيل: أي: عَلِم الآن ضعفَكم قد وُجد كما كان عَلِم في الأزل أنه يوجد فخفَّف عنكم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ﴾: هذا تقرير[2] مقاومة الواحد الاثنين.

قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي: بحُكم الله وعِلم الله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: أي: وإنما يقاوم الواحد الاثنين إذا صبر، واللهُ مُعِين الصابرين وحافظُهم.

* * *

= قصة سرية حمزة في «مغازي الواقدي» (١/ ٩)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٩٥).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨ - ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٢) في (ر) و(ف): «تقدير».

(٦٧) ـ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾:

قال الواقدي: ولما حبَس الأسرى ببدر استَعملَ عليهم شُقرانَ، فقالوا: لو بعثنا إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه فإنه أَوْصَلُ قريش لأرحامنا، ولا نعلم أحداً أعظمَ عند محمد منزلةً منه، فبعثوا إلى أبي بكر رضي الله عنه فأتاهم، فقالوا: يا أبا بكر، إن فينا الآباءَ والأبناء والأخوالَ والعمومةَ وبني العم، وأبعدُنا قريبٌ، فكلِّم صاحبَك فيَمُنَّ علينا أو ليفادينا، فقال: نعم إن شاء الله تعالى، لا آلوكم خيراً إن شاء الله، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ.

قالوا: وابعثوا إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ فإنه مَن قد علمتُم، ولا نأمنُ أن يُفسد عليكم، لعله يكفُّ عنكم، فأرسلوا إليه فجاءهم، فقالوا له مثلَ ما قالوا لأبي بكر، فقال: لا آلوكم شراً، ثم انصرف إلى النبيِّ ﷺ فوجد أبا بكر والناسَ حوله، وأبو بكر يليِّنه ويَفْثَؤه[١] ويقول: يا رسول الله، بأبي وأمي، قومُك فيهم الآباء والأبناء والعمومةُ والأخوال، وأبعدُهم منك قريبٌ فامنُن عليهم منَّ الله عليك، أو فادِهم يستنقِذْهم الله بك من النار فتأخذَ منهم ما أخذتَ قوةً للمسلمين.

ثم قام فتنحَّى ناحيةً، وسكت رسول الله ﷺ فلم يُجِبْه، ثم جاء عمر رضي الله عنه فجلس[٢] مجلسَ أبي بكر فقال: يا رسول الله، هم أعداء الله كذَّبوك وقاتَلوك،

---

(١) في (أ): «ويعثاه»، وفي (ر): «ويفتوه»، وليست من (ف). والمثبت من «المغازي»، ومعناه: يسكن غضبه. انظر: «القاموس» (مادة: فثأ).

(٢) بعدها في (ف): «في»، وليست في «المغازي».

اضرِبْ رقابهم هم رؤوسُ الكفر وأئمةُ الضلالة، يوطِّئ الله بهم الإسلام ويذلُّ بهم أهل الشرك.

فسكت رسول الله ﷺ فلم يُجبه، وعاد أبو بكر رضي الله عنه إلى مجلسه الأول وقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قومُك فيهم الآباء والأبناء والأخوال والعمومة، وأبعدُهم منك قريبٌ فامنُنْ عليهم أو فادهم، هم عِتْرتُك[١] وقومك، لا تكن[٢] أولَ مَن يستأصلهم، يهديهم الله خيرٌ من أن تُهلكهم.

فسكت عنه رسول الله ﷺ ولم يردَّ عليه شيئاً، وقام أبو بكر ناحيةً وعاد عمر فجلس مجلسه فقال: يا رسول الله، ما تنتظرُ بهم، اضرب رقابهم[٣] يوطِّئ الله بهم الإسلام ويذلُّ أهل الشرك، اشفِ صدور المسلمين.

فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه، وقام ناحية وجلس، وعاد أبو بكر رضي الله عنه وكلَّمه بمثل كلامه فلم يجبه، فتنحَّى ناحيةً، ثم قام عمر فكلَّمه بمثل كلامه فلم يُجبه.

ثم قام رسول الله ﷺ فدخل قبَّته فمكث فيها ساعةً، ثم خرج والناس يخوضون في شأنهم، يقول بعضهم: القولُ ما قال أبو بكر، وآخرون يقولون: القول ما قال[٤] عمر، فلما خرج رسول الله ﷺ قال: «ما تقولون في صاحبيكم هذين؟ دعوهما فإن لهما مَثَلاً، مَثَل أبي بكر في الملائكة مَثَلُ ميكائيلَ ينزل بالرحمة، ومَثَله في الأنبياء كمثل إبراهيم عليه السلام، كان ألينَ على قومه من العسل، أَوْقَد له قومُه النار فطرحوه فيها، فما زاد على أن قال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا

---

(١) قوله: «هم عترتك» من «المغازي»، ووقع بدلا منها في (أ): «عزتك»، وفي (ر) و(ف): «هم عثرتك».

(٢) في النسخ: «تكون»، والمثبت من «المغازي».

(٣) في (ف) و(أ): «أعناقهم».

(٤) في (ف): «قاله».

تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧] وقال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثَلُه[١] مثَلُ عيسى إذ يقول: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ومثل عمر في الملائكة كمثلِ جبريل ينزل بالسخطة من الله والنِّقمة على أعداء الله، ومَثَلُه في الأنبياء كمَثَل نوح عليه السلام كان أشدَّ على قومه من الحجارة إذ يقول: ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فدعا عليهم دعوةً أَغرق الله بها الأرض جميعاً، وكمثل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وإن بكم عَيلةً فلا يفوتنَّكم رجل من هؤلاء إلا بفداءٍ أو ضربةِ عنق»، فقال عبد الله بن مسعود: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء فإني رأيتُه يُظهر الإسلام بمكة[٢]، فسكت النبي ﷺ، قال عبد الله بن مسعود: فما مرَّت عليَّ ساعةٌ قطُّ كانت أشدَّ عليَّ[٣] من تلك الساعة، فجعلت أنظر إلى السماء أتخوَّف أن تسقط عليَّ الحجارةُ لتقدُّمي بين يدي اللهِ عز وجل ورسولِه بالكلام، فرفع رسول الله ﷺ رأسه فقال: «إلا سهيل بن بيضاء»، فما مرت عليَّ ساعةٌ قط أقرَّ لعيني منها، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله يشدِّدُ[٤] القلب

---

(١) بعدها في (ف): «أيضاً» وليست في «المغازي».

(٢) جاء في «المغازي» هنا: (قال ابنُ واقِدٍ: هذا وهمٌ، سهيلُ بن بيضاءَ مِن مُهاجِرة الحبشة، ما شهدَ بدرًا، إنما هو أخٌ له يقال له سَهْلٌ). قلت: وكذا قال ابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٢١٣): (والذي روى هذه القصة في سهيل ابن بيضاء قد أخطأ، سهيل ابن بيضاء أسلم قبل عبد الله بن مسعود ولم يستَخْفِ بإسلامه، وهاجر إِلَى المدينة وشهد بدْرًا مَعَ رسولِ اللهِ ـ ﷺ ـ مسلمًا لا شك فيه، فغلط من روى ذلك الحديث ما بينه وبين أخيه؛ لأن سهيلًا أشهر من أخيه سهل، والقصة فِي سهل، وأقام سهل بالمدينة بعد ذلك وشهد مع النبي ـ ﷺ ـ بعض المشاهد، وبقي بعد النبي ﷺ). قلت: وقد ورد الاسم على الصواب في رواية الحديث عند الإمام أحمد برقم (٣٦٣٤).

(٣) في (ر): «فما مرَّت ساعةٌ عليَّ قطُّ أشدُّ».

(٤) في (ف): «ليشدد».

فيه حتى يكون أشدَّ من الحجارة، ويليِّن القلبَ فيه حتى يكون ألينَ من الزُّبد»، فقبِل رسول الله ﷺ الفداء(١).

وفي رواية: قال عمر: أرى أن تمكِّننا منهم، فتمكِّنَ عليًّا من عقيل حتى يضربَ عنقه، وتمكِّنَ حمزةَ من أخيه العباس حتى يضربَ عنقه، حتى يعلم ربُّنا أنه ليس في قلوبنا للكفار هوادةٌ، قال عمر رضي الله عنه: فرضي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه، فلما كان من الغد أتيتُ رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر رضي الله عنه يبكيان، فقلت: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيء تبكيان؟ فإنْ وجدتُ(٢) بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للَّذي كان من أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عُرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» وهي قريبةٌ من رسول الله ﷺ «ولو نجا منه أحدٌ لنجا منه ابنُ الخطاب» فأنزل الله تعالى قولَه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٣)؛ أي: يُكثِرَ القتل ويَغلب ويَقهر في أرض العرب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: وما كان لنبيٍّ أن يأخذ من الأسرى الفداءَ حتى يَغلب في الأرض، حتى إذا أخذ الفداء أو أطلقهم بعدما غلَب في

---

(١) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ١٠٧ ـ ١١٠)، ورواه بنحوه دون قوله: «إن الله يشدد...» الإمام أحمد في «المسند» (٣٦٣٢) من طريق أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود، ورواه أيضاً (٣٦٣٤) ولم يسق لفظه، بل اقتصر على بيان الاختلاف في ابن بيضاء، فجاء فيه: (سهل بن بيضاء) على الصواب، وقد نبهنا إليه قريباً. ورواه الترمذي (١٧١٤) و(٣٠٨٤) مختصراً، وقال: حديث حسن وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.

(٢) في (ر): «أجد».

(٣) رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. دون قوله: «ولو نجا منه أحد لنجا منه ابن الخطاب». وفيه: «... عرض عليَّ عذابهم...».

الأرض يكون رجوعهم إلى غيرِ منعةٍ وشوكةٍ، وإذا لم يَغلب في الأرض ثم أخذ الفداء يكون رجوعهم إلى منعةٍ، وذلك لا يحلُّ(١).

وقالوا: هذا عتابٌ للنبي ﷺ بألطفِ وجهٍ، فإنه لم يقل له: ما كان لك أن تفعلَ، بل أخبره أنه لم يجعلْ لأحدٍ من الأنبياء ذلك؛ أي: لم يَشْرعْ لهم، وفي هذا من التعظيم لنبيِّه ﷺ ما لا خفاءَ به.

وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾: ولم يقل: تريد ـ خطاباً للنبيِّ ﷺ ـ، بل خاطب الناس.

وقيل: ليس بخطابٍ أيضاً للكل، فإن أبا بكر ومَن كان بمثلِ(٢) حاله ما أشاروا(٣) إلى أخذ الفداء رغبةً في المال، بل رجاءَ إسلام الكفار، والأقلُّون منهم رغبوا في المال، فعاتبهم الله تعالى بقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: تختارون المال الذي هو شيءٌ قليلٌ عارضٌ يزول.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾: أي: يختار لكم ثواب الآخرة دون عرَض الدنيا.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إن الله تعالى أراد لأهل بدرٍ الآخرةَ وثوابها، وهم أرادوا العير وعرَض الدنيا، فكان ما أراد الله تعالى لهم لا ما أرادوا(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أي: فأَريدوا الآخرةَ يعزَّكم، ولا تخافوا العدو فإن الله يَقهرهم، وهو حكيمٌ فيما يَأمر به ويختاره.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٥٨).

(٢) في (أ): «مثل» وفي (ف): «بمثل» بدل: «كان بمثل».

(٣) في (ف): «أشار».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٦٠)، وفي قوله: (وهم أرادوا العير وعرض الدنيا) نظر، فقد نسب ذلك للجميع دون أن يستثني، وقد ذكر المؤلف الجواب عنه قريباً.

(٦٨) ـ ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾: قيل: لولا حكمُ الله في المجتهِدِين أنه لا يعاقبُهم فيما يجوز فيه الاجتهادُ لأصابكم فيما أخذتُم من الفداء عذاب عظيم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لولا كتابٌ من الله سبق في تحليل الغنائم لكم لأصابكم العذاب[١].

وقال الحسن: إن الله تعالى أطعم هذه الأمةَ الغنيمة، وإنهم أَخذوا الفداء من أسارى بدر قبل أن يُؤمروا به، فعاب[٢] الله ذلك عليهم ثم أحلَّه لهم[٣].

وقال محمد بن إسحاق: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ أني لا أعذِّب إلا بعد النهي ـ ولم يكن نهاهم ـ لعذَّبْتُكم فيما صنعتُم[٤].

وقال سعيد بن المسيب: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدرٍ بالسعادة[٥].

وقال عبد الرحمن بن زيد: سبَق من الله العفوُ عنهم والرحمةُ لهم[٦].

* * *

(٦٩) ـ ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٧٧).

(٢) في (أ): «فعاتب»، والمثبت من باقي النسخ و«البسيط».

(٣) انظر: «البسيط» (١٠/ ٢٥٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٧٦) دون قوله: «فعاب...».

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٧٦).

(٥) ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٠).

(٦) ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨١).

وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾: أي: فقد أحلَلْتُ لكم الغنائم التي كانت محرَّمةً على الأمم قبلكم فكلوها حلالاً طيباً؛ أي: محلَّلةً قد زالت عنكم التَبِعة والإثم فيه.

وروى أبو هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما أُحلَّتِ الغنائم لأحدٍ من سودِ الرؤوس قبلَكم، كانت النارُ تنزل من السماء فتأكلُها»(١).

وقال علي بن أبي طلحة: كان الله كتَب في أمِّ الكتاب: إن الغنائم والأسارى حلالٌ لأمة محمد ﷺ، فأخذوا الغنائم وأسروا الأسارى قبل أن ينزل في ذلك شيءٌ، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فلمَّا نزلت هذه الآية أمسكوا عن مد أيديهم إلى شيء من الغنائم، فنزل: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: في الائتمارِ بأوامره والانتهاءِ بنواهيهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾: لِمَا كان منكم قبل هذا ﴿رَّحِيمٌ﴾ لم يعاجِلْكم بالعقوبة، ولا يعذِّبُكم بعد التوبة.

* * *

(٧٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

---

(١) ورواه الترمذي (٣٠٨٥) وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٤) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس دون قوله: «فلما نزلت هذه الآية أمسكوا...»، وهذه القطعة ذكرها الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٦٠) عن المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾[١] قرأ أبو عمرو: ﴿من الأسارى﴾ وقرأ الباقون: ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾[٢].

أُمر النبي ﷺ باستمالة الأسارى الذين أخذ منهم الفداء ترغيباً لهم في الإسلام، فقال: قل يا محمد للأسارى الذين في أيديكم:

﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا﴾: أي: إن يعلم اعتقادَ الإيمان والتصديقِ في قلوبكم موجوداً كما علِمه قبل وجوده أنه يوجدُ ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾؛ أي: يُعطِكم في الدنيا والآخرة أكثرَ مما أُخذ منكم، وهو قوله تعالى[٣]: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ذنوبكم[٤] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قال عكرمة: وكان العباس ممن أُخذ في الأسارى، فأَوثقوه ورسولُ الله ﷺ يسمع أنينَه، فأمره الله تعالى أن يأخذ منهم الفداءَ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾[٥] قال رسول الله ﷺ للعباس: «افتدِ» قال: وبمَ أفتدي ولستُ أملك شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «الأربعون ديناراً التي دفعتَ إلى أم الفضل يوم خرجتَ» قال العباس: ومَن أخبرك بهذا؟ فوالذي لا يُحلف بأعظمَ منه ما عَلم به[٦] أحد، فقال رسول الله ﷺ: «أخبرني به ربي» فقال العباس: وربُّك يعلم ما

---

(١) في (ف) و(أ): «الأسارى»، بدل: «الأسرى»، وهما قراءتان كما سيرد.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٣) «وهو قوله تعالى» ليست في (أ).

(٤) «ذنوبكم» ليست في (أ) و(ف).

(٥) في (أ): «الأسارى».

(٦) في (ف): «بها».

نُخفيه؟ قال: «نعم» فأقرَّ العباس وقال: ما استيقنتُ أنك رسول الله ﷺ إلا الساعةَ[١].

وروي أن فداء كلِّ أسير كان عشرين أوقيةً، وفدى العباس بأربعين أوقيةً عن نفسه وعن ابن أخيه عقيلٍ، قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله تعالى خيراً منه، ولي اليوم عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب بعشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحبُّ أنَّ[٢] لي بها جميعَ أموال مكة، وإني لأنتظر المغفرة وليس شيء أفضل منها[٣].

***

(٧١) ـ ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾: قال الحسن: وإن يريدوا خيانتَك مرةً أخرى فيرجعوا إلى الكفر بعدما مَنَنْتَ عليهم وأطلقتَهم من أسرهم، فخانوك بالقتال لك[٤] والعونِ عليك ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: خانوا أولياءه ونقضوا العهدَ وقاتلوك ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: أَمْكَنك الله منهم؛ أي: أَقْدَرَك عليهم[٥].

وقال ابن كيسان: ﴿خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: نكَثوا ما أعطَوا من أنفسهم عند

---

(١) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (٣٣١٠) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحاكم في «المستدرك» (٥٤٠٩) ـ وصححه ـ من حديث عائشة رضي الله عنها، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٤٢) من طريق ابن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة، عن الزهري وجماعة سماهم. ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) في (ر): «أن يكون».

(٣) قطعة من خبر الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عند ابن سعد (٤/ ١٥)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧) من طرق أخرى عن ابن عباس دون ذكر إعطائه زمزم.

(٤) «لك» ليس من (أ) و(ف).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٦٣).

البلاء من العهد: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾[1]؛ أي: انتقم منهم فعذَّبهم بك وبالمؤمنين وهم مع صناديدهم ورؤسائهم، فكيف بعد ذهابهم بالقتل؟

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بخَلْقه ما يستحقُّونه من عقابه ﴿حَكِيمٌ﴾ في حكمه وأمره.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ يعني: العباسَ وأصحابه في قولهم: نشهدُ إنك لرسولُ الله، ولنَنْصَحنَّ لك على قومنا، يقول: إن كان هذا خيانةً فقد خانوا الله من قبلُ فأَمْكَنك منهم[2].

وهذه الآيةُ والتي قبلها في العباس وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وكان العباس أحد العشرة الذين ضمِنوا إطعام أهل بدر، ولم يكن بلَغَتْه النَّوبة حتى أُسر وأُخذت منه عشرون أوقيةً من ذهب كان خرج بها ليُطعم الناس، وأُسر قبل الإنفاق وأُخذ منه ذلك المال، فكلَّم رسول الله ﷺ أن يجعل تلك العشرين أوقيةً من الفداء فلم يفعل، وقال له[3]: «أمَّا شيء خرجتَ به تستعين به علينا فلا أتركُه لك»، وأَضْعَفَ عليه الفداءَ وكلَّفه فداءَ عَقيلٍ ونوفلٍ، فقال العباس: يا محمد! تركتَني أسأل قريشاً الدَّهرَ في كفِّي، فقال رسول الله ﷺ: «فأين الذهبُ الذي دفعتَه إلى أم الفضل وقتَ خروجك من مكة، فقلتَ لها: إني لا أدري ماذا[4] يُصيبني في وجهي هذا، فإن حدثَ لي حدثٌ فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقُثم»؟ يعني: بنيهِ، فقال له

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٧).

(٣) «له» زيادة من (ف).

(٤) في (ف) و(أ): «ما».

العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي» فقال له العباس: فأنا أشهد أنك صادق، وأشهد[١] أنْ لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، ولم يَطَّلع عليه أحد إلا الله[٢].

* * *

(٧٢) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾: لمَّا ذمَّ الخائنين الناقضِين العهدَ مدح بعدهم المهاجرين والأنصار الموفِينَ بالعهد فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ ﴾ مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾ بعد ذلك الكفارَ ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ مخلِصين طالبين رضا اللهِ، ﴿و﴾ أهلَ المدينة ﴿الذين أووا﴾ رسولَ الله ﷺ وأصحابَه ونصروهم على أعداء الله[٣]، فهم طبقةٌ واحدةٌ يجب على كلِّ واحد من الصنفين موالاةُ الآخر ومواتاتُه ومواساته ومؤاخاته، وكذا فعل رسول الله ﷺ حين قدم المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكلِّ مهاجريٍّ أخاً أنصاريًّا، فجَرَوا على ذلك حتى شاطروا المهاجرين أموالَهم ودُورهم، وكان يكون لرجل من الأنصار داران فيعرضُهما على أخيه من المهاجرين على أن ينزل له عن أيَّتهما شاء.

وابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد وجماعة[٤] حملوا

---

(١) «أشهد» زيادة من (ف).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٧٤)، و«تفسير البغوي» (٣/ ٣٧٨).

(٣) في (ف) و(أ): «على أعدائهم».

(٤) «وجماعة» ليس من (ف).

هذه الولاية على الوراثة، وقالوا: كان التوارُث في الابتداء بهذه المؤاخاةِ دون القرابة إذا لم يكن معها هجرةٌ، فكان لا يَرِث المهاجرُ من[1] غير المهاجرِ ولا غيرُ المهاجر من المهاجر وإن كانا قريبين، حتى كان يومُ فتح مكةَ فسقطت فريضةُ[2] الهجرة ونزلت آية المواريث بالقرابات[3].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾: أي: لا يلزمُكم موالاتُهم، ولا يجري التوارُث بينكم وبينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾: أي: الذين آمنوا وأقاموا في بلدهم أو باديتهم ولم يهاجروا إليكم فقصَدهم عدوٌّ من الكفار فطلبوا منكم النصرَ فانصروهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾: أي: قومٍ من الكفار بينكم وبينهم موادَعةٌ، فعليكم في هؤلاء الوفاءُ بالعهد وتركُ الحرب، ولم يَلزَمْكم نصرةُ الذين آمنوا ولم يهاجروا على هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: أي: بما تعملون مِن موالاة مَن يجب موالاتُه وتركِ موالاة مَن لا يجوز موالاته، وهو تحذير عن تعدِّي حدِّ الشرع في الموالاة وتركِها.

* * *

(٧٣) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

---

(١) «من» ليس من (ف).

(٢) في (ف) و(أ): «فرضية».

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٣)، وقول ابن عباس رواه أبو داود (٢٩٢٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ ﴾: أي: لا تتولَّوا الكفار فليسوا بأوليائكم بل بعضُهم أولياء بعضٍ، وليس معناه أنه يلزمُهم أن يتولَّى بعضُهم بعضاً كما في المسلمين، لكنْ أريد به نفيُ الولاية بين الكفار والمسلمين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾: (إلا) كلمتان: (إنْ) التي هي للشرط و(لا) التي هي للنفي، وحذفت النون في آخر الفعل للجزم بالشرط.

وقيل: هو متصل بقوله: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ ... إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: كفرٌ ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾: تسافُكُ دماءٍ؛ لأن ترك التناصُر في الدِّين يُورث ذلك.

وقيل: هو مقرَّر في موضعه، ويرجع إلى كلِّ ما سبق ذكرُه، ومعناه: إن خالفتُم ما أمَرناكم به من التولِّي للمؤمنين والتبرِّي من الكافرين، ظهر الكفر وتركُ العمل بالشرائع والتهارُجُ وفسادُ الدِّين والدنيا.

وقال عبد الرحمن بن زيد: كان المهاجر المؤمنُ والمؤمنُ الذي لم يهاجر لا يتوارثان وإن كانا أخوين مؤمنين، فلما كان يوم فتح مكةَ وانقطعت الهجرة توارَثوا حيثما كانوا بالأرحام، وقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح» وقرأ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾(١).

***

(٧٤) - ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٩٦)، وقوله: «لا هجرة بعد الفتح» رواه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ أعاد ذكر وصفِهم[1] ليبنيَ عليه بيانَ مدحهم وجزاءَ فعلهم، وهو قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: قال ابن كيسان: أي: الذين حقَّقوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذلِ الأموال في دين الله.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: كما بيَّن في أول هذه السورة الثناءَ والجزاءَ لهذه الطائفة، ثم بيَّن الذين يؤمنون ويهاجرون من بعدُ، وهو قوله تعالى:

(٧٥) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾: أي: اللاحقين بحكم[2] السابقين، وهم من جملتكم وداخلون في ولايتكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾: أي: بالتوارُثِ، وانتَسخ به ما كان من المؤاخاة بين الذين هاجروا والذين آوَوا ونصروا، وهو نصٌّ على توريث ذوي الأرحام عند عدم أصحاب الفرائض والعصبات، وهو حجةٌ لنا على الشافعي رحمه الله فإنه لا يورِّثهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: قال الزجَّاج: في حُكم الله[3].

وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: أي: في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾: فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه.

---

(١) بعدها في (ف): «للنبي عليه الصلاة والسلام».

(٢) في (ف) و(أ): «حكم».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٧٢)، ولم أجده في «معاني القرآن» للزجاج.

وقال الإمام القشيري رحمه الله في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ ﴾ يريد: مَن سلك مسلكهم في الحال، ومَن سيلحق بهم في الاستقبال، فالأُلفة تجمعُهم، والولاية تشملُهم، فلهم من الله في العُقبى جزيلُ الثواب، والنجاةُ من العذاب، وفي الدنيا الولايةُ والتناصُر والمودةُ والتقارب.

وقال: المؤمن للأجانب مُجانب، وللأقارب مُقارب، والكفار بعضهم أولياءُ بعض، وقد قيل:

طيرُ السماء إلى أُلَّافها تقعُ[1]

وبالله العون[2] والتوفيق.

اللهم بك أستعينُ على الطاعات والقُرَب، وإليك أَلْتجِئُ على تحصيل العلم والأدب، فبحُرمة حبيبك ونبيِّك المصطفى، وابنِ عمه وحبيبه المرتضَى، أَحْيِني يا ربِّ كما تحبُّ وترضى، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

* * *

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٤١). والمذكور عجز بيت كما في «العقد» لابن عبد ربه (٢/ ١٧٩)، وصدره:

والإلفُ ينزع نحو الآلِفِينَ كما

(٢) في (ف): «الغوث».

سُورَةُ التَّوبَةِ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

روي(١) عـن أبـيِّ بن كعـب رضي الله عنه عن النبـيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سـورة الأنفـال وبـراءةَ فأنـا شـفيعٌ له يـوم القيامـة، وشـاهدٌ أنه بـريءٌ مـن النفـاق، وأُعطي عشـرَ حسـناتٍ بعـددِ كلِّ منافـقٍ ومنافقـةٍ، وكان العـرشُ وحملةُ العرش يسـتغفرون له أيامَ حياتـه»(٢).

وهـي مدنيـة، وآياتُهـا مئـة وتسـعٌ وعشـرون آيـةً، وقيـل: مئـةٌ وثلاثـون آيـة، والاختـلاف فـي آيتيـن: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبـة: ٣]، ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيـمًا﴾ [التوبـة: ٣٩].

وكلماتها ألفان وأربعُ مئة وثمان وتسعون، وحروفها عشرةُ آلاف وتسعُ مئة وسبعةَ عشر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قلتُ لعثمان بن عفَّان: ما حملكم على أن عمدتُم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءةَ وهي من المئين فقرنْتُم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعْتُموها في السبع الطِّوال؟ فقال عثمان رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يأتي عليه الزمان ينزل عليه السورُ ذواتُ العدد، فكان إذا نزل عليه الشيءُ يدعو بعض من يكتب له فيقول له: «ضعوا هذه الآيات في

(١) في (ر) و(ف): «روينا».

(٢) قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال مما أُنزل عليه بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتُها شبيهةً بقصة الأنفال فظننَّا أنها منها، وقُبض النبيُّ ﷺ ولم يبيِّن لنا أنها منها، فمِن أَجْل ذلك قرنَّا بينهما ولم نكتُب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم، وكانتا تُدعيان: القرينتين، فوضعناهما[١] في السبع الطِّوال[٢].

وقال سفيان بن عيينة وقد سئل: لِمَ لَمْ يُكتب في صدر براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: إن التسمية رحمة، والرحمةُ أمانٌ، وهذه السورة نزلت في المنافقين بالسيف ولا أمان للمنافقين[٣].

وسئل علي بن محمد العلويُّ الكوفي[٤] عن ذلك فقال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح[٥] سِلمٍ وبركة، وبراءةَ مفتاحُ حربٍ وهلكةٍ، فلم يَجُز افتتاحُ السِّلم والبركة بافتتاح الحرب والهلكة.

وقال ابن كيسان: نزلت براءة على تسعٍ من هجرة النبيِّ ﷺ.

---

(١) في (ف): «فعرضناهم».

(٢) رواه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦). وهو حديث تفرد بروايته يزيد الفارسي، ويكاد يكون مجهولاً كما ذكر الشيخ أحمد شاكر في «المسند» (٣٩٩) وقال: فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك، فلا علينا إذا قلنا: إنه حديث لا أصل له، تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ١٦٤).

(٤) لعله علي بن محمد بن جعفر، أبو الحسين العلويّ الكوفي الحماني، شاعر من أهل الكوفة، وكان وجيه الكوفة في عصره، وبها وفاته، وكان يقول: أنا شاعر وأبي شاعر، إلى أبي طالب، كلهم شعراء. توفي سنة (٣٠١هـ). انظر: «الأعلام» (٤/ ٣٢٤).

(٥) «مفتاح» من (أ).

وقال الزهري: كان سعيد بن المسيِّب يقول: الأنفال وبراءة سورة واحدة(١).

وقال أبو عطيةَ: كتب إلينا عمر رضي الله عنه: تعلَّموا سورةَ براءة، وعلِّموا نساءكم سورة النور(٢).

وقال البراء بن عازبٍ: آخرُ سورة أنزلت كاملةً سورةُ براءة(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت براءةُ تسمَّى: الفاضحة، على عهد رسول الله ﷺ، فضحت أقواماً يومَ النحر ـ وهو الحجُّ الأكبر ـ بما أَنزل الله من شؤونهم(٤)، وما كانوا يكتمون من غشِّ النبيِّ ﷺ(٥).

ومن المفسرين مَن سماها بسبعة أسماء: سورة التوبة، والمبعثِرة؛ أي: المظهِرةُ لأسرار المنافقين، من قوله: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩]، والفاضحة، والمنكِّلة، والمشرِّدة، والمخزِيَة من قوله تعالى: ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، والمدمدِمة وهي المهلِكة.

***

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٠٤ ـ تفسير)، والبيهقي في «الشعب» (٢٤٣٧).

(٣) رواه البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

(٤) في (ف) و(أ): «سوآتهم».

(٥) لم أجده بهذا اللفظ، وروى البخاري (٤٨٨٢)، ومسلم (٣٠٣١) عن سعيد بن جُبيرٍ، قال: قلتُ لابن عباس: سورةُ التَّوبةِ، قال: التوبةُ؟ هي الفاضحةُ، ما زالتْ تَنْزِلُ: ومنهم ومنهم، حتى ظَنُّوا أَنَّها لن تبقِيَ أحدًا منهم إلَّا ذُكِرَ فيها.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

(١) ـ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾: أي: هذه براءةٌ؛ أي: انقطاعُ عصمةٍ من الله ورسوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: ملقاةٌ إلى المشركين الذين عاهَدْتُموهم.

* * *

(٢) ـ ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: أي: قل لهم: ﴿فَسِيحُوا۟﴾؛ أي: سيروا على مهلٍ على الأمان من القتال أربعةَ أشهرٍ من هذا الوقت إلى تمامِ هذه المدة، وكان الذين لهم عهد مع رسول الله ﷺ على أنواع:

منهم: مَن بقي مِن مدته أكثرُ من أربعة أشهر.

ومنهم: مَن بقي قَدْرُ أربعةِ أشهرٍ.

ومنهم: مَن بقي أقلُّ من ذلك.

فجعل الكلَّ على مدةِ أربعة أشهرٍ، وكان هذا فضلاً من الله جلَّ جلالُه حيث لم يأمر بمباغَتتِهم[1] بالحرب ليُنظَروا ولا يَحتجُّوا بشيء.

---

(١) في (ر): «بمتابعتهم».

وقال محمد بن إسحاقَ: هم صنفانِ من المشركين:

أحدهما: كُليبٌ، كانت مدةُ عهدهم أقلَّ من أربعةِ أشهر، فأُمهِلوا بالسياحةِ تمامَ أربعةِ أشهر.

والآخر: خزاعةُ، وكان مدة عهدهم سنتين، فقُصِرَ على أربعة أشهر، وهم حربٌ بعد ذلك يُقتلون حيثما أُدركوا، ويؤسَرون إلى أن يؤمِنوا.

وقال الكلبي: إنما كانت أربعةُ الأشهر[1] لمن كان عهدُه دون أربعةِ الأشهر، فأُتم له أربعة الأشهر، ومَن كان عهدُه أكثرَ من ذلك بقي حقُّهم بقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾[2].

وقيل: التأجيل[3] بأربعةِ الأشهر[4] لمن نقض العهد، فأما الذي لم ينقض ولم يظاهر أحداً على المؤمنين فقد أمر بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾.

وقال محمد بن كعب: بَعَث رسول الله ﷺ أبا بكرٍ رضي الله عنه أميراً على الموسم سنةَ تسعٍ بالبراءة، ثم أَتْبَعه عليًّا رضي الله عنه[5].

قال جابر رضي الله عنه: كنتُ مع عليٍّ رضي الله عنه حين أَتْبَعَه رسول الله ﷺ

---

(١) في (ر): «الأربعة أشهر» وفي (ف): «أربعة أشهر».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣١١)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٦).

(٣) من قوله: «فأتم له أربعة الأشهر...» إلى هنا من (أ).

(٤) في (ر): «أربعة أشهر»، وفي (ف): «دون الأربعة أشهر».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٠٩).

أبا بكرٍ، فلما كان بالعَرْجِ[١] ثوَّبَ لصلاة الصُّبح، فلمَّا استوى أبو بكرٍ رضي الله عنه ليكبِّر سمع الرغاء، فوقف وقال: هذا رُغاءُ ناقةِ رسول الله ﷺ الجدعاء، لقد بدا لرسول الله ﷺ في الحجِّ، فإذا عليها عليٌّ رضي الله عنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أميرٌ أم رسول؟ قال: لا بل رسول[٢] أرسلني رسول الله ﷺ ببراءةَ أقرؤها على الناس في مواقف الحج، فقَدِما مكة، فلما كان قبلَ التروية بيومٍ قام أبو بكر رضي الله عنه فخطب الناس وحدَّثهم عن مناسكهم، ثم قام عليٌّ فقرأ ثلاثين أو أربعين آيةً من براءةَ[٣]. وأجَّل المشركين أربعةَ أشهر.

وفي رواية: كان ذلك يومَ عرفةَ، وأجَّل المشركين عشرين من ذي الحجة والمحرمَ وصفراً وشهرَ ربيعٍ الأول وعشراً من شهر ربيع الآخر[٤]، ونادى الناسَ في منازلهم: لا يدخل الحرم إلا مؤمنٌ، ويُتَمُّ إلى كل ذي عهدٍ عهدَه، ولا يحج بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عُرْيان[٥].

وقال الزهري: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ نزلت في شوال، فهي أربعة الأشهر: شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم[٦].

---

(١) في هامش (أ): «العرج بسكون الراء من مراحل طريق مكة».

(٢) «لا بل رسول» من مصادر التخريج، ووقع في النسخ بدلاً منه: «بلى».

(٣) رواه الدارمي في «سننه» (١٩١٥)، والنسائي (٢٩٩٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٦٤٥). وتكرر في الحديث ذكر خطبة أبي بكر وقيام علي بقراءة براءة أربع مرات: قبل يوم التروية بيوم، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٠٩) عن محمد بن كعب القرظي، ورواه بنحوه أبو عبيد في «الأموال» (٤٤٩)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣١٠)، عن مجاهد.

(٥) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٧٩٧٧)، والنسائي (٢٩٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٤١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٧).

وعلى هذا التخريج يكون هذا قولـه تعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾(١).

وقال مقاتل: نزلت في ثلاثة أحياء من العرب: خزاعة ومنهم هلال بن عويمر، وبنو مدلج منهم سراقة بن مالك بن جُعْشُم الكنانيُّ، وفي بني خزيمة بن عامر(٢)، وهما حيان من كنانة كان النبي عليه السلام عاهدهم عشر سنين بالحديبية، فجعل الله عز وجل أجلَ الذين كانوا في العهد أربعةَ أشهر من يوم النحر إلى عشرٍ من شهر ربيعٍ الآخر(٣).

وقيل: ولمَّا ضربت لهم مدةٌ قالوا: نسيح في الأرض(٤) في المدة على أمان ثم نحتال فنمتنعُ. [فنزل](٥) قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾: أي: فائتي الله؛ أي: لا تقدرون أن تفوتوا فتخرجوا عن قبضة قدرته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾: أي: واعلموا أن الله يخزيكم فيذلُّكم ويفضحُكم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: وإن قطع عنهم [الوصلة فقد] ضرب لهم مدةً على وجه المهلة، على أنهم إن أقلعوا عن الضلال وجدوا في المآل ما فَقدوا من الوصال، وإن أبوا إلا التمادي في ترك الخدمة والحرمة انقطع ما بينه وبينهم من العصمة.

---

(١) بعدها في (أ): «واحداً». وانظر ما سيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾.

(٢) قولـه: «وفي بني خزيمة بن عامر» من «تفسير مقاتل»، ووقعت العبارة في النسخ: «ومن بني خزيمة وعامر».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٥٦).

(٤) «في الأرض» من (ف).

(٥) ما بين معكوفتين من «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

ثم ختم الآية بما معناه: إن أصرَرْتم على قبيح آثاركم مشيتُم إلى هلاككم بقدمكم، وسعَيتُم في عاجلكم في إراقة دمكم، وحصَلتُم في أجلكم على ندمكم، فما خسرتم إلا في صفقتكم، وما جرَّ حينكم [١] سواكم:

تبدَّلتْ وتبدَّلْنا وأَخْسَرُنا ... مَن ابتغَى عوضاً يَسْلي فلم يجدْ[٢]

***

(٣) ـ ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾: قال ابن زيد والزجاج: أي: إعلامٌ من الله لكم يا معشرَ المسلمين[٣]، فليُؤْذِن به بعضُكم بعضاً فقد أمرتُ رسولي بإعلامكم.

﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: ورفع ﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾ بإضمارِ هو، وقرأ عيسى بن عمر: (ورسولَه) نصباً عطفاً على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾[٤]، وقرأ الحسن: (ورسولِه) بالخفض على معنى القسَم[٥].

وقيل: إن أعرابيًّا سمع رجلاً يقرأ بالخفض فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا

---

(١) في (أ): «حن حينكم»، وفي (ف): «جر حينكم».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦). والبيت لأبي الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المعروف بالببغاء. انظر: «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٢٨٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢١) عن ابن زيد، وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢٩).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٧)، و«زاد المسير» (٣/ ٣٩٧).

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١١). قال السمين في «الدر المصون» (٦/ ٩): هذه القراءة يبعد صحتها عن الحسن للإبهام.

بريءٌ منه أيضاً، فأخذ الرجل بتلبيبه وجاء به إلى عمر رضي الله عنه، فقصَّ الأعرابي قراءته، فعند ذلك أمر عمر بتعليم العربية[١].

يقول: أَعْلِموا هذا، فقد أَعْلمت المشركين ذلك بقولي: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وإعلامٌ لأهل العهد من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريءٌ ممن يَعْدِل به غيرَه ورسولُه أيضاً بريءٌ منه[٢].

وقال القشيري رحمه الله: بَرِح الخفاءُ[٣] فليس لهم ولاء، إذ لم يكن منهم [بما عقدوا] وفاء، فليَعْلم[٤] الكافةُ أنهم أعداء:

أشاعوا لنا في الحي أشنعَ قصةٍ   وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حرباً[٥]

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾: أي: رجعتُم يا أهل مكة من الكفر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، تنجُون به من السيف في الدنيا ومن العذاب في العُقبى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: أي: أبيتُم إلا عبادةَ الأوثان، وأعرضتُم عن الإيمان، ودمتُم على هذا التولِّي والخذلان[٦] ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾: أي: غيرُ فائتيه.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: أَعلِمهم بذلك، فكان بشارةً للمؤمنين والمطيعين بالثواب، والكافرين بالعذاب[٧].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١١).

(٢) «منه» ليست في (أ) و(ف).

(٣) أي: وضح الأمر وزالت خفيته. انظر: «أساس البلاغة» (مادة: برح).

(٤) في (أ) و(ر): «فأَعْلَم»، والمثبت من (ف) و«اللطائف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧)، وما بين معكوفتين منه.

(٦) «والخذلان» ليست في (أ) و(ف).

(٧) «والكافرين بالعذاب» ليس في (أ) و(ف).

والحج الأكبر هو الحج، والحج الأصغرُ هو العمرة.

وفي يوم الحج الأكبر اختلاف:

قال عليٌّ وابن عباس وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وابن أبي أوفى والمغيرةُ بن شعبة وابن مسعود وجماعةٌ من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين: هو يوم النحر[1]، وابن عمر والمغيرةُ رضي الله عنهما رَوَيا ذلك عن النبيِّ ﷺ[2]؛ لأن الركن في باب الحج الوقوفُ بعرفة وطوافُ الزيارة، ويجوز الوقوف بعرفة في ليله، ويجب طوافُ الزيارة في نهاره، ويقع أعمالٌ كثيرةٌ فيه من إراقة الدماء والحلق والرمي، وفيه يَحِلُّ المحرم.

وقال عمر، وابن عباس في رواية، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وجماعةٌ من التابعين: هو يومُ عرفة[3]؛ لقول النبيِّ ﷺ: «الحجُّ عرفة»[4]، وبفَوَاتِ الوقوف بعرفةَ فواتُ[5] الحج.

وقال مجاهد: هو أيام الحج كلُّها[6]؛ لأن أفعال الحج تؤدَّى فيها، ويطلق اليوم على الأيام لأنه جنس.

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢٤ ـ ٣٣٥). ورواه عن علي والمغيرة وابن أبي أوفى أيضاً سعيد بن منصور في «سننه» ـ التفسير ـ (١٠٠٧) و(١٠٠٨) و(١٠٠٩).

(٢) رواه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أبو داود (١٩٥٤)، وابن ماجه (٣٠٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢٤ ـ ٣٣٥)، وعلقه البخاري عقب الحديث (١٧٤٢). ولم أجده مرفوعاً عن المغيرة.

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢١ ـ ٣٢٤).

(٤) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٩٠٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه.

(٥) في (أ): «فوت».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

وقال محمد بن سيرين: الحج الأكبر: العام الذي حجَّ فيه رسول الله ﷺ، اتَّفق فيه حجُّ الملل[1].

* * *

(٤) - ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: قيل: الاستثناء من الأمر بسياحةِ أربعة[2] أشهر، ولهم تمامُ مدتهم.

وقال الزجَّاج: الاستثناء من براءة الله ورسوله إلى المشركين[3].

وقيل: من قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والصحيح: أنه استثناء منقطع بمعنى: لكن، والبراءةُ والإنذار بالعذاب في حقِّ كلِّ الكفار، وتقديره: لكن الذين عاهدتم من المشركين ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لم يطعنوا في دينكم ولم يدلُّوا على عوراتكم ولم يَسْعَوا في نقيصةِ أمركم ﴿يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾؛ أي: لم يعاونوا عليكم عدواً ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ فإنَّ حفظ العهد تقوى، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي: الحافظين العهدَ.

---

(١) ذكره عن ابن سيرين النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ١٨٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٢). ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٣٧) عن الحارث بن نوفل.

(٢) «أربعة» ليس من (أ) و(ف).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٣٠).

والآية نزلت في بني ضَمْرةَ وبني كنانة، وكان بقي لهم من مدتهم تسعةُ أشهر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مدةُ مَن كان له عهدٌ من المشركين قبل أن تنزل براءةُ أربعةُ أشهر من يوم أُذِّن بالبراءة إلى العاشر من شهر ربيعٍ الآخِر، فذلك أربعةُ أشهر، فإنْ نقَض المشركون عهدهم وظاهروا عدوًّا فلا عهدَ لهم، وإنْ وفَوا بعهدهم الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ولم يظاهروا عليه عدوًّا فقد أُمر بأنْ يفيَ عهدَهم[1].

***

(٥) ـ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾: قال الحسن: أي: خرجت ومضت هذه أربعة الأشهر[2] التي قال: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لسائر المعاهدين، وتسعةُ أشهر لبني كنانة، وخمسون يوماً من يوم النحر إلى آخر المحرَّم لمن لم يكن له عهد، وهو قول مجاهدٍ وعمرِو بن شعيبٍ ومحمدِ بن إسحاق وجماعةٍ، وسميت حرماً لأنهم حرُم قتلُهم فيها بحكم الأمان[3].

وقيل: الأشهر الحرم: رجبٌ وذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم.

وقد روَينا عن الزهريِّ أن نزولَ براءة كان في أولِ شوال، فكان يمضي الأربعةُ الأشهر بمضيِّ شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم، فيكون الأمر بقتلهم عند انسلاخ الأشهر الحرم الثلاثة بعد شوال.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٤٢).

(٢) في (ر): «الأربعة أشهر».

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾: أي: في الحلِّ والحرم.

وقوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾: أي: ضيِّقوا عليهم المسالك، ولا تَدَعوهم يضربون في البلاد بالتجارة وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: أي: على كلِّ مرصدٍ، وفي كلِّ مرصدٍ؛ أي: مَرْقَبٍ، والمرصد: الطريق الذي يُرقب فيه العدوُّ؛ أي: في كلِّ طريق يُظنُّ مرورُهم فيه ليأخذوهم.

و﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ على هذا منصوبٌ بنزع الخافض.

وقيل: هو نصبٌ على الظرف؛ لأنه مكان القعود.

وهذا كلُّه تبعيدٌ[1] لهم عن مكة، ومنعٌ لهم عن دخولها والاجتماعِ مع المسلمين في الحج، وهو تحقيقٌ لِمَا نودي فيهم: لا يحجُّ بعد العام مشركٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾: أي: رجعوا عن الكفر[2] ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: التزَموهما ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾؛ أي: لا تقتلوهم ولا تأسروهم ولا تضيِّقوا عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: غفر لهم كفرَهم ومعاصيَهم بالإيمان به، ويرحمهم فلا يعذِّبهم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا أسلم الكافر بعد شركه، ولم يقصِّر فيما[3] وجب عليه من قِسْمي فعله وتركه، حصل الإذن في تخليةِ سبيله وفكِّه، قال الشاعر:

---

(١) في (ف) و(أ): «بتبعيد».

(٢) في (ف): «أي عن الكفر»، وليست في (أ).

(٣) في (ف): «ولم يعص فيما»، وفي (ر): «ولم ينقض مما».

إنْ وجَدْنــا لِمَــا ادَّعيــتَ شــهودا[١]   لم تَجِــدْ عندنــا لحــقٍّ جُحــودا[٢]

ولمَّا قرأ عليٌّ رضي الله عنه هذه الآيات قام رجل فقال: أرأيتَ لو جاء رجلٌ مستأمنٌ ليستمع[٣] القرآن، أتقتلونه؟ قال: لو صبرتَ لبيَّنْتُ لك حكمَه فيما أنزل الله تعالى فإنه مذكور فيما أقرأ، وهو قوله تعالى:

(٦) - ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾: تقديره: وإن استجارك أحدٌ من المشركين حتى يسمعَ كلام الله ﴿فَأَجِرْهُ﴾؛ أي: إن جاءك أحد من المشركين الذين لا عهد لهم يسألُك أن تُؤمِّنه وتكونَ جاراً له من وثوبِ المؤمنين عليه حتى يسمع كلام الله ويتأمَّلَه، فأَجِبْه إلى ذلك وأَجِره، وإن جاء وسمع وتدبَّر ولم يؤمِن فلا تقتلْه فقد أمَّنْته، ولكنْ أَوْصِله إلى حيث يأمَنُ على نفسه، وهو قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾: أي: الكفارُ جاهلون مقلِّدون جارُون على الإلْف، فإذا الْتَمَس سماعَ كلام الله فأَجِبْه فقد يكون مسترشِداً، فإذا سمع وتأمَّلَ زالت عنه الشبهةُ فأسلمَ، فإنْ لم يفعل ورجع إلى موضعه فلكُم بعد ذلك إذا[٤] وجدتُموهم قَتْلَهم وأخذَهم لأنكم قد أَعْذَرتُم إليهم.

وقال عطاء: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني: ما أَعَدَّ الله تعالى لأوليائه من الثواب ولأعدائه

---

(١) في (ر): «الشهودا».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٨).

(٣) في (أ): «يستأمن يستمع»، وفي (ف): «يستأمن ليسمع».

(٤) في (ف): «إن».

من العقاب، وما افترَض الله عز وجل في دِينه من الصلاة والزكاة والصوم والحج[١].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فأسمِعوهم[٢] حتى يعلموا.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إذا استجارك المشركُ اليومَ لا يُردُّ حتى يسمع كلام الله، فإذا استعاذ المؤمن طول عمره من الفراق متى يُمنَع عن سماع كلام الله؟ ومتى يكون في زمرة مَن يقول لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨][٣]؟

* * *

(٧) ـ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ كيف استفهام بمعنى الإنكار؛ أي: لا يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه في الآخرة وعهد عند رسوله يأمنون به على أنفسهم عذاب الدنيا من القتل والأخذ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: يجوز أن يكون استثناءً من المشركين الذين لا عهد لهم، وتقديره: إلا الذين عاهدتم، ويجوز أن يكون بمعنى: لكن؛ أي: لكن الذين عاهدتُم عند المسجد الحرام فلا تنقُضوا عهدهم ولا تتعرَّضوا لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾: أي: على عهدهم ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾؛ أي: على عهدكم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين لا ينقضون العهد.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٩٩).

(٢) في (أ): «فأسمعهم».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٩).

وقال السدِّيُّ وابن جريجٍ: هم بنو جَذِيمة[١].

وقال محمد بن إسحاق: هم قبائل من بني بكر[٢] عاهَدوا يوم الحديبيَة[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قريش[٤].

وقال عبد الرحمن بن زيد: هؤلاء قريش لم يستقيموا، فضُرب لهم بعد الفتح أربعةُ أشهر ليُسلموا أو ليَلحقوا بأيِّ البلاد شاؤوا، فأسلموا قبل أربعة أشهر[٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: أنهم بنو ضَمْرةَ[٦].

وقال الحسين بن الفضل: هم بنو جذيمة[٧] وكنانة.

وقال مقاتل: هم خزاعةُ وبنو مدلج وبنو جذيمة[٨].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: كيف يستحقُّون أن يُعطَوا العهدَ وقد نقضوا العهود التي[٩] بينهم وبين ربهم، وهو عهد الخلقة؛ إذ في خلقة كلِّ أحدٍ الشهادةُ على وحدانية الله تعالى وألوهيتِه، ونقضوا ما عُهد إليهم في كتبهم من إظهار

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥٠).

(٢) في (ر) و(ف): «كنانة»، والمثبت من (أ) والمصادر.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥١)، وهو في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٤٤).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٩).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥٢).

(٦) ذكره عن ابن عباس ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٠٠)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٤٢) عن الكلبي، فلعل خبر ابن عباس من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه.

(٧) في (ر): «خزيمة».

(٨) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٥٨).

(٩) في (ف): «العهد الذي».

صفة محمد ونعته(١) للخلق، ونقضوا العهود التي بينهم وبين رسول الله ﷺ ولم يحفظوها، فكيف يستحقُّون أن يعطَوا عهداً مع هذا، إلا أن الله عز وجل بفضله أَذِن أن يُعطَوا العهود، وما استقاموا لكم بالوفاء بالعهد فاستقيموا لهم بذلك(٢).

وقال القشيري رحمه الله: كيف يكون المفلسُ في عرفانه كالمخلِص في إيمانه؟ وكيف يكون المحجوبُ عن شهوده كالمستهلَك في وجوده؟ ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾: إن تمسكوا بحبل وفائنا أحلَلْناهم في ظلِّ ولائنا، وإن زاغوا عن عهدنا ابتليناهم بصَدِّنا، ثم لم يَبرحوا على بُعْدنا(٣).

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾: فيه إضمارٌ؛ أي: كيف يكونُ لهم عهدٌ وهم إنْ يَظفروا بكم ويغلِبوكم، وهو كقوله عز وجل: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾: أي: لا يحفظوا ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإلُّ: القرابة، والذمَّة: العهد(٤).

وقال عبد الرحمن بن زيد: كلاهما العهد(٥).

وقال مجاهد: الإلُّ القرابة، والذمة الميثاق(٦).

---

(١) في (ر) و(ف): «وبعثه»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٠٤).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٠)، وفيه: «ثم لم يربحوا في بعدنا»، وفي (أ): «ثم لم يربحوا على بعدنا».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥٥ـ٣٥٦).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥٧).

(٦) لم أجده عن مجاهد، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٥٨) عن السدي بلفظ: ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾: عَهْدًا ولا قرابةً ولا ميثاقًا.

وقال قتادة: الإِلُّ: الحِلف، والذِّمة: العهد[١].

وقال الحسن: الإل: الجوار[٢].

وقال أبو عبيدة: الإل: اليمين[٣]، وهو مأخوذٌ من الأَليل وهو البريق[٤] واللَّمَعان.

وقال الزجاج: أصله التحديد، من الأَلَّة؛ أي: الحَرْبة[٥].

وقال المبرِّد: كرَّر لمَّا اختَلف اللفظان وإن كان معناهما واحداً، وهو كقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾، وكما قال الشاعر:

وأَلْفَى قولَها كذباً ومَيناً[٦]

وقوله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾: بحُسنِ القول ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ التصديقَ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾: عاصون ناقضون العهد.

* * *

(٩) ـ ﴿ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥٧).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٤٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٠٢).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٥٣).

(٤) في (ر): «البرق».

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٣٤).

(٦) عجز بيت لعدي بن زيد، وهو في «ديوانه» (ص: ١٨٣)، وصدره:

وقدَّمَتِ الأديمَ لراهشَيهِ

وهذا القول ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٤) وعزاه للسدي وابن زيد وأحد قولين عن مجاهد، ولم يرتضه الآلوسي فقال: ويأباه إعادة (لا) ظاهراً فليس هو نظير: فألفى قولها كذباً ومينا، فالحقُّ المغايرة بينهما. انظر: «روح المعاني» (١٠/ ٢٣٧).

وقوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾: قال عطاء: كان أبو سفيان يعطي الناقة والطعامَ ليصدَّ الناس بذلك عن متابعةِ النبي ﷺ[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي: أعمالُهم هذه في نهاية السوء.

وقال القشيري رحمه الله: مَن رضي من الله بغيرِ الله أَرخصَ في صَفْقته فخسِر في تجارته، فلا له بما آثَرَ على الله استمتاع، ولا فيما دونه له إقناع، بقي عن الله ولم يستمتِعْ بغير الله، أَلَا ذلك هو الخسران المبين[2].

* * *

(١٠) ـ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾: قد فسَّرناه، والأولُ في صفة[3] ناقضي العهد، والثاني في صفة المشترِين بآيات الله ثمناً قليلاً.

وقيل: الأول على الخصوص لأنه قال: ﴿فِيكُمْ﴾، والثاني على العموم لأنه قال: ﴿فِى مُؤْمِنٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾: أي: المجاوِزون حدودَ الله تعالى، وهذا حثٌّ على قتالهم لسوء أعمالهم، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

* * *

(١١) ـ ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣١٠).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١١).

(٣) «صفة» ليس من (أ) و(ف).

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا﴾: أي: مِن الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: قبلوهما ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ أي: فهم إخوانكم في الإسلام، وقد زالت المعاداة، وارتفعت المقاتَلة والمباراة.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ الْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أي: نبيِّنها للَّذين يعملون بعلومهم.

* * *

(١٢) - ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾: أي: نقضوا ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ أي: عابوه ﴿فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ ونقضُ العهد كافٍ لإباحة القتل، ولكن ذُكر الطعنُ في الدِّين لزيادة تحريكِ المؤمنين على قتالهم.

وقيل: معناه: وإنْ نكثوا أيمانهم بطعنهم في دِينكم، ويذكر الفعلان بواوٍ بينهما والثاني تفسيرُ[1] الأول، كقولك: استخفَّ فلان بحقِّي وردَّني عما طلبتُ إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾: أي: قاتلوهم فإنهم أئمة الكفر؛ أي: المقتدَى بهم والمتَّبَعون[2]؛ لأنه قيل: أريد به بنو بكر الذين عدَوا على خزاعة فأعانتْهم قريش فانتَقض عهدهم وغزاهم لذلك رسول الله ﷺ، وهم كلُّهم قريش وأشياعهم، وبهم كان يقتدي سائر المشركين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾: أي: لأنهم[3]، وقرأ ابن عامر: ﴿لا إيمان لهم﴾ بكسر الألف، وله وجهان:

---

(١) في (أ) و(ر): «غير»، والمثبت من (ف) وهو الصواب.

(٢) في (أ): «والمتبوعون».

(٣) «أي: لأنهم» ليس في (ف).

أحدهما: إنهم لا إيمان لهم بالله بل هم كفار.

والثاني: أنه إعطاء الأمان[١]؛ أي: لا تُعطوهم الأمانَ فإنهم لا يستحقُّون ذلك.

وقرأ الباقون بفتح الألف وهي جمع اليمين[٢]؛ أي: لا عهود لهم ولا أقسام.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾: أي: قاتِلوهم لينتَهوا عن الطعن في دينكم، و(لعل) كلمةُ تَرَجٍّ؛ أي: قاتِلوهم مؤمِّلين انتهاءَهم، ناوين بقتالكم ردَّهم عن الكفر.

وقيل: أي: لا تستنكروا نكثَهم فلا ثقةَ بأيمانهم.

وقال ابن جريج: أئمةُ الكفر: رؤساء[٣] قريش ـ وكذا قال الضحَّاك والسدِّي[٤] ـ نكثوا[٥] العهد وعملوا في إخراج الرسول.

وقال مقاتل: أئمة الكفر: أبو سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل، نقضوا العهدَ الذي كان بينهم بالحديبيَة[٦].

ولا يصح ما رُوي عن الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهم: أنهم أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف ونظراؤهم[٧] = لأنهم قتلوا يوم بدر، وهذه الآيات نزلت في فتح مكة.

---

(١) أي: يراد المصدر من قولك: آمنته فأنا أومنه إيمانًا، تريد: أماناً. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٢٥)، و«وتفسير الطبري» (١١/ ٣٦٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٢)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٣) في (ف): «رؤساء».

(٤) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٦٤).

(٥) في (أ): «ونقضوا».

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٥٩).

(٧) لم أجده، وقد روي أيضاً عن غير ابن عباس، رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦١)، عن قتادة. وذكره أبو حيان في «البحر» (١١/ ٢٠٧) ثم تعقبه =

(١٣) ـ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾: وهذا تحريك لهم على قتال هؤلاء، وهو استفهام بمعنى الإغراء، وهؤلاء القوم هم قريش؛ أي: نقضوا أيمانهم التي كانت بالحديبية وأعانوا أعداءكم بني بكر على حلفائكم خزاعة.

﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة، وهو قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله: ﴿مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال مجاهد: نقضوا العهد بإعانة بني بكر على خزاعة[1].

وقال آخرون: بدؤوكم بقتالِ بدرٍ؛ لأن النبيَّ ﷺ خرج للعير، والكفارُ بعد إحراز[2] العير لم ينصرفوا وقالوا: نخرج إلى بدرٍ فنشربُ بها الخمر وتَعزف علينا القَيْناتُ[3] وتهابُنا العرب، فكانوا هم البادئين.

وقوله تعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾: استفهام بمعنى النهي ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: الإيمان يوجبُ الخشية من الله تعالى في مخالفةِ أمره، فلا مَدفع لحكمه ولا مَرَدَّ لقضائه، وأنتم مؤمنون فحقِّقوا شرط إيمانكم، وهذا أبلغ تحريكٍ وتشجيع.

= بقوله: وهذا ضعيفٌ إنْ لم يُؤخَذْ على جهةِ المِثَال، لأنَّ الآيةَ نزلت بعد بدرٍ بكثيرٍ. وقد ذكر الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦) عن ابن عباس نحو قول مقاتل الذي تقدم قريباً.

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦١).

(٢) في (ر): «أخذ».

(٣) في (أ): «القنان»، وفي (ف): «القيان».

(١٤ ـ ١٥) ـ ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾: أمرهم بقتال المشركين، ووعَد عليه هذه الأشياءَ، وجزم كلَّها لأنه جزاءٌ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: رفعٌ؛ لأنه مبتدأ غيرُ معطوف، ولكنه متصلٌ بالأول معنًى؛ أي: ومن فوائد القتال أنه يتوب بسببه بعضُ مَن تأمَّل فيه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: لا يكون عليه خفاء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَلحقه خطأ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما كان منهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما [1] أمر فيهم.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: شفَى [2] صدور المؤمنين على حسَب مراتبهم في الدرجات والمقامات، فمنهم مَن شفاءُ صدره في قهرِ عدوه، ومنهم مَن شفاءُ صدره في نيلِ مَرْجوِّه، ومنهم مَن شفاءُ صدره في الظَّفَر بمطلوبه، ومنهم مَن شفاءُ صدره في لقاء محبوبه، ومنهم مَن شفاءُ صدره في دَرك مقصوده، ومنهم مَن شفاءُ صدره في البقاء بمعبوده[3]، وكذلك ذهابُ غيظِ قلوبهم تختلف أسبابه وتتنوَّعُ أبوابه، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ حتى يكون استقلالُه بمحوِّل الأحوال لا بصفاء الأحوال[4].

---

(١) في (ف) و(أ): «بما».

(٢) في (ف) و(أ): «شفاء».

(٣) في (أ): «ببقاء معبوده» وفي (ر) و(ف): «في لقاء معبوده»، والمثبت من «اللطائف».

(٤) في (أ): «لا بصفات الأحوال»، وهذه الجملة ليست في «اللطائف». انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٢).

(١٦) ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾: أي: أظننتُم أن تُتركوا على ما أظهرتُم من الإيمان باللسان[١] ولا تُبْتَلَون بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾: أي: لم يوجد منكم جهادُ المشركين، ولو وُجد لعَلِمه الله تعالى موجوداً؛ لأن الله يعلم في الأزل ما يوجد أنه يوجد، ويعلمه موجوداً حين يوجد، لأنه جل وعلا يعلم كلَّ شيء على ما هو به، وقد قرَّرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وفي سورة آل عمران في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾: عطف على ﴿جَاهَدُوا﴾؛ أي: ولم يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ووالَوا اللهَ ورسولَه والمؤمنين ولم يتولَّوا غيرَ الله ورسولِه والمؤمنين ولم يتَّخذوا من دون الله أولياء و[٢]خواصَّ.

والوليجة: البطانةُ الخاصة، من الولوج وهو الدخول، وَلِيجتُك: صديقُك الذي تُطْلعه على ما في داخل قلبك.

وصفة المؤمن المخلِص ألا يتَّخذ بطانةً من الكفار، ولا يتولَّى غيرَ الرسول والمؤمنين الأبرار.

وذكر الله هاهنا لتأكيد الأمر في موالاة الرسول والمؤمنين، ومعنى ذكرِه: أن هذه الموالاةَ مع الرسول والمؤمنين[٣] بأمره وشرعه، وما ينبغي للمؤمن أن يتولَّى

---

(١) «باللسان» ليست في (أ).

(٢) الواو ليست في (أ).

(٣) «ومعنى ذكره أن هذه الموالاة مع الرسول والمؤمنين» من (أ).

الكفار، قال جل جلاله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] وقال: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: من الموافَقة والمخالَفة، وهو وعد ووعيد.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَن ظنَّ أنه يكتفَى منه بالدعوى دون تحقيقِ المعنى فهو على غَلَطٍ من حسبانه، وفي غَلَبٍ من حسابه، بل المطلوبُ صدقُ المجاهدة في الله، وتركُ الركون إلى غير الله، وإذا اتَّخذ وليجة من الكفار فشا في الأعداء الأسرار، وأولى مَن يهجره المرءُ لئلا تطَّلع على الأسرار نفسُه التي هي أعدَى عدوِّه.

حُكي عن أبي يزيد رحمه الله أنه قال في بعض أوقات مكاشفاته: كيف أطلبك؟ فقيل له: فارق نفسك وتعال.

والحرية عزيزةٌ، قال قائلهم:

أتمنَّى على الزمان مُحالا ... أن ترَى مقلتايَ طلعةَ حرٍّ[1]

* * *

(١٧) ـ ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: واتِّصالها بما قبلها: أن الله عزَّ وعلا حرَّض على قتال المشركين من وجوهٍ، وهذا وجهٌ آخرُ من ذلك،

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٣).

وهو أن مكة مولدُكم ومنشؤكم، وفيها قبلتُكم، وبها مفاخرتُكم، وقد استولى المشركون عليها وأخرجوكم منها، وقاموا بعمارة المسجد الحرام الذي فيها وليسوا بأهل ذلك، فقاتلوهم وأخرجوا ذلك من أيديهم، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾؛ أي: أن يلُوا عمارتها.

وقيل: كان فيما نودي فيهم مع البراءة: ألا يحجَّ بعد العام مشركٌ[1]، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى منعهم عن قصدها والطوافِ بها وعمارتها بالصلاة.

ومعنى الآية على هذا: ليس في حكم الله تعالى أن يعمُر المشركون مساجد الله بالصلاة فيها وحجِّها والطواف بها وعمارتها وهم غيرُ مؤمنين، وذلك قوله تعالى:

﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾: وقيل: هو اعترافهم بعبادة الأوثان وإن لم يصرِّحوا بالاعتراف بلفظ الكفر والشرك.

وقيل: هو قولهم في التلبية: لبَّيك لا شريك لك إلا شريكٌ هو لك تملكُه وما مَلَك؛ أي: ليس لهم أن يحجُّوها[2] وهم قائلون في الحج هذا.

وقيل: أي: ما يدينون به دليل على كفرهم، لا أنهم يقولون: نحن كفار، وهو كقولك للرجل: إن[3] كلامك ليشهدُ أنك ظالم؛ قاله الحسن[4].

وقال السدِّي: إن النصراني إذا قيل له: مَن أنت؟ قال: نصرانيٌّ، وكذلك اليهوديُّ والمشرك والوثنيُّ[5].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ف): «يحجوا».

(٣) في (ر): «إذا كان»، وفي (ف): «إذ كان»، بدل: «إن».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٢٨) (ط: دار التفسير)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٣١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٠).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٧٤ و٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٥). وذكره =

ثـم قوله: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يجـوز أن يكون المرادُ به حقيقةَ الجمـع؛ أي: في كلِّ المسـاجد الحُكمُ هذا.

وقال الحسن: هو المسجد الحرام، وإنما جُمع لأنه قبلةُ المساجد كلِّها وإمامُها، يقول: ما كان للمشركين أن يُتركوا فيكونوا من أهل المسجد الحرام[(١)]، وطريقه طريق قولهم: خرج فلان إلى الحج على البغال، أو: على الإبل، ويراد به الجنسُ لا الجمع.

قال ابن إسحاق: وقالت قريش: إنَّا أهل الحرم وسُقاة الحجيج وعمَّار هذا البيت، لا أحد أفضل منا، فقال الله جلَّ جلالُه ذلك[(٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا أُسر العباس يومَ بدرٍ أقبل عليه المسلمون فعيَّروه بكفره بالله تعالى وقطيعةِ الرَّحِم، وأغلَظَ عليٌّ للعباس القولَ، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا؟! فقال له عليٌّ رضي الله عنه: ألكُم محاسنُ؟ قال: نعم، إنَّا لنَعْمُر المسجدَ الحرام، ونَحجب الكعبة، ونسقي الحاجَّ، ونَفُكُّ العانيَ، فأنزل الله جلَّ جلاله ردًّا على العباس: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾[(٣)].

= الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٣١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٠).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٢٩)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٤٧).

(٣) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٢٨) وفي «أسباب النزول» (ص: ٢٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٩). ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٨)، ولم يذكرا فيه عليًّا.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾: ما ذكروه من محاسنهم بطَل ثوابُها لشركهم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾: لكفرهم، أخبر الله تعالى أنهم ليسوا بأهلٍ لعمارتها، ولا في قيامهم ما يوجب الكفَّ عن قتلهم؛ لأنهم مشركون حبِطت أعمالهم واستحقُّوا الخلود في النار.

* * *

(١٨) ـ ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: أي: إنما يستحقُّ القيام بعمارتها مَن كان بهذه الصفة، فهو يعظِّم البيت حقَّ تعظيمه.

وقوله: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: لم يعمل ذلك كلَّه إلا لخشية الله.

وقيل: أي: لم يخشَ إلا الله فلم يتخلَّفْ عن قتال المشركين لخشيتهم، وهو إشارةٌ[١] إلى ما قال: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ [التوبة: ١٣]، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ و(عسى) من الله إطماعٌ، وإطماع الكريم إيجابٌ؛ أي: المستكمِلون هذه الخصالَ ثابتون على الهداية خارجون عن الضلالة.

وروى أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتادُ

---

(١) في (أ): «بخشيتهم وهو إشارتهم»، وفي (ر): «لخشيهم وهو إشارة».

المسجدَ فاشهَدوا له بالإيمان، قال الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾»(١).

وقال القشيري رحمه الله: عمارة المساجد التي هي مواقفُ العبودية لا تتأتى إلا بتخريبِ أوطان البشرية، فالعارفُ يَعمُر المسجد بتخريبِ أوطان شهوته، والزاهد يَعمره بتخريب أوطان مُنْيته، والعارف يَعمره بتخريب أوطان علاقته، والموحِّد يَعمره بتخريب أوطان ملاحظته، ولكلٍّ منهم صنفٌ مخصوص(٢)، وكذلك رتبتُهم في الإيمان مختلفة، فإيمانٌ من حيث البرهان، وإيمانٌ من حيث البيان، وإيمانٌ من حيث العِيان، وشتَّان ما هم(٣).

* * *

(١٩) ـ ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الحاجُّ أريد به الجمعُ لأنه جنس(٤)، وتقدير الآية: أجعلتم

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٧) و(٣٠٩٣) وحسنه، وابن ماجه (٨٠٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٠٢)، وابن حبان في «صحيحه» (١٧٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٧٠) وصححه، وهو من طريق دراج بن سمعان عن أبي الهيثم (وهو سليمان بن عمرو العتواري) عن أبي سعيد رضي الله عنه. ودراج قال عنه الحافظ في «التقريب»: صدوق وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

(٢) في (أ): «صف مخصوص». وعبارة «اللطائف»: (وكلّ واحد منهم واقف فى صفته، فلصاحب كلّ موقف منهم وصف مخصوص).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٤).

(٤) «لأنه جنس» ليس في (أ) و(ف).

صاحب سقاية الحاجِّ وعمارةِ المسجد الحرام كمَن آمن بالله واليوم الآخر، أو: أجعلتُم سقايةَ الحجَّاج وعمارةَ المسجد الحرام كإيمانِ مَن آمن بالله واليوم الآخر وجهادِ مَن جاهد في سبيل الله؛ لأن الصحيح مقابلة الفعل بالفعل أو الفاعل بالفاعل، ويصير كذلك بهذا الإضمار، وله طريقٌ آخرُ: أن يُجعل السِّقاية والعمارة وهما مصدران كالنعتين، وتقديره: أجعلتُم ساقي الحاجِّ وعامرَ المسجد الحرام كمَن آمن، وهو كالعدل يراد به العادل، وتحقيق هذا قراءةُ عبد الله بن الزبير وأبي وجزةَ السعدي: (أجعلتُم سُقاةَ الحاج وعَمَرة المسجد الحرام)[1].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: في الدرجة.

﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قال مقاتل أي: المشركين إلى الحجة[2].

وقيل: إلى الجنة.

وقيل: إلى الإسلام مع اختيارهم الكفرَ.

روي أن علياً والعباس وشيبةَ بن عثمان ـ وقيل: طلحة بن شيبة ـ تفاخروا، فقال العباس: أنا أسقي الحجيج، وقال شيبة: أنا أَعْمُرُ مسجد[3] الله، وقال علي: ما أدري ما تقولان! لقد صلَّيت إلى القبلة ستةَ أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد مع رسول الله ﷺ، فنزلت الآية[4]، وعرَفوا أن سقي الحجيج وعمارةَ البيت لا يَعدلان الإيمان والجهاد، وكان العباس وشيبةُ غيرَ مسلمَين يومئذ.

---

(١) انظر: «المحتسب» (١/ ٢٨٦). وهي رواية ابن وردان عن أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٨). واسم أبي وجزة: يزيد بن عبيد السعدي المدني الشاعر، من رجال «التهذيب».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٦٣).

(٣) في (أ): «مساجد».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٨٠).

وقال النعمان بن بَشير: كنت عند منبرِ رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أنْ أسقي الحاجَّ، وقال آخر: بل عمارةُ المسجد الحرام أحبُّ إليَّ، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خيرٌ مما قلتُم، فزجرهم عمرُ رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبرِ رسول الله ﷺ ـ وذلك يومَ الجمعة ـ فإذا صلى الجمعة دخلتُ إليه[1] فاستفتيتُه عما اختلفتُم فيه، ففعلوا فأنزل الله هذه الآية[2].

وقال مرةُ الهَمْدانيُّ: قال عليٌّ للعباس: يا عم! ألا تهاجرُ؟ قال: ألستُ في أفضلَ من الهجرة؟ ألستُ أسقي الحجيجَ وأَعْمُرُ المسجد الحرام؟ فنزلت الآية[3].

وقال مجاهد: أُمروا بالهجرة، فقال العباس: أنا أسقي الحاجَّ، وقال طلحة: أنا حاجب[4] الكعبة، لا نهاجر، فنزلت الآية[5].

وقال القشيريُّ رحمه الله: ليس مَن قام بمعاملةِ ظاهره كمَن استقام في تصحيح سرائره، ولا مَن استضاء بسراج علومه كمَن استبصَر بشُموس معارفه، ولا مَن نُصب بالباب من حيث الخدمةُ كمَن مُكِّن من البساط من حيث القُربة، وليس نعتُ مَن تكلَّف نِفاقاً كوصفِ مَن تحقَّق وفاقاً، بينهما بونٌ بعيد[6].

* * *

---

(١) في (أ): «عليه».

(٢) رواه مسلم (١٨٧٩).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٤٥)، عن ابن سيرين ومرة الهمداني. ورواه من طريق آخر ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٩).

(٤) في (أ): «صاحب».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٨ و١٧٧٠).

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٥).

(٢٠) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: مِن سقاية الحاجِّ وعمارةِ المسجد الحرام بلا إيمانٍ، وليس لأولئك درجةٌ في الفضل، لكن معناه: أنهم يعتقدون لأنفسهم درجةً، فقال: هؤلاء أعظمُ درجةً على الحقيقة من أولئك على ما يتوهَّمونه لأنفسهم.

وقيل: معناه: أعظمُ درجةً من المؤمنين الذين لم يهاجروا ولم يجاهدوا.

وقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾: أي: الناجُون.

* * *

(٢١) ـ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ﴾: أي: عند الموت على ألسنة الملائكة، وفي الجنة بلا واسطةٍ.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: في جنات[1].

* * *

(٢٢) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: هذا كلُّه ظاهر.

وقال القشيري رحمه الله: بشارةُ العُصاة بالرحمة، وبشارةُ المطيعين بالجنة والنعمة، وبشارةُ العصاة بالنجاة، وبشارةُ المطيعين بالدرجات، وبشارة العصاة بالخلاص، وبشارة المطيعين بالاختصاص.

---

(١) في (ر) و(ف): «أي وبجنات».

ويقال: بشَّر العصاة بالرحمة، والمطيعين بالرضوان، والكافةَ بالجنة، وقدَّم العاصي في الذكر، وقدم المطيع بالبِرِّ، والذكرُ قولُه وهو قديم، والبِرُّ طَولُه وهو عميم.

وقيل: بشَّر بنفسه ليزيد في محبة عبده؛ لأن القلوب مجبولةٌ على حبِّ المبشِّر، يقول قائلهم:

لولا تمتُّعُ مُقلتي بلقائه ... لوهبتُها لمبشِّري بإيَابه[1]

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ عرَّفهم أنهم برحمته وصلوا إلى طاعته، لا بطاعتهم وصلوا إلى نعمته.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ قومٌ نعيمهم عطاءُ ربهم على وصف التمام، وقومٌ نعيمُهم لقاءُ ربهم على نعت الدَّوَام، فالعابدون لهم تمامُ عطائه، والعارفون لهم دوام لقائه[2].

***

(٢٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولمَّا أَمر النبيُّ ﷺ بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته وقَرابته: إنَّا قد أُمرنا بالهجرة إلى المدينة فاخرجوا معنا، فمنهم مَن يعجبه ذلك ويتسارع فيه، ومنهم مَن يأبى ذلك، ومنهم مَن يتعلق به زوجته وعيالُه وولده

---

(١) في (ف): «بلقائه».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٦ ـ ١٧).

فيقولون له: نَنْشُدُكَ الله ألا تضيِّعنا، فيَرِقُّ ويجلس ويَدَعُ الهجرة، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ﴾(١) الذين بمكة ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ في الدين والعون والنصرة ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ﴾؛ أي: اختاروا ﴿ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ بعد نزول هذه الآية في الإقامة ﴿فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ على الكفر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢).

وقال مقاتل: نزلت في السبعة الذين ارتدُّوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهى الله عن ولايتهم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٣).

وقال القشيري رحمه الله: علامةُ الصدق في التوحيد قطعُ العلاقات، ومفارقةُ العادات، وهجرانُ المعارف والقَرابات، والاكتفاءُ بالله على دوام الحالات(٤).

***

(٢٤) ـ ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢١)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٤٠) والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٤)، جميعهم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) في (ف): «وأولئك».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٦٤).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٨).

﴿ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾: أي: اكتسبتُموها(١) ﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: قال مقاتل: قل يا محمد للمتخلِّفين عن الهجرة: إن كان المقام مع آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم(٢) وعشيرتِكم، وأموالٍ اكتسبتُموها، وتجارةٍ ترجُون حصولَ أرباحها وتخشَون كسادها، ومساكنَ رضيتُموها، أحبَّ إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ومن جهادٍ في نصرة دينه فانتظروا حتى يأتي الله بأمره بفتح مكة(٣).

وقال عطاء: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ أي: بقضائه(٤).

وقال الحسن: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ من عقوبةٍ عاجلةٍ أو آجلة(٥).

وقيل: أي: بعذابه، كما قال ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ [يونس: ٢٤].

وقال القفال: قطَع وجوهَ العُذر بهذا التعديد والبسطِ من الكلام، فلم يُجِزْ تركَ الهجرة والجهاد في سبيل الله للميل إلى الشيء من الأسباب(٦) المميلة، ولم يجعلْ ما يَثقُل على الإنسان فراقُه من أبٍ برّ، وابنٍ يَتزيَّن به، وأخٍ يَعتضِد بمعونته، وزوجةٍ يَسكن إلى صحبتها وإلْفِها وخدمتها، وعشيرةٍ يَتعزَّز بهم ويستعين على دفع الـمُلِمَّات بنصرتهم، وأموالٍ مكتسَبة قد استَنفذَ في تحصيلها الوُسع، وأنفق على جمعها العُمر،

---

(١) «أي: اكتسبتموها» ليست في (ف).

(٢) «وأزواجكم» زيادة من (أ).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٦٤).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٥).

(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٤٩)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٤٣).

(٦) في (أ): «الأشياء».

وتجشَّم على حملها الأسفار، وخاف عليها الضَّيَاع بالغيبة عنها، وتجارةٍ قائمة يرجو حصولَ أرباحها، ومنازلَ قائمةٍ[١] عامرةٍ نَزْهةٍ[٢] مألوفةٍ يَتحصَّن فيها من أذى البرد والحر، وأَعدَّ فيها مواضع للشتاء والصيف، حجةً في مخالفةِ ما أمر الله تعالى من الهجرة وجهادِ الكفار، وأَخبر أنَّ مَن آثَرَ طاعة الشيطان على طاعة الرحمن فليستعدَّ لنزول أمر الله، فإنه ينزل به ما لا مَدفع له ولا اعتصام منه بنصرةِ قرابةٍ أو عشيرةٍ، ولا يتحصَّن بمساكنَ حَريزة، وليعلم أن الله لا يُرشد الفاسقين المستخفِّين بدِينه إلى صوابٍ في تدبيره، ولا يهديهم إلى طريق رضوانه ورحمته ما داموا[٣] على اختيارِ مخالفته.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَن نَفَقتْ أسواقُ دينه[٤] كسدت أسواق حظوظه، وما لم تَخلُ منك منازل الحظوظ لا تَعْمُر بك مشاهدُ الحقوق[٥].

***

(٢٥) ـ ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: قال قتادة: هو وادٍ بين مكة والطائف[٦].

---

(١) «قائمة» ليست في (أ) و(ف).

(٢) بسكون الزاي وتكسر؛ أي: بعيدة عن ذِبَّان القُرى وومَد البحار وفساد الهواء. انظر: «القاموس» (مادة: نزه).

(٣) في (ف): «كانوا».

(٤) في (ف): «من نفقت سوق ذنبه» وفي مطبوع «اللطائف»: (من كسدت سوق دينه).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٨).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٢).

وقال عروة: هو وادٍ إلى جنب ذي المجاز[1].

يقول: لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرةٍ مثلَ بدرٍ والأحزاب، وأعلاكم على عدوِّكم مع ضعفِكم وقلةِ عددكم في مقامات كثيرة من بين غزوةٍ وسرية، ويومَ حنين[2]، فليَهُنْ عليكم أمرُ الآباء والأبناء والإخوان والعشيرةِ والأموال، وأسباب المنَعة[3] الدنيوية، ولا تظنُّوا النصر بها، فانقطِعوا إلى الله بالكلية واطلبوا من عنده النصرَ والمعونة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ حين كان فزعُكم إلى الله ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ بعدما ولَّيْتُم فزعتُم إلى الله أيضاً، فنصركم أيضاً[4].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾: أي: أعجبكم كثرة عَددكم ووفورُ عُددكم ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ الكثرة[5] ﴿شَيْـًٔا﴾؛ أي: لم تنفعكم الكثرة شيئاً.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: (ما) مع الفعل مصدر، وتقديره: برُحْبها؛ أي: مع رُحْبها[6]؛ أي: سَعَتها؛ لطلب العدو إياكم، قال الشاعر:

كـأنَّ بـلادَ الله وهـي عـريضـةٌ ... على الخائف المطلوب كُفَّةُ حابل[7]

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٣).

(٢) بعدها في (ر): «إذاً».

(٣) في (ر) و(ف): «المتعة».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

(٥) «الكثرة» ليست في (أ) و(ف).

(٦) في (أ): «رحبتها».

(٧) نسب البيت لكثيرين؛ لعبد الله بن الحجاج كما في «أنساب الأشراف» للبلاذري (١٣/ ١٥١)، و«الأغاني» للأصفهاني (١٣/ ١٨٢)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٧/ ٣٦٥). وللبيد كما في «محاضرات الأدباء» (٢/ ٢٠٧). ولرزين العروضي كما في «معجم الأدباء» (٣/ ٣٣٥). ولعبيد =

أي: حِبَالة صيَّاد[١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾: أي: منهزِمين ابتُليتُم في أول[٢] الالتقاء بالهزيمة لإعجابكم بكثرتكم دون اعتمادكم على نصرة الله، وعلى إلقائه الرعبَ في قلوب الأعداء، فلم ينفعكم العَددُ والعُدد التي لم تكونوا على مثلها في الوقائع التي نُصرتم فيها مثلَ بدر والأحزاب، وكانوا اثني عشر ألفاً حتى قالوا: لن نُغلبَ اليوم عن قِلَّة، وضاقت عليكم الأرضُ فلم تجدوا طريقاً إلى الخلاص إلا بالهزيمة، وذلك أن مَن أُعجب بعُدته[٣] اعتَمد عليها فلم يتضرَّع إلى الله تعالى ولم يسأله النصر، فحُرم ذلك بتركِ التضرُّع والدعاء.

وقال الواقدي[٤]: لما فتَح الله تعالى على رسوله ﷺ مكة مشت أشراف هوازن بعضُهم إلى بعض، وكذا ثقيفٌ بعضها إلى بعضٍ، وحشَدوا[٥] وبَغوا وقالوا: واللهِ ما

= ابن أيوب بن ضرار العنبري كما في «الحماسة البصرية» (١/ ٢٩). وللطرماح كما في «ديوانه» (ص: ١٦٩)، و«التذكرة الحمدونية» (٥/ ٤٣٠). وهو بلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٧).

(١) في (ف): «صيد».

(٢) في (ف): «في الأول عند».

(٣) بعدها في (ف): «التي».

(٤) قال الواقدي في روايته لهذه الواقعة: حدَّثنا مُحَمّدُ بنُ عبدِ الله، وعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ، وابنُ أبي سَبْرَةَ، ومحمدُ بنُ صالحٍ، وأبو مَعْشرٍ، وابنُ أبي حَبيبةَ، ومحمدُ بنُ يحيى بنِ سهلٍ، وعبدُ الصَّمَدِ بنُ محمدٍ السعديّ، ومعاذُ بنُ محمد، وبُكَيرُ بنُ مِسمارٍ، ويحيى بنُ عبد الله بن أبي قتادةَ، فكلٌّ قد حدَّثنا بطائفةٍ، وغيرُ هؤلاء حدَّثنا ممن لم أُسَمِّ أهلُ ثقةٍ، فكلٌّ قد حدَّثنا بطائفةٍ من هذا الحديثِ، وبعضُهم أَوعَى له مِن بعضٍ، وقد جمعْت كلَّ ما قد حدثوني به، قالوا...، فذكره. انظر: «المغازي» (٣/ ٨٨٥). وقد نقل المؤلف عنه ما سيأتي بشيء من الاختصار.

(٥) في (أ) و(ر): «وحسدوا»، والمثبت من (ف) و«المغازي».

لاقى محمدٌ قوماً[(١)] يُحْسِنون القتال، فأَجْمِعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم.

فأجمعوا أمرهم على ذلك، وسيدُ هوازنَ مالك بن عوفٍ النَّصريُّ، وسيدُ ثَقيفٍ عبد ياليل بن عمرٍو الثقفيُّ، فأجمَعوا المسير بالناس إلى رسول الله ﷺ، فجاؤوا ومعهم نساؤهم وأموالهم حتى نزلوا بأوطاسٍ، فعسكَروا ودريدُ بنُ الصِّمَّة معهم، وهو يومئذٍ شيخ كبيرٌ ابنُ مئة وستين سنة، ليس فيه شيء إلا التيمُّن به ومعرفتُه[(٢)] بالحرب، فلما نزل الشيخ مسَّ الأرض بيده فقال: بأيِّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاسٍ، قال: نِعْمَ مجالُ الخيل، لا حَزْنٌ ضَرِسٌ ولا سهلٌ دهسٌ[(٣)]، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير، وثُغاء الشاة وخوار البقر وبكاء الصغير؟ فقالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فقال: أين مالكٌ؟ فقالوا: هذا مالكٌ، فدُعي له مالك، فقال: مالكُ إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، فانقض هذا الرأي، فغضب مالك وقال: والله لا أفعل ولا أغيِّر أمراً صنعتُه، إنك قد كَبِرْتَ وكبر علمُك، وحدث بعدك مَن هو أبصرُ بالحرب منك، هل من رأي غيرِ هذا؟ قال: نعم، نجعل كميناً يكون لك عوناً، إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم، فقال مالك: هذا الرأي وأنا أقبله.

وكان رسول الله ﷺ افتتح مكة لثلاثَ عشرةَ ليلةً مضت من رمضان، وغزا يوم السبتِ السادس من شوال، واستعمل على مكةَ عَتَّابَ بنَ أَسِيدٍ يصلِّي بهم، ومعاذَ بن جبل يعلِّمهم السُّنن والفقه، وخرج النبيُّ ﷺ في اثني عشر ألفاً من المسلمين، عشرةِ آلاف من أهل المدينة وألفين من أهل مكة.

---

(١) في (ف): «أقواماً».

(٢) في (أ): «في معرفته».

(٣) الحزن: المرتفع من الأرض، والضرس: الذي فيه حجارة محددة، والدهس: اللين الكثير التراب. انظر: «الإملاء المختصر» لأبي ذر الخشني (ص: ٣٨٤).

وقال الحسن: كانوا ثمانيةَ آلاف.

وقال عطاء: كانوا ستةَ عشر ألفاً[١].

فلما فصل[٢] قال رجل من الصحابة ـ قال السديُّ: هو سَلَمةُ بن سلَامة[٣] ـ: لا نُغلبُ اليومَ عن قلَّة، وكان النبيُّ ﷺ قال: «خيرُ الأصحاب أربعةٌ، وخير السرايا أربعُ مئةٍ، وخير الجيوش أربعةُ آلافٍ، ولا يغلَب اثنا عشر ألفاً عن قلةٍ كلمتُهم واحدة»[٤].

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٦).

(٢) في (ر): «فلما وصل»، وليست في (ف).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٤٦)، وفي «الوسيط» (٢/ ٤٨٧)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤١٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولم أجده عن السدي، بل روى الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٨٩) عن السدي: أن القائل هو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يعيِّنه، وعن قتادة أنه قال: (وذكر لنا أن رجلا قال...)، ومثله روى البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٢٣) عن الربيع. وكذا رواه دون تعيين البزار في «مسنده» (١٨٢٧ ـ كشف) من حديث أنس رضي الله عنه، وفيه: (قال غلام منا من الأنصار...). فإن كان كذلك فيستبعد أن يكون القائل سلمة بن سلامة؛ لأن هذا صحابي كبير شهد العقبتين وبدراً وأحداً والمشاهد، فلا يخبر عنه بلفظ: (غلام من الأنصار)، لكن الحديث فيه علي بن عاصم بن صهيب، قال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٧٨): (وهو ضعيف لكثرة غلطه وتماديه فيه). ومع ذلك فليس خبر ابن عباس بأصلح منه؛ لأنه قد ذكر بلا سند، بل ذكره الواحدي في تفسيريه من طريق عطاء عن ابن عباس، وهذا الطريق قد كثر وروده عند الواحدي دون سند يعرف، مع وقوعه عند غيره في الغالب من قول عطاء، وقد نبهنا لهذا في المقدمة وسقنا عليه الأمثلة الكثيرة.

(٤) رواه أبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥)، والواقدي في «المغازي» (٣/ ٨٩٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال الترمذي: إنما روي هذا الحديث عن النبي ﷺ مرسلاً. وقال أبو داود: والصحيح أنه مرسل. وقال أبو حاتم كما في «العلل» لابنه (١/ ٣٤٧): مرسل أشبه، لا يحتمل هذا الكلام أن يكون كلام النبي ﷺ.

فسمع رسول الله ﷺ قول هذا الرجل فساءه كلامه، فوُكلوا إلى كلمة الرجل، وانتهى النبيُّ ﷺ إلى حنينٍ مساء يوم الثلاثاء، وأَمر أُنيسَ بنَ مَرْثَدٍ الغَنَويَّ أن يحرسهم الليلةَ على فرسه على جبل، وقال له حين أصبح: «ما على هذا ألا يعمل عملاً بعد هذا».

وخرج رجال من أهل مكة من أشرافهم وهم كفارُ قريش ينظرون لمن تكون الدَّبْرة، منهم صفوانُ بن أمية، وفيها كانت استعارةُ دروعه، وقولُه[1]: أغصباً يا محمد؟! وقولُه عليه السلام: «بـل عاريةٌ مؤدَّاة»، ولما وقعت الهزيمة أولاً على المسلمين مرَّ رجل بصفوان فقال: أبشر فقد هُزم محمد وأصحابه! فقال صفوان: فَضَّ الله فاك، قال[2]: ربٌّ من قريش أحبُّ إلي من ربٍّ من هوازن إن كنت مربوباً.

وانحدر رسول الله ﷺ بأصحابه في وادي حنينٍ ـ وهو [وادٍ] حدورٌ ـ وقد مضت مقدمته على تعبئة، وركب النبي ﷺ بغلته البيضاء دُلْدُلَ، ولبس درعه والمغفَرَ والبيضة، فاستقبل الصفوف وطاف عليها بعضاً خلفَ بعضٍ، فحضَّهم[3] على القتال وبشَّرهم بالفتح إنْ صدَقوا وصبروا.

وقال أنس رضي الله عنه: ولمَّا انتهينا إلى وادي حنينٍ ـ وله مضائقُ وشعبٌ ـ استقبلَنا من هوازنَ شيءٌ لا والله ما[4] رأيتُ مثلَه في ذلك الزمان قطُّ من السَّواد والكثرة، قد ساقوا نساءهم وأبناءهم وأموالهم، فبينا نحن في غلس[5] الصبح إنْ شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي فحملوا حملةً واحدةً وهم

---

(١) في (ف): «وفيها قال».

(٢) «قال» ليست في (أ).

(٣) في (ر): «فحثهم».

(٤) بعدها في (أ) و(ف): «إن»، والمثبت من (ر) و«المغازي».

(٥) في (ر): «غبش»، والمثبت من (أ) و(ف) و«المغازي».

أربعةُ آلاف قد جرَّدوا سيوفهم وكسروا غمودها[١] ـ وقيل: أحرَقوها ـ فانكشفت[٢] أولُ الخيول مولِّيةً، وتبعهم الناس مولِّين منهزِمين لا يلوون على شيء، فالتفت النبيُّ ﷺ عن يمينه ويساره والناسُ منهزمون وقال: «يا أنصار الله وأنصارَ رسوله، أنا عبد الله ورسوله» ولم يكن مع النبيِّ ﷺ إلا العباسُ بنُ عبد المطلب وهو آخذٌ بلجام بغلةِ النبيِّ ﷺ، وأبو سفيان بنُ الحارث بن عبد المطلب آخذٌ بثَفَر[٣] بغلة النبي ﷺ، وكان العباس صيِّتاً، فقال له عليه السلام: «اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة»، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت[٤] إلى أولادها، يقولون[٥]: الكرَّةُ بعد الفرَّة[٦]، قد أشرعوا الرماح ـ قال العباس رضي الله عنه: حتى إني لأخاف على رسول الله ﷺ رماحَهم أشدَّ من خوف رماح المشركين ـ يؤمُّون الصوت يقولون: لبيك لبيك، فلما اختلطوا واجتلدوا ورسول الله ﷺ قائمٌ على بغلته البيضاء يقول: «أَنْشُدُك وعدك، لا ينبغي لهم أن يظهروا»، ثم قال للعباس: «ناولني حصياتٍ[٧]»، فناوله حصياتٍ من الأرض ثم قال: «شاهت الوجوه»، ورمى بها وجوهَ المشركين وقال: «انهزَموا وربِّ الكعبة»[٨]، وأَخبروا بعد ذلك أنه لم يبقَ منهم أحد إلا امتلأتْ عيناه من التراب.

---

(١) في (ر): «غمودهم»، وفي (ف): «أغمادها».

(٢) في (ف): «فانكسرت»، والمثبت من (أ) و(ر) و«المغازي».

(٣) الثفر بالتحريك: السير في مؤخر السرج. انظر: «القاموس» (مادة: ثفر).

(٤) في (أ): «أخنت» والمثبت من (ف) و(ر) و«المغازي».

(٥) في (ر) و(ف): «وهم يقولون»، والمثبت من (أ) و«المغازي».

(٦) في (أ): «الفر». وفي (ر): «النفرة»، والمثبت من (ف) و«المغازي».

(٧) في (ر) و(ف): «ناولني حصاة من الأرض»، والمثبت من (أ) و«المغازي».

(٨) روى نحوه مسلم (١٧٧٥) و(١٧٧٧)، من حديث ابن عباس وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهم.

وكان من دعائه يومئذ: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكَى، وأنت المستعان»، فقال له جبريل صلوات الله عليه: لقد لُقِّنْتَ الكلمات التي لَقَّنَ الله تعالى موسى يومَ فلَق له البحر.

وكان النبيُّ ﷺ في مئةٍ صابرة: ثلاثةٌ وثلاثون من المهاجرين، وسبعةٌ وستُّون من الأنصار، وكان النبيُّ ﷺ يقول: «أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[1]، وهذا غايةُ شجاعته حيث لم يُخْفِ[2] اسمه في تلك الحالة، ولم يَخَفِ الكفار على نفسه.

وكان عثمان وعليٌّ وأبو دجانةَ وأيمنُ بن عبيدٍ رضي الله عنهم يقاتلون بين يدي النبيِّ ﷺ، وكرَّت الأنصار ووقفت هوازنُ قَدْرَ حَلَبِ ناقةٍ ثم كانت الهزيمة، وكان سعد بن عبادة يصيح بالخزرج، وأُسيد بن حضيرٍ بالأوس، فثابوا ـ أي: رجعوا[3] ـ من كل ناحيةٍ كأنهم النحل قد أشرعوا في قتل الذرية، فنهاهم عن ذلك.

قال أنس: وتقدَّم رسول الله ﷺ بحَرْبته أمام الناس، وهزمهم الله تعالى، وأمر رسول الله ﷺ أن يُقتل كلُّ مَن قُدر عليه ففعلوا، وبعث أبا عامرٍ[4] الأشعريَّ في آثار مَن توجَّه إلى أوطاسٍ وعقَد له اللواء، فقتَل منهم كثيراً ثم استُشهد[5]، وغنموا كلَّ أموالهم.

وأمر النبيُّ ﷺ بالغنائم فجُمعت، ونادى مناديهِ: مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَغُلَّ، وردَّ عقيل بن أبي طالب إبرةً كان أخذها[6].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦)، من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) في (ر): «يمح».

(٣) «أي: رجعوا» من (ف).

(٤) في (ف) و(أ): «عامر».

(٥) في (ف): «استشهد».

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٧٧) عن زيد بن أَسلمَ قال: جاء عَقِيلُ بن أبي طالب بمِخْيَطٍ، فقال =

وجاء رجل بحبلٍ فطلب من النبيِّ ﷺ أن يجعله له، فقال: «نصيبي منه لك، فكيف تصنعُ بأنصباء المسلمين؟».

وفي سبايا أوطاسٍ قال عليه الصلاة والسلام: «ألَا لا تُوطأ الحَبالى حتى يَضَعْن حملَهنَّ، ولا الحَيالى حتى يَستبرئنَ بحيضةٍ»(١).

وفيها أتت الشَّيماء أختُ النبيِّ ﷺ من الرضاعة فبسط لها رداءه وأكرمها وحياها.

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: أَمَدَّ(٢) الله نبيَّه بخمسة آلاف ملَك(٣).

وقال رجل من الأعداء بعد تقضِّي القتال: أين الخيلُ البُلْقُ والرجالُ عليهم الثيابُ البيض، ما كنَّا نراكم فيهم إلا كهيئةِ الشَّامة، وما قُتلنا إلا بأيديهم؟ فأَخبروا بذلك النبيَّ ﷺ فقال: «تلك الملائكة»(٤).

وقال الزهريُّ: وبلغني أن شيبة بن عثمان قال: استَدْبَرتُ النبيَّ ﷺ يومَ حنينٍ وأنا أريد أن أقتُله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة وقد قُتلا يوم أحد، فأَطْلع الله رسوله على ما في نفسي، فالتفتَ إليَّ وضرب في صدري وقال: «أعيذكَ بالله يا شيبةُ»، فأُرْعِدَتْ فرائصي، فنظرت إليه وهو أحبُّ إليَّ من

= لامرأته: خِيطي بهذه ثيابكِ، قال: فبعَثَ النبيُّ ﷺ مناديًا: «ألَا لا يَغُلَّنَّ رجلٌ إبرةً فما دُونها»، فقال عقيلٌ لامرأته: ما أرى إبرتَكِ إلا قد فاتتكِ.

(١) ذكره بهذا اللفظ الشافعي في «الأم» (٧/ ٣٤٦) عن أبي يوسف قال: بلغنا...، وذكره. ورواه بنحوه أبو داود (٢١٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. والحيالى: جمع حائل، وهي التي لا حبل بها.

(٢) في (ف): «أيد».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٤).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨).

سـمعي وبصري، فقلتُ: أشـهدُ أنك رسـولُ الله، وأن الله أَطْلعك على ما في نفسـي[١].

ولمَّا انهزموا أَتَوا أوطاس وبها أموالُهم وعمالُهم، وبعث رسول الله ﷺ على إثرهم فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، وهرب أميرهم مالك بن عوف فأتى الطائف وتحصَّن بها وأخذ ماله وأهله فيمَن أخذ، وحاصروهم بقية الشهر، فلمَّا دخل ذو القعدة وهو شهرٌ حرام لا يحلُّ به القتال انصرف عنهم فأتى الجِعْرانة وأَحرم منها بعمرة، وقسَّم بها السبيَ والمال، وكانوا أصابوا يومئذ ستة آلاف سبي، ثم جاء قومهم وأسلموا وقالوا: في السَّبي عماتُك وخالاتك، ولو كنَّا[٢] أرضعنا النعمانَ بن المنذر لكنَّا نرجو عائدته اليوم، وأنت خيرُ الناس وأبرُّهم وأرحمُهم وأوصلُهم للرحم، فقال عليه السلام: «أيما أحبُّ إليكم أنسابكم أو أموالكم؟» فقالوا: أنسابنا، فقام عليه السلام خطيباً وقال: «إن هؤلاء جاؤونا مسلمين، وقد خيَّرناهم فاختاروا أنسابهم، فمَن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يَردَّ فشأنُه، ومَن لا تَطِبْ نفسُه[٣] فليُعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نُصيب شيئاً فنعطيَه مكانه»، فقالوا: رضينا وسلَّمنا، فردُّوا[٤].

وأُخذ أميرهم[٥] مالك بن عوف فأُتي به النبيُّ ﷺ، فقال له: «ما تريد، أقتلك أم أفاديكَ أم أمُنُّ عليك أم تُسلِم؟» فقال: أما الإسلام فلا أُسلم أبداً، وأما القتل فإن قتَلْتَني قتلتَ عظيماً، فإن مننتَ عليَّ فأعتَقْتَني مننتَ على عظيم، فقال: «أمنُّ عليك

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨).

(٢) في (ف) و(أ): «أنا».

(٣) «تطب نفسه» من (ف).

(٤) رواه بنحوه البخاري (٤٣١٨ ـ ٤٣١٩)، والإمام أحمد في «المسند» (١٨٩١٤)، من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما. وبنحوه أيضاً رواه النسائي (٣٦٨٨)، والإمام أحمد في «المسند» (٦٧٢٩) و(٧٠٣٧)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) في (أ): «منهم».

وأطلقُك»، ففعل فقال: تعجبتُ من حُسن خُلقك(١)، ولا يكون هذا إلا من نبيٍّ حقٍّ، فأسلم وحسُن إسلامه(٢).

وقسَّم بالجعرانة غنائمَ حنينٍ، وتألَّفَ أناساً منهم أبو سفيان بنُ حرب والحارث ابن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس، فقالت الأنصار: أَمِن الرجل وآثَرَ قومه، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ وهو في قبةِ أدَمٍ، فقال: «يا معاشر الأنصار، ما هذا الذي بلغني عنكم، ألم تكونوا ضلَّالاً فهداكم الله، ألم تكونوا أذلةً فأعزَّكم الله، ألم ألم»، فقال سعد بن عبادة: ائذن لي أتكلم، فقال: «تكلَّم»، فقال: أمَّا قولك: كنتم ضلَّالاً فهداكم الله، فكنَّا كذلك، وأما قولك: كنتم أذلةً فأعزكم الله، فقد علمَتِ العرب أنه ما كان حيٌّ من أحياء العرب أمنعَ لِمَا وراءَ ظهورهم منَّا، فقال عمر: يا سعد، أتدري مَن تكلِّم؟ فقال: يا عمر، أكلِّم رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو سلكتِ الأنصار وادياً والناسُ وادياً لسلكتُ واديَ الأنصار، ولولا الهجرةُ لكنت امرءاً من الأنصار» ثم قال: «يا معشر الأنصار، أمَا ترضَون أن ينقلبَ الناس بالإبل والشاة وتنقلبون أنتم برسولِ الله إلى بيوتكم؟» فقالت الأنصار: رضينا بالله ورسوله، ما قلنا ذلك إلا ضنًّا بالله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يصدِّقانكم ويَعذرانكم»(٣).

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة قام خطيباً فقال: «أما إن خطيب الأنصار لو

---

(١) في (أ): «تخلقك».

(٢) انظر قصة إسلام مالك بن عوف في «السيرة النبوية» (٢/ ٤٩١)، و«طبقات ابن سعد» (١/ ٣١٢)، عن محمد بن سلام الجمحي، وفي «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ١٩٣) عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وفيه أنه أعطاه مئة من الإبل واستعمله على من أسلم من قومه.

(٣) قطعة من خبر رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٩) عن قتادة، وإسناده ضعيف لإرساله.

قال: كنت طريداً فآويناك، وكنت خائفاً فأمنَّاك، وكنت مخذولاً فنصرناك، وكنت وكنت، لكان قد صدَق»، فبكت الأنصار وقالت: يد الله أعظم علينا مَنًّا[١].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: المنصور مِن الله مَن عصمه عن التوهُّمات، ولم يَكِلْه إلى تدبيره في الأمور، بل أقامه مقام الافتقار متبرِّئاً من الحول والقوة، متحقِّقاً بتصاريف القدرة، ولمَّا أعجبتهم كثرتُهم تفرق عن رسول الله ﷺ في الحال أكثر الأصحاب، وكُشف عن القوم جلابيب السر، واضطربت القلوب، وخانت القوى أصحابها فلم تُغْنِ عنهم كثرتهم، فاستخلص الله أسرارهم بصدق الرجوع إليه، فأنزل سكينته عليهم وقلَب الأمر على الأعداء، وخفَقت رايات النصرة[٢]، ووقعت الدَّبْرة على الأعداء فانقلبوا صاغِرين[٣].

* * *

(٢٦) ـ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: أي: الرحمة التي[٤] يسكن إليها القلب.

وقيل: هي الأَمَنة والطمأنينة.

وقيل: هي زوال الاضطراب الذي يعتري القلب، وثبات القلب للحرب.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٥).

(٢) في (ف) و(أ): «وحققت آيات النصر».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٨ ـ ١٩).

(٤) «التي» ليس في (أ) و(ف).

وفي هذه الآية نقضُ قول المعتزلة؛ لأنه سماهم مؤمنين بعد التولِّي؛ قاله الإمام أبو منصور رحمه الله[١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: أي: من الملائكة ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالهزيمة والقتل والسبي.

قوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: إذا لاقوا المؤمنين أن يكون الدَّبرة على الكافرين والنصرة للمؤمنين.

قال القشيري رحمه الله: السكينة ثَلَجُ القلب عند جريان حكم الربّ وخمود آثار[٢] البشرية بالكلية، والرضا بما يبدو من الغيب من غير معارضةِ القضية، والسكينةُ الـمُنزلة على المؤمنين اختطافُ الحق إياهم [عنهم] حتى لم تستفزَّهم رهبةٌ من مخلوق، وسكن عنهم كلُّ إرادة واختيار.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من وفور اليقين وزوائد الاستبصار ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتطويحهم في متاهات التغرير[٣]، والسقوطِ في وهدة [ضيق] التدبير، والغيبة عن شهود التقدير[٤].

* * *

(٢٧) ـ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ثم

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٢٦).

(٢) في (ر): «نار».

(٣) في (ف): «التعزير». وعبارة «التأويلات»: (بالتطوح في متاهات التفرقة).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٩)، وما بين معكوفتين منه.

يوفِّق الله عز وجل للإيمان بعد ذلك مَن يشاء فيَقبله ويغفر له، وهو الغفور للمؤمنين الرحيم بهم أجمعين.

وقيل: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يقبل توبة المنهزمين إذا علم منهم الصدق والندم، وهم المهاجرون والأنصار دون مَن رجعوا إلى الحرب في الظاهر ولهم نفاقٌ وكفرٌ في الباطن.

* * *

(٢٨) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾: أي: أنجاس، وإنما وحَّد لأنه في الأصل مصدر فلا يُثنَّى ولا يُجمع ولا يُؤنَّث، يقال: رجل نَجَسٌ، ورجلان وامرأتان نَجَسٌ، ورجال ونساء نَجَسٌ، ومعناه: أنهم أنجاس في اعتقادهم وأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم؛ لأنهم يشركون بالله غيرَه ويريدون بأعمالهم سواه، فهم مستقذَرون يجب اجتنابهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾: وهذا من جملة ما وقع به الأذانُ يومَ الحج الأكبر مع البراءة من العهود وبه الانتظام؛ أي: فامنعوهم من الحج بعد هذا العام، وكذا من دخول الحرم للتجارة وغير ذلك.

وقال الإمام مالك رحمه الله: لا يُترك الذِّمِّي يدخل مسجداً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

وقال الشافعي رحمه الله: يمنع عن دخول المسجد الحرام فحَسْبُ لهذه الآية.

وعندنا لا يُمنع عن دخول المسجد الحرام أيضاً، والآية في دخولهم للحج؛ لأنهم كانوا يعملون في الحج أعمال المشركين، فأمر الله تعالى بتنزيه المسجد الحرام والحرَم عن ذلك أيضاً، فأما نفس الدخول فغيرُ ممنوع عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾: أي: فقراً قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، قال الشاعر:

ولا يـدري الفقيـرُ متـى غِـنَـاه ... ولا يدري الغنـيُّ متـى يَعُولُ(١)

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾: قيل: إنهم كانوا يَرِدُون بمكة تجاراً فتترفَّقُ أهلُها بهم في معايشهم، فلمَّا أُمروا بمنعهم منها أشفقوا من ضِيق المعاش وانقطاعِ التجارات، فوعدهم الله تعالى الغِنى من وجه آخر من فضله وأمَّنهم من الفقر.

قال مقاتل: أغناهم الله من فضله فأسلم أهلُ صنعاء وجُدَّةَ وجُرَشَ، وحملوا الطعام إلى مكة على ظهور الدَّوابِّ، فكفاهم(٢) ما كانوا يتخوَّفون(٣).

وقولـه تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾ علَّق بالمشيئة قطعـاً للآمال عن الأسـباب، وصرفاً لها إلـى الله تعالى؛ كما قال الله تعالـى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

---

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح، وهو في «ديوانه» (ص: ٧٤)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٢٧ و٥١٨)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٥٥)، و«مجاز القرآن» (١/ ٢٥٥) و(٢/ ٣٠٢)، و«تفسير الطبري» (٦/ ٣٧٥) و(١١/ ٣٩٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٦٨) و(٢/ ٤٤١)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٥٩ و٥٧١)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ١٤١)، و«غريب الحديث» للخطابي (١/ ٩٨)، و«الصحاح» (مادة: عيل). وفي جميع هذه المصادر: (متى يعيل).

(٢) في (ر): «فأمنهم».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٦٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾: أي: بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكَم[١] وأراد.

وقال الكلبي: ولما قال علي بن أبي طالب: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ قال له أناس من بكر بن وائل من التجار: يا أهل مكة، ستعلمون إذا فعلتُم هذا ماذا تلقَون من الشدة، ومن أين تأكلون، فشقَّ ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فأمرهم الله تعالى بقتال أهل الكتاب وأغناهم من فضله[٢].

وقال عطاء: أغناهم الله تعالى بالجزية الجارية شهراً فشهراً عاماً فعاماً[٣].

وقال القشيري رحمه الله: مَن أناخ بعقوة[٤] كرم مولاه، واستمطر من سحائب جدواه[٥]، أغناه عن كلِّ سبب، وكفاه كلَّ تعب، وقضى له كلَّ أَرَب، وأعطاه[٦] من غير طلب[٧].

* * *

---

(١) في (ر) و(ف): «فعل».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٠٠).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٧١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٠٤)، لكن عن قتادة.

(٤) في (ر): «بباب»، وفي (ف): «بعفوة»، والمثبت من (أ) و«اللطائف». والعقوة: شجر، وما حول الدار والمحلة. انظر: «القاموس» (مادة: عقى).

(٥) في «لطائف الإشارات»: (جوده).

(٦) في (أ): «وأغناه»، والمثبت من (ر) و(ف) و«اللطائف».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٩)، وما بين معكوفتين منه.

(٢٩) ـ ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: بيَّن في الآي الأُوَل قتالَ المشركين، وبيَّن في هذه الآية قتال اليهود والنصارى.

ولو قال: (قاتِلوا أهل الكتاب) لكفى، وإنما جمَع هذه الأوصافَ الذميمة تحريضاً للمؤمنين على قتالهم؛ لأنها صفاتٌ توجب البراءة منهم والعداوةَ لهم.

وإنما قال لهم: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهم يدَّعون الإيمان بالله؛ لأنهم يؤمنون بالله الذي له الولد وهو شبيهٌ بالخَلق، وهذا ليس بإيمانٍ بالله، وكذا يصدِّقون الله بإرسال بعض الأنبياء ولا يصدقونه في إرسال بعض وهو يبطل الإيمان بالله.

وكذا قال: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وهم يدَّعون الإيمان به؛ لأنهم لا يصدقون بما فيه من الوعد والوعيد، فيقولون: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودةً، ويقولون: ليس في الجنة مطاعمُ ومشاربُ ومناكح، ولا يكون هذا إيماناً باليوم الآخر.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: من الخمر والخنزير، وتحريف الكتاب، وكتمانِ نعت النبي ﷺ.

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الإسلام؛ فإن اليهودية والنصرانية دينٌ باطل، فإنه نسخَ بعضَ أحكام التوراة والإنجيل، وهم قد حرَّفوا البعض، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾: أي: إلى أن يُعطوا الجزية؛ كما قال: ﴿فَإِن

تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥]؛ أي: قبلوهما، مَدَّ وجوبَ القتال إلى هذه الغاية وهي قبولُ الجزية، وهذا حكم أهل الكتاب بالنصِّ، وحكمُ المجوس كذلك بالخبر، وهو قولُه عليه السلام: «سُنُّوا في المجوس سنَّةَ أهل الكتاب غيرَ ناكحي نسائهم ولا آكِلِي ذبائِحِهم»[١]، ولا يجوز هذا في مشركي العرب؛ لقوله عليه السلام: «لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف»[٢] ويجوز في الهنود والأتراك والديلم عندنا خلافاً للشافعي رحمه الله تعالى، وهي تعرف في الفقهيات.

وقوله تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾: قيل: عن نقدٍ، فلا تؤخَّر عن وقتها، من قوله: يداً بيدٍ.

---

(١) رواه دون قوله: «غير ناكحي...» مالك في «الموطأ» (١/ ٢٧٨) عن جعفرِ بن محمد بن عليٍّ عن أبيه: أنَّ عمرَ بن الخطاب ذَكَر المجوسَ فقال: ما أدري كيف أَصنعُ في أَمْرِهم؟ فقال عبد الرحمن بن عوفٍ: أَشْهدُ لَسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهلِ الكتابِ». قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ١١٤ ـ ١١٦): هذا حديث منقطع لأن محمد بن علي لم يلق عمر ولا عبد الرحمن بن عوف... ولكن معناه متصل من وجوه حسان.

وقوله: «غير ناكحي...» لم يرد في هذا الخبر، وإنما هو مدرج فيه كما قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/ ١٧٢)، قال: لكن روى عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي من طريق الحسن بن محمد ابن علي قال: (كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم قبل، ومن أصر ضربت عليه الجزية، على ألا تؤكل لهم ذبيحة، ولا تنكح لهم امرأة)، وفي رواية عبد الرزاق: (غير ناكحي نسائهم، ولا آكلي ذبائحهم)، وهو مرسل، وفي إسناده قيس بن الربيع وهو ضعيف، قال البيهقي: وإجماع أكثر المسلمين عليه يؤكده.

ثم قال الحافظ: تنبيه: تبين أن الاستثناء في حديث عبد الرحمن مدرج، ونقل الحربي الإجماع على المنع إلا عن أبي ثور، ورده ابن حزم بأن الجواز ثبت عن سعيد بن المسيب أيضا، وأخرج ابن أبي شيبة، من طريقه جواز التسري من المجوس بإسناد صحيح، وعن عطاء وطاوس وعمرو بن دينار كذلك.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١١٧ ـ ١١٨) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وقيل: عن يدِ مَن عليه، فيُحضره[١] بنفسه ويؤدِّي، ولا يُرسل به رسولاً، ولا يبعثه على يد ولده أو وكيله أو عبده.

وقيل: عن طيبِ نفسه، فيعطي بيده من غيرِ أن يُكرَه عليه؛ أي: دليلُ[٢] قبولِهِ طوعُه دون أن يُكره عليه، فإنه إذا احتاج إلى ذلك بقي القتلُ والقتال والسبي ولا يثبت عقد الذمة.

وقيل: عن انقياد، يقال: أعطى فلان بيده، إذا استسلَم وانقاد.

وقيل: أي: عن رؤيتهم ذلك إنعاماً منكم عليهم بترك القتال[٣] بهذا، من قولك: اصطنعتُ إلى فلان يداً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾: أي: أذلَّاءَ مقهورين يأتون للأداء مشاةً لا ركباناً، ويؤدون قياماً والآخذُ قاعدٌ ويدُه تحت يدِ الآخر، ويؤخذ بتلبيبه[٤] عند الأخذ ويحرَّك ويقال: أدِّ الجزية يا يهودي، أو: يا نصراني.

وقيل: أي: تصاغرت إليهم أنفسُهم بما احتاجوا إليه من بذل الجزية لحقنِ دمائهم.

وقال الكلبي: نزلت في بني قريظة وبني النضير.

والجزية على ثلاث مراتب: على المعتمِل في السَّنة اثنا عشر درهماً، وعلى وسط الحال أربعة وعشرون درهماً، وعلى كامل الغنى ثمانيةٌ وأربعون درهماً،

---

(١) في (ر) و(ف): «فيحضر».

(٢) في (أ): «أي ذلك».

(٣) في (أ): «القتل».

(٤) في (أ): «ويدخله بتلبيبه»، وفي (ر): «ويدخله بتلبيسه».

كذلك وظَّفها عمر رضي الله عنه[١]، وبهذه الجزية أغناهم عن العيلة، وهو وجه اتصال هذه الآية بالأولى.

* * *

(٣٠) - ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾: قرأ عاصم والكسائيُّ وسهل ويعقوب في روايةٍ: ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتنوين؛ لأنه اسم مصغَّر فهو مصروف، ولأنه اسم خفيف فيُصرف وإن كان أعجمياً كنوحٍ ولوطٍ، ولأنه اسم مبتدأ وهو مفردٌ غيرُ منسوب و﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ خبره، وقرأ الباقون بغير تنوين[٢]؛ لأنه اسم أعجمي مفرد، ولأن ﴿ٱبْنُ﴾ صفة له وتقديره عزيرُ ابنُ الله معبودُنا، أو: نبينا، على هذه القراءة.

ثم هذا بيانُ قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مع دعواهم؛ لأن هذا قولُهم في الله.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: أي: هو قول[٣] يقولونه بألسنتهم لا حجةَ لهم على صحته.

وذكر الإمام أبو منصور رحمه الله هذا ثم قال: أو قالوا ذلك بأفواههم من[٤] غير شبهةٍ اعترضت لهم تَحْمِلهم على ذلك[٥].

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٢٩٠)، و«شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٥/ ٣٣١)، و«المبسوط» للسرخسي (١٠/ ٧٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٣)، و«التيسير» (ص: ١١٨). وقراءة يعقوب في «النشر» (٢/ ٢٧٩).

(٣) في (ف): «أي هم».

(٤) في (أ): «على».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٥٧).

وقوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾[(١)]: قرأ عاصم بالهمزة والباقون بغير همزة[(٢)]، وهما لغتان: ضاهَيتُه وضاهأته؛ أي: شابَهْتُه، ومعناه عند ابن عباس رضي الله عنهما: شابَهوا عبدة الأوثان في هذا القول[(٣)].

وقيل: في قولهم: الملائكة بنات الله.

وقال الزجَّاج: أي: في تقليدهم أسلافَهم في هذا القول[(٤)].

وقيل: أي: المشركين في إثبات الشركاء لله.

وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لعنهم الله[(٥)].

وقيل: أي: قتَلهم الله، وقيل: أي: عاداهم الله، وقيل، أي: أهلكهم الله.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾: أي: من أين يصرفون عن الحق، والصرفُ عن الحق ضلال.

قال مقاتل: إن اليهود لعنهم الله قتلوا أنبياءهم، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزيرٌ يسيح في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: أين تذهب؟ قال أطلب العلمَ، فعلَّمه جبريل صلوات الله عليه التوراةَ كلَّها، فجاء عزير بالتوراة إلى بني إسرائيل فعلَّمهم، فقالوا: لم يعلَم عزير هذا

---

(١) في (ف): «يضاهون قول...».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٤)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤١٤).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٤٣).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤١٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٣).

العلـمَ إلا لأنـه ابـن الله[١]. ولـه طـرق أخـرى ذكرنـا بعضها فـي سـورة البقرة.

وقال السدِّي: إن العمالقة ظهرت عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة، وهرب علماؤهم الذين بقُوا ودفنوا كتبَ التوراة في الجبال، وكان عزيرٌ غلاماً يتعبَّد في رؤوس الجبال لا ينزل إلا يوم عيد، فجعل يبكي ويقول: يا رب، تركت بني إسرائيل بغير عالِمٍ؟ فجعل يبكي حتى سقطت أشفار عينيه، فنزل مرة إلى العيد فلمَّا رجع إذا بامرأة قد مَثَلت له عند قبرٍ تبكي وتقول: يا مطعماه يا كاسياه، فقال لها: ويحك! مَن كان يطعمُكِ ويكسوكِ؟ قالت: هذا الرجل، يعني: زوجها، قال: فمَن كان يطعمك ويكسوك قبله؟ قالت: الله، قال: فإن الله حيٌّ لا يموت، قالت: يا عزير، فمَن كان يعلِّم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله، قالت: فلمَ تبكي عليهم؟! فلما عَلِم[٢] أنه خُصم ـ أي: غُلب[٣] ـ ولَّى مدبِراً فقالت: يا عزير، إذا أصبحتَ غداً فأْتِ نهرَ كذا فاغتسِلْ فيه ثم اخرج فصلِّ ركعتين، فإنه يأتيك شيخ فما أعطاك فخذ منه، فلما أصبح انطلق إلى ذلك النهر فاغتسل ثم صلى ركعتين، فجاءه الشيخ فقال: افتح فاك، ففتح فاه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجَمرة العظيمة مجتمِعاً [كهيئة القوارير] ثلاث مرات، فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، قد جئتُكم بالتوراة، فقالوا: يا عزير! ما كنتَ كذَّاباً، فعمد فربط على كلِّ أصبع له قلماً، وكتب بأصابعه كلِّها حتى كتب التوراة، فلما رجع العلماء استخرجوا كتبهم التي دفنوها في خوابٍ، فعارضوها بتوراة عزير فوجدوها مثلها، فقالوا: ما أعطاك الله هذا إلا لأنك ابنه[٤].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٦٧). ورواه بنحوه ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨١) عن ابن عباس، لكن إسناده ضعيف.

(٢) في (أ): «عرف».

(٣) «أي: غلب» ليس من (أ) و(ف).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤١٠)، وما بين معكوفتين منه. ولعله أخذه من الإسرائيليات.

وأما النصارى فقد قال الكلبي: كان شركُهم أنهم كانوا على الحق إحدى وثمانين سنةً بعد ما رُفع عيسى عليه السلام إلى السماء يصلُّون إلى القبلة ويصومون، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حربٌ، وكان في اليهود رجلٌ شجاع يقال له: بولس، قتل جماعةً من أصحاب عيسى ثم قال لليهود: كان الحق مع عيسى فكفرنا وجحدنا، والنار مصيرُنا، فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، وإني أحتال فأُضلُّهم حتى يدخلوا معنا النار، وكان له فرسٌ يقال له: العُقاب، يقاتِل عليه، فعَرقب فرسَه وأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب، فقالت له النصارى: مَن أنت؟ قال: أنا بولسُ عدوُّكم فنوديت من السماء: ليست لك توبةٌ إلا أن تتنصَّر، وقد تُبتُ. فأدخَلوه في الكنيسة فدخل فيها سنةً لا يخرج ليلاً ولا نهاراً حتى تعلَّم الإنجيل، ثم خرج وقال: نوديتُ: إن الله تعالى قَبِل توبتك، فصدَّقوه وأحبُّوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نسطور، وعلَّمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثةً، ثم توجَّه إلى الروم وعلَّمهم اللاهوتَ والناسوت، وقال: لم يكن عيسى بإنْسٍ فتأنَّسَ، ولا بجسمٍ فتجسَّمَ [ولكنه ابن الله]، وعلَّم رجلاً يقال له: يعقوب، ذلك ثم دعا رجلاً يقال: مَلْكا، فقال له: إن الله لم يَزَلْ ولا يزال كان عيسى.

ولمَّا استمكَن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً، وقال لكلِّ واحد منهم: أنت خالصَتي، ولقد رأيت عيسى في المنام فرضي عني، وقال لكل واحد منهم: إني غداً أذبحُ نفسي فادعُ الناس إلى نحلتك، ثم دخل المذبح [فذبح نفسه] وقال: إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى، فلما كان يوم ثالثه دعا كلُّ واحد منهم الناسَ إلى نحلته، فتبع كلَّ واحد منهم طائفةٌ من الناس، فافتُتنوا واختلفوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث(١).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٣)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٧٦)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٨)، وما بين معكوفتين من هذه المصادر.

(٣١) ـ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: أي: أطاعوا علماءهم وعُبَّادهم فيما أمروهم به من الاعتقاد والعمل طاعةَ العبيد الأرباب.

وقوله تعالى: ﴿أَرْبَابًا﴾؛ أي: كالأرباب، وهو كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦] أي: كالنار.

وعن عدي بن حاتم قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وكنتُ نصرانيًّا، فوافَقْتُه يقرأ سورة براءة، فبلغ قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فقلت: يا رسول الله! ما نعبدُهم من دون الله، قال: «أليس يحلُّون لكم ما حرَّم الله عليكم فتستحلُّونه، ويحرِّمون عليكم ما أحلَّ الله لكم فتحرِّمونه؟» فقلت: بلى، فقال: «تلك عبادتهم»(١).

وقال أبو البَخْتريِّ: أمَا إنهم لو أَمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن كفَّروهم فجعلوا حلالَ الله حراماً وحرامَه حلالاً، فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: أي: اتَّخذوه إلهاً معبوداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾: أي: إلا أن يعبدوا إلهاً واحداً؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٦]، وقد كشفنا عن حقيقته.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وقال: حديث غريب... وغطيفُ بن أَعْيَنَ (أحد رواته) ليس بمعروف في الحديث.

ثم بذلك أمرهم الله تعالى في كتابه، وبذلك أمرهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تنزيهاً له عن إشراكهم به غيرَه.

* * *

(٣٢) ـ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: أي: يريد أهل الكتاب أن يُبطلوا[١] حججَ الله جلَّ جلالُه بجدالٍ منهم بألسنتهم من غيرِ حجة.

وقال الحسن والسدي: نورُ الله تعالى: القرآن والإسلام[٢].

وقيل: الدلالة والبرهان.

وقال الضحاك: يريدون أن يَهلك محمدٌ وأصحابه ولا يُعبدَ الله بالإسلام[٣].

وقال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾: أي: لا يريد الله إلا تمامَ هذا النور، وهو إبقاءُ الإسلام والإيمان[٤] والقرآن، وإيضاحُ الحجة والبرهان، وفيه تخييبُهم وقطعُ أطماعهم.

---

(١) بعدها في (ف): «نور الله».

(٢) رواه عن السديِّ الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ٤٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٥)، وذكره عن الحسن ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٢٦)، وزاد معه قتادة.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٥).

(٤) «والإيمان» ليست في (أ).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: أي: على كراهيةِ اليهود والنصارى؛ إذلالاً[١] لهم وكبتاً وغيظاً.

وقال القشيري رحمه الله: مَن رام أن يستر شعاع الشمس بدخان نيرانه، أو عالَج أن يدفع حكم السماء بحيلته وتدبيره[٢]، أو يُسقطَ نجوم الفلك بسهام تقديره، أظهر رعونتَه ثم لم يحظَ بمراده، كذلك مَن توهم أن حُجج التوحيد يعلوها رهجُ الشُّبَه فقد أحال في ظنَّه وافتضح في وهمه[٣].

***

(٣٣) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: أي: محمداً ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: بالتوحيد.

وقيل: بفرائض[٤] الله على خلقه.

وقال الكلبي: أي: بالقرآن الذي يهدي إلى الرشد.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: الإسلام، وإضافته إلى الحق لوجهين:

أحدهما: أن الحق هو اسم الله، والمراد دينُ الله.

والثاني: أن الحق هو الإسلام؛ لأنه حقٌّ والكفر باطل، ويجوز أن يقال: دين الإسلام؛ أي: طريق الإسلام وملة الإسلام وشريعة الإسلام.

---

(١) في (ف) و(أ): «إضلالًا».

(٢) في (أ): «بمجيء تدبيره»، وفي (ر) و(ف): «بمحن تدبيره»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٢).

(٤) في (ر) و(ف): «بفرض».

وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾: أي: ليُعْلِيَه[1] على الأديان كلِّها على كراهةِ المشركين الظهورَ والعلوَّ والغلبةَ، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، والدِّين اسم جنسٍ فيَصلح للجمع.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ أي: ليعلِّمه شرائعَ الدِّين كلَّها، فيُظهرَه ويُطلعَه عليها[2]، والهاء عائدة إلى النبيِّ ﷺ على هذا التأويل، وهو كقوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [التحريم: ٣]؛ أي: أَطْلعه عليه، وعلى التأويل الأول تعودُ الهاء إلى الدِّين، والإظهار بمعنى الإعلاء.

وقال الكلبي: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ بالقرآن والإيمان ليُظهِر دينه على الأديان كلها، فلا يبقى دينٌ إلا ظهر عليه الإسلام، وسيكون ذلك ولم يكن بعد، ولا تقومُ الساعة حتى يكون ذلك.

وقال الضحاك: عند نزول عيسى[3]، فلا يبقى أهل دينٍ إلا دخل في الإسلام أو أدَّى الجزية إلى المسلمين.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزلُ عيسى بن مريم فيَكْسرُ الصَّليبَ ويَقتلُ الخنزيرَ ويضعُ الجزية»[4]، فلا يبقى على وجه الأرض إلا مسلِمٌ أو مسالم.

---

(١) في (أ): «ليغلبه»، وفي (ف): «للغلبة».

(٢) رواه الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ٤٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٦)، وذكره عن الحسن ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٢٦)، وزاد معه قتادة.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٩١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٠)، ورواه الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ٤٢٢) عن أبي هريرة وأبي جعفر.

(٤) رواه البخاري (٢٤٧٦)، ومسلم (١٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وزادا: «ويَفيض المالُ حتى لا يَقبله أحدٌ».

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أزاح العِلل بما ألاح من الحُجَج، وأزال الشُّبَه بما أوضح من النَّهج، فشُموس الحق طالعة، وأدلةُ الشرع لامعة، وأنشدوا:

هي الشمسُ إلا أن للشمس غَيبةً وهذا الذي نَعنيه[١] ليس يَغيبُ[٢]

***

(٣٤) ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: وصَفَ الأحبار والرهبان الذين اتَّخذهم[٣] أهلُ الكتاب أرباباً فقال: لا تتوهَّموا في كثير من الأحبار والرهبان[٤] صلاحاً، ولا تغترُّوا بظاهر زيِّهم وسكونهم، فإن ذلك كلَّه مصائدُ للمَطامع، واستجلابٌ للرِّياسة، ومكائدُ للصدِّ عن سبيل الله، والجرِّ إلى الضلالة، وذلك بأخذِهم الرِّشا من الأشراف والعامة، وتحريفِ الكتاب، وكتمانِ نعت[٥] النبيِّ ﷺ وحقِّيَّة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: يجمعون ويحتازون[٦].

---

(١) في (ر) و(ف): «نبغيه»، والمثبت من (أ) و«اللطائف»، ومثله في هامش (ر).
(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٢).
(٣) في (ر) و(ف): «اتخذوهم» وهي على لغة: أكلوني البراغيث.
(٤) بعدها في (ف): «الذين اتخذوهم أهل الكتاب أرباباً».
(٥) في (ر): «بعث».
(٦) في (أ): «ويخبئون».

وقيل: أصله هو كبسُ[١] الشيء بعضِه على بعضٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: لا يُخرجونها في طاعة الله، ولم يقل: ينفقونهما؛ لأنه أراد به[٢] الكنوز.

وقيل: اكتفى بأحدهما عن الآخر إيجازاً، ومثله: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، وقد أطلنا الكلام في نظائرها في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: ضعِ الوعيدَ بالعذاب الأليم موضعَ البشرى بالنعيم في حقِّهم على التعميم.

ثم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ﴾ قيل: هو معطوفٌ على ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ وهو من صفات أهل الكتاب: جمعُ المال، ومنعُ حقوق الله تعالى فيه، والبخل، وقد مرت آياتٌ في إثبات غايةِ بخلهم.

وقيل: هو مبتدأٌ في مانعي الزكاة من المسلمين.

وقيل: هو عامٌّ يتناول الكلَّ.

وقال السدِّي: هي في أهل القبلة[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي خاصةٌ عامةٌ؛ أي: خاصةٌ في السبب عامة في النسب[٤].

---

(١) في (ر): «كنز».

(٢) «به» ليس من (أ) و(ف).

(٣) رواه الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ٤٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٩).

(٤) «أي: خاصة في السبب عامة في النسب» ليس من (أ) و(ف).

وروي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية على معاويةَ في أمرٍ من الأمور، فقال معاوية: ليست هذه الآية فينا، إنما هذه الآية في أهل الكتاب، فقال أبو ذر رضي الله عنه: إنها لفينا وفيهم[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً عليه ومرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «ما أُدِّي زكاتُه فليس بكنز»[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٠).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٨٣) من طريق محمد بن جبير عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «كل ما أدي زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً تحت الأرض، وكل ما لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً» قال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفاً.

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٨٢٧٩) وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٤٢٦) من طريق سويد بن عبد العزيز عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً، ولفظه: «كل مال وإن كان تحت سبع أرضين يؤدى زكاته فليس بكنز، وكل مال لا يؤدى زكاته وإن كان ظاهراً فهو كنز» قال ابن عدي: رفعه سويد إلى النبي ﷺ وغيره يرويه موقوفاً.

والموقوف رواه الشافعي في «مسنده» (ص: ٨٧)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٧١٤٠) و(٧١٤١).

وفي الباب عن أم سلمة قالت: «كنتُ ألبَسُ أوضاحاً مِنْ ذَهَبٍ، فقلت: يا رسولَ الله، أكنزٌ هو؟ قال: «ما بلغ أن تُؤَدَّى زكاتُه، فزُكِّيَ، فليس بكَنزٍ» أخرجه أبو داود (١٥٦٤) واللفظ له، والحاكم في «المستدرك» (١٤٣٨)، من طريق عطاء عن أم سلمة. ورجاله ثقات إلا أن عطاء ـ وهو ابن أبي رباح ـ لم يسمع من أم سلمة فيما قاله علي بن المديني. ومع ذلك فقد صححه ابن القطان، وجوَّد إسناده الحافظ العراقي، فيما نقله عنهما الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٣/ ٢٧٢).

وروى البخاري في «صحيحه» (١٤٠٤): عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سئل عن هذه الآية فقال: من كنزها فلم يؤدِّ زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهرًا للأموال. وقد ترجم له البخاري بقوله: (باب ما أدي زكاته فليس بكنز).

وقال سالم بن أبي الجَعْد: لمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «تبًّا للذهب والفضة» قالها ثلاثاً، فشقَّ ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم، فقالوا: أيَّ مال نتخذُه؟ [فقال عمر: أنا أعلمُ لكم ذلك، فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شقَّ عليهم، وقالوا: فأيَّ المال نتخذ؟]فقال رسول الله ﷺ: «لساناً ذاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجةً تُعِين أحدكم على دينه»(١).

* * *

(٣٥) ـ ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾: وهو ظرفٌ لِمَا قبله؛ أي: فبشِّرهم بعذاب أليم يعذَّبون به يومَ يحمَى عليها؛ أي: يوقَد على هذه الأموال، وقد حَمِيَ يَحْمَى بالنار من حدِّ علم، وأَحْمَى غيرَه إحماءً.

وقوله تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾: أي: فتُوْسَمُ بالكنوز

---

(١) حديث حسن بطرقه وشواهده، رواه الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ٤٢٨) وما بين معكوفتين منه.
وهذا بعضه مرسل عن سالم، وبعضه ـ وهو المروي عن عمر ـ منقطع، وسالم بن أبي الجعد روى عن عمر لكنه لم يدركه، وهو ثقة روى له الجماعة.
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٩٢)، والترمذي (٣٠٩٤)، وابن ماجه (١٨٥٦)، من طريق سالم عن ثوبان به، وهو منقطع أيضاً، قال الترمذي: هذا حديث حسن، سألت محمد بن إسماعيل (البخاري) فقلت له: سالم بن أبي الجعد سمع ثوبان؟ فقال: لا.
ويشهد له ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣١٠١) من طريق سلم بن عطية الفقيمي عن عبد الله ابن أبي الهذيل عن صاحب له: أنه انطلق مع عمر فقال: يا رسول الله قولك: «تبًّا للذهب والفضة» ماذا؟ فقال ﷺ: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تُعين على الآخرة» ورجاله ثقات غير سلم بن عطية فقد ليَّنه الحافظ ابن حجر في «التقريب».

المحمَّاة بالنار جباهُ الكافرين، وهي جمعُ جبهة، وهي صفيحةُ أعلى الوجه فوق الحاجبين، ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ وهي جمع جَنْبٍ، ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ وهو جمع ظَهرٍ، وخُصَّت بالكيِّ هذه المواضعُ لأن الكيَّ على الجبهة[1] يظهر للعيون فيكون أبلغَ في التشهير والتعذيب، وهو كقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]، والجنوب مقاتل فكيُّها أشد إيجاعاً، والظهور فيها القوة، وفيه إزالةُ القوة بالكلية.

وقال أبو بكر الورَّاق: إنما خُصَّت بالكيِّ هذه المواضع لأن الغنيَّ المانعَ للزكاة إذا رأى الفقير انقبض وجهه، وإذا ضمَّه والفقيرَ مجلس[2] ازورَّ عنه فعارضه بجنبه، وإذا ملَّه قام وولَّاه ظهره[3].

قال محمد بن عليٍّ الترمذي: لأنه يَبذخ ويَشمخ برأسه بسبب ماله ويقع على كنزه بجنبه ويتساند إليه بظهره[4].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الجبهة مقدِّمة الوجه، وهم لم يقدِّموها إلى الآخرة، ولم ينفقوها في سبيل الله، فعذِّبوا على الجباه والجُنوب لأنهم أخذوها من كلِّ جانبٍ، وعلى الظُّهور لأنهم أنفقوها في الصدِّ عن سبيل الله وتوليةِ الظهور عن الحق، ويحتمِل ذكرُ هذا إحاطةَ العذاب بهم من كلِّ الجهات؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وكقوله عز وجل: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وجعلَ الله تعذيبَ أهل النار في الآخرة بالأسباب التي منَعتهم عن طاعة الله

---

(١) في (ف): «لأنه»، بدل: «لأن الكي على الجبهة».

(٢) في (ف): «وإذا جلس الفقير مجلساً»، بدل: «وإذا ضمه والفقير مجلس».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٣١).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٠).

تعالى ودعَتْهم إلى مخالفة أمره، فيجمع بينهما في النار، وهو كقوله تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] ونحو ذلك(١).

وقال القشيري رحمه الله: لمَّا طلبوا الجاهَ عند الخَلق بمالهم وبخلوا بإخراج حق الله تعالى عنه شانَ الله وجوههم، ولمَّا ولَّوا جوانبهم(٢) وأسندوا ظهورهم إلى أموالهم كوَى الله جباههم وجنوبهم وظهورهم(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: على الكنوز(٤).

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾؛ أي: لا يوضع دينارٌ مكانَ دينارٍ، ولا درهمٌ مكان درهمٍ، ولكن توسَّع جلودهم فيوضع(٥) لكلِّ دينار ودرهم كيةٌ على جلده.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «ما من رجلٍ لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل الله ماله يوم القيامة صفائحَ من نارٍ فتُكوى بها جبهتُه وجنبُه وظهره في يومٍ كان مقداره(٦) خمسين ألفَ سنة، حتى يُقضى بين الناس ثم يَرى سبيلَه إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما من صاحب إبلٍ ولا بقرٍ لم يؤدِّ زكاتَها إلا بُطح لها يوم القيامة بقاعٍ قَرْقرٍ تطؤه بأخفافها وأظلافها وتَنطِحُه بقرونها وتَعَضُّه بأفواهها، كلما

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٦٣).

(٢) في (أ): «ولما شدوا جوانبهم»، وفي (ف): «ولما سدوا جوانبهم»، وليست هذه الجملة في «اللطائف».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٣).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٠٣).

(٥) في (ر) و(ف): «فتكوى»، والمثبت من (أ) و«البسيط» (١٠/ ٤٠٣)، والكلام منه.

(٦) في (أ): «قدره».

مرَّت عليه أُخراها عادت عليه أُولاها، حتى يُقضى بين الناس في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة، ثم يَرَى سبيله إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار، وما من صاحب غنمٍ لا يؤدِّي حقَّها إلا أُتي بها يومَ القيامة تَطَؤُه بأظلافها وتنطحُه بقرونها»[1]، ثم ذكر ما ذكر في الأول.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾: القول هاهنا مضمَر، وتقديره: يقال لهم ـ أو: يقول لهم خزنةُ جهنم ـ: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: هذا الذي تَرونه هو الذي كنَزْتُم في الدنيا؛ أي: جمعتُم فلم تؤدُّوا حقَّه ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: هذا بذاك، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

***

(٣٦) ـ ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾: وبه يتمُّ الحول، وبتمام الحول تجب الزكاةُ في النصاب[2]، وهو وجه اتصالها بالآية الأولى.

ووجهٌ آخر: أنها متصلة بجملةِ ما نزلت فيه السورة؛ لأن النبيَّ عليه السلام أراد أن يحج عامَ نزولِ هذه السورة، وكان الحج حينئذٍ على حساب النَّسيء في ذي

---

(١) رواه مسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (أ): «النصب».

القعدة، وفي السنةِ الثانية في ذي الحجة، ولهذا قال عليه السلام عامَ حجِّ الوداع: «إنَّ الزمان قد استدارَ كهيئته يومَ خَلْق السماوات والأرض» وأَبْطَلَ النسيء[١].

ووجهٌ آخر للاتصال: أن السورة في قتال المشركين وصفتهم أنهم نجسٌ، وأفعالُهم كذلك، ومِن قبائحهم النسيءُ وهو تغييرُ حُكم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾: أي: شهورِ السَّنة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكم الله ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ نصبٌ لأنهما اسمان جُعلا اسماً واحداً وبُني على الفتحة لأنها أخفُّ الحركات.

وإنما قُدِّرت الشهور القمرية بالاثني عشر لأن الشهور الشمسية كذلك؛ لنزولها في اثني عشر برجاً، وتمام السنة الشمسية بذلك، فجعلت السنة القمريةُ اثني عشر شهراً أيضاً؛ ليَتوافَقوا على حسابٍ واحد، قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

وقوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: في الإمام الذي عند الله كتبه يومَ خلَق السماوات والأرض[٢].

وقال علي بن الحسين بن واقد: أي: في اللوح المحفوظ[٣]، وهو كقوله في سورة الحج: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: ٧٠] وكذا في سورة الحديد.

وقيل: في قضاء الله وإيجابِ الله على خلقه من أحكامها.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٠٧).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٠٧) عن الواقدي، والمشهور بهذا اللقب هو محمد بن عمر صاحب «المغازي»، وعقبه الواحدي بقوله: وهو قول عامة أهل التأويل، ونحو هذا يُحكى عن ابن عباس: (﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ قال: في الإمام...) فذكر ما سبقه من قول ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ولم تزل الأمم تتناسخُه إلى أن غَيَّرت العرب في شِركها ما غَيَّرتْ منها.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: أي: من الاثني عشر شهراً أربعةُ أشهر حُرمٌ: جمعُ حرام، وهي: رجبٌ وهو فرد، وذو القعدة وذو الحجة والمحرمُ وهي سردٌ، وكذا فسَّرها النبي ﷺ[1].

ومعنى الحرام[2]: أنه يحرم فيها القتال والقتل، وكانت العرب تعظِّمها، حتى لو لقي الرجل منهم فيها قاتلَ أبيه لم يَهِجْه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: أي: الحساب المستقيم، كما قال ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يوم الحساب، ومعناه: إن الشهور على حساب مستقيم فلا تغيِّروها بالنسيء.

وقيل: الأخذ به الدِّينُ المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: في جميع الشهور، لأنها شهودٌ عليكم بما تعملون.

وقال قتادة: في الأربعة الحرم[3].

وظلمُ النفس هو المعصيةُ؛ لأنه يَضرُّ[4] بها نفسَه وينقص بها[5] حظَّه.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) في (أ): «الحرم».

(٣) رواه الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ٤٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩٣).

(٤) في (ر): «لأنها يضرب».

(٥) في (أ): «وينقص لها»، وفي (ر): «وينقض بها».

وإنما خَصَّ هذه الشهورَ الأربعة بالنهي عن ظلم النفس فيها مع أنه حرامٌ في كل وقت بياناً أنه فيها أغلظ، وهو كقوله تعالى في حق مكة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الحج: ٢٥]، والظلم في كل مكانٍ حرام، وقولِه تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] وكلُّ ذلك في كل وقت حرام، وقولِ النبي ﷺ في وعيدِ مَن زَنَى بحليلة الجار[1]، والزنا بكلِّ امرأةٍ حرام، فالتخصيص دلالةُ التغليظ في كل ذلك.

وقيل: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بالبداءة بالقتال، ولا بأس بقتالِ مَن بدأكم له فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾: أي: جميعاً.

وقيل: أي: لا تظلموا فيهن أنفسكم إذا قوتلتُم فيهن بأنْ تتركوا القتال، لكنْ قاتلوهم في هذه الحالة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: لا مع المشركين؛ أي: حافظُ المتقين وناصرُهم، وهم الذين يتقون الشرك.

وقيل: أي: الذين يتَّقون هتك حرمة هذه الأشهر.

وقيل[2]: الذين يتقون بدء المشركين[3] بالقتال فيها.

وقال عطاءٌ الخراساني: أحلَّ الله القتال في الشهر الحرام بقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «وقيل» من (أ).

(٣) في (ف): «يتقون بداية المشركين»، وفي (ر): «يتقون الشرك».

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ الآيات، وبقوله جلَّ جلالُه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً﴾ يقول: فيهن وفي غيرهن.

***

(٣٧) ـ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾: أي: التأخير.

قيل: هو مصدر كالرحيل.

وقيل: هو فعيلٌ بمعنى المفعول، ومعناه: المؤخَّر، أي: الشهر المؤخَّر[1]، من قولهم: نسأ الشيءَ وأنسأه؛ أي: أخَّره، ومنه: النسيئة في البيع.

وقوله تعالى: ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾؛ أي: تأخيرُ حرمةِ المحرَّم إلى صفر بدعةٌ زائدة على بِدَع سائر الكفار.

وقوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: قرأ حمزة والكسائيُّ وعاصم في رواية حفصٍ بضم الياء وفتح الضاد[2]؛ أي: الأتباع يَضِلون به بإضلال الرؤساء، على ما لم يسم فاعله.

وقرأ الحسن وجماعة بضم الياء وكسر الضاد[3]: يُضِلُّ الرؤساء به الأتباعَ.

---

(١) في (ف): «المؤخر».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٤)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٣) انظر: «المحتسب» لابن جني (١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩). وهذه قراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٩).

وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الضاد[١]: يضل الرؤساء؛ أي: يقعون في الضلال بما يفعلون.

وقوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾: أي: يُحلُّون القتالَ في هذا الشهر مرةً ويحرِّمونه مرةً، حُذف (في) عن الفعل كما يُحذف عن[٢] الاسم، فيقال[٣]: الشهر الحرام والشهر المحرَّم؛ أي: المحرمُ فيه القتال.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: أي: ليُوافقوا عدةَ ما حرَّم الله، والمواطَأة: الموافَقة، وتواطَأَ القوم على كذا؛ أي: توافَقوا؛ أي: يحرِّمون صفراً مكان المحرَّم، ويُحلُّون المحرَّم ويقولون: الأشهر الحرم أربعةٌ، وقد حرَّمنا أربعةَ أشهر.

وقوله تعالى: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: أي: ليتوصَّلوا بهذه الحيلة إلى إحلالِ الشهر الذي حرَّم الله.

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾:

قال الحسن: الشيطان زيَّن لهم ذلك[٤].

وقيل: أنفسُهم زينت لهم ذلك.

وقيل: الله عز وجل زيَّنها بالتخليق امتحاناً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: إلى الحقِّ حالَ اختيارهم الثباتَ على الباطل.

وقيل: لا يهديهم طريق الجنة في الآخرة.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٤)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٢) في (ر): «في».

(٣) في (ر) و(ف): «فقال».

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩٦).

وقال الكلبي: أولُ مَن نسأ الشهور رجلٌ من بني كنانة يقال له: نُعيم بن ثَعلبة، وكان يكون على الناس بالموسم إذا همَّ الناس بالصَّدَر قام فخطب فقال: لا مردَّ لِمَا قضيتُ أنا الذي لا أُعاب ولا أجاب(١)، فيقول له المشركون: لبيك ربَّنا، ثم يسألونه أن يُنسئهم شهراً يغيرون(٢) فيه فيقول: فإن صفراً العامَ حرام، فحَلُّوا الأوتار ونزَعوا(٣) الأسنَّة والأزجَّة، وإن قال: هو حلال، عقَدوا الأوتار فشدُّوا الأزجة وأغاروا على الناس، وكان بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له: جُنَادة بن عوف بن أمية الكِنانيُّ، وهو الذي أدركه رسول الله ﷺ(٤).

وقيل: كان يلي ذلك عامر بن الظربان.

وقال قتادة: كان يفعل ذلك أبو ثُمامة صفوان بن أمية أحد بني فُقيم بن الحارث(٥).

---

(١) في (أ) و(ر): «أخاف»، والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما «معاني القرآن» للفراء، و«تفسير البغوي» و«زاد المسير» و«درج الدرر»، وفي «تفسير الثعلبي»: (أخاب)، وفي بعض نسخه كالمثبت.

(٢) في (ف): «يغزون».

(٣) في (ر): «الأوثان وانزعوا».

(٤) ذكره عن الكلبي الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٦ ـ ٤٧). وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٣٥) عن الفراء، وهو في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٣٦). والجرجاني في «درج الدرر» (١/ ٧٦٤) من طريق محمَّد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ومحمد بن مروان هو السدي الصغير، وهو متهم بالكذب، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس. والقول بأن فاعل ذلك هو نعيم بن ثعلبة ذكره أيضاً الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٦١) عن الزبير بن بكار. وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٣) عن أبي علي البغدادي، لكنه تعقبه بقوله: واسم نعيم لم يعرف في هذا، وما أرى ذلك إلا كما حكى النقاش: من بني فقيم كانوا يسمون: القلامس، واحدهم: قَلَمَّس، وكانوا يُفتون العرب في الموسم، يقوم كبيرهم في الحجر ويقوم آخر عند الباب ويقوم آخر عند الركن فيفتون.

قال ابن عطية: فهم على هذا عدة، منهم نعيم وصفوان ومنهم ذرية القلمس حذيفة وغيرهم.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٥٤).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أبو ثمامة كنية جنادة بن عوف بن أمية الكناني(١) الذي قدَّمناه.

وقال عبد الرحمن بن زيد: هو رجل من بني كنانة يقال له: القَلَمَّس، في الجاهلية(٢).

وأنشد أبو عبيدةَ لبعضِ بني كنانةَ في الافتخار بهذا:

أَلَسْنا الناسئينَ على مَعَدٍّ شهورَ الحِلِّ نجعلُها حراماً(٣)

وقال السدي: كانت العرب يَشُقُّ عليهم أن يمكثوا ثلاثةَ أشهر لا يُغِيرون فيها، وإذا أراد رئيسهم أن يُغير(٤) قال: إني أحلَلْت المحرَّم وحرَّمت صفراً مكانه، فقاتل الناس في المحرم، فإذا كان صفرٌ غمدوا السيوف، ثم يقول في قابل: أحلَلْتُ صفراً وحرَّمتُ المحرَّم(٥).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٥١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٥٦).

(٣) البيت لعمير بن قيس بن جذل الكناني، كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٥)، و«شرح القصائد التسع الطوال» لابن الأنباري (ص: ٢٥٨)، و«معجم الشعراء» للمرزباني (ص: ٧٢)، و«تهذيب اللغة» (١٣/ ٥٨)، و«النكت والعيون» (٢/ ٣٦١). وعزاه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٢١) للكميت، والرواية في «ديوان الكميت» (ص: ٣٥٧):

وكنا الناسئين على معدٍّ شهورَهم الحرامَ إلى الحليلِ

(٤) في (ر): «أرادوا نسيئهم أن يغيِّر» وفي (ف): «أرادوا نسيئهم أن يغيِّروا»، وفي نسخة: «أرادوا أن يغيِّروا نسيئهم»، والمثبت من (أ)، وهو المتفق مع مصدر التخريج. انظر التعليق الآتي. وضبط (يغير) و(يغيروا) في جميع النسخ بتشديد الياء من التغيير، وله وجه، والأحسن عدم التشديد من الإغارة، كما في سابقه، وكما سيأتي في تخريجه.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٩٦) بلفظ: كان رجلٌ من بني مالكِ بنِ كِنانَةَ يقالُ له: =

وقال عبد الرحمن بن زيد: كانوا يحلُّون المحرَّم ويسمُّونه صفراً، ويحلُّون بعده صفراً ويجعلون في هذا العام صفَرين، ثم يحرِّمون المحرَّم وصفر في القابل ويجعلونهما المحرَّمين[١].

وفي حديث الحسن: أنهم كانوا يغيِّرون الشهور كلَّها فيتغيَّر شهرُ الحج أيضاً، ولمَّا فتح الله مكة سنة ثمانٍ من الهجرة ـ وكانت في تلك السنةِ غزوةُ حنينٍ ـ مضى النبيُّ عليه السلام منها إلى الطائف ثم إلى جِعْرانة وقسَّم بها غنائم حنين في ذي القعدة واعتمر فيه، ولم يؤْذَنْ له أن يحجَّ في ذلك العام لأن حجَّهم كان وقع في ذي القعدة، ولمَّا كانت سنةُ تسع وقع الحجُّ في ذي الحجة، وأرسل النبيُّ عليه السلام أبا بكر رضي الله عنه إلى مكةَ واستعمله على الحج وعلَّمه المناسك، ونزلت سورةُ براءةَ بعد خروج أبي بكر، فبعث النبيُّ عليه السلام عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره إذا خطب أبو بكر وفرغ من خطبته أن يقوم فيقرأ على الناس سورةَ براءة، ففعل ونبذ[٢] إلى المشركين عهدَهم، وقال: «لا يجتمعنَّ[٣] مسلمٌ ومشركٌ على هذا الموقف بعد عامهم هذا»، وإنما لم يحجَّ النبيُّ ﷺ تلك السنة لمخالطة الكفار، وأُخِّر ليكون حجُّه في السَّنة التي بعدها بدون المشركين.

وكان أبو بكر رضي الله عنه هو الذي يخطبُ على الناس ويصلِّي بهم ويَدفع بهم في الموقف.

= جُنَادةُ بنُ عوفٍ يُكْنَى أبا أُمامةَ يُنْسِئُ الشهورَ، وكانت العربُ يشتدُّ عليهم أنْ يمكُثوا ثلاثةَ أشهرٍ لا يُغِيرُ بعضُهم على بعضٍ، فإذا أراد أنْ يُغِيرَ على أَحدٍ قام يومَ منى فخَطب...، الخبر.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٥٦).

(٢) في (ر): «فقد نبذ» بدل: «ففعل ونبذ».

(٣) في (ر): «يحجن».

فلمَّا كانت سنة عشرٍ أَذِنَ الله تعالى لنبيِّه في الحج، فحجَّ رسول الله ﷺ حجةَ الوداع، فوقف بعرفة وقال: «يأيها الناس، إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق الله السماوات والأرض، فلا شهر يُنسأ، ولا عِدَّة تُخطأ، وإن الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة»(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: قولُه جلَّ جلاله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ لمَّا علِم أنهم لا يداوِمون على ملازَمة القُرَب أفرد بعضَ الشهور بالتفضيل ليخصُّوها باستكثار الطاعات فيها، فأما الخواصُّ من عباده فجميعُ الشهور لهم شهرُ رمضان، وجميع الأيام لهم جمعةٌ، وجميع البقاع لهم مكةُ، وأنشدوا في معناه:

يا ربِّ إن جهادي غيرُ منقطِعٍ ... فكلُّ أرضِك لي ثَغْرٌ وطرسوسُ

وقال في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾: أمَر العوامَّ ألَّا يَظلموا قلوبهم في جميع(٢) الشهور بارتكاب الزَّلَّة، وأَمر الخواصَّ أن يَظلموا قلوبهم في جميع الشهور باحتقاب(٣) الغفلة، فظُلم النفس أن يَجعل العبد زمامَه بيد شهواته فتُورده(٤) موارد الهلكات، وظلمُ(٥) القلب أن يلاحِظ الخلقَ فيَحرمَه أُنسَ المشاهَدات، ومَن ظلم نفسه بارتكاب المحظورات ابتُلي بالفترة في الطاعات، ومَن ظلم قلبه بالمساكَنات امتُحن بعدم الصَّفوة في مرور الأوقات.

---

(١) لم أجده عن الحسن، وذكره الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٨٢ ـ ١٨٦) مطولًا عن الكلبي.

(٢) في (أ): «أنفسهم في بعض»، وفي (ف): «قلوبهم في بعض»، بدل: «قلوبهم في جميع»، والمثبت من (ر) و«اللطائف».

(٣) في (ر): «باحتقار»، والمثبت من (أ) و(ف) و«اللطائف». واحتقب معناه: ادخر. انظر: «القاموس» (مادة: حقب).

(٤) في النسخ: «فيوردها». والمثبت من «اللطائف».

(٥) في (ر): «وظلماء».

وقال في قوله عز وجل: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾: لا سلاحَ أمضى على العدوِّ من تبرُّئِك من حولك وقوتك.

وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾: الدِّين ملاحظةُ الأمر ومجانبةُ الوِزر وتركُ التقدُّم بين يدي الله تعالى في جميع أحكام الشرع، والآجالُ في الطاعات مضروبة، والتوقُّف في عرفانه[١] متَّبَع، والصلاحُ في الأمور بالإقامة على حدِّ العبودية، وتركِ الاعتراض[٢] والمعارضة على الربوبية[٣].

* * *

(٣٨) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ﴾: هو حرف استفهامٍ بمعنى التوبيخ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: اخرجوا إلى الغزو، وقد نَفَر نفيراً من حدِّ ضَرَب، وسبيل الله: طريق طلب[٤] رضَى الله، وسمِّي به لأنه يُفضي بسالكه إلى الجنة.

وقولـه تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: تثاقلتُم، وأدغمت التاءُ في الثاء فبُدئ بها ـ وهي ساكنة ـ عليها، فزيدَ عليها الألفُ ليكون المبتدأ بالمتحرِّك، ومثله: ﴿ٱدَّارَكُوا۟﴾ [الأعراف: ٣٨].

---

(١) في (أ): «والتوقيف في عرفانه»، وفي (ر): «والتوقف في عرفاته»، وفي مطبوع «اللطائف»: «والتوفيق في عرفانه».

(٢) في (ف) و(أ): «الإعراض».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٥)، والجملة الأخيرة ليست فيه.

(٤) «طلب» ليس من (أ).

وهذه معاتبةٌ للمؤمنين، حيث قيل لهم: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ فتباطؤوا فعُوتبوا على ذلك، وهو وجه النَّظم؛ أي: ما السببُ الذي يدعوكم إذا قال لكم الرسول: اخرجوا في الجهاد في سبيل الله، تثاقلتُم عنه إلى الإقامة بأرضكم لبلوغ الثمار وطلبِ[1] الظلال، وتعبِ الخروج لشدة الحر.

وقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: أي: بدلاً عن الآخرة ونعيمِها الخالد الذي لا يَبيد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: لأن هذا منقطِعٌ وذاك باقٍ، وهذا كلُّه تقريعٌ وتعجيبٌ من سوء الاختيار.

وقال مجاهد: أُمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد الطائف وبعد حُنينٍ، أمروا بالنَّفير في الصَّيف حين أَثمرت النخيل وطابت الثمارُ واشتهَوا الظِّلالَ، فشقَّ عليهم الخروجُ فاعتلُّوا فقالوا: فينا الثقيلُ وذو الحاجة وذو الضَّيعة والشغل، فنزلت الآية[2].

وقال الكلبي: إن النبيَّ ﷺ أقام بالمدينة بعد[3] مرجعِه من الطائف، فأمر بالجهاد لغزوة الروم حين طابت ثمار المدينة وأَينعت، فعظُمت على الناس غزوة الروم ـ وقال قتادة: لغزوة تبوك قِبَل الشام[4] ـ وذلك في زمانٍ عسرةٍ من الناس، وجَدْبٍ من البلاد، وشدةٍ من الحر، وأَحبُّوا الظلالَ والمقامَ في ثمارهم، وكان النبيُّ ﷺ قلَّما يخرج في غزوة إلا كنَى عنها إلا غزوةَ تبوك؛ لبُعدِ شُقَّتها وكثرة العدوِّ،

---

(١) في (أ): «وطيب».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٦٠).

(٣) «بعد» ليست في (أ)، وتحرفت في (ر) إلى: «بيد».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٦١).

ليتأهَّب الناس، فأمرهم بالجهاد وأخبرهم بالوجه الذي يريد، فلما علم الله عز وجل تثاقُل المسلمين أنزل هذه الآية[١].

قال الإمام القشيري رحمه الله: الجنوحُ إلى التكاسُل والاسترواحُ إلى التغافُل من أمارات ضعف الإيمان؛ إذ الإيمان غريم ملازمٌ لا يرضى من العبد بغيرِ ممارسةِ الأشقِّ وملابَسة الأحق[٢].

قال أصحاب رسول الله ﷺ: بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمع والطاعة في العسر واليسر والـمَنشَط والـمَكرَه، بل بايعناه على الموت.

ثم قال: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: هل يَجمل[٣] بالعابد أن يختار دنياه على عُقباه؟ أم هل يَحسُن بالعارف أن يُؤْثِر هواه على رضا مولاه، وغيبةُ يوم من الزاهد[٤] عن الباب تَعدل شهوراً، وغيبة لحظة من العارف عن البساط تَعدلُ دهوراً، وأنشدوا:

الإلـفُ لا يصبـرُ عـن إلفِهِ ... أكثـرَ ممـا تَطْـرفُ العَيـن

وقـد صَبَرْنـا عنكـم سـاعةً ... ما هكـذا فعـلُ المحبِّيـن[٥]

* * *

(٣٩) ـ ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٥).

(٣) في (ف): «يحمد»، وفي (أ) و(ر): «يحمل»، والمثبت من «اللطائف».

(٤) في (ر) و(ف): «الدهر»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٥ ـ ٢٦).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: (إلا) كلمتان: (إنْ) للشرط و(لا) للنفي؛ أي: إن لم تخرجوا إلى الغزو يعذِّبكم عذاباً وجيعاً لأبدانكم وقلوبكم في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: أي: يُنشئُ قوماً آخرين، ويأت بهم بدلاً عنكم، يحضون على[1] أمره، ويحرِّضون على مجاهدة عدوِّه.

وقال أبو رَوْق: وهم أهل اليمن[2].

وقال سعيد بن جبير: هم أهل فارس[3].

وقيل: الملائكة.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: يَصْرفْ ما كان عليكم من الإقبال إلى[4] غيرِكم من الأشكال، وليس كلُّ مَن حفر بئراً يَشرب من مَعينها، وفي معناه أنشدوا:

أسقي رياحينَ الحِفَاظ مَدَامِعي   وسوايَ في روضِ التواصُلِ يرتعُ[5]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾: عطفٌ على ما سبق، وهو مجزومٌ لأنه جواب الأمر، وعلامةُ جزمه حذفُ النون في آخره، وهو ظاهرٌ أنه لا يضرُّ اللهَ شيئاً ولا يَنقصُ من ملكه شيئاً.

---

(١) في (ف) و(أ): «إلى».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٢) (ط: دار التفسير).

(٣) المصدر السابق.

(٤) في (ر): «إلى قوم».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٦).

وقيل: معناه: ولا تضرُّوا رسولَه وأولياءه شيئاً، فإن الله عزَّ وجلَّ ينصرُه بما شاء بدونهم[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: أي: هو على نصرِ رسوله بغيركم وإفناءِ الكفارِ بغيرِ قتالِ أحدٍ قدير؛ إذ هو القادرُ على كلِّ شيء.

وقال القشيريُّ رحمه الله: العذابُ الأليم: ألا يعاتبه على تأخير الرجوع.

وقيل: العذابُ الأليم: أن يُعرِض العبد عن الطاعة فلا يَبعث وراءه طالباً[٢] من [جنود] التوفيق يردُّه إلى الباب.

وقيل: العذاب الأليم: أن يسلبه حلاوة النجوى إذا آب.

وقيل: العذاب الأليم: الصُّدودُ يوم الورود.

وقيل: العذاب الأليم: الوعيد بالفراق، فأمَّا نفسُ الفراق فهو عين[٣] التلف، وأنشدوا[٤]:

وزعَمْتَ أنَّ البَيْنَ منكَ غدا ... هدِّدْ بذلك مَن يعيشُ غدا[٥]

❊ ❊ ❊

(٤٠) ـ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ

---

(١) في (ف): «ينصره بما شاء بدونكم»، وفي (ر): «ينصرهم بما شاء بدونهم».

(٢) في (ر): «عن الطاعات فلا يتوب ولا يكون معه طالب».

(٣) في (ر): «نفس»، وفي «اللطائف»: (تمام).

(٤) في (ر) و(ف): «كما قال»، بدل: «وأنشدوا».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٦).

ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾: (إلا) كلمتان كما مر؛ أي: إنْ لم تنصروا محمداً في هذه الحالةِ فما هو ممن يُضيَّع، فقد نصره الله أضعفَ ما كان فلن يخذله الآن.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي: حين مكرِ قريشٍ فاضطُرَّ إلى أن خرج ليلاً مستخفياً إلى المدينة مهاجراً خائفاً مشفِقاً من لحوق الطلب، لا أنيسَ معه ولا أليف إلا رجلٌ واحد وهو أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

ثم قال هنا: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣]، وقال في آية أخرى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ [الأنفال: ٥].

والتوفيق: أنهم همُّوا بإخراجه(١) بأنفسهم، فاضطُر فخرج بسبب همِّهم، والله أَذِن له في الخروج وقدَّر ذلك عليه.

وقوله تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾: نصبٌ على الحال، وهو حالٌ من النبيِّ ﷺ، و﴿ٱثْنَيْنِ﴾ خفضٌ بالإضافة، وهو محمد المصطفى وأبو بكر الصدِّيقُ رضي الله عنه؛ أي: هو أحدُ اثنين ليس معهما ثالثٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾: وهو الثَّقْبُ(٢) العظيم في الجبل، وهو في جبلٍ بمكة(٣) يقال له: ثور، قاله قتادة(٤).

---

(١) في (ف) و(أ): «أن يخرجوه».

(٢) في (ف): «النقب».

(٣) في (أ): «وهو جبل مكة».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٦٥).

وهو مأخوذ من غار يغور؛ أي: دخل في عميقٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ﴾: أي: النبيُّ ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾؛ أي: أبي بكر ﴿لَا تَحْزَنْ﴾؛ أي: لا تهتمَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾؛ أي: حافظُنا وناصرُنا ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قال الزجَّاج: أي: على النبيِّ ﷺ[1]، كما قال في هذه السورة: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [الفتح: ٢٦].

وقيل: على أبي بكر[2]؛ لأنه هو الخائف المحتاجُ إلى الأمن، وأما النبيُّ ﷺ فقد كان ساكناً بما وُعد له من النصرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾: أي: وقوَّى محمداً، وهو عطفٌ على قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾، والجنود: الملائكة أيَّده بهم في حرب بدرٍ وحُنينٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾: قال الحسن: هي الشرك.

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ وهي: لا إله إلا الله، علَتْ هذه الكلمة[3] إلى قيام الساعة.

و(كلمةُ الله) رفعٌ بالابتداء، وهي غيرُ معطوفة على الأولى؛ لأنه لم يَجعل الجعلَ واقعاً عليها بل استأنف الكلام بها.

وقال ابن كيسان: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾: هي ما قدَّروا بينهم من الكيد به ليقتلوه فلم ينالوا أملَهم ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ وعدُ الله أنه ناصرُه[4].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٤٩).

(٢) وأجازه الزجاج أيضاً. انظر المصدر السابق.

(٣) في (ر): «الكلمات».

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٤٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل: وجعَل أهلَ كلمة الذين كفروا هم الأسفَلينَ، قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩] وأهلُ دين الله هم الأعلَونَ[١]، قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩][٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: أي: في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وأحكامه.

وقصتُه: أن قريشاً لمَّا اجتمعوا في دار الندوة يمكرون بالنبيِّ ﷺ، وتشاوروا في أمره على ما مر تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠]، وترك رسول الله ﷺ عليًّا على فراشه ليلاً، وخرج مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه يتوجَّهان إلى المدينة.

قالت عائشة رضي الله عنها[٣]: جاء رسول الله ﷺ واستأذن علينا ـ وذلك في نحر الظهيرة متقنِّعاً ـ في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها، وقال حين دخل لأبي بكر: «أَخْرِجْ مَن عندَك»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنما هم أهلك، فقال: «إنه قد أُذن لي في الخروج للهجرة»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فالصحبةَ يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فقال: «نعم»، قال: فخذ إحدى راحلتيَّ هاتين، فقال عليه السلام: «بالثَّمن»، وكان اشتراهما بثماني مئة، فأخذ رسول الله ﷺ القَصواء[٤]، وكان يعلفها[٥]، وكان

---

(١) في النسخ: «الأعلين»، والمثبت من «التأويلات»، وهو الأنسب بالآية.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٧٦).

(٣) قوله: «قالت عائشة...» من هنا ورد أكثره عند البخاري (٣٩٠٥) و(٤٠٩٣) و(٥٨٠٧) من حديث عائشة، و(٣٩٠٦) من حديث سراقة بن مالك، ومن حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما عند البخاري (٣٦١٥) و(٣٦٥٢) و(٣٩١٧)، ومسلم (٣٠٠٩) كتاب الزهد. وما كان من غير الصحيحين سنبينه بعون الله.

(٤) في البخاري (٤٠٩٣): (فأَعْطَى النبيَّ ﷺ إحداهما وهي الجَدْعاءُ).

(٥) «وكان يعلفها» ليست في (أ). وهذه العبارة حتى قوله: «في خلافة أبي بكر رضي الله عنه» لم =

يغزو عليها المغازي ويحج عليها حتى ماتت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما بأخفِّ[١] الجِهاز: لحم وخبز، وصنعنا لهما سفرةً في جرابٍ، فقطعت أسماءُ بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها فأَوْكَتْ به الجِرابَ، فلذلك كانت تسمى ذاتَ النطاقين.

وقيل: كانت تَنتطِقُ بنطاقين، فحلَّت[٢] أحدهما فجعلته عِلَاقاً للسفرة، والآخرَ عصاماً لفم القِرْبة[٣].

وخرج النبيُّ ﷺ ليلاً من بيته ونفرٌ من قريش يرصدونه على الباب، فأخذ حفنةً من البطحاء فجعل يذرُّها على رؤوسهم وهو يتلو: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الآيات، ومر ولم يعلموا به، وانتهى إلى بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فخرجا معاً، وكان أبو بكر استأجر عبد الله بن أُرَيقِط، فدفع إليه الراحلتين وواعده غار ثورٍ بعد ثلاثِ ليال، وأتاهما بهما حينئذ فارتحلا عليهما إلى المدينة[٤].

قال أبو بكر رضي الله عنه: فأحيينا[٥] يومَنا وليلتنا حتى قام قائم الظهيرة،

= ترد عند البخاري.

(١) في (أ): «بإخفاء»، وفي البخاري: (أَحَثَّ).

(٢) في (ر) و(ف): «فخلعت».

(٣) روى هذه الرواية إسحاق بن راهويه في «مسنده» (١١٦١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي إسناده انقطاع.

(٤) وردت هذه القطعة ضمن خبر طويل رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩) عن شيخه الواقدي من حديث ابن عباس وعلي وعائشة أم المؤمنين وعائشة بنت قدامة وسراقة بن جعشم رضي الله عنهم دخل حديث بعضهم في بعض.

(٥) في (ر): «فاختبينا»، والمثبت موافق لما في البخاري (٣٦٥٢) عن البراء بن عازب، وفيه: (فأحيينا أو سرينا)، وفي الرواية الأخرى (فأحثثنا).

فرميتُ ببصري هل أرى من ظلٍّ فنأويَ إليه، فرأيت صخرة فنزلناها، فنظرتُ بقية ظلِّها فسوَّيته وأخذتُ فروةً كانت معي ففرشتُها لرسول الله ﷺ وقلتُ: اضطجِعْ يا رسول الله حتى أنفضَ ما حولك، فإذا غلامٌ راعٍ قد أقبل في غنمٍ له يريد هذه الصخرةَ للظل، فقلتُ: لمن أنت يا غلام؟ قال: لرجل من قريش، وسمَّاه فعرفتُه، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، فقلت: هل أنت حالبٌ لي؟ قال: نعم، فأعطيته فحلب، وقد زويتُ لرسول الله ﷺ إداوةً من ماء[١]، فصبَبْتُ على اللبن حتى وجدتُ بردَ الماء من تحت الإناء، فأتيتُ بها النبيَّ ﷺ فوافَقْتُه قد استيقظ، فقلتُ: اشرب يا رسول الله، فشرب منه، ثم قلتُ: قد آن الرحيل يا رسول الله.

فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فأدركَنا سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

فلما دنا قِيدَ[٢] رمحين أو ثلاثةٍ قلت: هذا الطلب قد لحقنا، وبكيتُ، قال: «ما يبكيك؟» قلت: أنا واللهِ ما على نفسي أبكي، ولكن إنما أبكي عليك يا رسول الله، فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اكفِناه بما شئتَ»، فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها، فوثب عنها[٣] ثم قال: يا محمد! قد علمتُ أن هذا عملك، ادع الله على أن ينجيَني مما أنا فيه، فوالله لأعمِّين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ سهماً منها فإنك ستمرُّ على إبلي وغنمي بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، فقال له رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلك»، فدعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه.

---

(١) في البخاري (٣٦٥٢) عن البراء بن عازب: (وقد جَعَلْتُ لرسولِ اللهِ ﷺ إداوةً على فمها خِرقةٌ)، وفي الرواية الأخرى (ومعي إِدَاوةٌ من ماء عليها خِرقةٌ، قد روَّأْتُها لرسولِ الله ﷺ).

(٢) في (أ): «قدر».

(٣) في (ف): «من عليها».

وكانت قريشٌ جعلت لمن أخذَ محمداً وأبا بكر ديتَهما، وسمع سراقة رجلاً يقول: رأيت في الطريق سواداً أظنه محمداً، فخرج مختفياً على أن يأخذهما فكان ما كان.

وقال أبو بكر لعائشةَ رضي الله عنها: لو رأيتِني ورسولَ(١) الله ﷺ إذ صعدنا الغار، فأمَّا قدَما رسول الله ﷺ فتقطَّرتا دماً، وأما قدماي فغارتا كأنهما صفوانٌ، فقالت عائشة: إن رسول الله ﷺ لم يتعوَّد الحفية(٢).

ولو رأيتِنا ونحن نصعد في الغار مرةً هو أمامي ومرةً أنا أمامَه حتى سبقتُه إلى الغار، فدخلتُه فطلبتُ فيه حجراً فما وجدتُه، فألقمتُه عقِبي، فدخل رسول الله ﷺ عليَّ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن كانت لدغةٌ لدغَتْني أحبُّ إليَّ من أن تلدغَ رسول الله ﷺ(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو بكر: حين انتهينا إلى باب الغار فقلتُ: يا رسول الله! الغار موضعُ المكاره فدعني أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء مكروهٌ كان لي دونك، فدخل فرأى جِحَرَةً، وكان عليه بردٌ سابرٌ ثمينٌ، فخرقه وحشا تلك الجِحَرة، وبقي جِحران فسدَّهما بعقبيه وقال: ادخل يا رسول الله، فدخل(٤).

وجاءت العنكبوت فضربت على بابه بعِشَاشٍ بعضِها على بعضٍ، وأرسل الله تعالى زوجاً من حمامٍ حتى باضتا في أسفل الثقب، وأثبت الله على باب المغارة يمامةً(٥).

---

(١) في (أ): «لقد رأيتني ولرسول»، بدل: «لو رأيتني ورسول».

(٢) رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٠/ ٨١)، من حديث عائشة.

(٣) ذكره المقريزي في «إمتاع الأسماع» (٨/ ٣٢٨) وعزاه للواقدي، ولم أجده في المطبوع من «مغازيه».

(٤) لم أجده.

(٥) رواه مطولًا ومختصراً ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٢٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» =

ومكثا فيه لثلاثِ[1] ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام لَقِنٌ، فكان يرجع منهما[2] عند السَّحَر فيصبح مع قريشٍ بمكة فلا يسمع أمراً يَكيدون به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان عامر بن فُهيرة مولَى أبي بكر رضي الله عنه يأتي بمنحةٍ بالليل بعد العِشاء فيبيتان في منحته، فإذا أَسحر رجع[3].

وخرج الطلب من مكة، وقَفَوا آثارَهما إلى باب الغار ثم انقطع الأثر، فوقفوا على الجبل فوق الغار، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما»[4].

وقال واحدٌ: ندخل الغار، فقال أمية بن خلفٍ: ما أَرَبُكم إلى الغار؟ إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد، ثم جاء فبال في صَدْع الغار حتى سال بولُه بين يدي

= (٢٠/ ٤٤٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣) من طريق عون بن عَمرٍو القَيسيِّ، عن أبي مُصعبٍ المكِّيِّ قال: أَدركْتُ زيدَ بنَ أَرْقَمَ وأنسَ بن مالكٍ والمغيرةَ بنَ شعبةَ فسمعْتُهم يتحدَّثون: أنَّ النبيَّ ﷺ ليلةَ الغارِ...، فذكره، وعون ـ ويقال: عوين ـ بن عمرو القيسي، أعله العقيلي به وقال: لا يتابع عليه، وأبو مصعب المكي مجهول. وانظر: «نصب الراية» (١/ ١٢٣). وقصة نسج العنكبوت رواها أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٥١) بإسناد ضعيف كما ذكر محققوه، لكن قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/ ٤٥١) عنه: هذا إسنادٌ حَسَنٌ، وهو من أَجودِ ما رُوِي في قصةِ نَسْجِ العنكبوتِ على فمِ الغارِ.

(١) «لثلاث» ليست في (أ).

(٢) في (ف): «عنهما».

(٣) قوله: «وكان عامر بن فهيرة...» لفظ البخاري في الرواية (٣٩٠٥): (ويَرْعَى عليهما عامرُ بن فُهَيرةَ مولَى أبي بكر مِنْحَةً من غنمٍ، فيُرِيحُها عليهما حين تَذهبُ ساعةٌ من العِشاءِ، فيَبِيتان في رِسْلٍ، وهو لبنُ مِنْحَتِهما ورَضِيفِهما، حتى يَنْعِقَ بها عامرُ بنُ فُهَيْرةَ بغَلَسٍ، يَفعلُ ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك اللَّيالي الثَّلاثِ).

(٤) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

النبي ﷺ وأبي بكر، فنهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العنكبوت وقال: «إنها جند من جنود الله تعالى»[١].

وفي رواية قالوا حين رأوا العنكبوت وبيض الحمام: ولو دخلاه لانكسر البيض وتفسَّخ بيت العنكبوت، فانصرفوا[٢].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إن الله جلَّ جلالُه جعل رسوله أماناً لأهل الأرض بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ثم جعله في أمان العنكبوت حين نسج على باب الغار ليُعلم أنه من عند الله دون الأغيار.

وقالوا: إن للبقاع دولاً، متى خطر ببالِ أحد أن يصير ذلك الغار مثوَى سيد الأولينَ والآخِرين، ولكن الله عز وعلا يختصُّ بقسمته ما[٣] يشاء، كما يختص برحمته مَن يشاء[٤].

وفيه بيان فضل الصديق رضي الله عنه حيث[٥] جعله الله لرسوله صاحبَه،

---

(١) رواه أبو نعيم من طريق الواقدي: حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه عن النبي. انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (١/ ٣٠٦). والواقدي متروك كما أن الخبر منقطع. وليس في هذا الخبر قوله: «ثم جاء فبال في صدع الغار حتى سال بوله بين يدي النبي ﷺ وأبي بكر»، ولا يصح مثل هذا، لكن جاء في خبر طويل رواه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ١٠٦ ـ ١٠٧) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: (فقال أبو بكر لرجل يراه مواجه الغار: يا رسول الله إنه ليرانا، فقال: «كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها»، فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٥٤): رواه الطبراني وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٨ ـ ٤٩) عن الزهري.

(٣) في (ر) و(ف): «من»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٤) في (ر): «ثم يختص برحمته لما يشاء»، وليست في (أ) و(ف)، والمثبت من «اللطائف».

(٥) في (أ): «حين».

وعـدَّه ثانيَـه، ثم هـو في القبـر ضجيعُه وفـي الجنـة رفيقُه[١].

وقال رجل من الشيعة: ما ظنُّك في خمسة سادسهم جبريل؟ فقال أبو يوسف: ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما.

وقالت الروافض في قوله: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾: لا يخلو إما أن يكون حزنُ أبي بكر طاعةً أو معصيةً، فإن كان معصيةً ففيه نقصانه لا فضلُه، وإن كان طاعةً فلمَ نهاه رسول الله ﷺ؟

قلنا: لم يكن حزنُه سوءَ الظنِّ بربه تعالى، ولا استبطاءً لنصره، لكنْ شفقةً على رسول الله ﷺ وحبيبه، وكان[٢] ذلك شيئاً نشأ عن طبعه ولا نقصَ في مثله.

ثم نعارضهم بخوف موسى وهارون عليهما السلام، وقال الله تعالى لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ [طه: ٤٦] إلى آخر السؤال حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة[٣]، على أنهما قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾ [طه: ٤٥]، وليس في القرآن أن أبا بكر رضي الله عنه قال: إني أحزن، وقد قال أبو بكر رضي الله عنه في شعره:

قـال النبـيُّ ولـم أَجْـزع يـوقِّـرنـي ... ونحن فـي سُـدفةٍ مـن ظُلمـةِ الغـارِ
لا تَخْـشَ شيـئاً فـإنَّ الله ثالثُنا ... وقـد تكفَّـل لـي منـه بإظهـارِ
وإنمـا كيـدُ مَـن تَخشَـى بـوادرَه ... كـيدُ الشـياطين قـد كادَتْ بكفَّـارِ

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٧).

(٢) في (ف): «أو كان»، وفي (ر): «ولكن».

(٣) أي: كما تُقَدَّر كلُّ واحدةٍ منهما على قَدْر صاحبتها وتُقْطَع، يُضرب مَثَلاً للشيئين يستويان ولا يَتفاوتان. والقُذَّة واحدة القُذَذ: وهي رِيشُ السهم، ومنه الحديثُ: «لتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة». انظر: «النهاية» (مادة: قذذ).

والله يهلكهم طرًّا بما صنعوا وجاعلُ المنتهَى منهم إلى النارِ(١)

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لَا تَحۡـزَنۡ﴾ ليس بنهي عن الحزن، بل هو على تخفيف الأمر عليه وتيسيرِ الحالة التي هو عليها(٢).

وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وكما قال النبيُّ ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه، فقد قال لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحجر: ٨٨] ولم يكن حزنه معصيةً بل كان شفقةً، فهذا مثله.

وقال القشيري رحمه الله: كان حزنُه لا لنفسه بل لله عز وجل؛ لأنه قال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحۡـزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وحزنٌ لا يذهب إلا بمعية الحق ما يكون إلا بحق الحق(٣).

***

(٤١) ـ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾: هو نصب على الحال، والخِفَاف: جمع خفيف، والثِّقال: جمع ثقيل.

---

(١) ذكر الأبيات عن أبي بكر رضي الله عنه ابن إسحاق فيما رواه عنه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ٨٥ ـ ٨٦)، وأوردها الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٨)، والسهيلي في «الروض الأنف» (٤/ ١٤٢) (ط: إحياء التراث)، والكلاعي في «الاكتفاء» (١/ ٢٩٠)، ومعنى يوقرني: يسكنني ويهدئني. وأسدف الليل: إذا أرخى ستوره وأظلم. وفي بعض المصادر (سُدَف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٧٤).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٨).

وقال الحسن ومجاهد والضحاك: أي: شبَّاناً وشيوخاً.

وقال أبو صالح: أي: أغنياء وفقراء.

وقال الحكَم: فارغين ومشاغيل.

وقال ابن عباس وقتادة: نِشاطاً وغيرَ نِشاطٍ، بكسر النون: جمع نشيط.

وقال أبو عمرو: ركباناً ومشاة.

وقال ابن زيد: ذا ضيعةٍ وغيرَ ذي ضيعةٍ(١)، وحملتُه على حالٍ يخفُّ فيه النَّفير أو على حالٍ يثقُل فيه النفير.

وقال مرَّة الهَمْداني: أصحَّاءَ ومرضَى.

وقال [حضرميٌّ]: إن ناساً كان بعضهم عليلاً وبعضهم كبيراً فقالوا: لا إثم علينا، فنزلت الآية.

وقال يمان بن رئابٍ: عزَّاباً ومتأهِّلين.

قال [محمد]: وشهد أبو أيوبَ الأنصاريُّ بدراً ثم لم يتخلَّف عن غزاةٍ إلا عاماً واحداً ثقُل مدةً، ثم تكلَّف وخرج، وقال: قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ولا أجدُني إلا خفيفاً أو ثقيلاً(٢).

وخرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك

---

(١) في (أ) و(ف): «ذا صنعة أو غير ذي صنعة»، وهو تحريف.

(٢) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٦٨ ـ ٤٧٣)، وما بين معكوفتين منه. عدا قولي مرة الهمداني ويمان بن رئاب فذكرهما الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٩). وحضرمي قال ابن المديني: شيخ بالبصرة روى عنه التيمي، مجهول وكان قاصًّا، وقال أحمد: لا أعلم يروي عنه غير سليمان التيمي. قاله في «التهذيب». ومحمد: هو ابن سيرين.

عليلٌ صاحب ضر فقال: استنفَر الله الخفيفَ والثقيل، فإن لم يمكنِّي الحربُ كثَّرتُ السوادَ وحفظتُ المتاع[١].

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي: مِن تَرْكه.

وقيل: ليس هذا للتفضيل، بل لإثبات أصل الخير؛ أي: ذلكم صلاحٌ وخيرٌ لكم، وتركُه فساد وشرٌّ لكم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي: الخير والشر.

وقيل: أي: إن كنتم تعلمون صدقَ الوعد على فعله وصدقَ الوعيد على تركه.

وقيل: أي: إن كنتم تعملون بما تعلمون.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا﴾؛ أي: في حالِ حضور قلبكم فلا يمسُّكم نَصَبُ المجاهدات ﴿وَثِقَالًا﴾ إذا رُددتم إليكم في مقاساة تعبِ المكابَدات، فإن البيعة أُخذت عليكم[٢] في المنشَط والمكرَه.

﴿خِفَافًا﴾ إذا كنتم محمولين في حال الجمع ﴿وَثِقَالًا﴾ إذا كنتم متحمِّلين في أوان التفرقة.

﴿خِفَافًا﴾ إذا تجرَّدتُم عن رِقِّ المطالبات ﴿وَثِقَالًا﴾ إذا كان على قلوبكم ثقلُ الحاجات[٣].

* * *

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٩) عن الزهري قال: خرج سعيد بن المسيب... فذكره.

(٢) في (أ) و(ر): «منكم».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٩).

(٤٢) ـ ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ﴾: أي: لو كان المدعوُّ إليه ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾؛ أي: شيئاً من متاع الدنيا قليلاً لا بقاء له[1].

وقيل: أي: غنيمةً قَرُب مُتناوَلُها، كما قال في غنائم بدر: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾: أي: سهلاً وسطاً من الأسفار ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾؛ أي: هؤلاء المنافقون المعتلُّون بعللٍ لاتبعوك إلى حيث قصدت.

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾: أي: المسافة.

وقيل: هي قطعة من الأرض يَشُقُّ سلوكها على صاحبها لبُعدها.

فلما لم يكن خروجُهم لرضى الله تعالى بل لأجل نفع الدنيا تعلَّلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾: أي: لو كان لنا زادٌ وراحلةٌ لخرجنا على موافَقتكم، وهي استطاعةُ سلامةِ الآلات وتهيُّؤ الأسباب فإنها تتقدم الفعل، فأما الاستطاعةُ التي يقع الفعل بها فإنها مع الفعل عندنا، ولا متعلَّق للقدرية فيها؛ لِمَا قلنا: إن المراد بها استطاعة الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: أي: يُوْرِدونها نارَ جهنم بكذبهم.

---

(١) «لا بقاء له» تحرفت في (ف) و(أ) إلى: «لأثقاله».

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾: أنه[1] لا استطاعة لهم، وهو ما ذكرنا من سلامة الآلات وتهيُّؤ الأسباب؛ أي: فلا تَقبلوا لهم عذراً.

و﴿إِنَّهُمۡ﴾ لم تنتصِب بوقوع[2] العلم عليها لمكان اللام بعدها.

وقال مجاهد: إنهم لكاذبون فيما يقولون: ﴿لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ ليس في قلوبهم ذلك.

وقال قتادة: هم جماعة من المنافقين منهم جدُّ بن قيس ومعتِّب بن قُشير.

ودلت الآية على صدق النبيِّ ﷺ في دعوى الرسالة؛ لأنه أَخبر أنهم سيَحلفون كذا، وكان[3] كما أخبر، وذاك لا يعلمه إلا العالِمُ بالعباد عالمُ الغيب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾؛ أي: لو كان نفعاً حاضراً أو غائباً من منافع الدنيا لاتبعوك، فإن صفتهم كانت اتِّباعَ المنافع، وقال الله تعالى في صفتهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ الآية [الحج: ١١].

وقال في قوله تعالى: ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾: قيل: يُظهِرون نفاقَهم بترك الخروج، كقوله تعالى: ﴿مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦١][4].

وقال القشيريُّ رحمه الله: كان ذلك تعليلاً فاسداً من أهل النفاق، وكذا مَن كان غيرَ متحقِّقٍ في قصدِه غيرَ مُبالِغ في جهده، وأنشدوا:

وكـذا الـمَلولُ إذا أراد قطيعةً ... مـلَّ الوصـالَ وقـال كان وكان

ومَن جدَّ في الطلب لم يعرِّج في أوطان الفشل، يصلُ السَّير بالسُّرى ولم يبالِ من مقاساة العناء:

---

(١) «أنه» من (أ).

(٢) في (أ) و(ر): «لوقوع» والمثبت من (ف) وهو الصواب.

(٣) في (أ): «أو كذا».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٧٨).

ثـم قطعـتُ الليـلَ فـي مَهْمَـهٍ لا أسـداً أخـشـى ولا ذئـبـا
يغلبُنـي شـوقي فأطـوِي النَّوَى ولـم يَـزَلْ ذو الشـوقِ مغلوبا[١]

* * *

(٤٣) ـ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ قـال الحسـين بـن الفضل: هـذا من لطيف المعاتَبـة، ولـو لـم يفتتح الخطـاب بالعفـو لَمَا كان يقـوم بقولـه: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، فطيَّب الله نفسـه بتصديـر العفو[٢].

وقال القفَّال: ذكَر الله في هذه الآية والآياتِ التي بعدها أحوالَ مَن تخلَّف عن غزوة تبوك وخلَّف غيره، وحلَّاهم بأوصافهم، وأذاع[٣] بذكرهم حتى عرَفهم المسلمون، وذكَر أيمانَهم وحجَجهم ومعاذيرهم الباطلة.

والمراد من ذلك والله أعلم: أن تكون أوصاف مَن بعدهم من أهل النفاق مقرَّرةً عند العلماء مخلَّدةً في كتاب الله تعالى، يُعرَف بما يوجد منها في الأخلاف[٤] نفاقُ المنافقين منهم إذ كان فاتهم زمانُ النبوة وانقطع الوحي، فإذا عرفوهم بأوصافهم لم يغترُّوا بظواهرهم ولم يأمنوهم على أنفسهم ودينهم.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٠).

(٢) في (أ): «بتقديم العفو»، وفي (ر): «بتصديق العفو»، والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في «البسيط» للواحدي (١٠/ ٤٥٤).

(٣) في (ر) و(ف): «وبدأ».

(٤) في (أ) و(ر): «الأخلاق».

وقوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾: أي: في التخلف عن الغزو ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمِل: حتى يُطلعكَ الله على نفاقهم فيكونَ ذلك آيةً من آيات النبوة إن لم تأذن لهم بالتخلُّف، أو[1] إنْ لم تأذن لهم يتبيَّن لك نفاقهم؛ لأنهم يتخلَّفون عنك ويفارقونك وإن لم تأذن لهم، والذين صدَقوا لا يفارقونك، فيتبيَّن لك هؤلاء من هؤلاء، ويظهر كذب المنافقين من صدق المؤمنين.

قال: وفيه دليل أنَّ النبي ﷺ أذِن لهم بالتخلف[2] بالاجتهاد لا بالأمر، إذ لو كان بأمرٍ لم يُعاتَب عليه، ووقع في اجتهاده أنهم معذورون فأذن لهم، ثم إنما عوتب مع أنه اجتهد ـ وله ذلك ـ لأنه ترَكَ الأفضلَ، وهو تركُ الإذن حتى يتبيَّن له الصادق من الكاذب، وعِتابُ الأنبياء يكون على ترك الأفضل مع فعل الفاضل[3].

* * *

(٤٤) ـ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي: أنْ لا يجاهدوا؛ كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: لا يستأذنك في التخلُّف بغير عذرٍ مَن كان يؤمن بالله فيطيعه بالأمر بالجهاد، وباليوم الآخر فيرجو فيه ثواب الجهاد، والله عليم بمن يتَّقيهِ ولا يخالف أمرَه بالجهاد ولا يتخلَّف عنه.

---

(١) في النسخ: «و»، والمثبت من «التأويلات».

(٢) في (ر) و(ف): «في التخلف».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٧٩).

(٤٥) - ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾: بالتخلُّف[1] من غير عذرٍ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فلا يرون لله طاعةً، ولا يرجون في القيامة مثوبة ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: شكَّت في حقيقة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾: أي: يتقلَّبون[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذكر الله تعالى[3] هذا في المنافقين الذين يستأذنون من غير[4] عذرٍ ذمًّا لهم، فأمَّا المؤمنون الذين لهم عذرٌ فقد قال الله تعالى في حقِّهم: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ الآية [النور: ٦٢][5].

وقال مقاتل: كان المستأذنون من المنافقين تسعةً وثلاثين رجلاً[6].

وقال محمد بن إسحاق: أَذِن لقوم كانوا من ذوي الشرف، فيهم عبد الله بن أبيٍّ والجدُّ بن قيس، لعِلمه أنهم إن خرجوا أفسدوا عليه الجند[7].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: حسناتُ الأعداء مردودة، وسيئاتُ الأحباب مغفورة[8]، وأنشدوا في معناه:

---

(١) «بالتخلف» ليست في (أ).

(٢) «أي: يتقلبون» ليست في (أ).

(٣) «ذكر الله تعالى» ليست في (أ).

(٤) في (ر): «بغير».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٦).

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٧٢).

(٧) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٤٩ - ٥٥٠).

(٨) في (أ): «معقودة»، والمثبت من باقي النسخ و«اللطائف».

مَـن ذا يؤاخـذُ من يحـبُّ بذَنْبه وله شـفيعٌ فـي الفؤاد مشـفَّعُ[١]

***

(٤٦) ـ ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُـرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَـرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَـاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُـدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُـرُوجَ﴾: أي: معكم للغزو ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ﴾؛ أي: لهيَّؤوا للخروج ﴿عُدَّةً﴾؛ أي: أُهبةً، قرأ عبد الله بن شداد: (عِدَّةً) بكسر العين[٢]؛ أي: جماعةً من الآلات والقوة قبل وقت الخروج كإعداد المسلمين ذلك.

قال القشيري رحمه الله: تعالى لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة، ولكن سَقمت إرادتُهم فحصلت دون الخروج بلادَتُهم، ولذلك قيل:

لـــو صـــحَّ منـــك الهوى[٣] أُرْشِـــدْتَ فـــي الحِيَـــلِ[٤]

وقـوله تعالـى: ﴿وَلَـٰكِن كَـرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَـاثَهُمْ﴾ أي: لـم يـرضَ الله تعالى بخروجهم وانبعاثهم[٥]، وهو الانطلاق بسرعة، يقال: بعَثْتُه فانْبَعَث.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: والوجه الذي لم يرضَ به هو ما ذكره بعده: ﴿ لَوْ خَـرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَـالًا ﴾ الآية[٦].

وقولـه تعالـى: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: أي: ثقَّلهـم عن الخروج وحبَسـهم، وقـد ثَبِط من

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣).

(٣) في (ف): «الهدى».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣١).

(٥) «أي: لم يرض الله تعالى بخروجهم وانبعاثهم» من (ر).

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٨٠).

حدِّ عَلِم؛ أي: ثَقُل، وثبَّطه غيرُه تثبيطاً، وفيه دلالةُ خلق الله تعالى أفعالَ البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾: أي: العجزةِ المتخلِّفين من الزَّمْنَى والنساء[1] والصبيان والمجانين، وهذا الأمر يحتمِل أن يكون من النبيِّ عليه السلام حيث استأذنوه فأَذن لهم ظنًّا أن لهم عذراً، وهو ما قال في هذه السورة: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾؛ أي: هو من الله تعالى لهم على[2] التهديد والتوعيد؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

أو الشيطان وسوس لهم وزيَّن في قلوبهم ذلك ودعاهم إليه.

أو قال بعضهم ذلك لبعض.

أو معناه: أقعَدْناهم، وهو إخبار بلفظة الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وقال القشيري رحمه الله: إن الله سبحانه بأمر التكليف دعاهم، ثم بأمر التكوين ثبطهم وأقصاهم[3].

* * *

(٤٧) ـ ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾: أي: فساداً، وليس معناه أنهم كانوا في فساد والمنافقون زادوا في فسادهم، لكن معناه: لو خرجوا فيكم ما

---

(١) «والنساء» من (ف).

(٢) في (ر): «من»، وفي (ف): «في».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٢).

زادوكم قوةً، ولكن أوقعوا فساداً بالتجبين والتهويل من الكفار، وترديدِ الرأي، وتزيينِ الأمر لفريق وتقبيحِه عند فريق[1] ليختلفوا بتفرق كلمتهم لا ينتظم أمرهم.

وقال مُرَّة الهَمْداني: ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾؛ أي: غشًّا[2].

وقال يمان بن رِئابٍ: إلا مكراً[3].

وقال عبد الرحمن بن زيد: إلا شماتةً بكم[4].

وقال عطاء: إلا ضعفاً وجُبناً[5].

وقوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾: هي لام القسم، وأَوْضَعَ تعديَةُ وَضَع؛ أي: أسرع، قال الشاعر:

يــا ليتنــي فيهــا جَذَعْ أخُـبُّ فيها وأَضَـعْ[6]

ومفعوله مضمَرٌ؛ أي: ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ الإبلَ ﴿خِلَالَكُمْ﴾؛ أي: فيما بينكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ [النمل: ٦١]؛ أي: لحثُّوا الإبل مسرعين فيما بينكم في النميمة وإفساد ذاتِ البَين والتخليط.

وقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾: أي: يطلبونكم، والفتنة: المحنة، وأصله: إخراج خَبَث الذهب بالنار.

---

(١) في (ر): «وتقبيحه لفريق».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٦٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) الذي رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٧)، عن ابن زيد يفيد أن المعنى على قوله: إلا تخذيلاً.

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٦٥) عن ابن عباس.

(٦) البيت لدريد بن الصمة. انظر: «ديوانه» (ص: ٩٣)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٣٩).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الفتنة الشرك[١]، ويحتمِل القتلَ وإدخالَ الفشل والجبنِ فيهم.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾: يحتمِل: ولأَدْخلوا رواحلَهم بينكم حتى لا يصيبَهم الأذى، كانوا يتستَّرون بالمسلمين لئلا يصيبَهم البلاء والشدة[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾: قال قتادة: أي: وفي عسكركم مَن يسمع قولَهم[٣] اغتراراً بظاهر أحوالهم في التنصُّح[٤] للمسلمين، فينصرفُ عن القتال فيقتدي به غيرُه فيرجع.

وقال مجاهد وجماعة: وفيكم جواسيسُ للمنافقين ينقلون إليهم منكم ما يسمعون فيكم[٥].

وقال قتادة[٦]: وفيكم من المؤمنين أهلُ محبةٍ لهم يطيعونهم ويقبَلون قولهم لشرفهم فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: المنافقين، فيكشف لكم عن مكنون سرائرهم لتحذَروهم.

---

(١) في (أ): «يحتمل الفتنة الشرك»، وفي «التأويلات»: (قيل: يبغون منكم الفتنة، وهو الشرك الذي كانوا هم عليه).

(٢) في (ر): «الأذى والشدة». والمثبت من باقي النسخ و«التأويلات». انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٨١ـ٣٨٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٨٦).

(٤) في (ف): «التنصيح».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٨٦) بلفظ: (يُحَدِّثون بأحاديثكم، عيونٌ غيرُ منافقين).

(٦) كذا قال، وهذا القول مذكور في المصادر عن ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٥٠)، «تفسير الطبري» (١١/ ٤٨٦)، و«البسيط» (١٠/ ٤٧٤).

وقيل: أي: عليمٌ بمن يوجِّه أفعاله عن(١) وجوهها ويضعُها غيرَ موضعها.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: لا عن جهلٍ أَمهَلهم على ما هم عليه، لكنه أخَّرهم ليومٍ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢](٢).

وقال القشيري رحمه الله: أَخبر الله تعالى في هذه الآية عن سابق علمه فيهم، وذكَر ما عَلِم أنه لا يكون أنه(٣) لو كان كيف كان يكون.

وقال: لو ساعدوكم في الخروج لكان يَلحقُكم من سوء سيرتهم في التضريب بينكم والنميمةِ فيكم والسعي فيما يسوؤكم أكثرُ مما ينالكم بتخلُّفهم من نقصان عددكم، ومَن ضرُّه أكثرُ مِن نَفْعه فعَدَمُه خيرٌ مِن وجوده، ومَن لا يَظهر مِن حضوره غيرُ شروره فتخلُّفُه خيرٌ من حضوره(٤).

***

(٤٨) ـ ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾: في الوقائع، منها في حرب الخندق بقولهم: ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣]، وفي حرب أحدٍ بانصراف ابن أبيٍّ بأصحابه وهم ثلاثُ مئة، وبقي النبيُّ ﷺ في أصحابه وهم(٥) سبعُ مئة، وقد

---

(١) في (ف) و(أ): «غير».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٨٢).

(٣) في (ف): «وأنه»، وفي «اللطائف»: (أنْ).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٢).

(٥) «أصحابه وهم» ليس في (أ).

مرت القصة، وليلةَ العقبة[١] بإلقاء شيء بين قوائم ناقةِ النبيِّ ﷺ بالليل حتى تَنْفرَ وتُلقيَ النبيَّ ﷺ، ووقوف اثني عشرَ منافقاً ليلتئذٍ على الثنيَّة ليَفتكوا بالنبيِّ ﷺ وأخبره الله تعالى بذلك[٢]، وبتجبين المؤمنين في الغزوات.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾: أي: صرَّفوا [٣] فيك الآراء والحِيَل.

وقيل: بغَوا لك الغوائل.

وقيل[٤]: قد مكَروا بك ليُثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾: أي: الإسلام ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾؛ أي: كثُر المؤمنون، وقيل: أي: نصَرهم[٥] الله ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾؛ أي: المنافقون كارهون ظهورَ الدِّين ونصرَ المسلمين.

وقيل: قوله[٦]: ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ أن[٧] يَقْوَى أمرك ويكثُر أنصارك لم ينفذ لهم فيك شيءٌ، فكيف اليوم وقد ظهرت قوتُك وكثرت شيعتُك؟

وقال محمد بن إسحاق: لمَّا خرج النبيُّ ﷺ إلى تبوك ضربَ عسكره على ثنيةِ الوداع، وضرب عبد الله بن أبيٍّ عسكره أسفلَ منه على [حِدَةٍ بحذاءِ ذُبابٍ] جبلٍ

(١) ليست هذه العقبة المشهورة في بيعة الأنصار للنبي ﷺ، لكنها قصة أخرى ستأتي في هذه السورة.

(٢) هي قصة العقبة السابقة وستأتي في هذه السورة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾.

(٣) في (ف): «وضربوا».

(٤) «قيل» من (أ).

(٥) في (ف): «نصر».

(٦) في النسخ: «قولهم»، والصواب المثبت.

(٧) «من قبل أن» ليس في (أ) و(ف).

بالجبانة[١] أسفلَ من ثنية الوداع، فلما سار رسول الله ﷺ تخلَّف ابن أبيٍّ، وعبد الله ابن نبتلٍ، ورِفاعةُ بن التابوت، وأبو زيد[٢]، وأوس بن قيظيٍّ وجماعةٌ من عظمائهم فنزلت هذه الآية[٣].

***

(٤٩) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ أي: ومن المنافقين مَن يقول: ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ في التخلُّف ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾؛ أي: ولا تُوْقِعني في الفتنة؛ أي: الكفر.

﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾: أي: قد وقعوا في الكفر قبل هذا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مشتمِلةٌ عليهم لا يخرجون منها.

وقيل: أي: جامعةٌ للمنافقين وسائرِ الكافرين؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال محمد بن إسحاق: قال النبيُّ ﷺ لجدِّ بن قيس المنافقِ: «هل لك في جِلَاد بني الأصفر؟» يعني: الروم، فقال: يا رسول الله، ائذَنْ لي ولا تفتنِّي، فوالله قد

---

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير الطبري» و«تاريخه»، وفي «السيرة»: (على حدة نحو ذباب).

(٢) في (ر): «وأخو زيد»، ولم يرد في كتابي الطبري، وفيهما: ورفاعة بن زيد بن التابوت أخو بني قينقاع. ومن قوله: «وعبد الله بن نبتل...» إلى آخر الخبر لم يرد في «السيرة».

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥١٩)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦) تحقيق محمود شاكر، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٨٢)، ونزول الآية في هذه القصة لم يذكره ابن هشام في «السيرة» عن ابن إسحاق، لكن رواه الطبري من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن البصري.

عرفَ قومي ما رجلٌ أشدَّ عُجْباً بالنساء منِّي، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر ألَّا أصبرَ عنهن! فأَعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنتُ لك»، ونزلت الآية[1].

وقيل: أراد بالفتنة الردَّةَ إذا دعَوه [2] إلى النصرانية.

وقيل: أراد به: إنَّا عسى أن نُواقعهنَّ قبل القسمة فوقعنا في الفتنة؛ أي: الإثم.

وقيل: أراد به: إنَّا نشتغل بهنَّ ونُفتَتنُ بهن فيشغلُنا ذلك عن طلب المعاش وعن الخروج للجهاد.

وأيَّ ذلك أراد لم يَعذره[3]، وبيَّن أنه قد وقع في الفتنة لمخالفة النبي ﷺ.

قال أبو العالية: كان الأصفرُ رجلاً من الحبشة ملَك الروم فوُلدت له بناتٌ لُعْسٌ [4] لم يُرَ مثلُهن في الحسن.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أَبرَزَ القوم قبيحَ فعالهم[5] في مَعرِض

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٥١٦)، و«تفسير الطبري» (١١/ ٤٩٢)، و«تفسير الثعلبي» (٣/ ٢٠٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٧ ـ ٢٤٨). وقد رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري عن الزهري وجماعة من أشياخه مرسلاً، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٩) متصلاً من طريق بن إسحاقَ ثنا سعيدُ بنُ عبد الرحمن بنِ حسانَ بنِ ثابتٍ عن جابر بن عبد الله قال: سمعْتُ رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ يقول لجَدِّ بنِ قيسٍ.. فذكره. ورواه بنحوه الطبراني في «الكبير» (١٢٦٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده يحيى الحماني وهو ضعيف كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٠).

(٢) في (ف): «دعونه».

(٣) في (أ) و(ر): «لم يُعذر».

(٤) جمع لعساء، وهي التي في لونها أدنى سواد مشربة من الحمرة. انظر: «القاموس» (مادة: لعس).

(٥) في (ر): «قبح أفعالهم».

التحرُّج(١)، وراموا التلبيسَ على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين سوءَ سيرتهم وخبثَ سريرتهم، فبيَّن الله تعالى أن الذي فرُّوا منه بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم(٢).

* * *

(٥٠) - ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾: أي: إنْ تنَلْك غنيمةٌ ونصرٌ وعافيةٌ(٣) كما كانت يوم بدر يحزُنهم ذلك؛ أي: هؤلاء المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾: أي: نكبةٌ وهزيمةٌ، وقيل: كما كانت يوم أحد.

﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾: أي: قد كنَّا أخذنا حِذْرنا واحتطْنا لأنفسنا بالتخلُّف عنهم، وأخذنا أمرنا بالوثيقة.

﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾: مسرورون بما أصاب المسلمين.

* * *

(٥١) - ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾: قال الكلبي: أي: قل يا

---

(١) في (ر): «التحريج»، وفي (ف): «التخريج»، وفي مطبوع «اللطائف»: (التخرج)، والمثبت من (أ) ولعل المراد به: ادعاء التحرج إزاء بنات بني الأصفر للهروب من الخروج.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٣).

(٣) في (ر): «ونصرة وعافية»، وفي (ف): «ونصر وعاقبة».

محمد لهؤلاء المنافقين: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا في اللوح المحفوظ[١].

وقال الضحاك: إلا قضاءُ[٢] الله تعالى وقدرُه علينا.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: إلا ما جاء به القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآية [التوبة: ١١١][٣].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: مالكُنا ونحن عبيدُه.

وقال الكلبي: هو ناصرُنا على عدونا[٤]، وفي رواية عنه قال: هو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة[٥].

وقيل: هو وليُّنا.

وقيل هو متولِّي أمورنا وكافينا[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: أي: فلْيَثِقْ به الموحِّدون.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا علم العبد أن ما أصابه فبإرادةِ مولاه سقط عن قلبه ما يهواه، واشتغل بروحِ رضاه، وعذُبَ عنده ما صعُبَ من بلواه، وأنشدوا في معناه:

إن كان يرضيكـمُ مرضـاةُ حاسدِنا[٧] فمـا لجـرحٍ إذا أرضاكـمُ ألـمُ

---

(١) انظر: «البسيط» (١٠/ ٤٨٠).

(٢) في (أ): «قضاه» وفي (ف): «قضاء» بدل: «إلا قضاء».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٨٦).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٨٢) عن ابن عباس، فلعله مما روي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٥٣).

(٦) في (ر): «وكفايتنا». والكلام من قوله: «وقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾» إلى هنا سقط من (أ).

(٧) في «اللطائف»: (إن كان سركم ما قال حاسدنا).

وقال: شهودُ جريانِ التقدير يخفِّف على العبد كلَّ عسير.

وقال: أول التوكُّل الثقةُ بوعده، ثم الرضا باختياره، ثم نسيان أمورك بما يغلب على قلبك من أذكاره.

وقال: بداية التوكُّل سكونُ السرِّ عند حلول الأمر، ونهايتُه التفويضُ وهو استواءُ الحلو والمرّ والنعمة والضرّ[١].

* * *

(٥٢) ـ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: ﴿هَلْ﴾ استفهامٌ بمعنى النفي، والتربُّص: الانتظار، و﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: تثنيةُ الحُسنى، والحُسنى تأنيثُ الأحسن، والأحسنُ تفضيلُ الحسَن، وأريد به نعتُ الحالتين أو الخصلتين.

ومعناه: قل يا محمد: ما تنتظِرون يا معشر المنافقين بنا إلا واحدةً من خَصلتين، وكلُّ واحدة منهما نهايةٌ في الحُسن غايةٌ فيما يُحمد في العاقبة[٢]، وهي الغنيمة أو الشهادة، فليس مما يجري علينا من جهتكم موضعُ شماتة.

قال الكلبي: ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: النصر أو الشهادة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: إمَّا أن نُقتَلَ ففيه الحياةُ والرزقُ، وإمَّا أن نَغلِب فيؤتِيَنا الله أجراً عظيماً، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤][٣].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٣ ـ ٣٤).

(٢) في (أ): «من العافية».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٩٧).

وقال الحسن: هي الغنيمةُ في الدنيا والجنةُ في الآخرة.

وقال ابن كيسانَ: شهادتُنا، أو إسلامُكم بدعوتنا.

وقال الإمام أبو القاسم بن حبيب: سألني بعضهم: كيف قال: ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ والمؤمن ينتظِر كلتا الحسنيين: الفتحَ في الدنيا والثوابَ في الآخرة بوعدِ الله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ [الصف: ١٠] إلى قوله: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]؟

فقلت: هذا خطاب المنافقين، وكانوا يتربَّصون بالمؤمنين أحدَ الأمرين: إما أن يُنصروا، وإما أن يُقتلوا، فأَخبر أنهم إن غَلبوا كانت لهم حُسنى وإن غُلبوا فكذلك، وأما المؤمنُ فإنه ينتظر في الجهاد كلتا الحسنيين.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾: قال ابن جريج: ﴿مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾: الموت ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾: القتل[١].

وقال الكلبيُّ: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ مما[٢] أصاب الأممَ الخالية[٣]، وبما شاء الله من العذاب والنقمة ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾: بالسيف.

وقال ابن كيسان: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾[٤] فيعاقبَكم في الدنيا في أنفسكم وفي الآخرة بالنار ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ إن أظهرتم ما في قلوبكم قتلناكم[٥].

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾: قال الكلبيُّ: أي: انتظِروا هلاكنا فإنا ننتظر هلاككم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٩٧) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع.

(٢) في (أ): «بما».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٨٥) بلفظ: (كما أصاب...).

(٤) في (أ) و(ف): «بعذاب الله من عنده».

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٨٥).

وقال الحسن: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ مواعيد الشيطان، فإنه كان يمنِّيهم موتَ النبيِّ ﷺ؛ قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ مواعيدَ الله من إظهار دينه واستئصال مَن خالفه[١].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إن ظفرنا بكم فنصرٌ وغنيمة، وإعزازٌ للدِّين ورفعة، وإن قُتلنا فشهادةٌ ورحمة، ورضوانٌ من الله وزلفة، وإن أصابتنا هزيمةٌ ونكبة، فذلك سبب لنيل الأجر والمثوبة، فإذاً لا يستقبلنا إلا ما هو حسن ونعمة[٢]، وأما أنتم فإنْ ظفرنا بكم فتعجيلُ ذلٍّ لكم ومحنة[٣]، وإن قُتلتم فعقوبةٌ من الله وسَخطة، وإن كانت لكم اليدُ في الحال فخذلانٌ من الله وتخلية، وسببُ زيادة عذابٍ ونقمة[٤].

* * *

(٥٣) ـ ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾: ﴿أَنفِقُوا۟﴾ أمرٌ صيغةً ومعناه الشرط؛ كقول الشاعر:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مَقْليَّة إنْ تَقَلَّتِ[٥]

كأنه قال: إن أسأتِ أو أحسنتِ لا[٦] تلامي، فكذا هذا: إن أنفقتُم طوعاً بالاختيار

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٥٣)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٨٥).

(٢) في (ر): «إلا ما هو حسنى».

(٣) في (ر) و(ف): «فتعجيل ذلك لكم»، وفي «اللطائف»: (فتعجيل لذلّكم ومحنة).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٤).

(٥) البيت لكثير عزة، وهو في «ديوانه» (ص: ٨٠)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٤١)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٥٠٦).

(٦) في (أ): «لن».

أو كرهاً بالإجبار لن يُتقبل منكم؛ لأنكم كنتم في القِدَم[١] فاسقين منافقين خارجين عن الطاعة والإخلاص، وإنما يتقبل الله من المتقين، وطوعُ المنافق لا يكون لرجاء ثواب الله ولطلب رضا الله، لكن ما يفعله بطبعه فهو من طوعه، وكرهُه ما يُطلب منه ويُجبر عليه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في جَدِّ بن قيس حيث قال: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ وأُعِيْنُك بمالي، فنزلت هذه الآية[٢].

وقال القشيريُّ رحمه الله: المردود لا يُقبل منه توسُّلٌ، ولا يغيِّر حكمَ شقاوته تكلُّفٌ ولا تعمُّل.

وقيل: تقرُّبُ العدو يُوجب زيادة المقت، وتحبُّبُ[٣] الحبيب يُوجب زيادةَ العطف، قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠][٤].

* * *

(٥٤) ـ ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾: (مَنَع) يتعدَّى إلى مفعولين، تقول: منعتُ زيداً مرادَه، وهاهنا أحدُ المفعولين: هم، والثاني: ﴿أَن تُقۡبَلَ﴾

---

(١) في (ف): «القديم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٩٩) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع.

(٣) في (ر) و(ف): «وتحية»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٤).

لأنه في معنى المصدر، وتقديره: وما منع المنافقين قبولَ نفقاتهم في سفرهم معك وفي غير ذلك طوعاً أو كرهاً إلا كفرُهم بالله وبرسوله، وهو رفعٌ لأنه فاعل.

وكما لا تُقبل نفقاتهم لا تُقبل صلاتهم لكفرهم، وهم لنفاقهم لا يأتونها إلا متثاقِلين؛ لأنهم لا يرجون بأدائها ثواباً ولا يخافون بتركها عقاباً، ولا ينفقون شيئاً إلا على كراهةٍ منهم.

ثم ذمُّهم على الكسل مع أنه لا صلاةَ لهم ذمٌّ على النفاق الذي يَبعث على الكسل، وفَقْدِ الإيمان الذي يَبعث على النشاط.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: فقَدوا الإخلاص في أعمالهم فعَدِموا الاختصاصَ في أحوالهم، وحُرِموا الخلاص في عاجلهم ومآلهم[١].

* * *

(٥٥) ـ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: فيه تقديم وتأخير؛ فلا تعجبْك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة[٢].

وقال الحسن: هي على نَظْمها، ومعناه: يعذبهم بها في الدنيا بأخذ الزكَوات منهم بغيرِ طيبةِ نفسٍ منهم، والإنفاق في سبيل الله كذلك.

وقال [ابن] زيد: أي: بالمصائب[٣].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٥).

(٢) «إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة» ليس في (ف).

(٣) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١).

وقيل: أي: بكونهم مكظومين، وقد غصُّوا[1] بما يُضمِرونه من النفاق ويَرونه من علوِّ المسلمين عليهم، ولا سبيل لهم إلى إظهار ما في نفوسهم[2].

ومعنى قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾؛ أي: أن يعذِّبهم.

وقيل: فيه إضمار: إنما يريد الله أنْ يمليَ لهم فيها ليعذِّبهم[3]، وإنْ حُملت الآية على المشركين فتعذيبُهم في الدنيا قد يكون بالسبي والاستغنام.

وقوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾: أي: تخرجَ أرواحهم ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: حالَ الكفر.

وقيل: ﴿تَزْهَقَ﴾: تذهب، قال تعالى: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقيل: تَهْلِكَ؛ قال تعالى: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ أي: هلك.

ودلَّت الآية على إبطال القول بالأصلح؛ لأنه أخبر أن إعطاء المال والأولاد إياهم للتعذيب والإماتةِ على الكفر.

ودل قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ على إرادة الله أفعالَ العباد كلِّها خيرَها وشرَّها؛ لأن إرادة العذاب إرادةُ ما يعذَّب عليه.

* * *

(٥٦) - ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾: أي: على دينكم وطريقتكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾؛ أي: على دينكم الإسلام ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾؛ أي: يخافونكم

---

(١) في (ف) و(أ): «عصموا».

(٢) في (أ): «أنفسهم».

(٣) «ليعذبهم» من (ر).

على أنفسهم إن صرَّحوا(١) لكم بما في قلوبهم، فلذلك يحلِفون إنهم لمنكم، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ [المجادلة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤].

***

(٥٧) ـ ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: حِرزاً. وقال قتادةُ: أي: حِصناً(٢).

وقال عطاءٌ: مَهْرباً(٣).

﴿أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ﴾: جمع مغارة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: غيراناً(٤)، جمع غارٍ، والغار: الثَّقب الواسع في الجبل.

وقيل: المغارة: المدخلُ الساتر، وقيل: المغارات: المكامِن التي يُتوارى فيها.

﴿أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾: مفتعلاً من دخل، وهو موضع الدخول.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: سَرَباً(٥)، وقال الضحاك: مأوًى(٦).

وقوله تعالى: ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾: أي: وجوههم(٧).

---

(١) في (ر) و(ف): «أن يصرحوا».

(٢) روى القولين الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٤).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٥٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٥٩).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٤).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٤).

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٥٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٥٩).

(٧) «أي: وجوههم» ليست في (أ) و(ف).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾: أي: يُسرعون لا يردُّهم شيءٌ، من الفَرَس الجَموح الذي لا يردُّه اللِّجام.

يقول: يحلفون لكم إنهم لمنكم كاذبين خوفاً من القتل؛ لتعذُّر خروجهم من بلادكم، ولو استطاعوا ترك دورهم وأموالِهم والالتجاءَ إلى بعض الحصون أو الغِيران ـ أي: المواضع التي تسترهم عن رؤيتكم ـ لفعلوه استثقالاً لكم وتكرُّهاً للقائكم.

وقال ابن كيسان: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾ قوياً[١] يأمنون فيه، ﴿أَوۡ مَغَـٰرَٰتٍ﴾: غيراناً يَسْتَخْفون فيها ﴿أَوۡ مُدَّخَلًا﴾ في أهل حربكم لا ينالهم منكم ما يخافون من القتل والأسر، لأسرعوا إلى واحد من الثلاثة ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾: يركبون رؤوسهم لا يَلْوون على شيء[٢].

قال الإمام القشيري رحمه الله: إن المُماذق[٣] في الخُلة ينسلُّ عن سِلكها بأضعف خَلَّة[٤]، إن وجد مهرباً آوى إليه، وإن أمل نيلَ ما يعلَّل به انتهزه واتَّكل عليه[٥].

***

(٥٨) ـ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾.

---

(١) «قوياً» زيادة من (أ).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٣/ ٤١١) (ط: دار التفسير)، و«البسيط» (١٠/ ٤٩٧).

(٣) في (ف) و(أ): «المتمارق»، وفي (ر): «الممارق»، والمثبت من «اللطائف». والمماذق: الذي لا يخلص في وده.

(٤) الخلة بالضم: الصداقة، وبالفتح: الحاجة.

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: قرأ الحسن والأعرج وسهل ويعقوب: ﴿يَلْمُزك﴾ بضم الميم[(١)]، وقرأ القرَّاء[(٢)] بكسرها وهما لغتان.

وقال الحسن: أي: يَعيبك[(٣)].

وقيل[(٤)]: اللمزُ: العيب مُسَارَّةً، والهمز: العيب مجاهَرةً؛ قاله الزجَّاج[(٥)]، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿يَلْمِزُكَ﴾؛ أي: يَطعن عليك[(٦)].

وقال عطاء: أي: يغتابك[(٧)].

أي: ومن المنافقين مَن يعيبك في إعطاء الصدقات أهلَها، فيقول: إن محمداً يفرِّق الصدقات على شهوته، فيعطي مرة ويَحْرِم مرة أخرى، ويعطي واحداً ويَحْرِم آخر، ويعطي الأغنياء المؤلَّفةَ قلوبهم ويمنع الفقراء، فيَلمزك لجهله بمواضع الأحكام.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾: أي: إن

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٩) عن يعقوب. و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٥٦) عن الحسن والأعرج وأبي رجاء وسلام ويعقوب.

(٢) في (ف): «وعامة القراء» بدل: «وقرأ القراء».

(٣) انظر: «البسيط» (١٠/ ٥٠٠) عن الكلبي.

(٤) كلمة: «قيل» من (أ)، وفي (ر): «قال»، وليست في (ف).

(٥) في النسخ: «وقال الزجاج»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية، وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٥٦). وظاهر كلامه اختيار عدم الفرق بينهما، وكذا في تفسير سورة الهمزة (٥/ ٣٦١).

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٩١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٦).

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٥٦) عن عطاء، و«البسيط» (١٠/ ٥٠٠) عن عطاء عن ابن عباس.

أعطاهم النبيُّ عليه السلام منها ما أرادوا رضُوا وذكروه بالجميل وأثنوا عليه، وإن لم يعطهم منها غضبوا منه وطعنوا عليه.

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: بينا رسول الله ﷺ يقسم مالاً إذ جاءه ابن أبي الخويصرة ـ وهو حُرقوصُ بن زهير ـ التميميُّ عظيم من عظماء المنافقين، فقال: اعدل يا رسول الله، قال: «ومَن يَعدِلْ إن لم أعدلْ؟!» فقال عمر رضي الله عنه: ائذن لي أضربْ عنقه، فقال: «دَعْه، فإن له أصحاباً يَحْقِر أحدكم صلاته في صلاتهم، وصيامَه في صيامهم، يَمْرُقون من الدِّين كما يمرُق السهم من الرميَّة، وآيتُهم رجل أسودُ ذو ثدية مثل ثدي المرأة تَدَرْدَرُ[1]، يخرجون على فترة من الناس»، قال أبو سعيد رضي الله عنه: سمعتُ هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن عليّاً حين قتلهم[2] جيء بالرجل على النعت الذي وَصف رسول الله ﷺ[3].

وروي أنَّ هذا الطاعن كان رجلاً غائر العينين كثَّ اللحية مشرِفَ الجبهة، فقال لرسول الله ﷺ: اعدل فإنك لم تعدل! فقال عليه السلام: «لا تأمنوني وأنا أمينُ ربي؟» ثم قال: «يخرجُ من ضِئضِئ هذا قومٌ يقرؤون القرآن يقتلون أهل الصلاة»[4].

ولما خرج قال النبي عليه السلام: «مَن يقوم إلى هذا فيقتله؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنا يا رسول الله فذهب فوجده قائماً في الصلاة، فرجع وقال:

---

(١) قوله: «ذو ثدية مثل ثدي المرأة تَدَرْدَرُ» كذا في النسخ، ولفظ الصحيحين: «إحدى عَضُدَيْه مِثْلُ ثَدْي المرأة، أو مثلُ البَضْعَة تَتَدَرْدَرُ»، وفي رواية للبخاري: «إحدى يديه...»، والباقي كالأولى، وفي أخرى: «إحدى يديه ـ أو قال: ثَدْيَيْه ـ مثلُ ثَدْي المَرأة، أو قال: مِثْلُ البَضْعة تَدَرْدَرُ». والبَضعة: القطعة من اللحم، وتدردر: تضطرب وتذهب وتجيء.

(٢) قوله: «قتلهم» كذا في رواية للبخاري، وفي باقي روايات الصحيحين: «قاتلهم».

(٣) رواه البخاري (٣٦١٠) و(٦١٦٣) و(٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤/ ١٤٨).

(٤) رواه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤/ ١٤٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

يا رسول الله، وجدته في القيام، وقال عليه السلام: «مَن يقتله؟» فقال عمر رضي الله عنه: أنا، فذهب فوجده في الركوع، فقال: لم يقتله الصدِّيق في القيام فكيف أقتلُه في الركوع؟ فرجع فقال: يا رسول الله وجدتُه في الركوع، ثم أعاد رسول الله ﷺ ذلك فقال عثمان رضي الله عنه: أنا أقتلُه، فذهب فوجده في السجود فقال: إن أبا بكر وعمر لم يقتلاه بالقيام والركوع فكيف أقتلُه في السجود؟ فرجع فأعاد رسول الله ﷺ الكلام، فقال عليٌّ رضي الله عنه: أنا أقتلُه، فقال عليه السلام: «تقتلُه إن وجدتَه» فلم يجده فرجع، فقال عليه السلام: «قد قلتُ إنك لا تجده، لكن هلاكه يكون على يديك»، وكان كذلك، وقتل فيمَن خرج بالنَّهْرَوَان ذلك على عهد عليٍّ رضي الله عنه[1].

***

(٥٩) ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾: أي: ما آتاهم رسول الله فإنه يؤتَى بأمر الله، قال عليه السلام: «الله المعطِي وأنا القاسمُ»[2]، وقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعُكم، إنما أنا خازن»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾: أي: كافينا ورازقُنا من حيث شاء، فيعطينا كفايتَنا وإن تأخَّرت.

وقوله تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾: فما آتاه فهو فضلٌ منه سواءٌ كان بكسب العبد أو بغير كسبه.

---

(١) لم أجده.

(٢) رواه البخاري (٣١١٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٦) عن قتادة مرسلًا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي: سيؤتينا رسوله بأمره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾: أي: في توسعة أرزاقنا علينا من حيث نشاءُ، وفي آخره مضمرٌ؛ أي: لكان خيراً لهم، وهو أبلغ من الذكر؛ لأن النفْس تذهب فيه كلَّ مذهبٍ والذِّكر يَقصُره على ما ذُكر دون غيره.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لو وقف القوم مع الله بشرطِ الرضا لآتاهم[1] فنون العطاء، ولو حفظوا مع رسوله الأدبَ لسُعِدوا بوجدان الأَرَب من غير معاناة تعبٍ ولا مقاساةِ نَصَبٍ، لكنهم عرَّجوا في أوطان الطمع فوقعوا في الذل والحَرَب[2].

* * *

(٦٠) ـ ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: بيَّن مصارفَ الصَّدقات في هذه الآية، وردَّ على[3] مَن عاب النبيَّ ﷺ في صرف الصدقات إلى حيث كان يصرف وأعلم أن الله عزَّ وعلا أمره بذلك، وأن الذين كانوا يطمعون فيها لم يكونوا مستحقِّيها فإنهم كانوا أغنياء، والله تعالى جعل مصارفها للفقراء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ وليست اللام دلالةَ الملك بينهم بالسويَّة فإنهم مجهولون، والمجهولون لا يَصْلُحون للاستحقاق بطريقِ الملك، بل هي لبيان أن الصرف لهم

---

(١) في «لطائف الإشارات»: (بسر الرضا لأتتهم).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٧).

(٣) «على» ليست في (أ).

دون غيرهم؛ كما يقال: الخلافة لبني العباس، وميراثُ فلان لقرابته؛ أي: ليست لغيرهم، لا أن تكون بينهم بالسويَّة (١).

ثم الفقرُ هو شدةُ الحاجة، والمسكنةُ في معناه، لكنْ تدلُّ على انكسار صاحبها وتَذَلُّلِهِ، فإن المسكين عند الناس اسمٌ للمرحوم، والمغايرةُ في الاسم تدلُّ على نوعِ تفاوتٍ.

واختُلف في أن الفقير أضعف حالاً أم المسكين؟

قال فقهاء العراق أبو حنيفة وغيرهم رضوان الله عليهم: الفقير: الذي لا يَسأل؛ لأن عنده ما يكفيه للحال، قال الشاعر(٢):

أما الفقيرُ الذي كانت حَلوبَتُه ... وَفْقَ العيال فلم يُترك له سَبَدُ(٣)

والمسكين أضعفُ حالاً منه، وهو الذي يَسأل لأنه لا يجد شيئاً، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦]؛ أي: لَصِق بالتراب لقُربه.

وهو قول عامَّة السَّلف، وهو اختيار يونسَ البَصري وأبي العباس ثعلبٍ الكوفي.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسنِ وجابر بن زيد والزهريِّ ومجاهدٍ: أن الفقير المتعفِّفُ الذي لا يَسأل، قال الله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، والمسكين

---

(١) في (أ): «بالتسوية».

(٢) «قال الشاعر» من (ف).

(٣) البيت للراعي النميري، وهو في «ديوانه» (ص: ٦٤)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٥٨)، و«البسيط» (١٠/ ٥٠٣). السبد بالتحريك: القليل من الشَّعر، يقال: ما له سبد ولا لبد؛ أي: لا قليل ولا كثير. انظر: «القاموس» (مادة: سبد).

الـذي يَسـأل[١]، وقد بينَّا أن المسـألة تشـيرُ إلى المذلَّـة وهي ظاهرة[٢] في المسـألة.

وقال الشافعي رضي الله عنه: الفقير أضعف حالاً[٣]؛ لأن الاسم من كَسْرِ الفَقَار، وهو نهايةُ الاضطرار، وأما المسكين فهو الذي يَسكن قلبه إلى شيءٍ وهو معه، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ ﴾ [الكهف: ٧٩].

وقيل: الفقراء أهلُ الصُّفَّة، وكانوا لا يخرجون ولا يَسألون شيئاً ولا يملكون شيئاً، والمساكين هم الطوَّافون السائلون، ولذلك قال عليه السلام: «ليس المسكينُ الذي تردُّه اللُّقمة واللقمتان والتمرةُ والتمرتان، لكن المسكين الذي لا يَسأل الناس شيئاً، ولا يُفطَنُ لمكانه فيُتصدَّقَ عليه»[٤]، وهو دليل على أنهم كانوا يطلقون هذا الاسم على السُّؤَّال الذين يُتصدَّق عليهم بالكِسَر واللُّقَم.

ورُويت عن السلف ألفاظٌ مختلفة في الصنفين:

قال جابر: الفقراء فقراء المهاجرين، والمساكين الذين[٥] لم يهاجروا[٦].

وقال الحسن: الفقير الجالس في بيت، والمسكين الذي يتتبع[٧].

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠)، وذكره عنهم الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٥٧)، والواحدي في و«البسيط» (١٠/ ٥٠١ ـ ٥٠٢).

(٢) في (ف): «وهذا ظاهره».

(٣) «حالًا» من (ف).

(٤) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) بعدها في (ر): «يتصدق عليهم بالكسر واللقم»، وليست في المصادر.

(٦) ذكره عن جابر بن عبد الله الرازيُّ في «تفسيره» (١٦/ ٨٥)، ورواه أبو عبيد في «الأموال» (١٩٤١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أبو عبيد أيضاً في «الأموال» (١٩٤٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠٥٩٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥١١) عن الضحاك، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٥٧) عن النخعي والضحاك.

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٩) بلفظ: (... والمسكين الذي يسعى).

وقال قتادة: الفقير الذي به زَمانةٌ، والمسكين الصحيحُ المحتاج[1].

وقيل: الفقير الذي له دون النصاب، والمسكين الذي لا شيء له.

وقال عبد الرحمن بن أَبْزى: كان ناسٌ من المهاجرين لأحدهم الدار والزوجة والعبد والناقة يحج عليها ويغزو، وسماهم الله تعالى فقراء، وجعل لهم سهماً في الزكاة[2].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾: هم عمالُ الصدقات يُصرَف إليهم منها ما يكفيهم وأعوانَهم كَفافاً لا إسرافاً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: هم قومٌ من رؤساء العرب أسلموا، وكان رسول الله ﷺ يتألَّفُهم على الإسلام ويستدنيهم[3] عليه، ويستدعي به إليه أتباعهم.

روى معمر عن يحيى بن أبي كثير أنهم من بني مخزوم: الحارث بن هشام وعبد الرحمن بن يربوع، ومن بني أمية: أبو سفيان بن حرب، ومن بني جُمَح: صفوان بن أمية، ومن بني عامر بن لؤي: سهيل بن عمرو وحُويطب بنُ عبد العُزّى بنِ أبي قيس[4]، ومن بني أسد بن عبد العُزَّى: حكيم بن حزام، ومن بني هاشم: أبو سفيان بن حارث بن عبد المطلب، ومن بني فَزارةَ: عُيينةُ بن حِصنِ بن حذيفة، ومن بني تميم: الأقرع بن حابس، ومن بني نصرٍ: مالك بن عوف، ومن بني سليم: العباس بن مرداس، ومن بني ثَقيفٍ: العلاء بن حارثة[5].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥١١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥١٢).

(٣) في (ف): «ويستديمهم».

(٤) في (أ): «وحويصب بن عبد المطلب»، وفي (ر) و(ف): «وحويطب بن عبد العزى بن عبد المطلب»، والصواب المثبت.

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٠٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٢٠).

ومنهم: عَدِيُّ بن حاتم الطائيُّ، والزِّبْرِقان بنُ بدر، وزيدُ الخيل، ومَخرمةُ بن نوفلٍ، وعُمير بن وَهْبٍ، وهشام بن عمرٍو، وقيس بن عديٍّ، وأبو السَّنابل بنُ بَعْكَكٍ، وعلقمة بن عُلاثَةَ، وجدُّ بن قيس، وعمرو بن مرداس.

وقال الواقدي: قسَّم رسول الله ﷺ غنائم الطائف وحنينٍ بالجِعْرانة، وكان غَنِمَ أربعة آلاف أوقيةٍ، فأعطى المؤلَّفة قلوبهم أولَ الناس، وجاءه أبو سفيان بن حربٍ وبين يديه الفضةُ، فقال: يا رسول الله! أصبحت أكثر قريش مالاً، فتبسَّم رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان: أعطني من هذا المال يا رسول الله، فقال: «يا بلال، زِنْ لأبي سفيان أربعين أوقيةً، وأعطه مئة من الإبل»، فقال أبو سفيان: ابني يزيدَ أعطه، قال رسول الله ﷺ: «زِنُوا ليزيدَ أربعين أوقية وأعطُوه مئةً من الإبل»، فقال أبو سفيان: والله إنك لكريم، فداك أبي وأمي والله لقد حاربتُك فنعم المحاربُ كنتَ، ثم سالمتُك فنعم المسالمُ أنت، جزاك الله خيراً.

وأعطى صفوان بن أمية مئةً من الإبل، وكان يطوف مع النبيِّ ﷺ يتصفَّح الغنائم إذ مرَّ بشِعبٍ فيه إبلٌ وغنم كثيرة من الغنائم[1]، فجعل صفوان ينظر إليه متعجِّباً، قال رسول الله ﷺ: «أعجبكَ يا أبا وهب هذا الشِّعبُ؟» قال: نعم، قال: «هو لك وما فيه»، قال صفوان: أشهد ما طابت بهذا نفسُ أحد قطُّ إلا نبيٌّ، وأشهد أنك رسول الله عليك السلام.

وأعطى عيينةَ بن حِصن مئةً من الإبل، والأقرعَ بن حابس مئةً من الإبل، والعباس بنَ مرداس خمسين من الإبل، فعاتبه في أبيات:

أَتَجْعَـلُ نَهْبـي ونَهْـبَ العُبَيـ ـــدِ[2] بيـن عُيينـةَ والأقـرعِ

---

(١) في (ف): «الغنيمة».

(٢) في هامش (أ): «العبيد: اسم فرس العباس بن مرداس».

وما كان حصنٌ ولا حابسٌ يفوقان مرداسَ في مَجمعِ
وما كنتُ دون امرئٍ منهما ومَن تضعِ اليومَ لا يُرفعِ
وقد كنتُ في الحرب ذا تُدرإٍ[١] فلم أُعطَ شيئاً ولم أُمنَعِ[٢]

فقال عليه السلام: «اقطعوا لسانه»، فهاب الناس، ثم أُعلموا أنه أراد به قطع كلامه بزيادة العطية، فأعطوه تمام[٣] مئة من الإبل[٤].

وكان رسول الله ﷺ يعطيهم كذلك كلَّ سنة، فلما قبض رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر رضي الله عنه جاؤوا يستبدلون منه الخطَّ[٥] بذلك، فبذل لهم، فجاؤوا إلى عمر رضي الله عنه وعرضوا عليه الخطَّ وطلبوا منه التقرير، فأخذ ذلك منهم ومزقه وقال: كان النبي ﷺ يتألَّفكم على الإسلام، فأما اليوم فقد أعزَّ الله الإسلام، فالإسلامُ أعز من أن يُرشى عليه، فإن ثبتُّم على الإسلام بغير رشوة وإلا فبيننا وبينكم السيف، فعادوا إلى أبي بكر وقالوا: أنت الخليفة أم عمر؟ فقال: هو إن شاء[٦]. فسقط سهم المؤلفة قلوبهم بإجماع الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) أي: ذا دفع، من قولك: درأه، إذا دفعه.

(٢) روى هذه القطعة من الخبر ـ دون البيت الأخير ـ مسلم (١٠٦٠) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

(٣) «تمام» ليست في (أ).

(٤) انظر: «مغازي الواقدي» (٣/ ٩٤٤ ـ ٩٤٧).

(٥) في (أ): «مستبدلين منه الخطة».

(٦) رواه بنحوه البخاري في «التاريخ الأوسط» (١/ ٨١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٠)، والخطيب في «الجامع» (٢/ ٣٠٤)، عن عبيدة السلماني، ورواه بنحوه أيضاً الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٣٨٣) عن نافع.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: أي: المكاتَبين، يُعطَون شيئاً[1] من الصدقات فيؤدُّون بها بدلَ الكتابة فينالون به العِتق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾: أي: المديونينَ[2] الذين ليس لهم بعد قضاءِ الدَّين ما يقع به الغنى.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: الغزاةِ المحتاجين، وإن كانوا أغنياءَ بأموالهم خلَّفوها في بلدهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: الغريبِ البعيد عن ماله.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي: إيجاباً من الله؛ أي: يُصرف إليهم ولا يصرف إلى غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أي: بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: في أحكامه.

ثم عند الشافعي رضي الله عنه: لا بد أن يصرف إلى الأصناف السبعة ـ فقد سقط سهم المؤلفة قلوبهم ـ من كلِّ صنفٍ ثلاثةٌ تحقيقاً لمعنى الجمع.

وعندنا: إن صُرف إلى صنف واحد وإلى شخصٍ واحد جاز؛ لأنهم ذُكروا البيان أسباب الحاجة، ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وقال عليه السلام لمعاذ بن جبلٍ رضي الله عنه: «خُذْها من أغنيائهم ورُدَّها في فقرائهم»[3]، فأَوجب الصرف إلى المحتاجين، ثم بيَّن بهذا

---

(١) «شيئاً» من (ر).

(٢) في (ر): «أي في الديون».

(٣) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

النصِّ أسباب الحاجة، فصاروا صنفاً واحداً في التحقيق، وهو مذهبُ عامة الصحابة رضي الله عنهم: عمرَ وعليٍّ وابنِ مسعود وابنِ عباس وحذيفةَ وغيرِهم، وكذا قال جماعة من التابعين: سعيد بن جبير والضحاك وأبو العالية وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أيَّ صنفٍ أعطيتَه من هذه الأصناف[٢] جاز.

قال حذيفة: إن شئتَ جعلتَها في صنفٍ واحد[٣] وإن شئتَ جعلتَها في صنفين.

وقال سعيد بن جبير: لو وضعتَها في صنفٍ واحد أجزأ عنك، ولو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراءَ متعفِّفين فجَبَرْتَهم[٤] بها كان أحبَّ إليَّ[٥].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الفقير الصادق عندهم: مَن لا سماءَ تُظِلُّه ولا أرضَ تُقِلُّه، ولا سِمةَ[٦] تتناوله، ولا معلوم يَشغلُه، ولا علاقة تَقطعه، فهو عبدُ الله بالله[٧]، يُردُّ[٨] إلى التمييز في أوان العبودية، وفي غير هذا الوقت مُصْطلَمٌ عن شواهده فانٍ عن أغياره.

---

(١) روى أقوال هؤلاء الأئمة من الصحابة والتابعين ـ عدا عليًّا والضحاك ـ الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٣١ ـ ٤٣٢).

(٢) «من هذه الأصناف» من (أ).

(٣) بعدها في (ر): «أجزى عنك».

(٤) في (أ) و(ر): «فخيرتهم»، والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في «تفسير الطبري». والجبر: أن تغني الرجل من فقر.

(٥) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» وقد تقدم قريباً تخريجها.

(٦) في (ف) و(أ): «سمة».

(٧) في (ف) و(أ): «عند الله بالله». وفي مطبوع «اللطائف»: (عبد بالله لله).

(٨) في «اللطائف»: (يرده).

وقيل: الفقير: مكسور الفَقَار، فهو عندهم: مَن سقط اختيارُه، وتعطَّلت عنه ديارُه، واندرست في استيلاءِ مَن اصطَلَمه آثارُه، وكأنه لم يبق منه إلا أخبارُه، قال الشاعر:

أمـا الرُّسـومُ فـمُـخْـبِـراتٌ أنـهـم   رحَلوا قريبـاً مـن جِـوار المنـزلِ[1]

وأما المسكين: فهو الذي أسكنَتْه حالتُه بباب معبوده، لا يَبرح عن سدَّته، فهو معتكِفٌ بقلبه، لا يغفل لحظةً عن ربِّه، وهي مراتبُ الحاجة والفقر والمسكنة:

فذو الحاجة: مَن يرضى بدنياه وتسدُّ الدنيا فقره.

والفقير: الذي يكتَفي بعُقباه وتَجبُر الجنة فقرَه.

والمسكين: الذي لا يرضى بغير مولاه، لا إلى الدنيا يلتفت، ولا بالآخرة يشتغل، ولا بغير مولاه يكتفي.

* * *

(٦١) ـ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾: أي: ومن المنافقين قومٌ يؤذون النبيَّ عليه السلام.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لم يبيِّن بماذا يؤذونه؟ فيحتمِلُ أنهم كانوا يُؤذونه بتكذيبه وتركهم إجابتَه وطاعتَه، ويحتمِل أنهم يؤذونه بكلماتٍ يُسمعونه وطعنٍ يَطعنون به.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ قال أبو عَوسجةَ: هو الذي مَن قال له شيئاً

---

(١) «من جوار المنزل» من (ر)، وليس في (أ) و(ف) و«اللطائف».

سمعه، ومَن حدَّثه بشيء صدَّقه، والأُذن التي هي جارحة السماع كذلك، وكان النبيُّ ﷺ يستمع إلى كلام كلِّ مَن حدَّثه بشيء؛ لكرمه وشرفه ومجده وحُسن خلقه.

وقيل: أرادوا به أنه يقبل كلَّ عذرٍ صدقاً كان أو كذباً، وكان النبيُّ عليه السلام كذلك لكرمه وحُسن خلقه، فظن أولئك أنه إنما يقبله ويعاملُهم به لسلامة قلبه وصغر همته وقصور يده[١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾: أي: أنا أذن خير لكم[٢]، وهو إضافةُ الشيء إلى صفته كقوله: هو رجلُ خيرٍ؛ أي: قل يا محمد: إن الذي يقبل العذر خيرٌ ممن لا يقبله، فكيف تؤذونه وتعيبونه؟!

وقيل: إنه يسمع الخير ويَقبله دون الشر.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: أي: يصدِّقه ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ويصدِّق المؤمنين[٣] بما شهدوا به عنده، فلا يَقبل[٤] إلا ما ثبتَ صدقُه بإخبار الله عز وجل عنهم فيما قالوا وليس عندهم أحد من المسلمين، أو بشهادة المؤمنين إذا قالوا ذلك بحضرتهم.

ولفظة الإيمان تعدَّى بالباء واللام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقيل: كانوا يذكرون أشياء لو بلغه ذلك آذاه، فإذا قيل لهم: لا تفعلوا فإنه

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤١). وجاء في (ف): «ويعاملهم به ليس لسلامة قلبه بل لصغر همته..»، والمثبت من باقي النسخ و«التأويلات».

(٢) «أي: أنا أذن خير لكم» من (أ).

(٣) في (ف): «﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصدق الله ويصدق المؤمنين».

(٤) بعدها في (ر): «عنده».

يبلغه الخبر، قالوا: نأتيه فنعتذر إليه فيصدِّقنا لأنه أُذنٌ، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإذا أخبره الله تعالى بكذبكم أو شهد المؤمنون على قولكم لم يصدِّقكم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾: أي: وأنا رحمةٌ لمن آمن منكم مع أنكم إذا أذَيْتُموني فيلزمُكم العذاب، فإذا آمنتُم بي فلكم الرحمةُ والثواب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في الدارين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في خِذَام بن خالد، والجُلاس بن سويد، وإياس بن قيس، ومَخْشيِّ بن حميِّر[1]، وسِمَاك بن زيدٍ، وعُبيد بن هلالٍ، ورِفاعةَ بن عبد المنذر[2]: كانوا يقولون في رسول الله ﷺ ما لا ينبغي، فقالوا: لا تفعلوا فإنَّا نخاف أن يبلغَه هذا فيوقِعَ بنا، فقال الجلاس: إنه أذنٌ نقول ما شئنا ثم نحلف له فيصدِّقنا، فنزلت الآية[3].

---

(١) في النسخ: «مخشي بن خويلد»، ومثله في «تفسير الثعلبي» (٥/ ٦٢)، والصواب المثبت. وقد اختلف في اسمه، فقيل: مَخْشي كما هنا، وقيل: مُخاشِن، وقيل: مخشِّنٌ، وقيل: ابن مخشي. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥)، و«تاريخ خليفة بن خياط» (ص: ١١٤)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٤٦٥)، و«التعريف والإعلام» للسهيلي (ص: ٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٩٢)، و«تجريد أسماء الصحابة» للذهبي (٢/ ٦٤). وذكر القرطبي الخلاف في اسمه عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦] عن ابن إسحاق وخليفة بن خياط وابن عبد البر والسهيلي، ثم قال: (وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة، وكان تاب وتسمى عبد الرحمن ودعا الله أن يقتل شهيداً، ولا يعلم بقبره). قلت: وسيأتي هذا قريباً من رواية السدي.

(٢) قوله: «ورفاعة بن عبد المنذر» كذا وقع ذكره في هذا الخبر، ولعل الصواب غيره، فرفاعة صحابي جليل ذكره ابن إسحاق فيمن شهد بدراً. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٨٨)، و«تجريد أسماء الصحابة» للذهبي (١/ ١٨٤).

(٣) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٦٠) من طريق أبي صالح عن ابن عباس، ولعله من رواية =

وذكر مقاتل في جملتهم: شاس بن قيس، والمخشي بن حمير، وعبيد[١] بن مالك، ورفاعة بن زيد، ثم قول الجلاس ذلك[٢].

وقال أبو حاتم سهل بن محمد: هو نبتل بن الحارث[٣]، وكان رجلاً أَدْلَمَ[٤] ثائرَ الشعر، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوَّه الخِلقة، وفيه قال النبيُّ ﷺ: «مَن أحبَّ أن ينظر إلى الشيطان فلينظرْ إلى نبتلِ بن الحارث» وكان يَنمُّ حديثَ النبيِّ ﷺ إلى المنافقين، فقالوا له: لا تفعل، فقال: إنما هو أذنٌ، مَن حدَّثه بشيء صدَّقه، أقول هذا ثم آتيه فأعتذرُ إليه[٥].

وقال الحسن: قال المنافقون: ما هذا الرجل إلا أذنٌ يقبل ما يسمع ليست له عزيمةٌ، فنزلت الآية[٦].

= الكلبي عن أبي صالح عنه، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٤٩) (ط: دار التفسير) دون عزو، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٦) عن السدي. وذكره أيضاً مقاتل كما سيأتي. وقد روي أن الجلاس قد تاب وحسنت توبته كما سيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

(١) في (ف) و(أ): «وعبيدة».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٧٨)، وفيه بدل «شاس»: (شماس). وبدل «عبيد بن مالك»: (عبيد بن الحارث).

(٣) وقاله ابن اسحاق أيضاً. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٨٨)، و«تفسير الطبري» (١١/ ٥٣٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٩). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٦) من طريق محمد بن إسحاقَ عن محمدِ بن أبي محمدٍ عن عكرمةَ أو سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ.

(٤) الأدلم: الطويل الأسود، والشديد السواد من الناس. انظر: «معجم متن اللغة» (مادة: دلم).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٢١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٩).

(٦) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٢١).

قالـوا: عابـهُ الجهّـال بما هـو آيةُ كرمه وغايةُ حُسـن شِـيَمه، قال عليه السـلام: «المؤمـنُ غِرٌّ كريـم، والمنافق خِـبٌّ لئيم»(١).

وقيل: العاقل هو الفَطِنُ المتغافل، وأنشدوا في معناه:

وإذا الكريـمُ أتيتَـه بخديعـةٍ فرأيتَـه فيمـا تَـرُومُ يُسـارِعُ
فاعْلَـمْ بأنـك لـم تخـادِعْ جاهـلاً إنَّ الكريـم بفَضْلـهِ مُتخـادِعُ

***

(٦٢) ـ ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾: أي: يعتذر هؤلاء ويحلفون بالله(٢) كاذبين ليُزيلوا سَخَطكم.

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾: أي: يحقُّ عليهم في إزالة سَخَطكم أن يُخلصوا، فإذا فعلوا ذلك أرضَوا الله ورسوله فيرضى المؤمنون به؛ لأن الله تعالى إذا رضي عن العبد أرضى عنه الناس.

ثم إنه قال: ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ على التوحيد ـ مع سَبْقِ ذكر الله ورسولِهِ ـ لأنه أراد: أن يرضوا الرسولَ، وإرضاؤه إرضاءُ الله تعالى؛ كما قال ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [النور: ٤٨]؛ لأن حكمَه حكمُ الله.

وقيل: إنه لا يُذكر بعد ذكر الله ورسوله كنايةٌ ترجعُ إليهما(٣)؛ لأنه تسويةٌ بينهما،

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٩٠)، والترمذي (١٩٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيهما: «والفاجر» بدل: «والمنافق». قال الترمذي: (غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه).

(٢) في (ر) و(ف): «ويحلفون عليه».

(٣) في (ف): «عليهما». وهذا الذي قاله المؤلف هو في القرآن كما قال لكنه منقوض في السنة =

وتركُ تعظيمٍ في حق الله عز وجل، ولهذا قال النبيُّ عليه السلام فيمَن تكلَّم عنده وقال: مَن أطاع الله ورسوله فقد رشَد، ومَن عصاهما فقد غوَى: «بئس خطيبُ القوم أنت»[١]، كره منه ذكر كناية واحدة راجعةٍ إلى اسم الله تعالى وإلى اسم رسوله.

قال السدي: اجتمع ناسٌ من المنافقين منهم جلاسُ بن سويدٍ ووديعةُ بن ثابت ورجالٌ آخرون وعندهم غلامٌ من الأنصار يقال له: عامر بن قيس ـ وفي روايةِ غيرِ السديِّ: هو زيد بن الأرقم[٢] ـ فحَقَروه، وقالوا: إن كان ما يقولُ محمد حقًّا لنحن شرٌّ من الحمير، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حقٌّ، وأنتم شرٌّ من الحمير، ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فدعاهم فسألهم فحلفوا إن عامراً كاذب، وحلف عامر أنهم كذَبةٌ، فصدَّقهم النبي ﷺ، فقال عامر: اللهم صدِّق الصادقَ وكذِّب الكاذب، وكان واحدٌ من المنافقين قال[٣] بعد ما سمع عامر كلامهم[٤]: ودِدْتُ أني قدِّمْتُ فجُلدْتُ مئةَ جلدة وأنه لا ينزل فينا شيءٌ يفضحنا، فنزلت: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ ونزلت: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٦٢][٥].

= الصحيحة بقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أَحبَّ إليه مما سواهما...».

(١) رواه مسلم (٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) روى هذه الرواية ابن شبة في «أخبار المدينة» (٧٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٥٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه ذكر نزول قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

(٣) في (ف): «فقال واحد من المنافقين».

(٤) في (ف): «بعدما سمع كلام عامر».

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٦) في نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ فقط.
وورد نحو هذه القصة في نزول قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ رواه الطبري في =

(٦٣) ـ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾: استفهامٌ بمعنى التوبيخ؛ أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه مَن يُعادِ الله ورسوله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يخالف الله.

وقال الأخفش: يحارب الله.

وقال قطرب: يعاند الله[1].

والمحادَّة بين اثنين: أن يصير كلُّ واحد منهما في حدٍّ غيرِ الحد الذي عليه الآخَرُ معاداةً ومخالفةً وممانعةً.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وتكرار (أنَّ) للمبالغة في التأكيد، و﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾: دائماً فيها[2] بكفره، ومَن صار[3] كذلك فقد عظُم خِزْيه؛ أي: افتَضَح أبلغَ الافتضاح، وبلغ غايةَ الهوان، والخزيُ: الهوان بما يُستحيَى مِن مثله.

= «تفسيره» (١١/ ٥٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٨)، عن قتادة.

وروي نحوها أيضاً في نزول قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤]، رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٩) عن عروة وابن إسحاق ومجاهد، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٣) عن كعب بن مالك وابن عباس رضي الله عنهم. وروي أيضاً من حديث أنس وقد خرجناه قريباً.

(١) ذكر هذه الأقوال الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٣١).

(٢) «دائماً فيها» ليس من (أ).

(٣) في (أ): «كان».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك ـ وقد سميناهم ـ جاؤوا حين رجع رسول الله ﷺ يعتذرون فيحلفون، فنزلت هذه الآية وغيرها[١].

* * *

(٦٤) ـ ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ خبرٌ عن حذَرهم عند أكثر المفسرين.

وقال الزجَّاج: هو بمعنى الأمر[٢].

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل ذلك: أي: ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم؛ أي: على النبيِّ عليه السلام فيخبرهم به[٣]، والمنزلُ على الرسول منزلٌ على الأمَّة معنًى؛ لأنه خطاب لهم بما فيه.

وقوله تعالى: ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: تخبرهم بذلك، ولم يكن ذلك لإعلامهم فقد علموا به، لكن بإخبارهم أنه لا يخفَى على الله ولا يُخفيه عن رسوله، وليَهْتكَ أستارهم للمؤمنين ليعلموا به، وعلى القول الذي قالوا: إنه خبرٌ عنهم، فلكثرةِ ما كان يُطْلع الله رسولَه عليه كانوا يحذرون ذلك، ولخُبث اعتقادهم وشدة كفرهم كانوا يُؤذونه ويستهزؤون به، وذلك قوله تعالى:

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٢٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٥٩).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤١٩).

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾: وصيغته أمرٌ وهو للتهديد؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ودليله قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾؛ أي: مظهرٌ، وقد أظهر أحوالهم في هذه السورة، ولذلك سميت فاضحةً مبعثِرة.

وقال الحسن: كانوا يسمُّونها حافرة؛ لأنها حَفرت ما في قلوبهم فأظهرته(١).

وقال قتادة: كانوا يسمونها المثيرة(٢).

وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في الجلاس بن سويد وأصحابه وقد سميناهم(٣).

وقال عطاء: هم سبعون رجلاً أنزل الله تعالى أسماءهم وأسماء آبائهم، ثم رفعت مرحمةً على العباد، ولأن أولادهم أسلموا وأخلصوا(٤).

وقال السدِّي: جاء واحد من المنافقين اسمه مَخْشيٌّ بن غليظ وقال: إن اسمي واسمَ أبي من شرِّ الأسماء يا رسول الله، فغيِّرهما لعل الله يغيِّر حالي، وكان منافقاً، فسماه النبي ﷺ: عبد الله بن عبد الرحمن فأسلم وأخلص وقال: اللهم إني أسألك أن أُقتل في سبيلك لا يُقدَر لي على(٥) جثةٍ، ولا يُعلم لي مقتل، فقُتل بوقعة(٦) مسيلمة الكذَّاب(٧).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٦٤)، وفيه بدل «الحافرة»: «الحفَّارة».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٦٨).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٣٣) عن عطاء عن ابن عباس، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٦٨)، عن ابن عباس.

(٥) في (أ): «يعذر» بدل من «يقدر لي على».

(٦) في (أ): «يوم».

(٧) لم أجده، وذكر نحوه القرطبي كما ذكرنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقد ذكرنا ثمة الخلاف في اسمه، لكن لم أجد من ذكر أن اسم أبيه (غليظ).

(٦٥) ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾: أي: ولئن قلت لهم: لم قلتُم كذا، حين أطلعك الله على ذلك، قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾؛ أي: لم يكن ذلك عن اعتقادٍ وشكٍّ في الدِّين، لكن على العادة من الناس إذا اجتمعوا لم تخلُ أحاديثهم عن أن يجريَ فيها القول على سبيل المساعدة والاستئناس من الهزل، فقل يا محمد إنكاراً عليهم: أبالله وآياته ورسله تفعلون هذا؟ وهو لا يحتمِل إلا الجِدَّ والصدق دون الهزل واللعب.

قال محمد بن إسحاقَ: قال هذا وديعة بن ثابت[1].

وقال مقاتل بن حيَّان: نزلت في ثلاثةِ نفرٍ: معتِّب بن قُشيرٍ ووديعةَ بن ثابتٍ ومخشيِّ بن حميرٍ، ولكن عبد الله بن عبد الرحمن لم يمالِئْهما في الحديث، ولكنه كان يسير مجانباً لهما ويضاحكُهما، فقال وديعة لمعتِّبٍ: أيطمعُ هذا الرجل في الشام وقصورها؟ هيهات! ويظنُّ أن جِلَاد بني الأصفر هيِّن، فنزلت هذه الآية، فبعث النبيُّ ﷺ عمار بن ياسر فقال لهم: احترقتُم أحرقكم الله، قلتُم كذا وكذا، فجاؤوا يعتذرون، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٢٣).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٢/ ١٧٩)، وذكره ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٢/ ٢١٩) عن الكلبيِّ، والواحديُّ في «البسيط» (١٠/ ٥٣٦) عن الكلبي ومقاتل بن سليمان، والجرجاني في «درج الدرر» (٤/ ٦٨) دون عزو، ورواه بنحوه دون ذكر الأسماء ودون ذكر عمار الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٠) عن قتادة. وقد وقع في =

وفي رواية زيد بن أسلم: نظرتُ إلى هذا القائل متعلِّقاً بنسع ناقة رسول الله ﷺ[١].

وفي رواية عبد الله بن عمر: رأيتُ عبد الله بن أُبيٍّ يشتدُّ بين يدي رسول الله ﷺ والحجارةُ تَنكبُه وهو يقول: إنما كنَّا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[٢].

وعذَر النبي ﷺ الذي لم يمالِئْهم حين اعتذر وهو عبد الله بن عبد الرحمن، وفي رواية: مخشيُّ بن حميِّر، وفي رواية: الحمير بن الحمير[٣].

وقال القشيري رحمه الله: مَن استهان بالدِّين، ولم يحتشِم مِن تركِ حرمة الإسلام والمسلمين، جعله الله في الحال نكالاً، وسامه في الآخرة صغراً وإذلالاً،

= المصادر اختلاف في الأسماء، لكن لم يذكر أحد فيهم: عبد الرحمن بن عبد الله، ولعل ذكره وهم، فإن عبد الرحمن هذا هو نفسه مخشي، سماه به النبي ﷺ عند توبته كما تقدم في خبر السدي، وكما ذكر القرطبي، وهو الذي لم يمالِئْهما في الحديث، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ على قول طائفة من العلماء. انظر: «تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣)، وانظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩ ـ ١٨٣٠) عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر قال: (قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغبَ بطونًا ولا أكذبَ ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس: كذبتَ، ولكنك منافق! لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ). فالقائل: «نظرت» هو عبد الله بن عمر لا زيد بن أسلم.

(٢) رواه الهروي في «ذم الكلام» (٤/ ٩٣) من طريق نافع عن ابن عمر. ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٣) عن زيد بن أسلم عن ابن عمر دون ذكر اسم الرجل.

(٣) قوله: «وفي رواية: الحمير بن الحمير» ليس في (ف)، ولم أقف عليه، وقد تقدم قريباً ذكر الخلاف في اسمه، ومخشي بن حمير هو اسمه قبل التوبة، وعبد الله بن عبد الرحمن سماه إياه النبي ﷺ عند التوبة، كما تقدم في خبر السدي قريباً.

والحقُّ سبحانه لا يرضى دون أن يُذيق العتاةَ بأسَه، ويسقيَ كلًّا على ما يستوجبُه كأسُه، وقد أرخَى الله للمنافقين عنان إمهالهم، ثم هتك أستارهم بأقوالهم وأفعالهم(١).

* * *

(٦٦) ـ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾: أي: لا تتكلَّموا بالعذر الباطل ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾: فقد صرَّحتم بما يوجب الكفر ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: بعد إظهاركم الإيمانَ باللسان.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾(٢): قرأ عاصم: ﴿نَّعْفُ﴾ بالنون وفتحها وضم الفاء، ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالنون وضمِّها وكسر الذال، ﴿طَائِفَةً﴾ بالنصب، إخباراً من الله تعالى عن نفسه بكلمة التعظيم، وقرأ الباقون: ﴿يُعْفَ﴾ بالياء وضمها وفتح الفاء ﴿تُعذَّبْ﴾ بالتاء وضمها وفتح الذال على ما لم يسمَّ فاعله، ﴿طائفةٌ﴾ بالرفع(٣).

ومعناه: إن تركنا العقوبة في الحال في حقِّ بعضهم وهم العامةُ والأتباع الذين لا ضرر منهم على المسلمين لنعاقبهم في الآخرة، نعذبْ طائفة منهم من الكبراء المعلِنين بالأراجيف الساعين بين المسلمين بالفساد بالقتل.

قال تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأحزاب: ٦٠] إلى قوله تعالى: ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]، وقوله تعالى:

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٢).

(٢) في (ف): «إن يعف... تعذب...»، وهي قراءة أكثر السبعة كما سيأتي.

(٣) «﴿طَائِفَةٌ﴾ بالرفع» من (ر). وانظر القراءتين في «السبعة» (ص: ٣١٦)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨] إلى قوله عز وعلا: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[(١)] [النساء: ٨٩].

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[(٢)] وهو اسمٌ نهاية الذم؛ لأنه يدل على انقطاعه عن كلِّ الخيرات، من الجَرْم: وهو القطع.

وقيل: ﴿إِن نَّعْفُ عَن﴾ قومٍ منهم نعلمُ أنهم يتوبون ويخلصون ﴿نُعَذِّبْ﴾ قوماً منهم نعلم أنهم على النفاق يدومون.

وقيل: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ منهم بالإيمان ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾[(٣)] بالموت على الكفر.

وقيل: ﴿إِن نَّعْفُ﴾ فلم نأمر بالقتل في حق قومٍ لم يظهر نِفاقهم للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين كما قال جل جلاله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالأمر بالقتل والتشهيرِ مَن ظهَر نفاقُهم بهذه الأحوال.

وقال محمد بن كعبٍ القرظي: ﴿نَّعْفُ﴾ عن طائفةٍ منهم: هي واحدةٌ[(٤)]؛ كما قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وهو الذي ذكرنا في الآية التي قبلها أنه لم يمالِئْهم واعتذر فعُذر ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ وهم الذين خاضوا.

وقيل: هو الواحد أيضاً، وهو وديعة بن ثابت.

* * *

---

(١) في (ف): «واقتلوهم حيث ثقفتموهم».

(٢) في النسخ: «إنهم كانوا مجرمين».

(٣) في (ف): «تعذب طائفة».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٧) بلفظ: (طائفة: رجل).

(٦٧) ـ ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾: أي: مجتمعون على النِّفاق، مطابقون على إيذاء الرسول والمؤمنين على اتِّفاق[١].

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ ﴾: بما يُنكره الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾: ما يرضاه الشرع والعقل. ومن المنكرات: تركُ الجهاد، وهم به يَأمرون، ومن المعروف: الجهاد، وهم عنه يَنْهَون.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾: أي: عن الإنفاق في الجهاد وسُبُل الطاعات من الزكوات ونوافلِ الصدقات.

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾: أي: تركوا ذكر الله وطاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي: خذلهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾: أي: هم الخارجون عن قبول أمر الله والعملِ به.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ ﴾؛ أي: بتكذيب رسول الله ﷺ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾؛ أي: عن تصديقِه واتِّباعه[٢].

وقال الضحاك: يأمرون بالكفر وينهون عن الإسلام[٣].

وقال القشيري رحمه الله: المنافق لصاحبه أسٌّ به قِوَامُه، وأصلٌ به قيامُه، يُعِينه

---

(١) في (ر) و(ف): «عن النفاق».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٤١) عن عطاء عن ابن عباس.

(٣) المصدر السابق.

على فساده، ويعمِّي عليه طريقَ رشاده، والمؤمنُ يَنصر المؤمن؛ يبصِّره عيوبَه، ويقبِّح في عينه ذنوبه، فهو على السَّداد يُنْجِده، ومن الفساد يُبْعده، والمنافقون يقبضون أيديهم لا يُنفقون في سبيل الله، ولا يَجِدُّون في إعانة عباد الله، ولا يأخذون بأيدي الضعفاء لوجه الله، ولا يرفعون أيديهم في طلب الحوائج إلى الله.

﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: تركوا طاعتَه وآثروا مخالفتَه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: تركهم وما يختارون؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧][(١)].

* * *

(٦٨) ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾: أي: الذين يُظهِرون الإيمان ويضمِرون الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾: أي: المجاهرين به.

﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْ﴾: أي: واقعةٌ موقعَ ما استَحَقُّوه من الجزاء على كفرهم.

﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: طردهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾: دائم.

وقال القشيري رحمه الله: لهم النار في الآجلة، والعذابُ المقيم في العاجلة، وتلك[(٢)] عذابُ الحُرقة، وهذه عذاب الفُرقة.

* * *

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٣).

(٢) في (ر): «ذلك».

(٦٩) ـ ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: خطابٌ للمنافقين، وفي أوله مضمَرٌ، وتقديره: وأنتم في معاملتكم كالذين من قبلكم.

وقيل: أي فِعْلي بكم في الدنيا والآخرةِ كفِعْلي بالذين مِن قبلكم.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: منعةً وبطشاً[١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾: يتكثَّرون بالأولاد ويعتضِدون[٢] بالأموال، فلم يعتصِموا بقوة أنفسهم ومعونةِ أولادهم وأنصارهم وكثرةِ أموالهم حين كذبوا رسلي واستحقُّوا إنزال بأسي.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾: أي: صَرفوا إلى التمتُّع الحاليِّ نصيبَهم من الدنيا ولم يقدِّموا إلى الآخرة.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾: فعلتُم أنتم في الدنيا فِعلَهم.

وقوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾: أي: في آيات الله بالباطل، فإذا كنتم في سوء المعاملة مثلَهم، وفي القوة والمنعة دونهم، فما يؤمِّنُكم أن يصيبَكم من العقوبة مثلُ[٣] ما أصابهم.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٦٦) دون عزو.

(٢) في (أ): «ويتعصون».

(٣) «مثل» ليست في (أ) و(ف).

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أي: الذين رضُوا من آخرتهم بدنياهم بَطَلتْ أعمالهم في الدارين فلا ينتفعون بها: أمَّا في الدنيا فقد قصدوا بذلك توهينَ الإسلام وقهرَ أهله وعلوَّ أنفسهم، فأبطل الله تعالى كيدَهم وخيَّب أملهم، قال تعالى: ﴿لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، ﴿لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وفي الآخرة لا ثواب لهم ولا نجاة.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: ذهبت أموالهم فيما ضرَّهم ولم ينفعهم، ولو ذهبت فيما لا ينفعُهم ولا يضرُّهم كانت خسراناً، فكيف وقد ذهبت فيما يضرُّهم ولا ينفعهم؟ قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

* * *

(٧٠) ـ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِ﴾: هي قَرْياتُ لوطٍ، ومعناها: المنقلِبات[1]، حيث جعَل الله عاليَها سافلَها، و﴿أَلَمۡ﴾ استفهام بمعنى التقرير.

قال القفَّال: أي: قد أتاهم خبرُ الأمم السالفة، سمعوا ذلك وعرَفوه، وشاهدوا آثار إيقاع الله بهم بما جعلهم نكالاً وعبرةً لغيرهم؛ كما فعل بقوم نوحٍ صلوات الله عليه حين أُهلكوا بالغرق، وعادٍ بالريح الصَّرصَر العاتية، وثمودَ بالرجفة والصاعقة،

---

(١) في (أ): «الملقيات».

وقومِ إبراهيم بالتشتيت وسلب الملك والنعمة؛ أي: من نمرود، وأصحابِ مدين بعذابِ يوم الظلة، وقومِ لوط بانقلاب الأرض، وكلُّ ذلك كان عدلاً من الله تعالى وحكمةً وعقاباً لمن ظلم نفسه وعصى ربَّه وكذَّب رسلَه واستحقَّ عقابه، فليحذر المنافقون أن يُفعل بهم ما فُعل بأولئك.

وقوله تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: يرجعُ هذا إلى كلِّ هذه الأمم، وإنْ صُرف إلى ما يليه وهي المؤتفكات ـ ورسولُ أهلها واحد وهو لوط عليه السلام ـ فقد قيل: كان في كلِّ قرية رسولٌ من جهة لوط، فلذلك جُمع.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: أي: ليس من صفة الله تعالى ظلمُ العباد بتعذيبهم من غير ذنبٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: بإيقاعها فيما يوجب العقوبة.

* * *

(٧١) ـ ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾: ذكر بمقابلةِ المنافقين والمنافقات: المخلِصين والمخلصات، وتغاير صفات الفريقين، فالمخلصون ذكورهم وإناثهم يتوالون على الدين ويتناصرون ويتعاونون حتى إن الرجل ليخرج إلى الجهاد وامرأته تهيئ أسبابه وتخرج النساء مع الرجال أيضاً فيداوين الجرحى ويعالجن المرضى ويصلحن الطعام ويحملن الماء وكذا كل الخيرات في الدين.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: وقد فسَّرناهما في تلك الآية، وهو خلاف صفات المنافقين.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: وهو خلافُ صفة المنافقين، هؤلاء يصلُّون وفي الصلاة ذكرُ الله، وأولئك داوَموا على نسيان الله.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: وهو خلاف صِفة[1] المنافقين، فإنهم يقبضون أيديهم.

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كلِّ الأوامر والنواهي، فهو خلاف صفة المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[2].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: بخلاف المنافقين[3] ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال مقاتل: ﴿عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره[4].

وقال القفَّال: ﴿عَزِيزٌ﴾: منيعٌ قادرٌ على مجازاة المطيعين والعاصين ﴿حَكِيمٌ﴾ في توفيق المؤمنين وخذلان المنافقين.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكَر في المؤمنين والمؤمنات: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وذكَر في الكفار: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وذكَر في المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، ولم يقل: بعضهم أولياءُ بعض؛ لأن المؤمنين يتوالَون ويتناصرون ويتعاونون على الدِّين الحق، والكفارَ لهم دينٌ أيضاً وهو باطل وهم يتوالون عليه ويتعاونون ويتناصرون، فأما المنافقون فليس لهم دِينٌ يُظهرونه ويمكِنُهم التوالي والتعاونُ والتناصُر عليه، لكن بعضهم على صفةِ بعضٍ، فلذلك قال: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[5].

---

(١) في (ر): «صفات».

(٢) «﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾» ليس في (ف).

(٣) في (ر) و(ف): «بخلاف ما للمنافقين».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨١).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٢١ ـ ٤٢٢).

وقال في هذه الآية: يجوز أن يكون هذا إخباراً عنهم أنهم كذلك؛ لأنهم صاروا بالإسلام أولياء؛ قال تعالى: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويجوز أن يكون أمراً من حيث المعنى؛ أي: ليكونوا أولياء بعضُهم لبعضٍ، فقد نهَى عن موالاة الكفار لقوله[١]: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾[النساء: ١٤٤]، وبقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، فكان أمراً لهم أن يكون[٢] بعضهم أولياءَ بعض[٣].

وقال القشيريُّ رحمه الله تعالى: إن الله تعالى وصف المؤمنين بأنهم يتحابُّون في الله، ويقومون بحقِّ الله، ويتصاحبون لله، ويعادُون مَن يعادُون لأجل الله، تركوا حظوظهم لحقِّ الله، وآثروا على هواهم[٤] رضاء الله، أولئك الذين عصمهم الله في الحال وسيرحمهم في المآل[٥].

***

(٧٢)- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: وهو في مقابلةِ قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ٧٢].

---

(١) «لقوله» كذا في النسخ، ولعل الأحسن: (بقوله).

(٢) في (أ): «أمراً لهم بكون».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٢٦).

(٤) في (أ): «أحوالهم» وفي (ر): «أنفسهم». والمثبت من (ف) و«اللطائف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً﴾: أي: جزاءً عمَّا احتمَلوه من أذى الحر وسوءِ المنازل في أسفارهم للغزوات وتركِهم مواطن الراحات.

وقوله تعالى: ﴿فِى جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ﴾: أي: إقامةٍ، وقد عَدَن بالمكان عَدْناً، والمعدِن: الـمُقام؛ أي: هي مواضع إقامةٍ وثباتٍ لا يبغون عنها حِوَلاً، وليس هذا بتكرارٍ لقوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ لأن قوله: ﴿جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ﴾ إخبارٌ بدوام مُقامهم فيما أُعدَّ لهم من المساكن، وقولَه: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إخبارٌ بدوام النعيم لهم في الجنان، فهما معنيَان مختلفان.

وقال الأعمش: ﴿عَدۡنٍ﴾ وسط الجنة[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: بطنان الجنة[٢].

وقال عبد الله بن عمرو[٣] رضي الله عنهما: إن في الجنة قصراً يقال له: عدن، حوله البروج والمروج، وله خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبيٌّ أو صدِّيق[٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٧٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٦٧)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٠). وهذا القول هو بمعنى المذكور قبله عن الأعمش، فإن معنى بطنان الجنة: وسطها، كما جاء في رواية الطبري لخبر ابن مسعود من طريق الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن ابن مسعود، وفيه: (فقلت للأعمش: ما بطنان الجنة؟ قال: وسطها). وقوله: «وقال ابن مسعود رضي الله عنه: بستان الجنة» ليس في (أ) و(ف)، وقد استدرك على هامش (ر).

(٣) في النسخ: «عمر»، والمثبت من المصادر.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٩٣٨٠) و(١٩٣٩٣) و(٢١٩١٩) و(٣٢٥٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٣)، وزيد في بعض الروايات: (أو شهيد أو إمام عادل). وبهذه الزيادة رواه البزار في «مسنده» (٢٤٨٧) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً، لكن إسناده ضعيف، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٩٦): فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف.

وقال الكلبي: ﴿عَدۡنٖ﴾؛ أي: أعلى درجةِ الجنة، وفيها عينُ التسنيم، والجِنَانُ حولها محدِقةٌ بها[1]، وهي مغطَّاةٌ من يومِ خلَقها الله تعالى حتى يَنزلها أهلُها الأنبياءُ والصدِّيقون والشهداءُ والصالحون ومَن شاء الله جل جلاله.

وقال مقاتل: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾: قصورُ الدرِّ والياقوت والذهب، فتهبُّ ريحٌ طيِّبةٌ من تحت العرش فتُدخل عليهم كُثبانَ المسك الأبيض[2].

وقال عطاء: ﴿عَدۡنٖ﴾: نهر في الجنة جنَّاتُه على حافَّتيه[3].

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «عدنٌ دارُ الله التي لم ترَها عينٌ ولم تخطرْ على قلب بشر، لا يسكنُها من بني آدمَ غيرُ ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء[4]، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك»[5].

وقال الحسن: سألت أبا هريرة وعمران بن حُصين عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ فقالا: على الخبير سقطت، سألنا رسول الله ﷺ فقال: «قصرٌ في الجنة من اللؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كلِّ دار بيتٌ من زمردةٍ خضراء، في كلِّ بيتٍ سبعون سريراً، على كلِّ سريرٍ سبعون فراشاً من كلِّ لون، على كلِّ فراش زوجةٌ من الحور العين»[6].

---

(١) «بها» من (أ).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨١ ـ ١٨٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٤).

(٤) بعدها في (ف): «والصالحين».

(٥) رواه البزار في «مسنده» (٣٥١٦ ـ كشف الأستار)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٣/ ١١٥١)، وابن الجوزي في «العلل» (٢١)، وقال: هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد.

(٦) رواه البزار في «مسنده» (٣٥٦٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» =

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: أي: أعظمُ من هذه النعم قَدْراً وأشرفُ منها ذكراً رضوانُ الله تعالى عن هؤلاء، ومن رضوانه قبولُ أعمالهم اليسيرةِ، وتيسيرُ الحساب عليهم، وإثابتُهم على الأعمال المنقطِعة نعماً لا تَنقطع وكلَّ كرامةٍ في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: أي: الرضوان الذي نالوه هو الفوز العظيم الذي لا أعظم منه؛ لأنه دركُ كلِّ مطلوب، ووصولٌ إلى كلِّ مأمول، وأمانٌ من كلِّ محذور.

وقال الإمام القشيري رحمه الله تعالى: المساكنُ لا تطيب للساكن إلا برؤية المحبوب، إلا أنه قد تختلف بهم الهمَم: قومٌ تَطيبُ مساكنهم بوجود عطائه[1]، وقومٌ تَطيب أنفسهم بشهود لقائه، قال قائلهم:

وإنِّي لأهوَى الدارَ ما يستقرُّ بي ... لها الودُّ إلا أنها مِن دياركا

وقال آخر:

أجيرانَنا ما أوحشَ الدار بعدَكمْ ... إذا غِبْتُمُ عنا ونحن حُضورُ[2]

***

(٧٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: لمَّا وصف الله المنافقين

= (٦/ ١٨٤٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٤٢٤)، وقال: موضوع.

(١) في (ر) و(ف): «خطابه»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٥ ـ ٤٦).

والكفار، وكشف له أحوال المتستِّرين منهم بالإظهار، أَمَره بجهادهم الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من صفات المؤمنين، وخلافُ ذلك من صفات المنافقين.

وقال عطاء: نسخت هذه الآيةُ كلَّ شيء من الصَّفح والعفو(١).

وقوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي: بالسلاح في وقته وباللسان في وقته.

﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: باللسان(٢).

وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود(٣).

وقيل: بالسيف بعدما ظهرت أحوالهم، قال تعالى ﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: ولا تداهِنْهم وآيِسْهم من نفسك، وقرِّرْ عندهم أنه لا موادَّة بينك وبينهم، وإنما هو الإسلام أو السيف.

وقوله تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ غلبوا في الجهاد أو غلبوا ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جهنم.

وقال القشيريُّ رحمه الله: المجاهدةُ أولُها باللسان، بشرحِ البرهان وإيضاحِ الحجج والبيان، ثم إنْ حصل من العدوِّ جحدٌ بعد إزاحة العذر فالوعيدُ والزجر بالإعلان، فإن لم يَنجَعِ الكلام ولم يَنفعِ المَلام فالقتالُ والحِراب بالسَّيف والسِّنان(٤).

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٧٨)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٧٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٢).

(٣) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤١).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٦).

(٧٤) ـ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾: وهذا ينتظِمُ لِمَا سبق من ذكر مقابحِ المنافقين وطعنِهم في الرسول وفي الدِّين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾: هي كلُّ لفظةٍ ترجع إلى الطعن في الدِّين أو في الرسول، وقد بينَّا بعضها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾: أي: حكَم لهم بالكفر بهذه اللفظة بعدما حكَم بإسلامهم بظاهر إقرارهم، واختلفت الروايات في هذا القائل:

قال عروةُ وابن إسحاقَ ومجاهدٌ: هو الجُلَاس بن سُوَيدِ بنِ الصامت، وقد بينَّا قصتَه في الآيات المتقدمة، ومقالتَه: إن كان ما [١] جاء به محمد حقًّا لنحن شرٌّ من الحمير[٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذه الكلمة ليست بكفر إلا إن ثبت معها زيادة عليها هي كفر.

وقال قتادة: هو عبد الله بنُ أبيٍّ ابنُ سَلولَ حين قال: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[٣].

---

(١) في (ف): «الذي».

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٩ ـ ٥٧١). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٣) من طريق محمد بن إسحاقَ عن محمدِ بن أبي محمدٍ عن عكرمةَ أو سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكَر هذا القولَ أيضاً، وحكى عنه أنه قال: والله ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمدٍ إلا كما قال القائل: سمِّنْ كلبَك يأكُلْك.

قال: ويُشبه أن يكون هذا متَّصلاً بقوله: ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]، وكانوا يستهزئون بالله وآياته ورسوله، وهو كفر، أو قالوا قولَ كفرٍ لم يبين الله لنا ذلك، فلا نفسِّره أنهم ماذا قالوا لمَّا ليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة(١).

وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ قال مجاهد: هو همُّ عبد الله بن أبيٍّ ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾(٢).

وقال مجاهد في روايةٍ: هو همُّ الجلاس بقتلِ مَن أنكر عليه قولَه: إن كان ما يقول محمد حقًّا لنحن شرٌّ من الحمير، على ما روينا(٣).

وقال الكلبي: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ يعني: المنافقين ليلةَ العقبة، همُّوا بقتل النبيِّ عليه السلام في غزوة تبوك: عبد الله بن أبيٍّ، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْحٍ القرشي، وطعمةُ بن أُبَيْرِقٍ، والجُلاس بن سُويدٍ، ومجمِّع بن جارية، وأبو عامر بن النعمان، وأبو الأخوص(٤)، وكانوا خمسة عشر رجلاً.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٣٠).

(٢) ذكره دون عزو الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤). وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٨٣) عن قتادة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٣). وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٥).

(٤) في (أ): «الأحوص». وهذا الخبر ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٤)، وفيه: (وأبو الخواص). وروى نحوه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٥٨) عن ابن إسحاق في خبر طويل، وفيه أن النبي ﷺ أنبأ حذيفة بأسمائهم وكانوا اثني عشر رجلاً منهم المذكورون هنا، وفيه بدل «أبو الأخوص»: «أبو حاضر =

وقال ابن كيسان: لمَّا رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك وقف له على العقبة اثنا عشر رجلاً من المنافقين ليفتِكوا به إذا علَاها ومعهم رجلٌ مسلم، فأخبر جبريل النبي عليه السلام بما قدَّروا وتنكَّروا له في ليلةٍ مظلمة، فأمر جبريلُ رسولَ الله ﷺ أن يرسل عليهم(١) مَن يضرب وجوهَ رواحلهم، وعمارُ بن ياسر يقود برسول الله ﷺ وحذيفةُ يسوق به، فقال لحذيفة: «اضْرِبْ وجوهَ رواحِلهم»، فضرب بها حتى نحَّاهم، فلما نزل قال لحذيفة: «مَن عرفتَ من القوم؟» قال: لم أعرف منهم أحداً، غير أني عرفتُ جمل فلانٍ، فقال رسول الله ﷺ: «إنهم فلانٌ وفلانٌ» حتى عدَّهم كلَّهم، فقال حذيفة: ألا تبعثُ إليهم فيأتوك؟ قال: «أكرهُ أن يقول العرب لمَّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدُّبيلة» قيل: يا رسول الله، وما الدُّبيلة؟ قال: «شهابٌ من نارِ جهنم يضعُه على نيَاط فؤاد أحدهم حتى تَزهَق نَفْسُه»(٢). النياط: عرقٌ متعلِّق بالقلب إذا انقطع مات صاحبه(٣).

= الأعرابي». لكن البيهقي رحمه الله توقف عند ذكر عبد الله بن أبيٍّ معهم حيث قال: (إلا أن ابن إسحاق ذكر قبل هذا أن ابن أبيٍّ تخلف في غزوة تبوك، ولا أدري كيف هذا؟).

(١) في (ف) و(أ): «إليهم».

(٢) ذكره عن ابن كيسان الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٦٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٦٩). ورواه بنحوه البزار في «مسنده» (٢٨٠٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٠) من حديث حذيفة رضي الله عنه. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٧٩٢) من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه، وإسناده قوي، ورواه البيهقي أيضاً (٢/ ٢٥٨) من طريق أبي الأسود عن عروة، ومن طريق يونس عن ابن إسحاق، لكن إخبار النبي ﷺ بأسمائهم على التعيين لم يرد في شيء من هذه الأخبار سوى خبر ابن إسحاق. انظر التعليق السابق. وحديث الدبيلة رواه مسلم (٢٧٧٩) عن حذيفة رضي الله عنه، وفيه: «في أُمتي اثنا عَشَر منافقًا لا يدخلون الجنة، ولا يَجِدون رِيحها، حتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاطِ ثمانيةٌ منهم تَكْفِيكهم الدُّبَيْلَةُ، سِرَاجٌ من النَّارِ يَظْهَر في أكتافهم، حتى يَنْجُمَ من صدورِهم».

(٣) «النياط: عرق متعلق بالقلب إذا انقطع مات صاحبه» ليس في (أ) و(ف).

وقال أبو رَوْقٍ: ذكروا أن اثني عشر رجلاً من المنافقين أتوا رسول الله ﷺ وهو في بيته ليفتكوا به، فأتاه جبريل فعرَّفه إياهم حتى عرَفهم وأخبرَ بقصتهم، فقال رسول الله ﷺ: «إن اثني عشر رجلاً من المنافقين ائتمَروا بأمر لم ينالوه، فلْيقوموا ولْيستغفروا فأستغفرَ لهم» فلم يقوموا فقال: «قم يا فلان قم يا فلان»، حتى أتى على آخرهم، فقالوا: يا رسول الله، نستغفرُ الله ونتوبُ إليه مما كنَّا عليه من الكفر، فقال: «الآن ولم تُجيبوني[1]؟! اخرجوا عني» فخرجوا مفتضَحين، فنزلت فيهم: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾: أي: ما عابوا.

وقيل: أي: ما طعنوا.

ومعناه: أي: ليس للمؤمنين عندهم ذنبٌ يَعيبونهم به ويغتاظون به عليهم إلا أنْ أغناهم الله من فضله[3] بالغنائم والصدقات، ورسولُه كان سبباً لذلك وموصِلاً إليهم، وهذا ليس مما يُنقم به.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾: أي: إنْ يُخْلِص هؤلاء المنافقون فهو خيرٌ لهم في الدنيا والآخرةِ؛ لنجاتهم من العقاب ووصولِهم إلى الثواب في العُقبى، وأمنِهم وعزِّهم وحُسنِ ذكرِهم في الدنيا.

---

(١) في (ف) و(أ): «تخشوني».

(٢) لم أجده، وهو مخالف للأخبار السابقة مرسلة ومرفوعة من أن القصة وقعت خلال غزوة تبوك، وقد روي في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ خبر شبيه ببعض ما هنا، رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيبا فقال: «قم يا فلان فاخرج فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق» فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم.. الحديث. وسيأتي بتمامه عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾.

(٣) «من فضله» من (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾: أي: عن التوبة عن النفاق[١] ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ باللعن وهتك السِّتر والجلاء والسَّبي والقتل ﴿وَ﴾ في[٢] ﴿الْآخِرَةِ﴾ بعذابِ النار أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: في الدنيا ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: أي: مَن يتولَّى الذبَّ عنهم إذا نزل عذابُ الدنيا، ولا مَن ينصرُهم فيمنعُ الله عن تعذيبهم، ولم يذكر الآخرة لأن الملكَ يومئذ لله فلا وليَّ ولا نصير يومئذ لأحد، فأما في الدنيا فقد يكون للإنسان وليٌّ ونصير، وهؤلاء ليس لهم في الدنيا ذلك.

وقيل: أي: ما لهم مَن يوالونهم ويتعصَّبون لهم، ولا مِن أعوانهم والقائمين بنصرتهم في هذه الدنيا مَن يصرفُ عنهم العذاب في العُقبى.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ولمَّا نزل ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قام الجلاس فقال: أسمع الله يَعْرِض عليَّ التوبة، والله لقد قلتُ هذا، وإن الذي أخبر عني لصادقٌ، فتاب وحسُنت توبته[٣].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: تمنَّوا زوال دولة الإسلام، فأبى الله إلا إعلاءَ أمرِها على الدوام.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: وما عابوهم إلا بما هو أجلُّ الخصال، فلم يحصلوا إلا على الخزي والنكال.

---

(١) «عن النفاق» من (أ).

(٢) «في» من (أ) و(ف).

(٣) ذكره عن عطاء عن ابن عباس الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٥٧). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٧٠)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٥٧)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٧٠)، عن الكلبي. ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٣٠٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٦)، عن عروة بن الزبير، وهو عندهم متصل بقصة قوله: (لنحن شر من الحمير).

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [وأقوى أركانِ] التوبة: حلُّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيامُ بكلِّ حقوق الرب[1].

***

(٧٥) - ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي: ومن هؤلاء المنافقين مَن عاهد الله، هو ثعلبةُ بن حاطب، وقد كتبنا هذه القصة في أمالي بعض[2] مشايخنا ببخارى مسنداً عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: أن ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال النبي ﷺ: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدِّي شكره خيرٌ من كثيرٍ لا تُطِيقه»، ثم قال له مرةً أخرى، فقال له: «ألَا ترضَى أن تكونَ مثلَ نبيِّ الله؟ فوالذي نفسي بيده لو شئتُ أن تسير معي الجبال ذهباً وفضةً لسارت» فقال: والذي بعثك بالحق نبيًّا لو دعوتَ الله أنْ يرزقني مالاً لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ ارزقه مالاً».

فاتَّخذ غنماً فنَمَتْ كما ينمو الدودُ، فضاقت عليه المدينة فتنحَّى عنها فنزل وادياً من أوديتها، ثم جعل يصلي الظهرَ والعصر بجماعةٍ ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحَّى[3] حتى ترك الصلوات إلا الجمعةَ، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة، فطفِقَ يتلقى الركبان يوم الجمعة يسألهم عن الأخبار، فسأل رسولُ الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة» قالوا: يا رسول الله، اتَّخذ غنماً فضاقت عليه المدينة، وأخبروه

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٧)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) قوله: «في أمالي بعض» من (ر)، ووقع بدلًا منه في (أ): «من بعض»، وفي (ف): «لبعض».

(٣) «فتنحى» ليست في (أ) و(ف).

بأمره، فقال النبي عليه السلام: «يا ويحَ ثعلبةَ يا ويحَ ثعلبة» فأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وأنزلَ عليه فرائضَ الصدقة، فبعث النبيُّ ﷺ رجلين على الصدقة وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة وأسنانَ الإبل، وأمرهما أن يخرجا ويأخذا الصدقاتِ من المسلمين، وقال لهما: «مُرَّا بثعلبة وبفلانٍ من بني سليمٍ فخُذا منهما الصدقة»، فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة فأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزيةٌ، ما هذه إلا أختُ الجزية، ما أدري ما هذا؟! انطلِقا حتى تفرغا ثم عودا إليَّ، فانطلقا.

وسمع بهما السُّلمي، فنظر إلى خِيَار أسنان إبله فعزلها[1] للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ منك هذا، قال: بلى خذوه فإن نفسي بذلك طيِّبة، وإنما هي لي، فأخذوها منه، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرَّا بثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا أختُ الجزية! فانطلِقا حتى أرى رأيي.

فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يتكلَّما ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلميُّ، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآيات، وعند رسول الله ﷺ ناسٌ[2] من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويلك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى رسول الله ﷺ، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال عليه السلام: «إنَّ الله قد منعني أن أقبل منك صدقتك» فجعل يَحثي على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عملُك، قد أمرتُك فلم تُطِعني» فلما أَبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله.

---

(١) في (ف): «فعدها».

(٢) «ناس» ليست في (أ) و(ف).

وقُبض رسول الله ﷺ ولم يَقبل منه شيئاً، حتى أتى أبا بكر حين استُخلف فقال: قد علمتَ منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأنا أقبلها؟! فقُبض أبو بكر رضي الله عنه ولم يقبلها.

فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي، فقال: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها؟! فقبض عمر ولم يقبلها منه.

ثم ولي عثمان رضي الله عنه أتاه يسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وعمر وأنا أقبلها منك؟! فلم يقبلها منه عثمان، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه[1].

وذكروا أن ثعلبة قبل سؤال المال وحدوث هذا الحال كان ملازماً لمسجد رسول الله ﷺ ليلاً ونهاراً، وكان يلقب بذلك: حمامةَ المسجد، وكانت جبهتُه صارت كرُكْبةِ البعير لكثرة سجوده على الأرض ـ وقيل: على الحجارة المحمَّاة بالشمس ـ وجعل يخرج كلما فرغ رسول الله ﷺ من الفجر بالجماعة من غير لبثٍ واشتغالٍ بدعاء أياماً، فقال له عليه السلام: «مالك صرت تعمل أعمال المنافقين من تعجيل الخروج بعد الجماعة؟»، فقال: يا رسول الله، إني في غاية الفقر والفاقة، ولي ولامرأتي ثوبٌ واحد وهو الذي عليَّ، فأنا أصلِّي فيه هاهنا وهي عريانةٌ في البيت، ثم أعود إليها فأنزعه وهي تلبسه فتصلي فيه، فسَلِ الله أن يوسِّع عليها، ثم القصة على ما سقناها[2].

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٢٥٣)، والطبري في «التفسير» (١١/ ٥٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٧٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، قال البيهقي: هذا حديث مشهور فيما بين أهل التفسير، وإنما يروى موصولًا بأسانيد ضعاف. وقال الذهبي في «تجريد أسماء الصحابة» (ص: ٦٦): منكرٌ بمرَّة.

(٢) ذكره حقي في «روح البيان» (٣/ ٤٦٩)، والآلوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٤٣٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: وسَّع علينا المالَ ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾؛ أي: لنتصدَّقن، أُدغمت التاء في الصاد وشُدِّدت؛ أي: لنصرفنَّ[١] في وجوه الخير من الجهاد وغيره ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

قيل: مِثْلَ عثمان بنِ عفان وعبدِ الرحمن بن عوف في البذل والسخاء.

* * *

(٧٦) ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: ووسَّع الله عليهم الدنيا ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: بالفضل، فمنعوا حقوقه ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾؛ أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله في أداء حقوق الأموال ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: عن الإسلام وأحكامه.

* * *

(٧٧) ـ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾: قال مجاهد: فأعقبهم اللهُ نفاقاً[٢]؛ أي: جعل عاقبةَ ذلك نفاقاً.

﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ترديداً واضطراباً في العقيدة، وشكًّا في الإسلام، وهذا من الله تعالى جزاءٌ لهم على بخلهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل: فأَعقبهم دواماً على نفاقهم[٣]،

---

(١) في (ف): «لنصدقن».

(٢) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٤/ ٣٥٠)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٦٤) بلفظ: (أعقبهم الله ذلك بحرمان التوبة كما حرم إبليس).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٣٣).

فقد[١] قيل: كانوا منافقين فخذلهم الله وتركهم في ضلالهم لاختيارهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾: أي: إلى يوم القيامة، وهو لتأبيدِ نفاقهم، فمَن بقي منافقاً إلى يومِ القيامة لم يثبت له حكمُ الإسلام أبداً.

ثم هو حجةٌ لنا في مسألةِ خَلْق الأفعال، ومسألة[٢] الأصلح.

وقال الحسن: فأَعقبهم بخلُهم نفاقاً[٣]؛ أي: صار سبباً لذلك، وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: يرون بخلَهم؛ كما قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾: فوَعْدُهم: عهدُهم المذكور في أول الآية، وكذبُهم: قولُهم: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ودلَّ على أنَّ مَن قال: لأفعلنَّ كذا، وهو ينوي ألا يفعله كان كاذباً.

وقال النبيُّ ﷺ: «ثلاثٌ من علامات المنافق[٤]: إذا حدَّث كذب، وإذا وعَد أَخْلَف، وإذا اؤتُمن خان» [٥]، ومعناه: إذا استحلَّ ذلك، أو كانت هذه الأشياء في الدِّين لا في معاملة الخَلق.

وذكر محمد بن جرير في «تفسيره» عن معبد بن ثابت أنه قال في هذه الآية: إنما هو شيء نوَوْه في أنفسهم ولم يتكلَّموا به يدلُّ عليه ما بعده، وهو قوله تعالى:

---

(١) «فقد» ليست في (أ).

(٢) في (ر): «ومثله».

(٣) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٤/ ٣٥٠).

(٤) في (أ): «المنافق».

(٥) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧٨) - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[١]: استفهامٌ بمعنى التوبيخ؛ أي: يعلم ما أَسرُّوه في أنفسهم يومَ عاهدوه وما يتناجَونه فيما بينهم مما لا يَشْرَكُهم في العلم به غيرُهم من الطعن على شرائع الإسلام من الصدقات ووجوهِ الطاعات، وهو علَّامُ الغيوب لا يخفى عليه من الغائبات شيءٌ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: من الغائبات عن الخَلق، ولا يَغيب عن الله تعالى شيء[٢].

* * *

(٧٩) - ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: أي: هم الذين يَعيبون المتطوِّعين، أُدغمت التاء في الطاء وشدِّدت، وقوله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من المخلِصين في الصدقات الزائدة على الزكَوات اللازمة، فيقولون: يراؤون بما يفعلون.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾: أي: ويَعيبون الفقراء الذين يأتُون بما لا يَفي حالهم بأكثرَ منه، والجُهْد بالضم: الطاقة، والجَهْد بالفتح: المشقَّة[٣].

---

(١) لم أجده عند الطبري، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٧٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٧٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٣٤).

(٣) ويجوز في معنى الطاقة فتح الجيم أيضاً. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: جهد).

وقال الشعبيُّ: الجَهد بالفتح: في العمل، والجُهد بالضم: في القوت[1].

وقيل: هما لغتان كالضَّعف والضُّعف، والكَـرْه والكُرْه، وهما الحملُ على النفس بما يشقُّ عليها.

وقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾: أي: يَهْزَؤون.

وقوله تعالى: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾: أي: جزاهم[2] جزاءَ سُخريتهم، وقد بينَّا نظائره في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

وقال الكلبي: قال النبيُّ ﷺ: «اجمعوا صدقاتكم»، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلافِ درهم، وقال: قد كان لي ثمانيةُ آلافِ درهم، فأقرضتُ ربِّي أربعةَ آلافٍ وأمسكتُ لنفسي أربعةَ آلاف، فقال عليه السلام: «بارك اللهُ لك فيما أَعطيتَ وفيما أمسكتَ»، ثم جاء عمر بنحو ذلك، وجاء عاصم بن عديٍّ بسبعين وسقاً من تمر ـ وفي رواية: بمئة وسقٍ ـ، فلمَزه المنافقون وقالوا: ما أعطاه إلا رياءً، وجاء أبو عقيلٍ بصاعٍ من تمر، فأمره رسول الله ﷺ أن يضعه فوق الصدقات، فلمزه المنافقون وقالوا: كان الله غنيًّا عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحبَّ أن يذكِّر نفسه ليعطى من الصدقة[3].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٦٩).

(٢) في (ف) و(أ): «جازاهم».

(٣) رواه أبو الشيخ في «تفسيره» عن الحسن مرسلًا مطولًا كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٥٢)، وللقصة شواهد عن جمع من الصحابة والتابعين رواها الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٨ ـ ٥٩٦)، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار (٢٢١٦ ـ كشف الأستار). وخبر أبي عقيل رواه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

وقال مقاتل: الذين يلمزونهم هم معتِّبُ بن قُشير وحَكيم بن زيد(١).

وقال عطاء: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾: سهل بن رافع(٢).

وقيل: هو أبو خيثمة.

وفي رواية: قال لعبد الرحمن: «أكثرتَ يا عبد الرحمن، هلا تركتَ لأهلك شيئاً» قال: تركتُ لهم شطرَ مالي، فدعا له بما روينا(٣).

* * *

(٨٠) ـ ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال عامةُ المفسرين: لمَّا مات عبد الله بن أبيٍّ أراد رسول الله ﷺ أن يصلِّي عليه، فأخذ عمر بثوبه فقال: ما أمرك الله بهذا؛ قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فقال: «قد خيَّرني ربي» فقال عمر رضي الله عنه: إنه قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قال: «أزيد على السبعين فعسى الله أن يغفر لهم» فأنزل الله عند ذلك ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦](٤)، ولكن هذا

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨٦).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٦٨) من طريق عطاء عن ابن عباس. وتحرف فيه «رافع» إلى: نافع.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨٥).

(٤) رواه مختصراً عبد الرزاق في «تفسيره» (١١١٣) عن قتادة، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠١) عن =

يَبْعُد؛ أن يفهم رسول الله عليه السلام التخييرَ وعمرُ يمنعه عن ذلك، ولا يجوز أن يفهم التخيير من ذلك، أو يخرج ذلك على التحديد، أو تكون هذه منسوخةً بالآية التي في المنافقين لأنه وعيدٌ والوعيد لا يحتمِلُ النسخ.

والوجه فيه والله أعلم: إن استغفرتَ لهم فإن استغفارك ليس بالذي يردُّ ولا يجاب، لكنهم كفروا بالله ورسوله، وقد تعلم من حُكمي أني لا أغفر لمن مات على ذلك، فخرج ذلك على الاعتذار لرسول الله ﷺ في ذلك، والنهيِ[1] له عن الاستغفار؛ كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]، وقد علم هو كفرَ المنافقين؛ إذ لا يُحتمَل أن يكون ذلك قبل أن يطَّلع رسول الله ﷺ على كفرهم[2].

وقال غيره: قوله عز وجل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ليس بأمرٍ، وقوله: ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ليس بنهيٍ، و﴿أَوْ﴾ ليس بتخييرٍ، بل هو تسويةٌ بين الفعلين: أنه لا يقع به المغفرة،

= ابن عباس، وإسناده ضعيف جداً. وأورد عليه أنّ سورة براءة آخر ما نزل فكيف تكون الآية التي في (سورة المنافقين) نازلة بعدها. قاله الشهاب في «الحاشية» (٤/ ٣٤٩).

وقال ابن حجر «الكافي الشافي» (ص: ٧٨): (وأصله في المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام يصلي عليه، فأخذ عمر رضي الله عنه بثوبه فقال: أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ فقال: «إنما خيرني فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية، وسأزيده على السبعين» فصلى عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ فتُركت الصلاة عليهم. لفظ مسلم). قلت: رواه البخاري (٤٦٧٠، ٤٦٧٢)، ومسلم (٢٤٠٠).

(١) في (أ): «النهي» دون الواو، ولها وجه، لكنها وقعت في باقي النسخ «والتأويلات»: «والنهي»، بالواو.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٣٦).

وطريقُه طريقُ قول الرجل: اطلب مني هذا أو لا تطلب، فإن طلبت سبعين مرة فلَمْ أعطِكَ، هو بيانٌ أنه لا يقع في ذلك ولا أثر لذلك، والتقدير بالسبعين ليس يُقصَر عليه، بل هو بيانُ الكثرة والمبالغةُ فيها، فإن السبعين جمع السبع، وعلى السبع أكثر الأعداد: عددُ السماوات والأرضين، والأقاليمِ والبحارِ والأعضاء، وتاراتِ بني آدم وأرزاقهم(١)، والأيام السبعة، وأسباع القرآن، وأيام الدنيا، وغير ذلك، والجمع نهاية فيه، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقوله: ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢]، وقول النبي ﷺ «ما أصرَّ مَن استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»(٢).

فمعناه: إنك وإن انتهيتَ في عدد الاستغفار لم ينفعهم ذلك.

وقيل: كان يستغفر لهم بطلبهم وكانوا يسخرون بذلك، قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الفتح: ١١]، ولذلك قال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]؛ أي: سواء عندهم، فليس ذلك منهم على الجِدِّ والتحقيق.

وقيل معناه: سواءٌ عند الله في حقهم الاستغفارُ وتركُه؛ لِمَا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: أي: الخارجين عن الإيمان، ما داموا مختارين(٣) للكفر والطغيان.

وقال القشيري رحمه الله: مَن غلبَتْه الشِّقوة لم تنفعه الشفاعةُ والدعوة، وصريعُ القدرة لا يُنعشه الجهد والحيلة(٤).

(١) في (ر): «وأرزاق بني آدم»، بدل: «وتارات بني آدم وأرزاقهم».

(٢) رواه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديثٌ غريب إنما نَعْرِفُه من حديث أبي نُصَيْرَةَ، وليس إسنادُه بالقويِّ.

(٣) في (ر): «والمختارين»، بدل: «ما داموا مختارين».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٩).

(٨١) ـ ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾: المخلَّفون: الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى غزوة تبوك، ولتسميتهم بذلك معانٍ:

أحدها: أن الله تعالى خلَّفهم، وهم الذين ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾.

والثاني: أن النبيَّ ﷺ لم يأذن لهم[1] بالخروج وتركهم.

والثالث: أن النبيَّ ﷺ والمؤمنين لم يَعبؤوا بهم، ولا عَدُّوهم في جملةِ مَن يُتكثَّر بمثلهم في العسكر أو يُعتضَد بهم في رأيٍ ومشورةٍ لمَّا علموا بتثاقلهم عن الجهاد.

وتسميتُهم بذلك على هذه الوجوه تهجينٌ[2] لهم وسبٌّ وذمٌّ، وفي معناه يقول الأخطل يهجو قوماً:

مخلَّفــون ويقضــي النــاسُ أمرَهــم[3]

وقوله تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ يجوزُ أن يكون مصدراً كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القمر: ٥]؛ أي: بقعودهم، ويجوز أن يكون موضعاً ومعناه: فرحوا بالمدينة وبمنازلهم وحوائطهم لِمَا نالوا من الدَّعة والراحة.

وقوله تعالى: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: على مخالفته[4] بمعنى المصدر.

---

(١) في (ر): «تأذن لهم»، بدل: «لم يأذن لهم».

(٢) في (ر): «تهجير».

(٣) وعجزه:

وهـم بغيـبٍ وفـي عَميَـاءَ مـا شَـعروا

انظر: «المقاصد النحوية» للعيني (٢/ ٥٩٣).

(٤) في (ف): «بمخالفته» بدل: «على مخالفته».

وقيل: أي: خَلْف رسول الله ﷺ، وهو كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لا يلبثون خلفك إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٧٦] وقرئ: ﴿خِلَٰفَكَ﴾، على المعنيين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: استثقلوا ذلك لكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾: أي: قال بعضهم لبعضٍ ـ وقيل: قالوا للمؤمنين ـ: لا تخرجوا للغزو، فإنه وقع في شدة حرٍّ لا يؤمَن معها قلةُ المياه وكَلالُ الظهور والضعفُ عن المشي، فعاب الله عز وجل هذا من قولهم وهدَّدهم عليه بالنار، وذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾: أي: أخبِرهم يا محمدُ أن لهم على تخلُّفهم وتثبيطهم غيرَهم نارَ جهنم إليها مصيرُهم، وتأذِّيهم بحرِّها أشدُّ من تأذِّيهم بحرِّ الشمس والهواء.

وقوله تعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لو تدبَّروا وتفكَّروا كما يفعل ذلك مَن فَهِم وفَقِه، ولو فَقِهوا وفهموا[١] لاحتملوا قليل التعب والأذى في طاعة الله ليُفضيَ بهم ذلك إلى النعيم المقيم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضرب النبيُّ ﷺ عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبيٍّ عسكره أسفلَ من الثنية، وكان أعظمَ العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ فتخلف عبد الله فيمَن تخلَّف من المنافقين وأهل الريب، فنزلت الآية[٢].

---

(١) «وفهموا» ليست في (أ) و(ف).

(٢) لم أجده عن ابن عباس، ولم أجده في نزول هذه الآية، وروى الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٩٠ ـ ٤٩١) هذه القصة من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن البصري في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ الآية [التوبة: ٤٨]، وقد تقدم عند تفسير الآية المذكورة.

وقال مقاتل: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾؛ أي: رضي المخلفون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: بقعودهم عن غزوة تبوك ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وهم بضعةٌ وثمانون رجلاً، فمنهم مَن اعتلَّ بشدة الحر، ومنهم مَن اعتلَّ بالعسرة ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ وقال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ مع محمد، نزلت في سبعة منهم أبو لبابةَ وأصحابه، فإن[1] الحر شديد والسفر بعيد ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يعلمون[2].

* * *

(٨٢) ـ ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾: أمرٌ[3] بمعنى التهديد؛ كقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ومعناه: يضحكون على فرحهم بتخلُّفهم، وهذا في الدنيا قليل ثم يكون في الآخرة بكاءً كثيراً دائماً لا ينقطع.

قوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾: من الكفر والنفاق والمعاصي.

* * *

(٨٣) ـ ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾: أي: رجعك[4] الله من غزوةِ تبوك إلى المدينة، وقد بقي من المنافقين طائفةٌ وهلكت طائفةٌ.

---

(١) قوله: «فإن»، كذا في النسخ، وفي «تفسير مقاتل»: (قالوا).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨٧).

(٣) من هنا وقع خرم في (ر) بمقدار ورقتين، وسوف نبين نهايته في موضعها.

(٤) في (ف): «ردك».

وقيل: تخصيص طائفةٍ منهم تخصيصُ رؤسائهم.

وقد روى شعبة عن قتادة أنهم كانوا اثني عشر رجلاً[١].

وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾: أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ﴾؛ أي: فامنعهم عن الخروج معك للقتال، عاقِبْهم بأنْ لا تستصحِبَهم[٢] استخفافاً بهم، ودلالةً على سقوط محلِّهم والاستغناء في الأمور عنهم.

وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ فلم تخرجوا إلى تبوك ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ قال الحسن وقتادة: أي: مع النسوان والصبيان[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: مع مَن تخلَّف من المنافقين بغيرِ عذرٍ[٤].

وقيل: مع مَن تخلَّف عن الجهاد بعذرٍ من العميان والزَّمْنى.

وقيل: مع أهل الفساد، من قولهم: خَلَف فوهُ خُلوفاً: إذا تغيَّر إلى الفساد.

وقال القشيري رحمه الله: يقول: لا تنخدعْ لتملُّقهم، ولا تَثِقْ بقولهم، ولا تمكِّنْهم من صحبتك فيما يظهرونه من الوفاق، بعد ما ظهر وتقرَّر منهم الكذب والنفاق، وإذا انقطع سلكُ العهد لم يحتمل الشدّ، وإذا اتَّسع الخرقُ لم ينفع بعده الرقع[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٩) من طريق سعيد عن قتادة. وسعيد هو ابن أبي عروبة، فلعل كلمة (شعبة) في النسخ محرفة عن: (سعيد).

(٢) في (ف): «تصحبهم».

(٣) ذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٨٨). ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٩) عن قتادة بذكر النساء فقط.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٧٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٨٨). ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٩) بلفظ: (والخالفون الرجال).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥٠). وفيه: (... وإذا وهن سلك العهد...)، وهو الصواب، فإن المنقطع لا يصلح ذكر الشد معه، وإنما يكون ذاك للَّذي وهن.

(٨٤) ـ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾: هذه فضيحةٌ لهم بعد الوفاة، وما ذُكر قبلها خزيٌ لهم في حالة الحياة.

وقال قتادة: دخل رسول الله عليه السلام على عبد الله بن أبيٍّ ابنِ سلولَ في مرض موته وكان دعاه[١]، فسأله أن يصليَ عليه ويقومَ على قبره ويكفنَه في قميصه، ففعل ذلك، فنزلت الآية[٢].

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: لمَّا توفي عبد الله بن أبيٍّ ووضعناه ليصلَّى عليه، قام رسول الله عليه السلام، فقلت: أتصلي على عدوِّ الله، القائلِ يوم كذا: كذا، والقائل يوم كذا: كذا، وعدَّدتُ أيامه الخبيثة، فتبسم رسول الله عليه السلام وصلَّى عليه، ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دُفن وانصرف، فوالله ما لبث إلا يسيراً حتى نزل: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ الآية، فما صلى رسول الله عليه السلام على منافقٍ أبداً ولا قام على قبره[٣].

وفي الآية تقديم وتأخير، وتقديره: ولا تصلِّ أبداً على أحدٍ منهم مات ولا تَقُمْ على قبره.

قيل: هو نفسُ القيام وهو نوعُ إكرام.

وقيل: هو القيامُ بأسباب دفنه ومواراته[٤].

---

(١) في (ف): «عاده».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٦١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٤).

(٣) رواه بنحوه البخاري (١٣٦٦)، ومسلم (٢٤٠٠).

(٤) في (أ): «وموالاته».

وفي «التأويلات» أنه قيل: يا رسول الله! تُلبِسُ عدوَّ الله قميصك، قال: إني لأرجو أن يُسلم بقميصي ألفٌ من بني الخزرج[١]، وكان كذلك[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾: أي: قد كفروا وأصرُّوا وعليه ماتوا، فليسوا أهلاً في إجلالك.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: مُعلِنون للمعاصي.

وقال القشيريُّ رحمه الله: يقول: ليس بعد التبرِّي تولِّي، ولا بعد الفراق وِفاق، ولا بعد الحَجْبة قُربة[٣].

* * *

(٨٥) ـ ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله تعالى ﴿و وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾: فسَّرنا الآية مرةً، ومعنى التكرير: المبالغةُ في التأكيد والتقرير، أو لأن كلَّ آيةٍ في فرقةٍ غيرِ الأخرى.

ومعنى اتصالها بالأولى: أَمْضِ في المنافقين هذه الأحكامَ ولا يَهولنَّك ما يتكثَّرون به من الأموال والأولاد.

---

(١) رواه ابن شبة في «أخبار المدينة» (٧٣٢) عن الحسن، و(٧٣٤) عن قتادة، وفيهما: (من بني النجار) بدل: (من بني الخزرج). ورواه عن قتادة أيضاً الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٤)، وفيه: (من قومه).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٤٠). وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٣). وفيه: (فيروى أنه أسلم من بني الخزرج ألف لما رأوه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ). قلت: وهذا كله لم يرد به خبر يصلح للاحتجاج به.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ولا تحسبنَّ أن تمكين أهل النفاق من تنفيذِ مرادهم وتكثيرِ أموالهم وأولادهم إسداءُ معروف منا إليهم، وإسباغُ إنعامٍ من لدُنَّا عليهم، إنما ذلك مكرٌ بهم واستدراجٌ لهم، وإمهالٌ لا إهمال، وسيلقون[١] غبَّه عن قريب[٢].

* * *

(٨٦) ـ ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾.

قوله تعالى ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾: هو الأمر بابتداء الإيمان في حقِّ الكافرين، وبالدوام على الإيمان في حقِّ المؤمنين، وأمرٌ بالإخلاص في حق المنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾: أي: جاهدوا الكفار مبايِعينَ[٣] لرسوله.

قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل والحسن: أي: أولو الغنى[٤].

وقال ابن كيسان: وهو الكثيرُ المنظور إليهم[٥].

وقيل: الطَّول: العُدَّة التي يُتمكَّن بها من مطاولة الأعداء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾: أي: دعنا[٦] نقعدْ مع المتخلِّفين.

---

(١) في (ر): «وسيقولون»، وفي (ف): «وسيطوقون»، والمثبت من «اللطائف»، ولعل ما في (أ) محرف عنه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥١).

(٣) في (ف): «متابعين».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٦) عن ابن عباس، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٨)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٨٥) عنه وعن الحسن. وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨٨).

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٨٥) بلفظ: (الكبراء المنظور..).

(٦) في (أ): «ذرنا».

(٨٧) ـ ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾: أي: النساءِ المتخلِّفات، والفواعل[1] جمع الإناث.

وقيل: معناه: مع الخِسَاس، من قولهم: فلانٌ خالفةُ أهله، إذا كان دونهم في أسباب الفضل، وهذا تعييرٌ لهم وذمٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي: خُتم عليها فخُذلوا لاختيارهم الكفر والنفاق.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾: قيل: لا يعلمون.

قال الضحاك: أي: لا يقبلون أمر الله[2]، وهذا كقوله: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]؛ أي: لا نقبل.

قال الإمام أبو منصور: الفقه: معرفةُ الشيء بمعناه الدالِّ على نظيرِه، ومنَعَهم الطبعُ أن يعرفوا الأشياء[3] بمعانيها ونظائرها للحجاب الذي وقع، فإن الإيمان نورٌ تبصَر به عواقبُ الأمور، وتُرفع السُّتور عن القلوب، والكفرُ ظلمةٌ تَستر ذلك[4].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: تعلَّل أولو السَّعة وركَنوا إلى اختيار الدَّعة، وقعدوا عن بساط العبادة، ورضُوا بالتعريج في ميدان التفرقة، ولو أنهم رجعوا إلى الله بصدق النَّدم لقابلهم بالفضل والكرم، ولكن القضاء غالبٌ والتكلُّفَ ساقط[5].

* * *

---

(١) في (ف): «والقواعد».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٨٦) وتحرف فيه «يقبلون» إلى: (يعلمون).

(٣) في (أ): «الأسباب»، والمثبت من (ف) و«التأويلات».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٤٣).

(٥) في (ف): «والتكليف ساقط» والمثبت من (أ) و«اللطائف». انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥٢).

(٨٨) ـ ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾: وهو صفةُ الرسول عليه الصلاة والسلام والمخلِصين الذين معه، بخلافِ صفة أولئك المنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾: أي[1]: المنافعُ والمحاسن في الدارين: من الأمن، والثناء الحسن، والصحبةِ مع رسول الله ﷺ في المغازي وإصابة المغنم، وصلاةِ النبيِّ عليه السلام عليهم، والقيام على قبورهم، وفي الآخرة بالكرامات الموعودة في الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون بكلِّ مطلوب والبالغون في أنفسهم وأعدائهم كلَّ مأمول.

* * *

(٨٩) ـ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: وهذا ظاهر.

* * *

(٩٠) ـ ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾: يقال: اعتذرْتُ إلى

---

(١) في (أ): «أي مع».

فلان؛ أي: تكلَّمت بالعذر، فعذرني ـ بالتخفيف ـ أي: قَبِل عذري، وأَعْذَرْتُ[١] إليه؛ أي: أقمتُ العذرَ الصحيح على أمري، وعذَّرتُ ـ بالتشديد ـ أي: أتيتُ بما هو صورةُ العذر ولا عذرَ لي فيه حقيقةً.

والآية قرئت بقراءتين: بالتخفيف وهي قراءةُ ابن عباس[٢]، وبالتشديد وهي قراءة سائر الناس.

وبالتخفيف إخبارٌ عن قوم أتوا بالعذر الصحيح فعُذِروا، وبالتشديد إخبارٌ عن أعراب تكلَّموا بالعذر ولا عذر لهم فلم يُعذَروا، وفي الآية ذمٌّ لهم.

وجملتُه: أن نزول السورة في الجهاد، وصار الناس على أصناف:

منافقو أهل المدينة: وقد ذكرهم في قوله: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾.

والمخلصون: وذكرهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

وأعراب أهل البادية مَن لهم عذر حقيقةً أو لا عذرَ لهم، وذكرهم الله في قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ من الأعراب على القراءتين.

وآخرون من الأعراب تخلَّفوا من غيرِ استئذانٍ، وذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: أظهروا الإيمان بالله ورسوله وهم كافرون في الباطن، فقد كذَبوا بذلك الله ورسولَه.

وقيل إنهم بايعوا رسول الله ﷺ على الجهاد ثم تخلَّفوا عن هذه الغزوة، فقد كذَبوا الله ورسوله فيما قالوا في تلك البيعة.

---

(١) في (أ) و(ف): «واعتذرت»، والصواب المثبت.

(٢) كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٩)، وهي قراءة يعقوب من العشرة كما في «النشر» (٢/ ٢٨٠)، ورواية عن الكسائي ـ في غير المشهور عنه ـ كما في «جامع البيان» للداني (٢/ ١٨٢).

وقيل: لمَّا دعاهم رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة قالوا: نستعدُّ[١] ونلحقُ بك، فلم يفعلوا فذلك كَذِبُهم.

قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: في الدنيا والآخرة بكفرهم وكذبهم، ولم يقل: سيصيبهم، [ليدلَّ على أن من أهل النفاق مَن قد آمن، وأن مَن تاب يُقبل ذلك منه][٢] [فيكون قوله]: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآيةَ لمن مات منهم على الكفر ولم يخلص، دون مَن تاب وأخلص.

وقوم آخرون[٣] من ضعفاء المسلمين لم يكن لهم عُدَّةٌ فجاؤوا واستعانوا، فذلك قوله تعالى:

(٩١) - ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾:

فالضعفاء: هم الذين لا قوةَ لهم بسبب كبرِ سنٍّ أو زَمانةٍ أو عَرَجٍ أو عمىً.

والمرضى: الذين بهم علةٌ يرجى زوالها إلا أنه في الحال لا طاقةَ بهم.

والذين لا يجدون ما ينفقون: هم الفقراء.

فهؤلاء لا حرج عليهم؛ أي: لم يضيِّق الله تعالى عليهم بالقعود بل وسَّعه عليهم.

---

(١) في (ف): «سنستعد».

(٢) ما بين معكوفتين من «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٤٥)، والكلام فيه بنحوه، وما جاء بعده بين معكوفتين زدناه ليستقيم السياق.

(٣) في (ف): «وهم قوم» بدل: «وقوم آخرون»، والمثبت من (أ)، وهو الموافق لما في «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

قوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أي: لم يثبِّطوا غيرَهم من الموسِرين والأصحَّاءِ عن الخروج، ولم يوهِموهم أن قعودهم كان لجواز التخلُّف لكلِّ مَن أراده، بل بيَّنوا سبب تخلُّفهم، وحرضوا القادرين عليهم[1]، وقاموا بأسبابهم عند خروجهم وأسبابِ مَن خلَّفوهم بالمعونة.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾: وهم هؤلاء ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: يغفر لهم تخلُّفهم، ويرحمُهم بإزالة الحرج عنهم.

***

(٩٢) ـ ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: أي: ولا حرجَ أيضاً على الأصحاء[2] الذين لا يستطيعون المشي ويحتاجون إلى المركب، وجاؤوك يا محمد وسألوك أن تعطيَهم مراكب تحملُهم عليها، وقد حمل الأمير فلاناً؛ أي: أعطاه مركباً.

قوله تعالى: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: أي: قد فرَّقت ما كان عندي على الناس فلم يبقَ شيء أهيِّئُ به مراكبكم.

قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾: أي: انصرفوا من عندك وهم يبكون تأسُّفاً على فَوتِ صحبتك وتخلُّفِهم عنك، وهذه أمارةُ إخلاصهم وقعودهم بالعُذر، وشدةِ شوقهم إلى لقاء رسول الله ﷺ وتحسُّرِهم على فَوت ثواب الجهاد.

---

(١) في النسخ: «عليهم» والصواب المثبت. انظر: «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

(٢) في (أ): «المرضى». والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

واختلفوا فيمَن نزلت فيهم هذه الآية:

قال مجاهد: في نفرٍ من مُزينةَ[(١)]، وهم مَعْقلُ بنُ مقرِّنٍ والنعمانُ بن مقرِّن[(٢)].

وقال مقاتل: نزلت في سبعة نفرٍ من جُهينةَ ومُزينةَ وبني عُذرةَ[(٣)]: عمرو بن خيثمة[(٤)] من بني عمرو بن عوف، وعُلبةُ بن زيد أخو بني حارثة[(٥)]، وعمرو بن حزم من بني واقف[(٦)]، وسالم بن عمير وعبد الرحمن بن كعب وهو أبو ليلى من بني

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٥) بلفظ: (هم بنو مقرن من مزينة)، قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٧١)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٣): وعلى هذا جمهور المفسرين. وانظر التعليق الآتي.

(٢) «والنعمان بن مقرن» من (ف)، وفي الاقتصار على اسم أو اثنين نظر، فقد كانوا سبعة إخوة هاجروا وصحبوا النبي ﷺ، ولم يشاركهم في هذه المكرمة غيرهم، وهم: النعمان، ومعقلٌ، وعقيلٌ، وسويدٌ، وسنانٌ، وعبد الله، وعبد الرحمن. انظر: «الاستيعاب» (٣/ ١٤٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٣٣)، و«تجريد أسماء الصحابة» للذهبي (١/ ٣٣٦ و٣٥٦)، و«القاموس» (مادة: قرن).

(٣) قوله: «من جهينة ومزينة وبني عذرة» ليس في «تفسير مقاتل».

(٤) في (أ): «خيثم»، والمثبت من (ف)، ولم أقف على أي منهما. وفي «تفسير مقاتل»: (عمرو بن عبسة)، وفي نسخة منه: (عمرو بن غنمة)، وقد ذَكر غيرُه عمرَو بن غنمة في البكائين، لكن من بني سلمة لا من بني عمرو بن عوف، وذَكر من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير. رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٦) عن محمد بن كعب وغيره.

(٥) في (أ) و(ف): «وعلية بن زيد بن حارثة»، ووقع في اسمه في «تفسير مقاتل» تحريف كثير، والصواب المثبت. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥١٨)، و«الاستيعاب» (٣/ ١٢٤٥)، و«الإصابة» (٤/ ٥٤٦)، وغيرها. قال الحافظ: علبة بضم أوله وسكون اللام بعدها موحدة، ابن زيد بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي. ذكره ابن إسحاق وابن حبيب في «المحبّر» في البكّاءين في غزوة تبوك... إلى آخر ما قال.

(٦) في «تفسير مقاتل»: (وعمرو بن حزام من بني سلمة)، وفي خبر محمد بن كعب وغيره المتقدم: (ومن بني واقف: هرمي بن عمرو). وفيه وفي غيره ممن ذكر اختلاف كثير في كتب السيرة والتفسير.

النجار، وعمرو بن خزيمة من بني سلمة، هؤلاء الستة هم من الأنصار، وعبد الله بن المغفل المزني، أتوا النبي عليه السلام فقالوا: احملنا فإنا لا نجد ما نخرج عليه، فقال: «لا أجد ما أحملُكم» فانصرفوا يبكون[١].

وقال الحسن: نزلت في أبي موسى الأشعريِّ وأصحابه[٢].

وقيل: هم معقل بن يسار، وصخر بن سلمان، وعبد الله بن كعب، وسالم بن عمر، وثعلبة بن عثمة؛ كلهم من الأنصار، وعبد الله بن المغفل وصخر بن خنساء.

وقال قتادة: نزلت في عائذ بن عمرو وغيره[٣].

قال أبو مسعود الأنصاري: جاء رجل إلى رسول الله عليه السلام فقال: احملني، فقال: «ليس لي ما أحملُك، ائتِ فلاناً فإنه يحملك»، فأتاه فحمله، فأُخبر رسول الله بذلك، فقال رسول الله عليه السلام: «مَن دلَّ على خيرٍ فله مثلُ أجرِ مَن عَمِله»[٤].

وقال الحسن: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ هي في عبد الله بن أم مكتوم وأصحابه[٥].

***

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨٩ ـ ١٩٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٩٥). وانظر حديث أبي موسى رضي الله عنه في «صحيح البخاري» (٣١٣٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٤٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٣) دون كلمة: «وغيره». وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٨١) وفيه: (وأصحابه).

(٤) رواه أبو داود (٥١٢٩).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٨١) عن الضحاك. وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦١) عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة، فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما عليه إذ جاءه أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾.

(٩٣) - ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾: أي: سبيلُ اللوم والعتاب والعقاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾: ومعنى التكرير المبالغة في التقرير.

وكذلك قوله: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

(٩٤) - ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾: أي: يعتذر إليك هؤلاء المنافقون المتخلِّفون إذا رجعتُم إلى المدينة التي فيها مساكنُكم ومساكنهم.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾: أي: لا تقبلوا عذرَهم وقولوا لهم: لا تتكلَّموا بالعذر ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ أي: فإنَّا لا نصدِّقكم.

قولـه تعالـى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾: أي: قـد عرَّفنـا الله[1] إضمارَكـم عداوتَنـا وكذبَكـم فـي معاذيركم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

قـال ابـن عبـاس رضـي الله عنهمـا: أي: إنْ عملتُـم خيـراً وتبتُـم إلـى الله مِـن تخلُّفكم فسيرى الله عملكم ورسـولُه فيما تسـتأنِفون، ثم ترجعون ﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ

---

(١) هنا نهاية الخرم في (ر).

﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾؛ أي: إلى جزاء الله لا يخفى عليه شيءٌ، فيخبركم بما عملتُم ويَجزيكم على ذلك[1]، وهو كقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

* * *

(٩٥) - ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾: أي: إعراضَ صفحٍ ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾؛ أي: إعراضَ مقتٍ، وأظهِروا لهم الاستخفافَ بهم، وعرِّفوهم أن إقرارهم أوضعُ من أن يَصلحوا الصحبة رسول الله ﷺ والمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾: أي: أنجاسٌ نجاسةَ كفرٍ ونفاق.

وقيل: هو كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: وإن لم تُجازِهم في الدنيا وصفَحْتَ عنهم.

* * *

(٩٦) - ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: أي: يلتمِس هؤلاء المنافقون المتخلِّفون بحَلِفهم أن يُرضوكم وتَطيبَ قلوبُكم لهم، فلا ترضَوا عنهم، وإنْ أعرضتَ عن عقوبتهم على تخلُّفهم،

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٧).

ولكن أبغِضوهم بقلوبكم ساخطين معاملاتهم إياكم[١]، فإن الله لا يرضى عنهم لعلمه بكذبهم وفسقهم، ومأوى الفاسقين النار، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

قال الإمام القشيري رحمه الله: مَن كان مسخوطَ الحقِّ لا ينفعُه أن يكون مرضيَّ الخَلْق، وليست العبرةُ بقول غير الله، إنما المدارُ على ما سبق من السعادة في حُكم الله[٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: سمى الله الكفارَ والمنافقين فاسقين في آياتٍ وإن كان اسم الكافر والمنافق أبلغَ في الذمِّ من اسم الفاسق؛ لأن اسم الفاسق يأنَفُ منه كلُّ ذي دِينٍ، فإنه خروجٌ عما يَدِينُ به، فأخبر الله تعالى أنهم مع تديُّنهم بالباطل فاسقون في معاملاتهم، خارجون عن دياناتهم، مستوجبون لـمَذمَّاتهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في جدِّ بن قيس ومعتِّب بن قشيرٍ، وكانوا ثمانين رجلاً[٣].

وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبيٍّ لعنه الله، وذلك أنه حلف للنبيِّ ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلَّف عنه وليكوننَّ معه على عدوِّه، وطلب إلى النبي ﷺ أن يرضى عنه، فنزلت الآية[٤]، وحلف عبد الله بن أبي سرحٍ لعمر بن الخطاب أن يرضى

---

(١) قوله: «وإنْ أعرضتَ عن عقوبتهم على تخلُّفهم، ولكن أبغِضوهم بقلوبكم ساخطين معاملاتهم إياكم»، كذا وقع في النسخ، ولعل الصواب التبديل بين الجملتين؛ أي: «ولكن أبغِضوهم بقلوبكم ساخطين معاملاتهم إياكم، وإنْ أعرضتَ عن عقوبتهم على تخلُّفهم».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥٦).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٨٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٨٥).

(٤) «فنزلت الآية» من (ر)، وليست في (أ) و(ف)، وفي «تفسير مقاتل» بدلًا منها: (يقول الله: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ يعني: عن المنافقين المتخلفين ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾).

عنه فنزلت الآية، وقال النبيُّ ﷺ حين قدم المدينة «لا تجالسوهم ولا تكلِّموهم»[١].

***

(٩٧) ـ ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: يتصل بما سبق: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [التوبة: ٩٠].

أي: سكان البوادي إذا كانوا كفاراً أو منافقين فهم أشدُّ كفراً ونفاقاً؛ لبعدهم عن رسول الله ﷺ، وغيبتهم عن مجالسته، وقلةِ ما يَرِدُ عليهم من مواعظ القرآن، فهم بذلك أحرى أن يَجهلوا حدود العبادات والشرائع المنزلة من الله على رسوله.

وقيل: الحدود: الأوامر والنواهي؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بسرائر المؤمنين والكفارِ والمنافقين ﴿حَكِيمٌ﴾ في تعريف أوليائه ذلك ليميِّزوا بين الأولياء والأعداء، وحكيمٌ أيضاً في كلِّ ما يأمر به في حقِّ كلِّ طبقة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في أعاريبِ أسدٍ وغطفانَ ومَن حوالي المدينة منهم[٢].

﴿وَأَجْدَرُ﴾؛ أي: أحرى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من فرائضه في كتابه.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٩١). وقول النبي ﷺ: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم» رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٥) عن السدي مرسلاً.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٠). ورواه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٦٦) عن الكلبي، فلعله مما روي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وقال الضحاك: هم أعرابُ بني أسدٍ وبني تميمٍ.

وقال مقاتل: هم أعرابُ مُزينةَ[(١)].

وقال ابن كيسان: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟﴾ حجَجَ الله وتوحيدِه وتثبيتِ رسالة رسوله[(٢)]؛ لأنهم لا ينظرون فيها ولا يعلمونها.

وقال يمانُ بن رئابٍ: حدودُه: الحرام والحلال[(٣)].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يسرُّون ﴿حَكِيمٌ﴾ في احتجاجه.

* * *

(٩٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾: أي: ومن هؤلاء الأعراب من يَعُدُّ ما أنفق في نائبةٍ أو وجهِ بِرٍّ وصدقةٍ ـ كان النبيُّ ﷺ يبعث الناس عليها[(٤)] ـ أو في تجهيز غازٍ غرامةً، ولا يفعله حسبةً[(٥)]؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا يصدِّق بالبعث والجزاء، ولا ينال به[(٦)] عوضاً في الدنيا، ولا يخاف عقوبةً في الإمساك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾: أي: يَنتظر بكم الحوادث.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٩١).

(٢) في (أ): «رسالة رسله»، وفي (ف): «رسالته»، والمثبت من «البسيط» للواحدي، والكلام منه.

(٣) ذكر القولين الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٥).

(٤) «كان النبي ﷺ يبعث الناس عليها» ليست في (أ) و(ف).

(٥) في (ر) و(ف): «حسنة».

(٦) في (أ): «يتألى به» وفي (ر) و(ف): «يناله به»، والمثبت هو الأنسب بالسياق.

قال يمان بن رئابٍ: أي: ينتظِر أن تنقلبَ الأمور عليكم فيموتَ الرسول ويظهرَ عليكم المشركون[١].

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي: عليهم يدور البلاء والخزيُ، فلا يَرون في محمد ودِينه إلا ما يسوءهم.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرة السُّوء﴾ بضم السين والباقون بفتحها[٢].

قال الكسائي: مَن ضمَّ السين أراد بالسوء البلاءَ والشدة وهو إضافة، ومَن فتح السين جعل السوء نعتاً للدائرة، فيكون كقولك: رجلُ سَوءٍ وامرأةُ سَوءٍ.

قال الإمام القشيري رحمه الله: خبُثت عقائدهم فانتظروا للمسلمين ما تمنَّوه من حلول المحن بهم، فأبى الله إلا أن يَحيق بهم مكرُهم، وقد قيل في المثل: إذا حفرْتَ لأخيك فوسِّع، فربما يكون ذلك مقيلَك[٣].

ويقال: مَن نظر إلى ورائه لم يوفَّق في كثير من تدبيره ورأيه[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: أي: لمقالاتهم[٥] ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بنيَّاتهم.

* * *

(٩٩) ـ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٦)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٨٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٦)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٣) في (ر): «مقتلك».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥٧).

(٥) في (ف): «لمقالتهم».

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: أي: ومن هؤلاء الأعراب مَن يخالفُهم في الصفة، و﴿مَن﴾ للجمع هاهنا لأنه جنس؛ أي: ليسوا بكفارٍ ولا منافقين، بل هم مؤمنون بالله واليوم الآخر مصدِّقون بالبعث والجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾: أي: ينفقون في سبيل الله ببعثِ رسول الله ويرونه قربةً؛ أي: طاعةً مقرِّبةً إلى رحمة الله، يرجع إليهم ثوابها، وينالون بها الدرجات في الآخرة، ويكتسبون[1] بها صلواتِ الرسول: وهو دعاؤه المتبرَّكُ به، واستغفارُه المرجوُّ إجابتُه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾: أي: لهم[2] ما نوَوا ورجَوا.

وقوله تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: في جنته[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي: يغفر ذنوبهم ويكفِّرها بهذه النفقات، ويرحمهم ولا يجزيهم بالعقوبات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم مَن أسلَمَ مِن أعراب أسدٍ وجهينةَ وغِفارٍ وأَسْلَمَ[4].

وقال مجاهد: هم بنو مقرِّنٍ من مُزينة.

قال القشيري رحمه الله: تنوَّعوا فمنهم مَن غشَّ فلم يربح، ومنهم مَن نصَح فلم

---

(١) في (ف): «ويكسبون».

(٢) «لهم» زيادة من (ف).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٢ ـ ٢٣).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٩).

يخسر، فأما الذين مذَقوا[١] فهم في مهواةِ هوانهم، وأما الذين صدَقوا فهم في رَوح إحسانهم[٢].

* * *

(١٠٠) ـ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾:

وانتظامها بما قبلها: أن الله تعالى ذكر من أول السورة إلى هاهنا أقسامَ الكفار، وهم ثلاثة: أهل الشرك، وأهل الكتاب، وأهل النفاق[٣]، وقد ذكرهم على الترتيب إلى هاهنا، ثم ذكر أقسام المؤمنين وهم ثلاثة: المطيعون، والعاصون التائبون، والعاصون المصرون، أما المطيعون فهو قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ وهو ابتداءٌ وجوابه: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ إلى آخر الآية.

وقال الكلبي: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والهجرة والجهاد والنصرة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ هم الذين جاؤوا بعدهم وعملوا عملَهم إلى قيام الساعة.

فعلى قوله: الآية تتناول جميع المهاجرين: وهم الذين هجروا أوطانهم بمكة ورحلوا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وجميعَ الأنصار: وهم أهل المدينة سُمُّوا به للنصرة، والمهاجرون أيضاً نصروا رسول الله ﷺ، لكنَّ اختصاص[٤] أهل المدينة

---

(١) في (ر) و(ف): «مرقوا»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥٧).

(٣) في (أ): «والمنافقون» بدل: «وأهل النفاق».

(٤) في (ر) و(ف): «ولذلك اختص».

بهذا الاسم لِمَا أنهم نصروا رسول الله ﷺ والمهاجرين معه لمَّا جاؤوهم، فآوَوهم ونصروهم، ثم اجتمعوا جميعاً على نصرة النبي عليه السلام في الغزوات.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ليس للتبعيض على هذا القول بل للتجنيس.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾: هم جميع متَّبِعيهم بالإحسان في كل عصر وزمان.

والإحسان: قيل: هو الإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢].

وقال النبيُّ ﷺ: «الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)].

وقيل: هو إحسان العمل.

وقيل: هو الإحسان إلى الناس.

وقيل: الآية خاصةٌ في السابقين من جملتهم، و﴿مِنَ﴾ للتبعيض واختلف في ذلك:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين صلَّوا إلى القبلتين وشهدوا بدراً[(٢)].

وقال الشعبي: مَن بايَعَ تحت الشجرة من الحديبيَة فهو من المهاجرين الأولين[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لم أجده عن ابن عباس، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٨)، عن سعيد بن المسيب. وليس عند الطبري: (وشهدوا بدراً)، ورواه دون هذه العبارة أيضاً الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٨ ـ ٦٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٨)، عن أبي موسى الأشعري وابن سيرين وقتادة. وزاد ابن أبي حاتم نسبته للشعبي ـ في إحدى الروايات عنه ـ والحسن.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٨).

وقال عطاء: هم أهلُ العقبة السبعون[١].

وقيل: هم السابقون من أهل كلِّ قبيلة إلى الإسلام وإلى العلم وإلى القرآن[٢] وإلى الشهادة.

وقرأ الحسن وسلام ويعقوب: ﴿والأنصارُ﴾ بالرفع عطفاً على قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾[٣]، ويكون السبق صفةً للمهاجرين خاصة.

وقراءة العامة بالخفض عطفاً على ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ والسبقُ صفةٌ لهم جميعاً، سبق أولئك بالهجرة وسبق هؤلاء بالنصرة.

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الذين اتبعوهم بإحسان) بغير واوٍ نعتاً لـ﴿الأنصارِ﴾ بأنهم اتبعوا المهاجرين بإحسان.

وروي عنه أنه سمع رجلاً يقرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بالواو فقال: مَن أقرأك هذا؟ قال: أبيُّ بن كعب، فسأل عنه أبيًّا، فقال: أقرأنيه رسول الله ﷺ، قال أبيٌّ رضي الله عنه: وتصديق ذلك في سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣][٤].

---

(١) لم أجده عن عطاء، وذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٣ ـ ٢٤) عن ابن عباس وغيره بلفظ: سبَّاق الأنصار أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة، والثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا بالمدينة حين قدم عليهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن.
وذكر الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٩٥)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٣) عن عطاء قوله: هم الذين شهدوا بدراً.

(٢) «وإلى القرآن» ليست في (ف).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٨٣)، وذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٩) عن عمر رضي الله عنه والحسن وقتادة ويعقوب. وقراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٠).

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٠ ـ ٦٤١)، وجاء قول أبيٍّ في رواية الطبري: (بلى، تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ =

وقال الحسن: قرأ عمر يوماً: (والأنصارِ الذين اتَّبعوهم بإحسان) وعنده أبيُّ بن كعب، فقال أبيٌّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ يا أمير المؤمنين! فقال عمر[1]: (الذين اتَّبعوهم بإحسان)، فقال أبي: والله لأقرأنيها[2] رسول الله ﷺ مِن فيه إلى فيَّ وإنك تبيع القُرظ بالبقيع، فقال عمر: صدقتَ، ولئن شئتَ قلتَ: شهدنا وغبتُم ونَصرنا وخَذلتم وآوينا وطَردتم، وتابع عمرُ أبيًّا[3].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قرأ يوماً بغير واو، فقيل له: هاهنا واو، فقال: هذه الواو عندي خيرٌ من الدنيا وما فيها، يعني: ثبوتَ الشركة للمتأخِّرين في فضل المتقدمين[4].

وقال عطاءٌ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ يريد: الذين يذكُرون المهاجرين والأنصارَ بالخير والرحمة والدعاء[5]، أشار إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

= بِهِمْ﴾ إلى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، وفي الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾، إلى آخر الآية). قال الآلوسي في «تفسيره» (١٠/ ٤٨٤): ومراده أن هذه الآيات تدل على أن التابعين غير الأنصار.

(١) بعدها في (ر): «هم».

(٢) في (ف): «أقرأنيها».

(٣) ذكر هذه الرواية الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣٠٤).

(٤) في (ر): «للمتأخر في فضل المتقدم».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٨٣)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٤) من طريق عطاء عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾: هذا ظاهرُ التفسير.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: في الآية دلالةُ الرد على الروافض؛ لأنهم يجعلون أبا بكر وعمر وهؤلاء ظلمةً وعلى غير الحق بتوليةِ الإمارة والخلافة أبا بكر وعمر وعثمان= لأنه أخبر أن الله تعالى راضٍ عنهم، فدلَّ أنهم كانوا على حقٍّ وصواب، وأن مَن وصفهم بالظلم والتعدِّي فهو الظالم والمتعدي.

وفيه دلالةُ وجوبِ[1] تقليد الصحابة رضوان الله عليهم والاقتداءِ بهم؛ لأنه مدح الذين ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ فدلَّ أنهم إذا أَخبروا بخبرٍ وقالوا قولاً يجب العمل به ولا يسعُ تركه[2].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: السابقون مختلفون، فمِن سابقٍ بصدق قدمه، ومِن سابق بصدق[3] همَمِه، والسابقُ على الحقيقة: مَن ساعدته القسمةُ[4] بالتوفيق، وأسعدته القضيةُ بالتحقيق، فسبق لهم من الله تعالى رحمتُه، وسيقَ[5] لهم عنايتُه.

ويقال: بسبق عنايته بهم سَبقوا بطاعتهم له، وبرضاه عنهم وصلوا إلى رضاهم عنه[6].

* * *

(١) في «التأويلات»: (جواز).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٦١).

(٣) في (أ) و(ر): «بصادق».

(٤) في (ر): «العناية».

(٥) في (ر): «وصدق»، وفي (ف): «وصدقت».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥٨).

(١٠١) ـ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم ذكر بعد ذكر الأنصار ـ وهم المخلصون من أهل المدينة ـ المنافقين، وذلك قوله:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ ويتصل هذا بقوله: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾.

وقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾؛ أي: حول مدينتكم، وهو المحيط بها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾: هؤلاء سكَّانها، ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ سكانُ أطرافها، والذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ سكانُ البادية.

وقوله تعالى: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ صفةُ مَن في المدينة ومَن حولها؛ أي: عتَوا وطغَوا وثبَتوا عليه، وأعيوا[1] خبثاً.

وقال مقاتل: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ يعني: جهينةَ ومزينةَ وأسلمَ وغِفار وأشجع، كانت منازلهم حول المدينة، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ عبد الله بن أبيٍّ، ومعتِّب بن قُشيرٍ، والجُلاس بن سُويد، ووحوح[2] بن الأسلت، وأبو عامر بن النعمان الراهب سماه النبيُّ ﷺ: الفاسق.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾: أي: لا تعرف نِفاقهم ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾: نحن نعلم نفاقهم ﴿سَنُعَذِّبُهُم

---

(١) في (أ): «وأعتوا».

(٢) في (أ): «ووجوع»، وفي (ر): «ووجوح». والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في المصادر. انظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، ووقع في المطبوع من «تفسير مقاتل»: (وحوج)، وهو تحريف أيضاً.

﴿مَرَّتَيْنِ﴾ عند الموت بضرب الملائكة وجوهَهم وأدبارهم، وفي القبر بمنكرٍ ونكير ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في الآخرة(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول العذابين: بدر، والثاني: عذاب القبر، والثالث: عذاب جهنم(٢).

وقال مقاتل: العذاب الأول: السيف يوم بدر، والثاني: عند الموت، والثالث: في الآخرة(٣).

وقال الكلبي: القتل وعذاب القبر وعذاب النار.

وقال مجاهد: الأول القتل والسبي(٤).

وقال الحسن: الأول: عذاب النبي عليه السلام ـ يعني: قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١] ـ والثاني: عذاب القبر(٥)، والعذاب العظيم في الآخرة(٦).

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٩٣).

(٢) القول بأن أول العذابين بدر لم أجده عن ابن عباس وسيأتي من قول مقاتل، أما القول بأن العذاب الثاني عذاب القبر فقد رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٤) عن ابن عباس وجمع من الأئمة على اختلاف بينهم في العذاب الأول، والذي عن ابن عباس: أن المرة الأولى فضيحة المنافقين بكشف أسمائهم للناس، والثانية عذاب القبر، وروى في ذلك قصة ستأتي قريباً. وذكر أيضاً عن ابن عباس من وجه غير مرتضًى ـ كما قال ـ: إحدى المرتين الحدود، والأخرى عذابُ القبر.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٨٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٩٣)، عن مقاتل بن حيان.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٥).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٨٨) بلفظ: (عذاب النبي وعذاب الله، يعني بعذاب النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٧) بلفظ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال: (عذاب الدنيا وعذاب القبر).

(٦) في (أ): «النار».

وقال عطاء: هم الأوس والخزرج ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ الأمراض في الدنيا وعذاب الآخرة، وذلك أن مرض المؤمن كفَّارةٌ ومرضَ المنافق عقوبةٌ[1]، وعلى هذا لا يكون قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ عذاباً ثالثاً، بل يكون إخباراً عن قَدْر العذاب في المرة الثانية.

وقال الضحاك: مصائب الدنيا وعذاب الآخرة.

قيل: هو إخراجهم إلى الغزو[2] لقتال إخوانهم، وأخذُهم بالإنفاق في الجهاد لتقوية أعدائهم على أوليائهم، ثم ما يرون من عزِّ المسلمين وعلوِّ قَدْرهم وازديادِ غيظ أنفسهم بذلك، ثم العذابُ العظيم في جهنم.

وقيل: الأول: إخراجُهم من المسجد، والثاني: تخريبُ مسجد الضرار، والعذابُ العظيم في الآخرة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قام رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فأنت منافق، اخرج يا فلان فأنت منافق، اخرج يا فلان فأنت منافق» وأخرجهم من المسجد بأسمائهم وفضَحهم، ولم يكن عمرُ شهد تلك الساعةَ، فلقيَهم عمر وهم يخرجون من المسجد فظنَّ أنهم قد صلَّوا، فاختبأ منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة، واختبؤوا من عمر وظنُّوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل المسجد فإذا الناس لم

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٨٨). وذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٨) من طريق عطاء عن ابن عباس. وليس عندهما عبارة: «الأوس والخزرج»، ولا يظهر لذكرها وجه هنا، بل وردت في بعض التفاسير عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال السمعاني في «تفسيره» (٢/ ٣٤٣): (قوم من الأوس والخزرج)، ومثله في «تفسير البغوي» (٤/ ٨٩)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٦) عن ابن عباس.

(٢) في (ف): «العدو».

يصلُّوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشرْ يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم[١].

وقيل: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ على معنى متابعةِ العذاب عليهم في الدنيا دون تعيينِ العدد، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ كان ذلك يومئذ، ثم كشَف له أحوالهم بالعلامات، قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وبالتعيين أيضاً كما مر.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الأول: ظنُّهم أنهم على شيء، والثاني: خيبةُ آمالهم، والثالث: ظهور ما لم يحتسِبوه[٢].

* * *

(١٠٢) ـ ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: أقرُّوا، وهم القِسمُ الثاني من أقسام المؤمنين الذين ذكرناهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في أقوام كانوا تخلَّفوا عن غزوة تبوك لا على اعتقاد الخلاف، لكنْ لتأخُّرهم الاستعداد[٣] إلى أن فاتهم اللُّحوق بالنبيِّ عليه السلام، وكان ذلك منهم ذنباً لا نفاقاً منهم، فندموا على ذلك واعترفوا فتاب الله عليهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٩٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤): فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥٩).

(٣) في (ف): «للاستعداد».

وروي أنهم كانوا ثمانيةَ نفر، وقال الضحاك: سبعة، وقال قتادة: تسعة فيهم أبو لُبابَة الأنصاريُّ، وهو من أفاضل الصحابة.

وروى حيان عن الكلبيِّ عن أبي صالحٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا ثلاثةً: أبو لُبابَةَ بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبةَ، ووديعةُ بن حزام، تخلفوا عن رسول الله ﷺ مخرجَه إلى تبوك، فلما بلغهم ما نزل فيمَن تخلف عن رسول الله ﷺ أيقنوا بالهلاك، فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فلم يزالوا كذلك حتى قدِم رسول الله ﷺ المدينة[1] فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلهم، وقال رسول الله ﷺ: «وأنا أقسم أن لا أكون أول من حلهم إلا أن أؤمر فيهم بأمر» فلما نزل: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ عسى من الله واجبٌ» فقام إليهم فحلَّهم، فأتوا نبيَّ الله بأموالهم فقالوا: هذه أموالنا التي خلفَتْنا عنك فتصدَّقْ بها عنا، قال: «ما أُمرتُ فيها بأمر» فنزل: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[2].

وقال قتادة: ذكر أنهم سبعة، وفيهم جدُّ بن قيس وأوس بن خزام وثعلبة بن وديعة وعامر، كلُّهم من الأنصار[3].

وقال الزهري: ربط أبو لبابة نفسه بساريةٍ وحلف لا يحلُّ نفسَه ولا يذوق طعاماً

---

(١) «المدينة» زيادة من (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٧١)، وابن مردويه كما في «الكافي الشاف» (ص: ٨٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله في الخبر: «إن عسى من الله واجب» ليست من كلام النبي ﷺ، بل من كلام ابن عباس رضي الله عنه، وقد رواه عنه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٣)، وأسماء الأربعة فيه: (جَدُّ بن قَيْسٍ، وأبو لُبَابَةَ، وحَرَامٌ، وأَوْسٌ)، وكذا رواه عنه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٣)، وفي مطبوعه: (خذام) بدل: (حرام).

ولا شراباً حتى يموت أو يتوبَ الله عليه، فمكث سبعاً كذلك حتى غُشي عليه، ثم تاب الله عليه وحلَّه النبيُّ ﷺ، فقال: يا رسول الله: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب، وأن انخلع من مالي كلِّه صدقةً إلى الله تعالى ورسوله، فقال عليه السلام: «يجزيك الثلث»(١).

وقال سعيد بن جبير: ومن أصحاب أبي لبابة مرداس وكردم وأبو قيس(٢).

وقال الحسن: هم أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن خزام ووديعة بن ثعلبة.

وكان سببُ تخلُّفهم: أن النبيَّ ﷺ خرج غداةَ يوم الخميس، وكان قدَّم فقراء الصحابة، وكان الأغنياء والأقوياء مع رسول الله ﷺ، وقال أبو لبابةَ وأصحابه: نمكث اليوم ونلحقُ بهم الليلةَ، فلما أَمْسَوا ثقَّل عليهم الشيطانُ الخروج ـ وكذا مَن قصَّر في الطاعة قليلاً سهَّل الشيطان عليه كثيراً ـ فقالوا: نخرج سحَراً، فغلبهم النوم، فلما أصبحوا خافوا أن يخرجوا فلا يلحقوا بالنهار بهم وفي الطريق أعداء، فقالوا: نخرج في الليلة القابلة، فلما أمسوا قالوا: بعُدوا علينا(٣) فلا يمكننا لحوقُهم، فقعدوا.

وقوله تعالى: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: يقال: خلَطْتُ الشيءَ بالشيءِ: إذا امتزجا، وخلَطْتُ الشيءَ والشيءَ ـ من غير باءٍ ـ: إذا جمعتَ بينهما فلم يمتزجا، يقال: خلطتُ الماء باللبن، وخلطتُ الدراهم والدنانير.

وقال الكلبي: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾: التوبةَ ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: تقاعُدَهم عن القتال.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٢٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٣).

(٣) في (أ): «عنا».

وقال الحسن: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ قيل: هذا خروجهم إلى الجهاد معك ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: تخلُّفهم عن تبوك[1].

وقيل: خرجوا مرةً وقعدوا مرةً.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ قال الكلبي: ﴿عَسَى﴾ من الله واجب[2]؛ أي: هو إطماعٌ، وإطماع الكريم واجب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ هذا ظاهر.

وقال بعض العلماء: المسيءُ منَّا إلى مخلوقٍ إذا خافه لم يخلِّصه من ذلك إلا شيئان: الإنكار والفِرار[3]، والمسيء في حقِّ الله تعالى لا ينجيه إلا شيئان: الإقرار والقَرار[4]، قال قائلهم:

أَقْرِرْ بذَنْبكَ ثم اطْلُبْ تَجاوُزَنا   واعلَمْ بأنَّ جحودَ الذَّنْبِ ذَنْبان[5]

* * *

(١٠٣) ـ ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ قد روَينا أن أبا لبابة وأصحابه لمَّا تاب الله

---

(١) ذكر القولين الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣١ ـ ٣٢).

(٢) تقدم قريباً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (ر) و(ف): «والإقرار».

(٤) في (ر) و(ف): «والفرار».

(٥) ذكره دون نسبة الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ١٧٠)، والثعالبي في «المنتحل» (ص: ١١٥)، والراغب في «محاضرات الأدباء» (١/ ٢٨٥).

تعالى عليهم جاؤوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ ليتصدَّق بها كفارةً لذنوبهم وشكراً لِمَا أنعم الله عليهم من قبول التوبة فقال عليه السلام: «لم أؤمر فيها بأمر» فنزلت الآية.

و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، وقد روَينا أنه أخذ الثلث.

وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: التاء لخطاب النبيِّ ﷺ؛ أي: تطهِّر نفوسهم من الذنوب بها.

قوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾: أي: يحصُل لهم الثناء الحسن والرفعة بها، والإضافة إلى النبي ﷺ بطريق التسبيب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الآثام ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ من البخل والمنع وأخلاق اللئام[1].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من طلب الأعواض عليها ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ من ملاحظتهم إياها.

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن شحِّ نفوسهم ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ بأن لا يتكثَّروا[2] بأموالهم، بل يتعزَّزون بالتجرُّد عنها، ويرون عظيمَ منَّة الله عليهم بوجدان التجرُّد منها[3].

ثم اختُلف أن هذه الصدقة ما هي:

قيل: صدقةُ نفلٍ، والكلام مبتدأٌ غيرُ مرتبطٍ بشيء.

وقيل: هي صدقةُ حثَّ النبيُّ ﷺ عليها يوم الخروج إلى تبوك، وهي ما قلنا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٩] فيرتبِط هذا بذلك، والآياتُ نزلت في هذه القصة.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٦٦).

(٢) في (ف) و(أ): «يتكبروا». وفي «اللطائف»: (يتكاثروا).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٠).

وقيل: هي صدقةُ أبي لبابةَ والمتخلِّفين، والآية تتصل بالآية التي قبلها.

وقيل: هي الزكاةُ، ويدل عليه ما روَينا في قصة ثعلبة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ وأن هذه الآيات لمَّا نزلت بعث النبيُّ ﷺ المصدِّقينِ إلى ثعلبة وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: أي: ادعُ لهم واستغفِرْ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: قرأ عاصم في رواية حفصٍ والمفضلِ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ على التوحيد، والباقون: ﴿صَلَوٰتَكَ﴾ على الجمع[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: ﴿سَمِيعٌ﴾ دعاءَك ﴿عَلِيمٌ﴾ شفقتَك.

وقيل: ﴿سَمِيعٌ﴾ لما أظهَروه لك من التوبة ﴿عَلِيمٌ﴾ بصدق نيَّاتهم فيه.

ومعنى السكن: طمأنينةُ القلب.

وقيل: كان إذا أتى رجل بصدقته وهو مؤمنٌ مخلصٌ دعا له، وإذا أتى بها منافق لم يَدْعُ له، وكان إذا دعا لمن أتى بالصدقة سكَن قلبُه إلى أنه مخلِصٌ.

وقيل: لأن[2] المؤمن يسكُن قلبه بدعاء النبيِّ ﷺ، ولعلمه أنه يستجاب له فيه.

***

(١٠٤) ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾: يجوز أن يكون هذا الاستفهامُ بمعنى الإثبات، ويجوز أن يكون بمعنى الأمر كما في قوله: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٧)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٢) في (أ): «إن».

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: أي: عن عباده كلِّهم إذا أخلصوا، ويأخذُ كلَّ(١) الصدقات؛ أي: يقبلها ويُثيب عليها.

وقيل: جعل الله أخذَ النبي ﷺ أخذاً له تشريفاً(٢) للنبيِّ عليه السلام، وقد روي: «أن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل، فيربِّيها كما يربِّي أحدكم فلُوَّه»(٣)، وهذا ترغيبٌ للعباد في فِعلها، وبيانٌ أنه قابِلُها والمثيبُ عليها والمكثِرُ قليلَها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: كثير قبول التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بترك(٤) العقوبة، وهذا وعدٌ لهؤلاء أنه قبِل توبتهم ورضي صدقتَهم.

* * *

(١٠٥) - ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾: أي: قل لهؤلاء التائبين اعملوا الطاعات بعد قبول التوبة وأخذِ الصدقة ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فيثيبُكم عليه ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعلمون بصدق توبتكم، فيخالطونكم ولا يهاجرونكم(٥) كما يفعلون بالمنافقين.

---

(١) «كل» زيادة من (أ).

(٢) في (ف): «تصديقاً».

(٣) رواه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (١٠١٤)، والنسائي (٢٥٢٥)، والترمذي (٦٦١)، وابن ماجه (١٨٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٣١٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٢٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (أ): «برفع»، وفي (ف): «بفعل».

(٥) في (ف): «يجاهدونكم».

وقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: أي: تُرجَعون في القيامة إلى جزاءِ مَن يعلم الظاهر والباطن.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: يخبركم به ويجزيكم عليه.

وقيل: أي: لا تنظروا إلى قبول التوبة وأخذِ الصدقة فتتركوا العمل، بل اعملوا ما عشتُم[1].

وقيل: أي: أصلحوا أعمالكم في المستأنَف، واحذروا العَود إلى مثل ما كان منكم، فإن النبي عليه السلام والمؤمنين يراعون أعمالكم ولا يخفى عليه ثباتُكم على التوبة أو زوالُكم عنها، والله عزَّ وجلَّ لا يخفَى عليه سرائرُكم، وهو يُثيبكم[2] بأعمالكم ويجزيكم عليها، وهو ترغيب وترهيب.

وقيل: هو خطاب للمنافقين ووعيدٌ لهم.

وقيل: هو خطاب للمؤمنين: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فيثيبُكم ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ فيزكِّيكم ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيَشهدوا لكم بالخير.

وروى الإمام أبو منصور رحمه الله: أن النبي ﷺ مروا عليه بجنازة فأَثنوا عليها فقال عليه السلام: «وجَبَتْ» قيل: يا رسول الله، وما وَجَبتْ؟ قال: «الملائكة شهداءُ الله في السماء، وأنتم شهداءُ الله في الأرض، فإذا شهدتُم وجبتْ» ثم قرأ النبيُّ ﷺ هذه الآية[3]، قال: وفيه دلالة أن إجماع الأمة حجةٌ[4].

---

(١) في (ف): «عسيتم».

(٢) في (ف) و(أ): «ينبئكم».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٣٢) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه. وله شاهد من حديث أنس رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)، دون ذكر تلاوة الآية، ودون قوله: «الملائكة شهداءُ الله في السماء».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٧٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: خوَّفهم برؤيته سبحانه وتعالى أعمالَهم، فلمَّا علم أن فيهم مَن يتقاصرُ حاله عن الاحتشام لاطِّلاع الحق قال: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾، ثم قال لمن نزلت رتبتُه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقد خسر مَن لا يمنعه الحياءُ، وسقط مِن عين الله مَن هتكَ جلبابَ الاتِّقاء، وقال عليه السلام: «إنَّ مما أدركَ الناس من كلام النبوة: إذا لم تستَحْيِ فاصنع ما شئت»[1] قال الشاعر:

إذا قَلَّ ماءُ الوجهِ قَلَّ حياؤُه ... ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤه[2]

* * *

(١٠٦) ـ ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾[3] قرئ بالهمزة وغير الهمزة[4]، ومعناه: مؤخَّرون موقوفون إلى أن[5] يظهر أمر الله فيهم.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: قيل: الإرجاء من العباد، فكانت طائفة تقول: إن الله يتوب عليهم كما تاب على أبي لبابة وأشكاله، وطائفة تقول: إن الله يعذبهم ويردُّ توبتهم ويمنع الناس من مكالمتهم ويفرِّق بينهم وبين نسائهم، أو يأمر بقتلهم أو نفيهم، فنزل القرآن بقبول توبتهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦١).

(٣) في (ف): «وآخرون مرجؤون...»، وهما قراءتان كما سيأتي.

(٤) قرأ بالهمز ابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو وابن عامر، والباقون بغير همز. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧ ـ ٢٨٩)، «التيسير» (ص: ١١٩).

(٥) في (أ): «ومعناه مرجون إلى أن»، وفي (ف): «ومعناه مرجون موقوفون إلى أن».

وقيل: الإرجاء كان من الله إذ أخفى أمرهم مدةً ثم بيَّن توبتهم على أجمل الوجوه حين قرن توبتهم بتوبته على النبيِّ ﷺ والمهاجرين والأنصار، على ما نذكر في تلك الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ليقضيَ فيهم ما هو قاضٍ[١].

وهم ثلاثةُ نفر: كعب بن مالك من بني سلمة، وهلال بن أمية الواقفي، ومُرارة بن الربيع الزبيدي، وكانوا تخلَّفوا عن غزوة تبوك وفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وكانوا مرجئين لأمر الله لا يتولاهم أصحاب رسول الله ﷺ ولا يتبرؤون منهم، حتى نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وكانوا لم يُوْثِقوا أنفسهم بالسواري فلم يَدْروا أيُتاب عليهم أم يعذَّبون[٢].

وقال الضحاك: كانوا من أفاضل الصحابة مياسيرَ، ولم يتَّسع لهم العذرُ كما اتَّسع لأبي لبابة وأصحابه؛ لأنهم لم يبالغوا في التنصُّل[٣] والاعتذار كما فعل أبو لبابة، فأخِّر أمرهم[٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فوقَفَهم النبيُّ ﷺ خمسين ليلة، ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، وأمر نساءهم بالاعتزال منهم، حتى شفَّهم القلق،

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٣).

(٢) في (أ): «يعذبون».

(٣) في (ر): «التوبة»، وسقطت الجملة من (ف).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٢) عن ابن عباس، وفيه بدل «فأخر أمرهم»: (فوقف رسول الله ﷺ أمرهم، ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨] الآيات بعد خمسين ليلة).

ونَهكهم الحزن، وضاقت عليهم أنفسُهم؛ لإعراض الناس عنهم، واعتزال الأهل والولد منهم، وكانوا ممن شهدوا بدراً، فتاب الله عليهم بعد خمسين ليلة[(١)].

* * *

(١٠٧) - ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾: ذكر جماعةٌ أنهم طائفةٌ من المنافقين بالمدينة كانوا بنَوا[(٢)] بقرب قُباءٍ مسجداً يعارضون به مسجدَ النبي ﷺ بقُباء، وكانوا اثني عشر رجلاً كلُّهم من الأوس والخزرج: خِذَام بن خالد، وثعلبة بن حاطب، ومعتِّب بن قُشيرٍ، وأبو حبيبةَ بن الأزعر، وعبَّاد بن حُنيفٍ، وجارية بن عامر، وابناه مجمع بن جارية ويزيد بن جارية، ونَبْتَل بن الحارث، وبَحْزَج الضُّبَعي، وبِجاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت، وكانوا أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنَّا قد بنينا مسجداً لذي العلَّة والحاجة والليلة الـمَطِيرة والليلة الشاتية، ونحن نحبُّ أن تأتيَنا فتصليَ فيه، فقال: «إني على جناحِ سفرٍ وحالِ شغلٍ، ولو قدِمْنا أتيناكم فصلَّينا فيه».

فما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك حتى نزل بوادٍ بينه وبين المدينة ساعةٌ من نهار، فأتاه خبرُ المسجد، فدعا رسولُ الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم أخا بني سالم بن عوف، ومعنَ بن عديٍّ أو أخاه عاصم بن عديٍّ فقال: «انطلِقا إلى هذا المسجد

---

(١) انظر التعليق السابق. وروى حديثهم مطولاً البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) في (ف): «يقيمون».

الظالمِ أهلُه فاهْدِماه وحرِّقاه»، فهدَماه وحرَّقاه، وتفرَّقوا، ونزلت هذه الآية[١].

ورُوي أنهم بنَوه بكتاب أبي عامر بن النعمان ـ المعروف بالراهب ـ إليهم، وذلك أن أبا عامر هو الذي حزَّب الأحزاب على رسول الله ﷺ، فلما انصرف المشركون بما انصرفوا به خرج إلى الشام يستنصِر قيصرَ على رسول الله ﷺ، فكتب إلى هؤلاء المنافقين يأمرهم ببناء المسجد، وأخبرهم أنه سيظهر على رسول الله ﷺ إذا جاء صلَّى في هذا المسجد، فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾؛ أي: يضارُّون به أهل مسجد رسول الله ﷺ، ولا يقصدون به الخير[٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: كفراً منهم بالله لأنهم اتَّخذوه لأبي عامرٍ المشركِ، وقصدوا به مخالفة الله والرسول.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ليصليَ بعضهم فيه جاهلاً[٣] بالحال، فيتفرَّقَ الناس عن رسول الله ﷺ ولا يتوفَّرون[٤] في مسجده.

وقوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا﴾: أي: إعداداً، وقد أَرْصَدَ؛ أي: أَعَدَّ، ورَصَدَ؛ أي: ترقَّبَ.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾: أي: أعدَّ[٥] المسجد لأبي عامر،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٣٠) عن ابن إسحاق، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٣) من طريق ابن إسحاق عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٥ ـ ٦٧٩) عن ابن عباس وجمع من الأئمة.

(٣) في (أ) و(ف): «جاهلين».

(٤) في (أ) و(ر): «يتوقرون».

(٥) في (ر): «أعدوا».

وهو الذي حارب الله ورسوله من قبلُ؛ أي: من قبلِ بناء هذا المسجد، يعني: يوم الخندق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي: لم نقصد به إلا الرِّفقَ بالضعفاء والتسهيلَ في الشتاء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾: أي: في قولهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

وهذا المعروف بالراهب سماه النبيُّ ﷺ: الفاسقَ، وكان ترهَّبَ في الجاهلية ولبس الـمُسوح، فلما قدم النبيُّ ﷺ المدينةَ قال للنبيِّ عليه السلام: ما هذا الذي جئتَ به؟ قال: «جئتُ بالحنيفيةِ دينِ إبراهيم»، قال أبو عامر: فأنا عليها، قال النبيُّ ﷺ: «إنك لستَ عليها» قال: بلى، ولكنكَ أدخلتَ في الحنيفيّة ما ليس منها، فقال النبيُّ ﷺ: «ما فعلتُ، ولكني جئتُ بها بيضاءَ نقيةً»، فقال أبو عامر: أماتَ الله الكاذب طريداً وحيداً.

فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين: أنِ استعدُّوا بما استطعتم من قوةٍ وسلاح، وابنوا لي مسجداً فإني ذاهبٌ إلى قيصر فآتي بجندٍ تُخرج محمداً وأصحابَه، فمات الفاسق بالشام طريداً وحيداً كما دعا، وابنه حنظلةُ غسيل الملائكة فاستُشهد يوم أحد.

وقال الحسن: لمَّا التمس هؤلاء من النبيِّ ﷺ أن يأتي مسجدهم فيصليَ فيه، فجعل ينتظر الوحي، فجعل لا يأتيهم وأولئك لا يأتونه يفعلون بالصلاة في مسجدهم، فلما طال ذلك عليه دعا بقميصه ليلبسَه ويأتيَهم، فبينا هو يَزرُّه[١] عليه إذا بجبريلَ نزل وأنزل قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[٢].

* * *

(١) في (ر) و(ف): «فبينما هو يزرره».

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٨) عن قتادة.

(١٠٨) ـ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾: أي: لا تقُمْ في مسجد الضرار للصلاة ما عشتَ، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن صام رمضان وقامه»[١].

وقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾: قيل: هو مسجدُ رسول الله ﷺ أُسِّس لإحياء دين الله وإظهار معالم شريعته التي لا يقومُ بها إلا مَن اتَّقى الله تعالى.

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وأبيُّ بن كعب رضي الله عنهما: قال النبيُّ ﷺ: «هو مسجدي هذا»[٢].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: أي: أولِ الأيام إذا ميزت[٣] يوماً يوماً؛ كما تقول: أعطيتُ كلَّ رجل في الدار[٤]؛ أي: كلَّ الرجال إذا ميزوا رجلاً رجلاً.

وقوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾: للصلاة من مسجد أُسس على غير التقوى، بل ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً، وذلك ليس بحقٍّ فكيف يكون هذا أحقَّ؟

قلنا: هو مبالغةٌ، ومعناه: لو كان ذلك حقًّا فهذا أحقُّ، فكيف وذاك باطل؟

وقيل: هو مسجد قُباء.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾: أي: مخلصون يحبُّون أن

---

(١) رواه أبو داود (١٣٧١)، والترمذي (٦٨٣)، وابن ماجه (١٣٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٣٩٨)، والترمذي (٣٠٩٩) وصححه، والنسائي (٦٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. واللفظ للترمذي والنسائي. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١١٠٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٨٤) وصححه، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٣) في (ر): «الأيام التي امتيزت».

(٤) في (ر): «الدراري».

يصلُّوا لله عز وجل متطهِّرين بأبلغ الطهارة، لا كأهل مسجد الضِّرار الذين يصلُّون صورةً لا حقيقةً وهم مدنَّسون بالنفاق.

وقيل: هو التطهُّر عن الذنوب بالإخلاص لله تعالى.

وعن جابرٍ وأنسٍ وجماعة: أن الآية لما نزلت دعا رسول الله ﷺ أهل مسجد قُباء فقال: «إنَّ الله قد أَثْنى عليكم بطُهوركم، فما طُهورُكم؟» قالوا: إنَّا نستنجي بالماء، فقال: «فعليكُموه»(١).

وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: أي: يحبُّ هؤلاء ومَن فعَل مثلَ فِعلهم.

وقال يزيد بن شجرةَ: أتت الحمَّى رسولَ الله ﷺ في صورة جاريةٍ سوداءَ، فقال لها رسول الله ﷺ: «مَن أنت» قالت: أنا أمُّ مَلْدم، أنشِّفُ الدَّمَ، وآكُلُ اللَّحم، وأصفِّر الوجه، وأرقِّق العظم، فقال النبيُّ ﷺ: «مرِّي فاقْصِدي الأنصار فإن لهم علينا حقوقاً» فحُمَّ الأنصارُ، فلما كان من الغد قال: «ما لي لا أرى الأنصار؟»، قال: حُمُّوا عن آخرهم، قال: «قوموا بنا نعودُهم» فعادهم وجعل يقول: «أبشِروا فإنها كفَّارة وطُهورٌ»، فقالوا: يا رسول الله، فادْعُ الله أن يديمَها علينا أياماً حتى تكونَ كفَّارة لذنوبنا، فأنزل الله تعالى يُثني عليهم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ بالحمَّى عن معاصيهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾(٣).

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٥٥)، والدارقطني في «سننه» (١٧٤) وقال: عتبة بن أبي حكيم (أحد رجال الإسناد) ليس بقوي.

قال القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٠): وهذا الحديث يقتضي أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء، إلا أن حديث أبي سعيد الخدري نصَّ فيه النبي ﷺ على أنه مسجده فلا نظر معه.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٩٦).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٥)، ولم أجده مسنداً من حديث يزيد بن شجرة، لكن روي معناه =

قال مقاتل: أَمر رسول الله ﷺ في مسجد الضرار بعدما هُدم وأُحرق أن يتَّخذ كناسةً يُلقَى فيها الجِيَفُ[(١)].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: في هذه الآية دلالةُ نبوةِ محمد ﷺ؛ لأنه معلوم أنهم أَسرُّوا وأَضمروا فيما بينهم من الضِّرار والكفر والتفريق بين المؤمنين، فأَطْلعَ الله نبيَّه على ما أسرُّوا ليُعلَم أنه إنما عرَف ذلك بالله تعالى[(٢)]، وكذا قال في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[(٣)]، وكذا قال في كثير من آيات هذه السورة فيما يرجع إلى إضمارهم السوءَ في حقِّ النبي ﷺ وأصحابه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾: يتطهَّرون عن وضَر المعاصي وذلك سِمَةُ التائبين، ويتطهَّرون عن الشهوات والأمانيِّ وذلك صفةُ الزاهدين، ويتطهَّرون عن محبة المخلوقين [ثم] عن شهود أنفسهم فيما به يتَّصفون، وذلك صفة المحبين[(٤)].

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ بأسرارهم عن مساكنةِ المخلوقين وملاحظة المسبوقين[(٥)].

= دون ذكر سبب النزول من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٣٩٣)، وقال محققوه: رجاله رجال الصحيح وفي متنه غرابة.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٩٨).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧).

(٣) المصدر السابق (٥/ ٤٧٩).

(٤) في «اللطائف»: (صفة العارفين).

(٥) في (ر) و(ف): «المسرفين». وانظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٢) وما بين معكوفتين منه. ووقع في (ر) و(ف): «وملاحظة المسرفين»، وعبارة «اللطائف»: (عن المساكنة إلى كل مخلوق، أو ملاحظة كل محدث مسبوق).

(١٠٩) ـ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُه﴾: قرأ نافعٌ وابنُ عامر على ما لم يسمَّ فاعلُه، وقرأ الباقون على الفعل الظاهر ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾ بالنصب على أنه مفعول به[١].

والألفُ استفهام بمعنى الإنكار، والبنيان: البناء.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾: بحذف تنوينه لأنه على وزن فَعْلَى: وأصله: وَقْوى.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾: هو على التفضيل فسِّر كذلك، وإنما لم يدخل فيه ألف (أَفْعَل) لأن الخير والشر فيهما اشتراكٌ، فقد يراد بهما الاسمُ بدون التفضيل.

وقوله تعالى: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الشَّفا: الطَّرَفُ، والجُرُف: الوادي الذي تجرَّف[٢] بالماء أصلُه فيبقى واهياً، وهو من الجَرْف والاجتراف: وهو اقتلاعُ الشيء من أصله، والهاري[٣]: الساقط الواقع الذي يتداعَى بعضُه على إثر بعضٍ كما ينهار الرمل الرقيقُ والشيء الرِّخْوُ، قاله قُطْرُبٌ.

وقال أبو عوسجة: أي: رخوٌ سريعُ الانهدام[٤].

ورجلٌ هارٍ؛ أي: ضعيفٌ، وقد هار يَهُور هَوْراً: إذا انصدع بالتهدم، فهو هائر.

وإنما قيل هاهنا: ﴿هَارٍ﴾؛ لأنه قُلب فصار (هارٍ) مكان: هائر، كما يقال:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٨)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٢) في (أ): «ينجرف» وفي (ف): «يتجرف».

(٣) في النسخ: «والهار»، والصواب المثبت.

(٤) ذكره عنه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٨٣) بلفظ: الهار: الهش الذي ليس بصلب.

عاقَ يَعوقُ فهو عائق(١)، ثم قيل في النعت: عاقٍ، على القلب(٢)، قال الشاعر:

ولو أني رَمَيْتُك من بعيدٍ لعاقَك من دعاءِ الذئب عاقِ(٣)

ويقال أيضاً: هار يَهَارُ فهو هارٌ على الرفع، وتقديره: هَورٌ، كما يقال: رجلٌ مالٌ؛ أي: متموِّلٌ، وتقديره: مولٌ، وعلى هذا لا قلبَ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾: أي: تساقَطَ وتناثَرَ به؛ أي: بصاحبه فسقطا معاً فيها، والباء للتعدية والإيصال.

ومعنى الآية: أيُّ الفريقين أولى بالخيرية: مَن أسَّس بناء المسجد يريدُ به تقوى اللهِ وطاعتَه وهم أهلُ مسجد قُباء أو مسجدِ المدينة، أم مَن أسَّس بناءه على النِّفاق والشِّقاق والكفر والتفريق وانتظارِ الكفار أن يأتوه فيَقصدوا به كيدَ المسلمين، ويتدبَّروا في الاحتيال لتوهين الدِّين، فلا يَلبثُ احتيالُهم أن يَبطُلَ وظنونُهم أن تخيبَ، فينهدِمُ البناء وينهارُ الأساس، ثم تكون عاقبة أهله(٤) دخولَ جهنم؟

ولم يقل: هو في نار جهنم للحال؛ لأنه ما دام حيًّا أَمكنه أن يُخلِصَ فيتخلَّصَ ولا يقعَ فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: أي: لا يهديهم للرشد ولِمَا يتمُّ

---

(١) في (ر): «عاق»، وسقطت من (أ) و(ف)، والصواب المثبت.

(٢) «على القلب» ليس من (أ) و(ف).

(٣) البيت لذي الخِرَق الطُّهَوي قُرْط بن شُريحٍ كما في «الدلائل في غريب الحديث» لقاسم بن ثابت السرقسطي (١/ ٣٠٤)، ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٤)، و«كتاب الألفاظ» لابن السكيت (ص: ٤٠٩)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٥٩٦)، و«الصحاح» (مادة: عقا).

(٤) في (ر): «عاقبته».

به تدبيرُهم الفاسد؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، ولا يوفِّقهم للخير عقوبةً لهم على نفاقهم.

وقال محمد بن إسحاق: إن الذي كان يؤمُّ في ذلك المسجد مجمِّع بن جارية، فلمَّا أنزل الله في شأنه ما أَنزل، وأَمر النبيُّ ﷺ بهدمه، وفرِّقت تلك الجماعة، وذهب مَن كان يصلي من بني عمرو بن عوفٍ في مسجدهم إلى المسجد[١] الذي بنَى رسول الله ﷺ بقُباء، كلَّم بنو عمرو بن عوف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ليأذن لمجمِّع بن جارية فيؤمَّهم في مسجدهم، فقال: ولا نَعِمَتْ عينٌ، أليس بإمام[٢] مسجد الضرار؟ فقال له مجمِّعٌ: يا أمير المؤمنين! لا تعجَلْ عليَّ، فوالله لقد صلَّيت فيهم والله إني لا أعلم ما أضمَروا عليه، ولو علمتُ ما صليتُ معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً ولم أعلم ما في أنفسهم[٣]، وكانوا لا يقرؤون من القرآن شيئاً، فصلَّيتُ ولا حسبتُ ممَّا صنعوا شيئاً، إلا أنِّي قلتُ: يتقرَّبون إلى الله، فعذَره وصدَّقه وأمره بالصلاة لقومه[٤].

* * *

(١١٠) ـ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: أي: شكًّا وشبهة؛ أي:

---

(١) «إلى المسجد» ليس في (أ) و(ف).

(٢) في (ف): «كان يؤم».

(٣) في (ف): «نفوسهم».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٩٥).

كان ألقَى إليهم أبو عامر أنه يأتي مسجدَهم فيصلِّي فيهم، ويكون له ولهم الظهور على المسلمين، فلا يزال ذلك في قلوبهم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: قرأ ابن عامر وحمزةُ وعاصمٌ في رواية حفصٍ بفتح التاء، وأصله: تتقطَّع، فحذفت إحداهما تخفيفاً، وقرأ الباقون بضمِّها[(٢)]، وهو ما لم يسمَّ فاعله من التقطيع[(٣)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الموت[(٤)].

وقال عكرمة: هو في القبر[(٥)].

وقال المبرِّد: تقطُّع القلب: تشقُّقه وانصداعه ولا بقاء مع ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٦]، وهو نياط القلب، والحياةُ تنقطع عند انقطاعه، وهذا إخبار بموتهم على نفاقهم وإصرارهم عليه حالَ حياتهم.

وقيل: معناه: إن خطأهم وضلالهم فيما قصدوه ببناء هذا المسجد لا يزول عنهم إلا أن يموتوا فيستيقِنوا بالمقتِ[(٦)]؛ لأنه حالُ زوال الشكوك.

وقال المبرد: أي: لا يزال هدمُ بنيانهم غيظاً في قلوبهم إلى الموت، قال الشاعر:

قضَيْنا من تِهَامةَ كلَّ ريبٍ وخيبرَ ثم أَجمَمْنا السيوفا[(٧)]

---

(١) بعدها في (ف): «أي شكاً وشبهة».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

(٣) في (ف): «التقطع».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٩٨).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٦).

(٦) في (أ): «بالموت».

(٧) البيت لكعب بن مالك رضي الله عنه. انظر: «طبقات الفحول» (١/ ٢٢١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال بعضهم: ﴿رِيبَةً﴾؛ أي: حسرةً وندامةً، وهو على وجهين:

يحتمِل أنهم تابوا وندموا على ما صنعوا.

ويحتمِل: حسرةً وندامةً لمَّا افْتَضحوا بما صنعوا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أي: بضمائر العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ في التمييز بين أهل الصلاح وأهل الفساد.

* * *

(١١١) ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾: بدأ السورة بالبراءة من الكافرين، ثم بالأمر بقتال المشركين، ثم بالحثِّ على الخروج إلى غزوٍ عظيم اختَلفت فيه أحوال المنافقين، وذمَّ فيه المتخلِّفين، ثم مدَح في هذه الآية المجاهدين، وذكَر كرامتهم[1] يوم الدِّين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ أخبر عزَّ وجلَّ أنه تاجَرَ[2] عبادَه المؤمنين على أبدانهم وأموالهم بما أَعدَّ لهم من جناتِ النعيم عنده ـ مع أن الأشياء كلَّها مِلكُه ـ لطفاً منه بعباده؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، وهو كما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

---

(١) في (ف): «كراماتهم».

(٢) في (ف): «بأجر» بدل: «أنه تاجر».

وقوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: يبذلون أنفسهم وأموالهم في طاعة الله والجهاد لأعدائه على إعلاء كلمته.

﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾: أي: تارةً هم يقتلون العدوَّ وتارةً يقتلهم العدو، فإذا فعلوا ذلك فقد سلَّموا ما باعوا واستحقُّوا بوعد الله ثمنَ ما أَعطوا وهو الجنة، وهذا مستعارٌ من الكلام تشبيهاً بالبيع المعروف الذي حقيقتُه إعطاء شيء وأخذُ[1] بدلٍ عنه.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فيُقتَلون﴾ بضمِّ الياء وفتح التاء على ما لم يسمَّ فاعله ﴿ويَقْتُلون﴾ على عكسه على الفعل الظاهر[2]، وهذا أدلُّ على ثبات قلوبهم وجرأتهم على عدوهم[3]، وأنهم لم ينكسروا لِمَا جرى على بعضهم، كما قال: ﴿وكائنْ من نبيٍّ قُتِلَ معه ربِّيُّون كثيرٌ فما وهَنوا﴾[4] الآية [آل عمران: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾: ﴿وَعۡدًا﴾ نصبٌ على الحال من قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أو معناه: بوعدٍ عليه حقٍّ، فنُصب بنزع الخافض، ومعناه: عهداً عليه لازماً أَوحى به إلى أنبيائه وأثبته في كتبه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي، وهو بيانٌ أن المراد من الوعد المذكور قبله هو العهد.

وقيل: بل المراد من هذا العهدِ هو الوعد، وهو بيانٌ أن الشراء ليس على حقيقته، وهو مبادلةٌ صورةً ومواعدةٌ معنًى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾: أي: فافرحوا به فإنكم

---

(١) في (ف): «واحد».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٩)، و«التيسير» (ص: ٩٣).

(٣) «على عدوهم» ليست في (أ).

(٤) في (ر): «وكأين من نبي قاتل معه...»، وكلها قراءات سبعية.

تبيعـون فانيـاً ببـاقٍ، وتأخذون ثمناً من مشـترٍ هـو المالـك، وبمبيعٍ هو ملكُـه وحقُّه، ثـم لا يَخـرج مـن أيديكـم بهذا البيـع إلا حيـاةٌ منغَّصـةٌ[١] فانيـةٌ، ومـالٌ[٢] قليـلٌ تافهٌ تعتاضـون منـه حيـاةً مهنَّأة دائمـةً، ونعمـاً في جنـاتِ الخلـد باقيةً.

وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: وهذا الشراء على هذا الوجه لكم فيه ربحٌ عظيم.

وروي عن عبد الله بن رواحة أنه قال: يا رسول الله اشترِطْ، لربِّك ولنفسك ما شئت علينا، قال: «أشترِطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأَشترِطُ لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون به أنفسكم وأموالكم» قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة» قال: ربحَ المبيع لا نُقيل ولا نَستقيل، فنزلت هذه الآية[٣].

وقال الحسن: مرَّ أعرابيٌّ بالنبيِّ ﷺ وهو يقرأ هذه الآية، فقال: كلامُ مَن هذا؟ قال: «كلامُ اللهِ تعالى» قال: بيعٌ والله مربحٌ، لا نُقيله ولا نَستقيله[٤]، فخرج إلى الغزو فاستُشهد[٥].

---

(١) في (أ): «منقضية».

(٢) في (ف): «وبمال».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦ ـ ٧) عن محمد بن كعب القرظي. وذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٥٨٩) وقال: (وهذا مما لا يوجد صحيحاً). ومراده والله أعلم: أنه لم يرد في حديث متصل؛ لأنه أعقبه بنحوه عن الشعبي ثم قال: وهذا وإنْ كان مقطوعًا فإنَّ معناه ثابتٌ مِن طرقٍ.

(٤) في (ف): «لا نقيل ولا نستقيل».

(٥) ذكره عن الحسن الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٧)، ورواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٦) من طريق عطاء الخراساني عن جابر رضي الله عنه، وعطاء الخراساني لم يسمع من جابر. انظر: «المراسيل» لابن أبي حاتم (ص: ١٣٠).

وقال جعفر بن محمد الصادقُ: ليس لأبدانكم ثمنٌ إلا الجنةَ، فلا تبيعوها إلا بها، وأنشد الأصمعيُّ لجعفر الصادقِ:

أُثامِنُ بالنَّفسِ النفيسةِ ربَّها ... فليس لها في الخَلْقِ كلِّهم ثَمنْ
بها تُشترَى الجنات، إنْ أنا بعتُها ... بشيءٍ سواها إنَّ ذلكم غَبنْ
إذا ذهبتْ نفسي بدُنيا أصيبُها ... فقد ذهب الدنيا وقد ذهب الثمن[1]

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء: يا بني آدم، ما خلقتكم لأربح عليكم إنما خلقتُكم لتربحوا عليَّ[2].

وفي التوراة: الجنةُ جنتي والمالُ مالي، فاشتروا جنَّتي بمالي، فإنْ ربحتُم فلكم وإن خسرتُم فعَلَيَّ[3].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: البائعُ لا يستحقُّ الثمنَ إذا امتَنع عن المبيع، فلذلك لا يستحقُّ العبدُ الجزاءَ الموعودَ إلا بعد تسليم النَّفْس والمال على موجَب أوامر الشرع.

ويقال: لا يكون في الشرع البائعُ والمشتري واحداً فيتولَّى طرفي العقد إلا الأبَ والجدَّ؛ لفَرْط شفقتهما وكمال نظرهما، ولما كانت رحمة الله بالعبد أتمَّ ونظرُه له أبلغَ، وكان سبحانه وتعالى أولى بالمؤمن منه بنفسه، تولَّى العقدَ عنه عليه.

وقيل: علِم الله تعالى سوءَ خُلقك فاشتراك قبل أنْ أَوجدك، وغالى بثمنك لئلا يكون لك حقُّ الاعتراض عند بلوغك.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٧)، والطبرسي في «مجمع البيان» (١١/ ١٤٧).
(٢) ذكره القشيري في «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٤).
(٣) ذكره القشيري في «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٥)، وأورده الديلمي في «الفردوس» (٥١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: لا يصح للمؤمن أن يتعصَّب لنفسه بحالٍ؛ لأنها ليست له ومشتريها أولى بها من صاحبها الذي هو أجنبيٌّ عنها.

وحُكي عن الجنيد أنه مرض مرضاً، فدعا الله تعالى أن يَشفيه، فنودي في السرِّ: يا فضولي، لمَ تَدخُل بيني وبين نفسك، أما علمت أن نفسك لي أتصرَّفُ فيها كيف شئت.

وقيل: أخبر أنه اشتراها لئلا يدَّعيَ العبد فيها ولا يساكنَها ولا يلاحظَها ولا يُعجب بها.

وإنما قال: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ ولم يقل: قلوبَهم؛ لأنها فيها فدخلت في الحُكم معها.

وقيل: ذكَر النفوسَ والأموال، وجعَل الجزاء عليهما الجنة، فأما القلوب فعطاؤها رؤيتُه عز وجل.

وقيل: ذكر شراءَ النفوس والأموال لأنها مَعيبةٌ، ولا يَرغب المشترون[1] في شراء المعيب، فاشترى هو ذلك بكرمه ترويجاً لِمَا كسَد على العبد امتناناً عليه.

وقيل: اشترى النفوس منهم بالثمن فوهبوا القلوب له شكراً لذلك.

وقيل: القلوب ليست في أيديهم[2] فلا يقدرون على تسليمها، ولا يُشتَرى ما لا يمكن تسليمه كالطير في الهواء والسمك في الماء.

وقال أبو عليٍّ الدَّقَّاق: القلوب موقوفةٌ على محبة الله تعالى والوقف لا يشترى.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ ولم يقل تعالى:

---

(١) في (ف): «المشتري».

(٢) في (ف) و(أ): «أيديهم».

بثَمن مبيعكم، ليُعلم أن الاستبشار بزوال الأنفس والأموال عن حكمهم وخلاصهم عن آفاتها[١].

***

(١١٢) ـ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾: وفي مصحف عبد الله: (التائبين)[٢] نعتاً لقوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

فأما الرفع فلوجوه:

أحدها: هم التائبون.

والثاني: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ ولذلك ضمير في آخره، وهذا بدل[٣] ذلك الضمير.

والثالث: هو مبتدأ وخبرُه مضمَر في آخره: لهم الجنة، وكذا ما بعده فوجوهُه ما بينَّا[٤].

ولمَّا مدَحهم وزكَّاهم بما كان منهم ذكَر خصالهم التي هي صفات المتحقِّقين[٥]

---

(١) في (أ): «آفاتهما». وانظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٤ ـ ٦٥)، وفي كلام المؤلف بعض الزيادة والاختلاف.

(٢) وكذا ما بعده إلى آخر الآية كله بالياء. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٠).

(٣) في (أ): «يدل على».

(٤) في (ر): «لما قلنا»، وفي (ف): «لما بينا».

(٥) في (ر) و(ف): «المتخلقين».

بالإيمان، ولذلك ختم بالإيمان بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما افتتح به بقوله: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الصفاتُ مما شَرَطه الله عز وجل على أهل الجهاد؛ إذا وفوا لله[1] بشرطه وفَى لهم بشرطهم.

وقال الحسن: هذه أعمالهم قبل الجهاد.

وعنه في رواية: قال: على هذا الشرط اشترى منهم[2].

وأما تفسير (التائبين) فقد قال قتادة وعطاء: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ من الشرك ثم لم ينافقوا في الإسلام[3].

وقيل: الراجعون عن المعاصي.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: التائبون أصناف: فمِن راجعٍ يَرجع عن زلَّته إلى طاعته، ومِن راجعٍ يَرجع عن متابعة[4] هواه إلى موافقة رضاه، ومِن راجعٍ يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه، ومِن راجعٍ يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جنسه إلى الاستغراق في حقائق حقِّه[5].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾: أهل العبادة والعبودية.

وقال الكلبي: أي: المطيعون المخلصون[6].

---

(١) في (ر): «وفوا له».

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، ولعله يريد ما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٦) عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ قال: هم الذين وفَوا ببيعتهم.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٨ ـ ٩) عن قتادة والحسن.

(٤) في (ر) و(ف): «سابقة».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٦).

(٦) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٦٩) بلفظ: (الذين أخلصوا لله العبادة).

وقال عطاء: الموحِّدون لله[1].

وقال الحسن: الذين عبدوا الله باتِّباع أمره وآثَروه على مَن دونه[2].

وقال القشيري رحمه الله: ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾: الخاضعون لله بكلِّ وجهٍ، الذين لا تسترِقُّهم كرائم الدنيا، ولا تستعبدُهم عظائم العُقبى، ولا يكون العبد عبداً لله على الحقيقة إلا بعد تجرُّده عن كل حادث[3].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾: أي: الـمُثنُون عليه بآلائه، الشاكرون له على نعمائه، المادحون له بصفاته وأسمائه.

وقال القشيري رحمه الله: الحامدون له: هم الذين لا اعتراض لهم على ما يحصل بقدرته، ولا انقباض لهم عما يجب له من طاعته.

وقيل: هم الذين يحمدونه على منعه وبلائه كما يحمدونه على صنعه وعطائه[4].

وقوله تعالى: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾: أي: الصائمون، قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «سياحةُ[5] أمتي الصيَّام»[6].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٩) عن سعيد بن جبير.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٦٩). وروى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٩) عن الحسن قوله: عبدوا الله على أَحايينهم كلِّها في السَّرَّاء والضَّرَّاء.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٦).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٧) وفيه: (... على نفعه وعطائه).

(٥) في (أ): «سياحة».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥) عن عائشة رضي الله عنها موقوفاً بلفظ: (سياحة هذه الأمة الصيام). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٣١٧)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. وقال العقيلي: فيه حكيم بن خذام كان يرى القدر، منكر الحديث. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١) عن أبي هريرة موقوفاً، =

وقال سفيان بن عيينة: إنما قيل للصائم: سائح؛ لأنه تارك اللَّذات كلِّها من المطعم والمشرب والنكاح[١]، كمَن يسيح في الأرض؛ أي: كمَن يسير فيها.

وقيل: طلَّابُ العلم الداخلون فيه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: هم الصائمون عن شهود غير الله، الممتنعون عن خدمة غير الله تعالى، المكتفون من الله بالله.

وقيل: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾: السائرون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار، الذاهبون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكُّر في جوانبها، والاستدلالِ بآياتها على خالقها، والجائلون بأسرارهم في الملكوت، فيجدون روحَ الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس بالتحقُّق بشهود ذي الجلال[٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾: أي: المحافظون على الصلوات فرضِها ونفلِها تذلُّلاً إليه وخضوعاً.

وقال عطاء: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ بنيةٍ صادقةٍ بلا رياءٍ ولا سمعة[٣].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾: الخاضعون لله في جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التَّجلِّي.

وفي الخبر: إن الله تعالى إذا تجلَّى لشيء خشع[٤] له.

= وصوب وقفه ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وقد روي هذا القول عن جمع من الصحابة والتابعين، فقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١ ـ ١٥) عن أبي هريرة وعائشة كما تقدم، وعن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وعن سعيد بن جبير ومجاهد والحسن والضحاك وعطاء.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٩٩).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٧).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٧١) من قول ابن عباس بلفظ: (الذين يصلون لله بنية صادقة).

(٤) في (ر): «خضع». والمثبت من باقي النسخ و«اللطائف».

و﴿ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ بنفوسهم في الظاهر على بساط العبودية، وبقلوبهم في الباطن عند شهود الربوبية[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: أي: الإيمان والطاعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾: أي: الكفر والمعصية.

وقال بسام[(٢)] بن عبد الله: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾؛ أي: بإقامة السنَّة والجماعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾: عن الهوى والبدعة[(٣)].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ هم الذين يَدْعون الخَلْق إلى الله تعالى ويحذِّرونهم عن غير الله تعالى، يتواصَون على الإقبال على الله وتركِ الاشتغال بغير الله تعالى[(٤)].

وفي زيادة الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أقاويلُ:

قيل: الواو تدخل للمبالغة في المدح للمنعوت واحداً كان أو جماعةً، قال تعالى: ﴿وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقيل: لأن الأمر والنهي متقابلان، والمعروفَ والمنكر كذلك، فكانا

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٧).

(٢) تحرف في (ر) و(ف) إلى: «بشار»، وسقطت الجملة من (أ)، والصواب المثبت، وهو بسام بن عبد الله الصيرفي أبو الحسن الكوفي، روى عن زيد بن علي بن الحسين وأخيه أبي جعفر الباقر وجعفر الصادق وعطاء وعكرمة، وغيرهم، وعنه ابن المبارك ووكيع وأبو نعيم وغيرهم، من رجال «التهذيب».

(٣) ذكره عن بسام الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٨)، ودون عزو البغوي في «تفسيره» (٤/ ٩٩)، كلاهما أورده مختصراً بلفظ: (المعروف السنَّة والمنكر البدعة).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٨).

كالمتعاندَين[١]، فأدخل بينهما حرف العطف كما في قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

وقيل: هي واو الثمانية؛ لأنها الصفة الثامنة، والعرب تخصُّ ذلك بالواو، كما في قوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا﴾ [التحريم: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٢]، وقوله: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ لأن أبواب الجنة ثمانيةٌ.

ولا أصل لهذا القول عند المحققين، فليس في هذا العدد ما يوجب ذلك، ولا استعمال على الاطِّراد كذلك، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ بغير واو.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ الآيةَ بغيرِ واوٍ في الثامن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾: قال الحسن: هم أهل الوفاء ببيعة الله[٢].

وقيل: حدود الله: أوامره ونواهيه، قال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقيل: هي معالمُ الشرع.

وقال القشيري رحمه الله: هم الواقفون حيث وقَفهم الله تعالى، الذين يتحرَّكون إذا حرَّكهم ويسكُنون إذا سكَّنهم، يحفظون مع الله أنفاسهم[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي: الذين بايَعهم الله ليستبشروا، وقال بنفسه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾ وقال لنبيِّه: ﴿وَبَشِّرِ﴾ ليتضاعفَ الاستبشار.

---

(١) في (أ): «كالمتغايرين».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٨ ـ ٩٩)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٩٩). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨) بلفظ: (القائمون على أمر الله).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٨).

وقيل: أي: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المجاهدين وغيرهم، لمَّا خَصَّ المجاهدين بقوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ سكَّن قلوب القاعدين بعذرٍ بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يَقْنطوا.

* * *

(١١٣) ـ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾:

اتصالها بما قبلها: أنها حثٌّ للنبي ﷺ والمؤمنين على قطعِ موالاة المشركين أحيائِهم وأمواتهم، قريبهم وبعيدهم؛ تأكيداً لِمَا أمرهم به من الجهاد؛ إذ لا يَتهيَّأ ذلك مع الأقارب خصوصاً إلا بقطع الموالاة والوداد[1].

و﴿مَا كَانَ﴾ تأكيدُ نفيٍ[2]؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾[3] [النمل: ٦٠]، ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣].

وتقديره: يَبعُد من أخلاقهم أن يسألوا الله تعالى مغفرةَ المشركين وإن كانوا أقرباءهم بعد أن عرفوا أنهم أعداءُ الله، والمستوجِبون سخطَ الله، والمستحِقُّون عذابَ الله تعالى.

---

(١) في (ف): «والوارد».

(٢) في (أ): «تأكيد بقي»، وفي (ر): «تأكيداً للنفي».

(٣) في (ف): «تؤذوا رسول الله»، بدل: «تنبتوا شجرها».

وقال بعض أهل التفسير: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: ظهر لهم شركُهم، فقد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك: أي: بعد ما ماتوا على شركهم فقد انقطع رجاءُ صيرورتهم وكونِهم[١] أهلاً للمغفرة[٢].

وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: رأيت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أليس قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك؟ فذكرت ذلك للنبيِّ ﷺ فنزلت هذه الآية[٣].

وقال الحسن: أُتي النبي ﷺ فقيل له: إن فلاناً يستغفر لآبائه وهم مشركون؟! فقال: «ونحن نستغفر لهم» فنزلت هذه الآية، فأمسَكوا عن الاستغفار[٤].

وقال سعيد بن المسيب [عن أبيه][٥]: لمَّا حضرت أبا طالبٍ الوفاةُ دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: «يا عم، قل: لا إلهَ إلا اللهُ، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله» فقالا له: يا أبا طالب، أترغبُ عن ملة آبائك، فلم يزالا به حتى قال آخرَ ما كلَّمهم به: هو على ملَّة عبد المطلب، فقام رسول الله ﷺ من عنده باكياً وقال: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك» فنزلت هذه الآية[٦].

---

(١) «وكونهم» من (ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩) عن الضحاك.

(٣) رواه النسائي (٢٠٣٦)، والترمذي (٣١٠١) وقال: حديث حسن.

(٤) الخبر مروي في «تفسير مجاهد» (ص: ٣٧٥).

(٥) ما بين معكوفتين من الصحيحين وكتب السنة.

(٦) رواه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

قال الواحدي في «البسيط» (١١/ ٧٤): واستبعده الحسين بن الفضل؛ لأن هذه السورة من آخر القرآن نزولاً، ووفاة أبي طالب كانت بمكة في عنفوان الإسلام. =

وذكر الكلبي أن النبيَّ ﷺ زار قبرَ أمه في ألف فارسٍ وهو يريد أن يستغفر لها، فلما قام عند قبرها فإذا هو بجبريل عليه السلام فوضع يده على صدر النبيِّ ﷺ ونزلت الآية، فبكى النبيُّ ﷺ وبكى المسلمون، فما رؤي يومٌ أشدَّ باكياً وأكثرَ[1] من يومئذ[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا يصح حديث استغفار النبيِّ ﷺ لعمِّه

= قلت: وكذا قال ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية متعقباً: (وفيه: أنَّ موتَ أبي طالب كان قبل الهجرة، وهذا آخر ما نزلت بالمدينة، لا يقال: ما ذكر إنَّما يتمُّ لو كان نزول الآية عقيب موت أبي طالب، وليس بلازم؛ لجواز أن يكون النبي عليه السلام يستغفر له إلى وقت نزول الآية = لأنَّا نقول: الظاهر من قوله: (فنزلت) إنَّما هو التَّعقيب بلا تراخٍ.

وقد ذكرنا في تحقيقنا له ما ذكره الآلوسي في توجيه هذا الإشكال: أن الفاء للسببية لا للتعقيب، يعني أن قوله: (فنزلت) لا يراد به أن النزول كان عقيب القول، بل يراد أن ذلك سبب النزول، قال: واعتمد على هذا التوجيه كثير من العلماء، وهو توجيه وجيه.

لكنه عاد فذكر أنه يعكر عليه ما رواه ابن سعد عن علي كرم الله تعالى وجهه، وفيه: (وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياما ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الآية).

قال: فإنه ظاهر في أن النزول قبل الهجرة لأن عدم الخروج من البيت فيه مغيًّا به... والأولى في الجواب عن أصل الاستبعاد أن يقال: إن كون هذه السورة من أواخر ما نزل باعتبار الغالب كما تقدم فلا ينافي نزول شيء منها في المدينة. انظر: «روح المعاني» (١٠/ ٥٣٩). والخبر الذي رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٢٣)، وفي إسناده الواقدي وهو متروك.

(١) في (ف): « في يوم أشد بكاء ولا أكثر» وفي (ر): «في يوم أكثر وأشد بكاء».

(٢) لم أقف عليه بهذا السياق، والكلبي متروك، لكن روى مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت». وليس فيه أن الآية نزلت في ذلك، لكن روي عن ابن مسعود نحو هذه القصة على أنها سبب نزول الآية، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٩٢)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٨٩).

وأمِّه[١]، فقد عَلم بكفرهما وموتهما عليه[٢]، ولا يخفى عليه أن الله تعالى لا يَغفر للمشرك، إذ في العقل والحكمة تعذيبُ الكافر أبداً، وأنْ لا يُغفر له؛ إذ في ذلك تسويةٌ بين الوليِّ والعدو، وهو ليس بحكمة، وجائز أن يكون استغفر للمنافقين قبل أن يتبيَّن له نفاقُهم، فلما تبيَّن له كفَّ، والاستغفار للمشرك حالَ حياته يجوز على معنى سؤال الإسلام له والمغفرةِ بسببه، فأما مع قيام الكفر فلا[٣].

***

(١١٤) - ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾:

قيل: لمَّا ورد النهي عن الاستغفار للمشركين قال الناس: إن إبراهيم استغفر لأبيه المشرك[٤]، فنزلت هذه الآية[٥].

ومعناها: ولم يكن سؤالُ إبراهيم عليه السلام اللهَ أن يغفر لأبيه المشركِ إلا

---

(١) بل حديث استغفاره لعمه قبل نزول الآية متفق عليه كما تقدم، أما استغفاره لأمه فقد ثبت أنه لم يؤذن له فيه. انظر التعليق السابق. وهذا الكلام منقول عن الماتريدي بالمعنى، وليس في كلامه التعرض لعدم صحة الحديث.

(٢) كذا قال، وفي ذكرهما معًا نظر، فإن أبا طالب قد أدرك الدعوة وعرض عليه الإسلام فأبى، أما أم النبي ﷺ فإنها لم تدرك دعوته، فأكثر ما يمكن أن يقال فيها: إنها من أهل الفترة، وهؤلاء علمُ عاقبتهم عند الله.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٩٢)، والكلام فيه بنحوه.

(٤) في (ف): «وهو مشرك».

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٢٤) عن عمرو بن دينار مرسلًا، ورواه بنحوه النسائي (٢٠٣٦)، والترمذي (٣١٠١) وحسنه، من حديث علي رضي الله عنه.

بسببِ أنه كان وعَد لأبيه لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧] فوفَى بذلك الوعد وسأل الله أن يغفر له.

ومعناه: أن يهديه للإسلام ويجعلَه أهلاً للمغفرة ويغفرَ له بعد إسلامه، وهو كقول هود لقومه: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١] وكقول نوح عليه السلام: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] ليس هذا بأمرٍ لهم أن يقولوا: نستغفر الله، ولكن هذا أمرٌ بالإسلام ليصيروا أهلاً للمغفرة لهم.

وكذا قولُ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ [الشعراء: ٨٦]؛ أي: أعطِهِ السبب الذي تَغفرُ له به، وهو التوحيد.

وعلى هذا القولِ يكون قولُه: ﴿وَعَدَهَآ﴾ خبراً عن فعل إبراهيم، وقولُه تعالى: ﴿إِيَّاهُ﴾ كنايةً عن أبيه.

وقال بعض المفسرين: بل قوله: (وَعَد) خبرٌ عن فعل والدِ إبراهيم أنه وعد إبراهيم، وقوله: ﴿إِيَّاهُ﴾ كنايةٌ عن إبراهيم، وتلك المواعَدةُ أنه كان قال لإبراهيم: إني أُسلم وقتَ كذا، فكان يستغفر له، ومعنى استغفاره[1]: سؤالُه المغفرةَ له بعد ما أسلم، أو سؤالُه إعطاءَ الإسلام الذي به يغفر له.

وقيل: كانت المواعدةُ مؤقتةً، فانتهى إبراهيم إلى ذلك الوقت فظن أنه أسلم فاستغفر له مطلقاً، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]؛ أي: قبل هذا؛ كما قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ أي: قبل التوبة، فلما ظهر أنه لم يُسلم تبرَّأ منه.

وعلى القول الأول: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾: أي: لمَّا مات على الكفر تبرَّأ منه، وهذه الجملة حاصلُ كلام الإمام أبي منصور رحمه الله.

---

(١) في (أ): «استغفار»، وفي (ف): «الاستغفار».

ثم أورد سؤالاً على قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [الممتحنة: ٤]: لمَّا استثنَى هذا من الاقتداء به عُلم أنه لا يجوز، وسؤالُ الهداية للكافر والمغفرةِ جائز بعد هذا، فما معناه؟

وأجاب أن معناه: حتى يُعلم(١) المراد من استغفاره؛ أي: إذا وقع عند السامع أنه سؤال المغفرة مطلقاً لا على الوجه الذي قلنا فما ينبغي له أن يفعله مقتدياً به في ظاهر الاستغفار(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾: (الأواه) في اللغة: المتأسِّف، وهو(٣) المتوجِّع والمتحزِّن، قال المثقِّب العبدي:

إذا ما قمتُ أَرحَلُها بليلٍ تأوَّهُ آهةَ الرجلِ الحزينِ(٤)

أصلها: تتأوه، بتاءين.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (الأواه): التوَّاب(٥).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الدَّعَّاء(٦).

وقال الحسن وقتادة: الرحيم(٧).

---

(١) في «التأويلات» (حتى نعلم).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٩٣)، والكلام فيه بنحوه.

(٣) في (أ): «هو في اللغة التأوه لي هو» وفي (ف): «هو في اللغة المشاقة وهو»، بدل: «الأواه في اللغة: المتأسف وهو».

(٤) انظر: «ديوان المثقب» (ص: ١٦٤).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٦).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤ ـ ٣٥).

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥ ـ ٣٨) عن الحسن وقتادة وابن مسعود وعمرو بن شرحبيل. والأول أصح إسناداً عن ابن مسعود كما قال النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٢٦١).

وقال محمد: الموقن[١].

وقال كعب: القائل: آه، عند ذكر النار[٢].

وقيل: المؤمن[٣].

وفي «التأويلات»: عن النبي عليه السلام أنه سئل عن (الأوَّاه) فقال: «الدَّعَّاء الخاشع المتضرِّع»[٤].

وفيها: عن ابن عباس رضي الله عنهما: (الأواه): المؤمن[٥].

وفيها قيل: (الأواه): الفقيه الموقن[٦].

وفيها: قيل: المسبِّح[٧].

وقال في (الحليم): هو الذي لا يغضَبُ ولا يَسفَه عند سَفَهِ السَّفيه[٨].

وقيل (الحليم) هاهنا: هو أنَّ جَهْلَ الكافر لم يمنعه عن الدعاء إلى الله تعالى،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٨ ـ ٤٠) عن ابن عباس ومجاهد وسفيان والضحاك وعكرمة وعطاء. زاد ابن عباس في رواية وعكرمة وعطاء: (بلسان الحبشة). وزاد سفيان: (وقال بعضهم: الفقيه الموقن). وفي رواية عن مجاهد: (مؤتمن موقن).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٠٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٠٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠) عن مجاهد، ورواه ابن عباس وابن جريج بلفظ: (المؤمن بالحبشية).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٣ ـ ٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦) عن عبد الله بن شداد بن الهاد، وهو مرسل، وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف.

(٥) تقدم تخريجه عنه بلفظ: (المؤمن بالحبشية).

(٦) في النسخ: «الموفق»، والمثبت من «التأويلات»، وكذا روي عن سفيان كما تقدم قريباً.

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١) عن سعيد بن المسيب.

(٨) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٩٤).

وعن المواعدة الجميلة التي يرجو بها الحملَ على الإسلام، وذلك مثلُ ما ذكر في سورة مريم في مخاطبةِ أبيه في آيات.

***

(١١٥) ـ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾:

قال مجاهد: إن الله لا يَحكم بضلالكم عن الحقِّ باستغفاركم للمشركين إلا بعد أنْ تبيَّن لكم أنكم منهيُّون عنه[١].

وقال الكلبي: لمَّا أنزل الله الفرائضَ فعمل بها الناسُ، ثم جاء ما ينسخها من القرآن وقد غاب أناسٌ[٢] وهم يعملون بالأمر الأول من القبلة والخمر وأشباه ذلك، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

وقال الكلبيُّ: ويقال: وما كان الله ليُبطِلَ عملَ قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يتبيَّن لهم الناسخ[٤]، ونظيره: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقولُه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية [المائدة: ٩٣].

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٧ ـ ٤٨).

(٢) في النسخ: «الناس»، والمثبت من المصادر، وستأتي.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٠٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٠٣) عن مقاتل والكلبي، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥١٠) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وهو في «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٠٠).

(٤) هذا تتمة قول الكلبي عند الثعلبي. انظر التعليق السابق.

وقال الضحاك: وما كان الله ليعذِّبَ قوماً حتى يبيِّن لهم ما يأتُون وما يَذَرون، والإضلال: الإهلاك، يقال: ضلَّ الماء في اللَّبَن(١).

قال أبو رَوْق: وما كان الله ليتركَ قوماً في الضلال وإنْ عملوا بالمنسوخ حتى يبيِّنَ لهم ما نُسخ من القرآن ثم يعملون به بعد ذلك.

وقال القشيري: مَن أهِّل لبساط الوُصلة ما مُنيَ بعده بعذاب الفُرقة إلا إذا أسرَّ بعده تركَ الخدمة(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا ظاهر(٣).

* * *

(١١٦) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: ينتظِم بما مرَّ من الحثِّ على الجهاد أن له الخَلْقَ كلَّهم يصرِّفهم كيف يشاء يُبقي ويُفني، فامضوا على بيعتكم ولا يَهُولنَّكم كثرةُ الأعداء، وتوكَّلوا عليَّ فأَوْفوا بالمبايعةِ أنصرْكم، فإن لم تُوفوا بها خذلْتُكم ثم لا يكون لكم وليٌّ ولا نصير.

وعلى قولِ مَن حمل الآية الأولى على النَّسخ فوجهُ الانتظام له: أنه ينسخ حكماً بحكمٍ وأمراً بأمرٍ، يَحكم في أهل السماوات والأرض بما يشاء.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٠٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٠٣).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٩)، ولفظه: (من أحلَّه بساط الوصلة ما مُني بعده بعذاب الفرقة، إلا لمن سلف منه ترك حرمة). ومن قوله: «وقال القشيري..» إلى هنا ليس في (أ) و(ف).

(٣) «هذا ظاهر» ليس في (أ) و(ف).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو لا يتجمَّل بوجود مملوكاته، ولا يَلحقه نقصٌ بعدم مخلوقاته، يُحيي مَن يشاء بعرفانه، ويميت مَن يشاء بكفره وطغيانه، يُحيي مَن أقبل عليه بتضرُّعه ويميت مَن أعرض عنه بترفُّعه(١).

* * *

(١١٧) ـ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولما نزلت هذه السورة وفي آياتها بيانُ معاملات المنافقين على التفصيل(٢) ظننَّا أنه لا يبقى أحدٌ منَّا إلا نزل فيه قرآنٌ، إلى أن نزلت هذه الآية، وكانت السورة تدعى: الفاضحة، ولما نزلت هذه الآية سُميت بها: سورةَ التوبة(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ قال أبو عبيدة: هو مفتاح كلام، لمَّا كان هو سببَ التوبة على القوم ذُكر معهم(٤)، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٩ ـ ٧٠).

(٢) في (ف): «التفصيل ومنهم».

(٣) لم أجده بهذا اللفظ، وروى البخاري (٤٨٨٢)، ومسلم (٣٠٣١) عن سعيد بن جُبيرٍ، قال: قلتُ لابن عباس: سورةُ التَّوبةِ، قال: التوبةُ؟ هي الفاضحةُ، ما زالتْ تَنْزِلُ: ومنهم ومنهم، حتى ظَنُّوا أنَّها لن تبقِيَ أحدًا منهم إلَّا ذُكِرَ فيها.

(٤) في (ف): «معهم».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو العفو عن إذنه للمنافقين بالتخلُّف عنه[١]، قال تعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: هو في حقِّ زلَّاتٍ سبقت منهم يومَ أحد وغيره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقيل: هو في حقِّ هفَواتٍ كانت منهم في غزوة تبوك؛ همُّوا أن ينصرفوا في غير وقت الانصراف على غيرِ إذنٍ لشدائدَ أصابتهم.

قال: ويجوز أن يكون أراد الإدامةَ والثباتَ[٢] على التوبة الماضية، كما عُرف في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] أنه على الدوام والثبات دون الابتداء والإنشاء.

قال: ويحتمل أنه على أنهم حيث صبروا على ما أصابهم من الجهد والشدة كشف الله عنهم أشياء كانت مستورةً عنهم، وجلَّى لهم أغطيةً كانت لا تنجلي لهم من قبلُ، فازدادوا تفويضاً وتسليماً ورجوعاً إلى ربهم، فذلك توبةُ الله عليهم وتوبتُهم إلى الله تعالى[٣].

ثم الجمعُ بين المهاجرين والأنصار وبين النبي ﷺ في هذا غايةُ التشريف لهم والتشهير[٤]، حيث أَشرك بينه وبينهم في التطهير.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾: أي: في غزوة تبوك وقد أصابتهم

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٨٠).

(٢) في (ر) و(ف): «والإثبات».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣).

(٤) في (أ): «غاية تشريف وتشهير».

فيها مشقَّةٌ شديدة من قلةِ الزاد والماء والمركب، وهذا عن مجاهد وجابر وقتادة[١].

قال عبد الله بن محمد بن عقيل: كان ذلك عسرةً من الماء، وعسرةً من النفقة، وعسرةً من الظَّهر[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في شأن العسرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديد حتى ظننَّا أن رقابنا ستُقطع، حتى إنْ كان الرجل يذهبُ يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظنَّ أن رقبته ستُقطع، وحتى إن الرجل ينحرُ بعيره فيعصرُ فَرْثَه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، قال: «نعم» فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلَّت السماء ثم سكَبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[٣].

وقال قتادة: ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقَّان التمرة بينهما، وكان النَّفَر يتداولون التمرة بينهم يمصُّها هذا ثم يشربُ عليها الماء، ثم يمصُّها هذا[٤].

وقال الحسن ومَعْمرٌ: كان الرجلان والثلاثةُ على بعيرٍ واحد يتعاقبون، وكان زادُهم التمرَ والمَحْضَ[٥] وشيئاً من الشعير، وإهالةً مُنتنةً[٦].

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠ ـ ٥١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠).

(٣) رواه البزار في «مسنده» (٢١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (١٣٨٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٠١)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٥٦٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٥): رواه البزار والطبراني في «الأوسط» ورجال البزار ثقات.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١).

(٥) في (ر): «والمخض». والمحض: اللبن الخالص. انظر: «القاموس» (مادة: محض). وفي المصادر: (التمر المسوِّس)، بدل: «التمر والمحض».

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٠٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٠٤)، والقرطبي في «تفسيره» =

وفيها قصةُ دعائه بتمرٍ قليلٍ، وجَعْلِه في قصعةٍ، والدعاءِ[١] بالبركة، حتى أَخذ الناسُ ـ وهم أكثرُ من ثلاثين ألفاً ـ أزوادهم والتمرُ بحاله[٢].

وفيها كانت قصةُ وضعه كفيه في ماءٍ قليل، وانفجارِ الماء من أصابعه العشر، حتى شربوا وسَقَوا دوابَّهم وملؤوا أوعيتهم[٣].

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾[٤]: قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿يَزِيغُ﴾ بياء التذكير لتقدُّم الفعل، وقرأ الباقون بتاء التأنيث بسبب الجمع[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٣].

وقوله: ﴿يَزِيغُ﴾؛ أي: تميل ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: جماعةٍ، ولم يقل: زاغت، بل قال: ﴿كاد يزيغ﴾ ولم يقل: قلوبهم، بل قال: ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ وهذا في الزيغ يجوز أن يكون ميلاً عن المضيِّ وقصداً للرجوع، ويحتمِل أن يكون وقوعَ الاضطراب في القلوب.

يقول: تناهى بهم العسر، واشتدَّ عليهم الأمرُ، حتى قارَبوا أن تضطرب قلوب بعضهم، فتداركهم الله، وكذا كان حال الأنبياء وأتباعِهم من قبلُ، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، وقال: ﴿وَلَمَّا

= (١٠/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨)، عن الحسن. الإهالة: الشحم. انظر: «القاموس» (مادة: أهل).

(١) في (أ): «ودعا».

(٢) رواه مسلم (٢٧/ ٤٥).

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (١/ ١٤٣)، ومن طريقه مسلم (٧٠٦/ ١٠) (كتاب الفضائل)، وفيه أن الماء نبع من عين بعد أن غسل النبي ﷺ فيه يديه ووجهه. وكذا روي عن ابن إسحاق في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٢٧).

(٤) في (ر) و(ف): «من بعد ما كاد تزيغ...».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

﴿يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب: ١١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: أي: وفَّقهم للرجوع إليه والاعتصام به، وقبِل ذلك منهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: والجمع بين الاثنين[1] للمبالغة والتأكيد.

وإنما كرَّر ذكر التوبة لوجوهٍ:

أحدها: أن قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ هو للتوفيق للتوبة، ثم قولَه: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لقبولها، والأول لِمَا سلف والثاني لِمَا كان منهم في هذه الغزوة، أو الأول للكلِّ والثاني لمن كاد يزيغ قلبه على الخصوص.

وقيل: الأول: العفو، والثاني: التخفيف، حيث قفَل بهم النبيُّ ﷺ قبل الحرب، قاله الحسن، وهو كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ أي: خفَّف عنكم فأسقطه عنكم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: كذا سنَّةُ الله مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب وقاربوا من التلف، واستمكن اليأس من قلوبهم من النصرة، ووطَّنوا أنفسهم على أن يذوقوا أليمَ البأس والعسرة، يُمطر عليهم سحائبَ الجود والنصر الموعود، فيعيد عودَ الحياة بعد يبسه طريًّا، ويَردُّ وردَ الأُنس عقيب[2] ذبوله غضًّا جنياً[3].

***

(١١٨) ـ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ

(١) في (ف) و(أ): «الاسمين».

(٢) في (ف): «بعد».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٠).

عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾: أي: وتاب أيضاً على الثلاثة الذي خلِّفوا.

قال قتادة: أي: عن غزوة تبوك[1].

وقال مجاهد: أي: عن التوبة[2].

وقيل: أي: عن[3] الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾، أو[4] عن المذكورين في قوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ فابتهلوا ودعوا فتاب الله عليهم.

وللأول وجهان:

أحدهما: أنه تقدَّمهم القوم فهم مخلَّفون بتقدُّم أولئك.

والثاني: خلَّفهم الله؛ أي خلَق فيهم التخلُّف، ودل ذلك على خلق الأفعال.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: أي: اتَّسعت، وقد رَحُب رُحْباً بضم راء المصدر، فهو رَحْبٌ بفتحها، من حدِّ شَرُف.

و(ما) مع الفعل مصدر تقديره: برُحبها؛ أي: بلغ منهم الغمُّ والتأسُّف والندمُ مبلغاً لا يجدون منه مخرجاً ولا يهتدون لحيلة، كما قال الشاعر:

كأنَّ بلادَ الله وهي عريضةٌ على الخائف المطلوب كُفَّةُ حابلِ[5]

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦).

(٢) ذكره عن مجاهد الواحدي في «البسيط» (١١/ ٨٤). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤) عن عكرمة وقتادة. ورواه عن قتادة أيضاً ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٤).

(٣) «عن» ليس من (أ) و(ف).

(٤) في (أ): «أي».

(٥) نسب لعبد الله بن الحجاج، وللبيد، ولرزين العروضي، ولعبيد بن أيوب بن ضرار العنبري، وللطرماح، =

وقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾: أي: اشتدَّ غمُّهم وضِيقُ صدورهم وحياؤهم فصاروا كأنهم لا يجدون موضعاً يُخفونها فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾: أي: أيقنوا أنه[1] لا معتَصَم من الله إلا بالله، ولا مخلِّص من عقاب الله إلا عفوُ الله.

وقيل: كان ذلك حين كلَّموا النبيَّ ﷺ في ذلك فلم يُجبهم بشيء.

و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ يقتضي جواباً، وهو محذوف هاهنا، وهو معطوف عليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، وهو أن يقال: خفَّف عليهم ـ أو: رحمَهم، ونحوه ـ ثم تاب عليهم.

وقيل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ كلمة غايةٍ وتقديره: وخلِّفوا إلى هذه الغاية ثم تاب عليهم، وعلى هذا الوجه لا حذف فيه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾: أي: وفَّقهم للتوبة فتابوا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: وهذا ظاهرٌ.

والآية نزلت في كعب بن مالكٍ من بني سَلِمةَ، وهلال بن أمية الواقفيِّ، ومُرارةَ بنِ الربيع الزبيدي.

وذكر محمد بن إسماعيلَ البخاريُّ في «الجامع»: عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده أنه قال: لم أتخلَّفْ عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا غزوة تبوك، وكان من خبري: أنِّي لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفْتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمعتْ عندي قبله راحلتان قطُّ حتى جمعتُهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوةُ غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً وعدوًّا كثيراً، فجلَّى

= وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥].

(١) في (ف): «أن».

للناس أمرهم ليتأهَّبوا أُهبةَ غزوِهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يجمعُهم كتاب حافظ. يريد الديوان.

قال كعب: فما رجلٌ يريد أن يتغيَّب إلا ظَنَّ أنه سيَخفى له ما لم ينزل فيه وحيٌ الله تعالى، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوةَ حين طابت الثمار والظلال، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطُفقت أغدو لكي أتجهَّز[1] معهم، فأرجعُ ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي ذلك حتى خرج رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقضِ شيئاً من جَهازي، فقلت: أتجهَّز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقُهم، فغدوتُ بعد أن فصَلوا لأتجهَّز فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوتُ ثم رجعتُ ولم أقضِ شيئاً، ولم يزَل بي ذلك حتى أسرعوا، وهممتُ أن ارتحلَ فأدركَهم وليتني فعلتُ، ولم يقدَّر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم أَحزنني أنْ لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق[2]، أو رجلاً ممن عذَره الله من الضعفاء، ولم يذكُرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكَ[3]، فقال وهو جالس في القوم: «ما فعَل كعبٌ؟» فقال رجل من بني سَلِمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه[4] ونظرُه في عِطْفه، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلتَ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلمَّا بلغني أنه توجَّه قافلاً حضَرني همِّي، وطَفِقْتُ أتذكَّر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سَخَط رسول الله ﷺ غداً، واستعنْتُ على ذلك بكلِّ ذي رأي من أهلي، فلمَّا قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح عني الباطلُ،

---

(١) في (ف): «لأتجهز».

(٢) أي: متهماً به. انظر: «شرح مسلم» للنووي (١٧/ ٨٩).

(٣) بغير صرف للأكثر، وفي رواية: (تبوكاً) بالصرف على إرادة المكان. انظر: «فتح الباري» (٨/ ١١٨). وقال النووي في «شرح مسلم» (١٧/ ٨٩): هكذا هو في أكثر النسخ (أي: نسخ مسلم): (تبوكاً) بالنصب.

(٤) في (أ): «برده».

وعرفت أني لن أخرج عنه أبداً بشيءٍ فيه كذب، فأجمعتُ صِدْقه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم يجلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون وطفِقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيَتهم وبايعهم واستغفرَ لهم، ووكَلَ سرائرهم إلى الله تعالى، فجئتُه، فلما[1] سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضَب ثم قال: «تعال»، فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك، ألم تكن قد ابتَعْتَ ظَهْرَك؟!» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنْ سأخرج من سَخَطه بعذرٍ، ولقد أُعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدَّثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يُسخطك عليَّ، ولئن حدَّثتُك حديثَ صدق تجدُ عليَّ فيه إنِّي لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذرٍ، والله ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا هذا فقد صَدَق، فقُم حتى يقضيَ الله فيك» فقمتُ، وسار رجال من بني سَلِمة فاتَّبعوني فقالوا لي: والله ما علِمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكون قد اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلِّفون[2]، قد كان كافِيَكَ ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ، فوالله ما زالوا يؤنِّبونني حتى أردتُ أن أرجع فأكذِّبَ نفسي، ثم قلت لهم: هل لقيَ هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثلَ ما قلتَ فقيل لهما مثلُ ما قيل لك، فقلت: مَن هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العنبريُّ وهلالُ بن أميةَ الواقفيُّ، فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوةٌ، فمضيت حين ذكروهما لي.

---

(١) في (ف): «و».

(٢) في (أ) و(ر): «المخلفون».

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا مِن بينِ مَن تخلَّف عنه، فاجتنبَنا الناس وتغيَّروا لنا، حتى تنكَّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرفُ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأمَّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلِّي قريباً منه فأسارقُه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنِّي، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوةِ الناس مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابنُ عمي وأحبُّ الناس إليَّ، فسلَّمتُ عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة! أَنشدُكَ بالله هل تعلمُ أني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكتَ، فعدتُ له فنَشَدْتُه فسكت، فعدتُ له فنَشدْتُه فسكت، فعدتُ له فنَشدْتُه فقال: الله ورسوله أعلمُ، ففاضت عيناي وتولَّيت حتى تسوَّرتُ الجدار.

فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا بنَبَطيٍّ من أنباط الشام ممن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطَفِق الناسُ يشيرون له إليَّ، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أمَّا بعدُ، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يَجعلك الله بدارِ هوانٍ ولا مَضْيعةٍ، فالْحَقْ بنا نواسك، فقلتُ لما قرأتُها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمَّمت بها التَّنُّور فسجَرْتُه بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تعتزلَ امرأتك، فقلتُ: أطلِّقُها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزِلها ولا تَقْرَبها، وأَرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الْحَقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أميةَ رسولَ الله ﷺ فقالت، إن هلال بن أمية شيخٌ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه، قال: «لا، ولكنْ لا يَقْربْكِ» قالت: والله ما به حركةٌ إلى شيء، والله ما زال يبكي مذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعضُ أهلي: والله لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما استأذنَتِ امرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقولُ رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه فيها وأنا رجل شابّ؟

فلبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالي حتى كَمَلتْ لنا خمسون ليلة مِن حينِ نَهَى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صلَّيت الفجر صبحَ خمسين ليلةً وأنا على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى قد ضاقت نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحُبت، سمعتُ صوت صارخٍ أوفَى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالكٍ أبشِرْ، فخَررتُ ساجداً، وعرفتُ أنْ قد جاء الفرجُ[1].

وآذن[2] رسولُ الله ﷺ بتوبةِ الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشِّروننا، وذهب قِبَل صاحبيَّ مبشِّرون، وركض رجلٌ إليَّ فرساً، وسعى ساعٍ مِن أسلمَ[3] فأَوْفَى على الجبل، فكان الصوتُ أسرعَ من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوتَه يبشِّرني نزعتُ له ثوبيَّ فكَسَوْتُه إياهما ببُشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرتُ ثوبين فلبستُهما وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فتلقَّاني الناس فوجاً فوجاً يهتفُ لي بالتوبة، يقولون: ليَهْنِك توبةُ الله عليك.

قال كعبٌ: حتى دخلتُ المسجد، فإذا برسول الله ﷺ جالسٌ والناسُ حوله،

---

(١) في (أ): «جاءني الفرج»، ولفظ الصحيحين: (جاء فرجٌ).

(٢) أي: أَعْلَمَ.

(٣) بعدها في مسلم: (قِبَلي)؛ أي: نحوي.

فقام إليَّ طلحةُ بن عبيد الله يهرولُ حتى صافحني وهنَّأني، والله ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلَّمْتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يَبْرُق وجهُه من السرور: «أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدَتْكَ أمُّك» قلتُ: أمِن عندك يا رسولَ الله أم مِن عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعةُ قمر، وكنَّا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلتُ: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله تعالى وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «أمسِكْ عليك بعضَ مالك فهو خيرٌ لك»، قلتُ: إني أمسكُ سهمي الذي بخيبر، فقلتُ: يا رسول الله، إنما نجاني بالصدق، وإنَّ من توبتي ألَّا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيتُ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى من صدقِ الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ما تعمَّدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظَني الله تعالى فيما بقيتُ.

فأنزل الله تعالى على رسول الله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فوالله ما أنعمَ الله عليَّ من نعمةٍ قط بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صِدقي رسولَ الله ﷺ أنْ لا أكونَ كذَبْتُه فأَهلِكَ كما هلك الذين كذَبوا، فإن الله تعالى قال للَّذين كذَبوا حين أَنزل الوحيَ شرَّ ما قال لأحد، قال سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

قال كعب: وكنَّا تخلَّفنا [أيها الثلاثة] عن أمر أولئك الذين قبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايَعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرَنا حتى قضى الله تبارك وتعالى فيه، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس الذي

ذكَر الله مما خلَّفْنا عن الغزو، وإنما هو تخليفُه إيانا وإرجاؤه أمرَنا عمَّن حلف له واعتذر إليه فقَبِل منه[١].

***

(١١٩) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: أي: القائلين بالحقِّ العامِلِين به، و: ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في معنى: من الصادقين، أو: في الصادقين؛ لأن (مع) هو للمصاحبة، و(في) للوعاء، و(من) للتبعيض، فإذا كانوا في جملتهم فهم على المعاني الثلاثة.

وقيل: هذا أمر للصحابة رضوان الله عليهم إذا خرجوا مع رسول الله ﷺ أن يتَّقوا مخالفتَه، وأن يكونوا على مذهبِ مَن يستعمل الصدق في أقواله وأفعاله، وهو من قولك: أنا مع فلان؛ أي: على مذهبه.

وقيل: معناه: اتَّقوا الله في الدنيا لتكونوا مع الصادقين في الجنة في العقبى، من قول الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية [النساء: ٦٩]، وطريقُه طريقُ قولك: ائتني وخُذْ كذا؛ أي: لتأخذَ كذا.

وفي قصة كعبٍ التي سُقناها ما يدلُّ على أن الآية نزلت في المجاهدين، فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، وليس هو مجرَّدَ القول، بل هو التحقيقُ في الإيمان، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١] وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فكان معنى الآية: ولا تعودوا إلى التخلُّف عن رسول الله ﷺ في مغازيه لتكونوا قد صدَقْتُم في إيمانكم.

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، وما بين معكوفتين منهما.

وقال الحسن[1]: بلغني أنه كان لأحدهم حائطٌ كان يومئذ خيراً من مئة ألف درهم، فقال: يا حائطاه! ما خلَّفني عن رسول الله ﷺ إلا ظلُّك وانتظارُ ثمرك، اذهب فأنت في سبيل الله، ثم لحق برسول الله ﷺ، وأما الآخرُ فلم يكن له إلا أهيلٌ له، فقال: يا أهيلاه[2]! ما بطَّأني عن رسول الله ﷺ ولا خلَّفني عنه إلا الضِّنُّ بك، لا جرم والله لأكابِدَنَّ المفاوزَ حتى ألحق برسول الله ﷺ، وأما الثالث فلم يكن له أهل ولا مال فقال: يا نفسُ! والله ما خلفني عن رسول الله ﷺ إلا حبُّ الحياة لا جرم[3] والله لأكابدنَّ الشدائد حتى أَلحق برسول الله ﷺ، ثم ركب نعليه[4] ومعه زادُه تحت إبطه، فلحق برسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يا أيها الذين آمَنوا من أهل الكتاب، اتَّقوا الله وكونوا مع الصادقين؛ أي: مع المجاهدين[5].

وقيل: يا أيها الذين آمَنوا من أهل مكة ولم يهاجروا، اتَّقوا الله وكونوا مع المهاجرين.

---

(١) ذكر قوله الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣١٩).

(٢) في «الكشاف»: «ولم يكن لآخر إلا اهله فقال: يا أهلاه».

(٣) «لا جرم» ليست في (ف).

(٤) في (أ): «بغلته».

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٨٧) عن ابن عباس ومقاتل بلفظ: (يعني به مؤمني أهل الكتاب، يأمرهم بالجهاد وأن يكونوا مع المهاجرين)، وبهذا اللفظ ذكره في «الوسيط» (٢/ ٥٣٣) لكن عن الكلبي ومقاتل، فلعله مما روي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. أما مقاتل بن حيان فقد رواه عنه باللفظ المذكور ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٦).
وذكره عن ابن عباس أيضاً الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣٢١)، وفيه بدل: «أي: مع المجاهدين»: (أي: كونوا مع المهاجرين والأنصار، ووافقوهم وانتظِموا في جملتهم، واصدقوا مثل صدقهم).
وهذا الذي قاله الزمخشري هو الأوفق بالمعنى، فغير المسلم يطلب منه أولاً أن يكون مع المسلمين قبل أن يطلب كونه في المجاهدين.

قال الضحاك: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[١].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: اتقوا مخالفةَ الله فيما يأمركم به، وكونوا مع الموافِقين لأمره.

ودلت الآية على أن إجماع الأمة حجةٌ؛ لأنه أمرهم بالكون مع الصادقين في دِينه، فلزم قبول قولهم[٢].

وقال يمانُ بن رئابٍ: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: اصْدُقوا كما صَدَق هؤلاء الثلاثة.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: والله ما يَصلُحُ الكذب في جِدٍّ ولا هَزْلٍ، ولا أن يَعِدَ[٣] أحدُكم صبيَّه ثم لا يُنجزه، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٨٦) عن الضحاك وسعيد بن جبير.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥٠٦).

(٣) في (أ): «أن بعد»، وفي (ف): «لأن يعد».

(٤) رواه بتمامه وكيع في «الزهد» (٤٠١)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٠٩)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٣٣).

ورواه دون قوله: (اقرؤوا إن شئتم...) ابن ماجه (٤٦)، والإمام أحمد في «المسند» (٣٨٩٦)، ووكيع في «الزهد» (٣٩٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٠٧٦) و(٢٠١٩٨)، وسعيد بن منصور في التفسير من «سننه» (١٠٤٩)، وهنَّاد في «الزهد» (١٣٧٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٥١٨).

ورواه دون قوله: «ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجزه»، ابن المبارك في «الزهد» (١٤٠٠)، وسعيد بن منصور في التفسير من «سننه» (١٠٤٧) و(١٠٤٨)، ووكيع في «الزهد» (٣٩٥)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٦). وجاء عند وكيع والطبري وابن أبي حاتم بدل ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: (من الصادقين)، وهو الصواب في هذا الخبر، فقد جاء عند الطبري وابن أبي حاتم عقبها: (قال يعني: الراوي للخبر ـ: وكذلك هي قراءة ابن مسعود: «من الصادقين»).

وقال عبد الله بن عامر: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا وأنا صبيٌّ، فخرجت ألعبُ، فقالت أمي: تعال أعطِكَ، فقال رسول الله ﷺ: «ما أردتِ أن تعطيهِ؟» قالت: تمراً، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا إنك لو لم تُعطِه كانت كذبة»[1].

وقال قتادة: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الصدقُ في النية، والصدقُ في العمل، والصدقُ في الليل والنهار، والصدق في السرِّ والعلانية[2].

وقال أهل المعرفة: هو الصدقُ في الأحوال.

وفي الزَّبور: كَذَب مَن ادَّعَى محبَّتي فإذا جنَّه الليل نام عنِّي.

***

(١٢٠) ـ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾:

ثم حثَّ جلَّ جلالُه ساكني المدينةِ من غير المهاجرين والأنصارِ ومَن حولهم من الأعراب ـ مُزينةَ وأشجعَ وأسلمَ وجهينةَ وغِفار ـ على ما حثَّ عليه الأنصار، فقال: ما ينبغي لهؤلاء أن يتخلَّفوا عن رسول الله ﷺ إذا استَنفرهم واستَنهضهم إلى

---

(١) في (أ): «كنت كذابة»، وفي (ف): «فأنت كذابة». والحديث رواه أبو داود (٤٩٩١). وفي الباب عن أبي هريرة، رواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٨٣٦)، ولفظه: «من قال لصبي: تعال هاكَ، ثم لم يُعطِه، فهي كذبةٌ».

(٢) رواه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٠٧).

غزوٍ، ولا أنْ يَضِنُّوا بأنفسهم حتى ينفرد هو بتحمُّل المشقَّة دونهم، بل يلزمُهم جميعاً أن يخرجوا معه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: ولا أن يرغبوا، عطفاً على الأول، والرغبة: طلب المغفرة، فقولك: رغب في كذا؛ أي: طلب المنفعةَ به، وقولك: رغب عن كذا؛ أي: طلب المنفعة بتركه، ومعنى ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؛ أي: يطلبوا المنفعة بتوقيَةِ أنفسهم دون نفسِ رسول الله ﷺ.

وقال قطربٌ: أي: لا يَكرهوا لأنفسهم ما يَرضاه الرسولُ لنفسه.

وقال أبو الهيثم السِّجْزيُّ[1]: أي: لا يكونوا أشفقَ على أنفسهم منهم على رسول الله ﷺ.

وقال ابن كيسان: أي: لا يرضَوا أن يكونوا في خَفْضٍ ودَعةٍ ورسولُ الله ﷺ في شدةٍ ونصَب.

وقال القشيري رحمه الله: أي: ليس لهم أن يُؤْثِروا على النبي ﷺ شيئاً من أهل وولد ومال ونفسٍ وروح، ولا يخسرون بذلك به[2].

ثم وصل به ما يحرِّكهم به عليه، وهو قوله تعالى:

---

(١) لعله عبيد الله بن عبد اللهِ السِّجزِي أبو الهيثم، يروي عن أبي إسحاق السَّبيعِي، روى عنه ابنه حسين بن عبيد الله. انظر: «الثقات» لابن حبان (٧/ ١٤٧). وفي موضع آخر من «الثقات» (٨/ ٤٠٤): عبيد الله السجزِي أبو الهيثم يروي عن سُفْيان الثَّوْريّ روى عنه قُتيبة بن سعيد الحكايات. وفي «تاريخ الإسلام» للذهبي (٤/ ٦٨٨): عُبَيْدُ الله بن محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بن سِنَان بن طُغَانَ التُّرْكيُّ الخُراسانيُّ السِّجْزِيُّ الفقيهُ، أبو الهيثم، توفي (١٧١ ـ ١٨٠ هـ)، كان جَدُّه مُتَولِّيَ إمرةِ خراسانَ، وقد أُدخل عُبيدُ الله وهو صغيرٌ على الحسنِ البَصريِّ وسَمع من أيوبَ السَّخْتِيَانيِّ، وهشامِ بن حسَّان، وابنِ إسحاقَ. وعنه: عثمانُ بنُ زائدةَ وهو أكبرُ منه، وابن المبارك، وغيرهما، كان من كبار الفقهاءِ، وما رأيتُ لأحدٍ فيه تضعيفًا.

(٢) «به» من (ف)، وفي «اللطائف»: (وليس يخسرون على الله، وأنى ذلك؟). انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: ذلك الحثُّ والترغيب بأنهم لا ينالهم عطشٌ ولا تعبٌ ولا مجاعة في طريق الجهاد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾: أي: ولا يطؤون بأقدامهم أو خيولهم أرضاً، والموطئ يجوز أن يكون مصدراً ويجوز أن يكون موضعاً كالموضِع[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾: أي: لا يجدون، ومعناه: لا يصيبون من أحدٍ منهم شيئاً من جَرحٍ أو قتلٍ أو ضربٍ أو تشديدٍ أو أخذِ مالٍ ونحوِ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾: أي: حَصَل لهم بكلِّ واحدٍ من هذه الآثار حسنةٌ مقبولة.

وإنما قال: ﴿بِهِۦ﴾ مع ذكر أشياءَ جمعاً؛ لأنه لمَّا أَدخل بين شيئين (لا) مكرَّراً صار كلُّ فعل مفرَداً بالذكر مقصوداً بالوعد، وهو كما قال أصحابنا: مَن حلَف لا يأكل خبزاً ولا لحماً، يَحنث بواحدٍ منهما، ولو قال: والله لا آكلُ خبزاً ولحماً، لم يحنث إلا بهما جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أي: هم محسِنون، والله لا يُبطِل ثوابَهم.

* * *

(١٢١) - ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: قليلةً ولا كثيرةً[2].

---

(١) في (ر) و(ف): «كالمرجع».

(٢) انظر: «تنوير المقباس» (ص: ١٦٨). وذكر عنه الواحدي في «البسيط» (١١/ ٩١): يريد تمرة فما =

وقيل: ﴿صَغِيرَةً﴾: إنعالُ فرسٍ، أو خَرْزُ مِطْهرةٍ، أو خَصْفُ نعلٍ، و﴿كَبِيرَةً﴾: شراكُ كُراعٍ أو سلاح، أو إعدادُ زاد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: مُقبِلين ومُدْبرين[١].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾: أي: عملٌ صالحٌ كما مرَّ مرةً، ويستقيم: إلا كُتب لهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي: يأمر بكتابةِ هذه الأشياء في كتبهم ليُخرجها لهم يوم القيامة، فيجزيَهم على كلِّ واحد منها جزاءَ أحسنِ عملٍ كان لهم، فيُلحق ما دونه به شكراً لسعيهم وتوفيراً لأجرهم.

قالوا في الآية: إن مَن قصَد طاعةً كان قيامُه وقعودُه ومشيُه وحركاتُه فيها كلُّها حسناتٍ مكتوبةً له، فما أعظمَ بركات الطاعات.

وقال قتادة: ما ازداد قومٌ في سبيل الله من أهاليهم بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً[٢].

وقال القشيريُّ رحمه الله: ذلك بأنهم لا يرفعون لأجله سبحانه خطوةً إلا قابلهم بألفِ خطوةٍ، ولا ينقلون لله قدماً إلا لقَّاهم لطفاً وكرماً، ولا يقاسون فيه عطشاً إلا سقاهم من شرابِ لطفه كأساً، ولا يتحملون لأجله مشقَّةً إلا أعطاهم سروراً ونصرةً، ولا ينالون من الأعداء ما يوجب وهَنهم إلا شكَر سعيَهم[٣].

***

(١٢٢) ـ ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

= فوقها ولا أدنى منها، وروي عنه: ولو عِلاقة سوط.

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٩٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٠٩).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾:

قال الكلبي: لمَّا أنزل الله تعالى عيوبَ المنافقين وبيَّن نفاقهم في غزوة تبوك، قال المؤمنون: والله لا نتخلَّف عن غزوةٍ يغزوها رسول الله ﷺ ولا سريةٍ أبداً، فلما قدم رسول الله ﷺ وأمر بالسرايا إلى العدو[١] نفر المسلمون ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ جميعاً، وتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة، فنزلت الآية الكريمة الشريفة عليه ﷺ[٢].

فعلى هذا تفسيرُ الآية: ليس من حُكم المؤمنين رضي الله عنهم أن ينفروا جميعاً ويتركوا رسول الله ﷺ بغيرِ أصحابٍ ويضيِّعوا أهاليَهم وأموالَهم، فهلَّا خرج من كلِّ قبيلةٍ جماعةٌ منهم للغزو، وقعد طائفةٌ ليتعلَّموا من رسول الله ﷺ القرآن والأحكام.

والتفقُّه: التفعُّل من الفقه، وهو طلبُه وتحصيلُه، والفقه: فهمُ موجَبات المعاني المضمَّنةِ فيها من غير تصريحٍ بالدلالة عليها، ولينذرَ هؤلاء المتفقِّهون قومَهم الخارجين إلى الغزو إذا رجعوا من الغزو إليهم ليَحذروا مخالفةَ الشرع إذا سمعوا وعلموا[٣].

وبنحوه قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟﴾ جميعاً ويتركوا النبيَّ ﷺ وحده، فهلَّا ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعني: السرايا، ولا يخرجوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا ونزل بعدهم قرآنٌ تعلَّمه القاعدون من النبيِّ ﷺ، قالوا: إن الله تعالى أنزل على نبيِّكم بعدكم قرآناً، وقد تعلَّمناه، فيمكثُ السرايا يتعلَّمون ما أَنزل الله تعالى على نبيِّهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، [فذلك قوله]:

---

(١) في (أ): «الغزو».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٦٣)، وفي «البسيط» (١١/ ٩٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥١٦)، جميعهم عن ابن عباس من رواية الكلبي.

(٣) في (ر): «وعملوا».

﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [يقول]: حتى يعلموا ما أنزل الله على نبيِّهم ويعلِّموه السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون[١].

وذكر الإمام أبو منصور رحمه الله هذا القول وقولاً آخر عن بعضهم: أن النبي ﷺ كان إذا خرج للغزو خرجوا جميعاً معه، فتبقى المدينة خاليةً من الرجال، فنهى الله عن ذلك وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ مع رسول الله ﷺ، فهلا نفر من كلِّ عشيرة قومٌ ليتفقَّهوا في الدين من رسول الله ﷺ ولينذروا قومهم أهلَ المدينة إذا رجع المتفقِّهون إليهم لعلهم يحذرون.

وقيل: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾؛ أي: وليُخْبروا الكفَّار المقيمين بالمدينة بما نصَر الله به رسولَه وقهر أعداءه، وليحذَر الكفارُ عن أن ينالَهم كذلك فيُسلموا، وإليه ذهب الحسنُ وابن كيسان، وقالا: نسخت هذه الآية ما قبلها: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ[٢].

وهذه الآيةُ في الظاهر بخلافِ قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ولكنَّ التوفيق بينهما: أن النبيَّ ﷺ إذا خرج وفي أصحابه قلةٌ فعلى الآخرين أن يخرجوا معه، وإذا خرج وفي أصحابه كثرةٌ قعد البعض لحفظ المدينة والأهل والولد.

وقيل: أحدهما إذا عمَّ النَّفيرُ والآخر إذا لم يعمَّ.

وذكر أيضاً قولاً ثالثاً: أنه في الوفود القادمين من الآفاق للتعلُّم[٣].

وقد رُوي أن حيًّا من بني أسد بن خُزيمة أصابتهم سنةٌ وشدةٌ، فأقبلوا بالذراري معهم والصِّبية حتى نزلوا المدينة، وأفسدوا طرقها بالعَذِرات وأَغلوا أسعارها، فنزلت:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٧)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥٠٦).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥٠٨ _ ٥٠٩).

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية[١]، وفيه تعليمٌ لهم أن الواجب عليهم أن ينفر إلى رسول الله ﷺ قومٌ يتعلَّمون ثم يرجعون إلى مواضعهم فيعلِّمون أولئك.

قال: وفي الآية دليلُ سقوط الجهاد عن الجماعة إذا قام به البعض.

وفيها دلالةُ لزوم العمل بخبر الآحاد[٢] وإن احتمَل الغلط؛ لأن الطائفة تحتمِل اجتماعهم على الكذب أو الغلط، ثم ألزمَ قومهم قبول خبرهم[٣].

وقال القشيري رحمه الله: المسلمون على مراتب: فعوامُّهم كالرعية للملك، وكتبةُ الحديث كخُزَّان الملك، وأهلُ القرآن كحفَّاظ الدفاتر ونفائس الأموال، والفقهاءُ بمنزلة الوكلاء للملك؛ إذ الفقيهُ يوقِّع عن الله تعالى، وعلماءُ الأصول كالقوَّاد وأمراء الجيوش، والأولياء كأركان الباب، وأربابُ القلوب وأصحابُ الصفا كخواصِّ الملك وجلسائه، فيشتغل كلُّ قوم بحفظ أركان الشرع، وآخرون بإمضاء الأحكام، وآخَرون بالردِّ على المخالِفين، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجُعل قومٌ مفردِين بحضور القلب وهم أصحابُ الشهود، وليس لهم شغل، يراعون مع الله أنفاسهم وهم أصحاب الفراغ، لا يستفزُّهم طلب ولا يهزُّهم أربٌ[٤]، فهم بالله لله بمحوٍ [عن] ما سوى الله، وأما الذين يتفقَّهون في الدين فهم الداعون إلى الله، وإنما يُفهِم الخلقَ عن الله إذا كان يَفهم عن الله[٥].

(١٢٣) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾: أي: يَقْربون

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١١٢)، عن الكلبي.

(٢) في (ر): «الواحد».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥١٠ ـ ٥١١).

(٤) في (أ): «يهزهم أمن» وفي (ف): «يهزهم أمر»، وفي (ر): «يهمهم أمر»، والمثبت من «اللطائف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٣)، وما بين معكوفتين منه.

منكم، وقد وَلِيَه يَليهِ وَلْياً؛ أي: جاهِدوا الأقربَ فالأقربَ إليكم، ولا تدَعوا الأقربَ وتقصِدوا الأبعد فيَقصدَ الأقربُ بلادَكم وأهاليَكم وأموالكم وأولادَكم.

وفيه: أنهم إذا أَمِنوا الأقربَ كان لهم مجاوزتُهم إلى الأبعد(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الأدنى فالأدنى من عدوِّهم من أهل المدينة مثلَ قُريظةَ والنَّضير وخيبرَ وفدك(٢).

وذكر أن الذين يلُونهم من الأعداء يومَ نزول هذه الآية هم الروم الذين بهم ختم رسول الله ﷺ غزوة تبوك؛ لأن بلاد العرب كانت قد فتحت عليه وكانت مسافتهم إلى الروم أقرب منها إلى بلاد الأعاجم(٣)، وكان الكلام متصلاً بما تقدم من ذكر غزوة تبوك.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: كان هذا الأمر أولاً بقتال الأدنى فالأدنى، ثم ورد الأمر بقتال الكلِّ بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾.

وقيل: كان النبي ﷺ إذا غزا ربما يجاوز(٤) كفاراً ويقاتل الأبعدَ لتكون آية لنبوته، وأنه لا يبالي ولا يخاف مَن تركَه، فنزلت الآية تعليماً للمؤمنين أمرَ الحرب كما علَّمهم ذلك في سائر الآيات من الأمر بأخذِ الحذر وإعدادِ ما استطاعوا من قوة.

وقيل: هذا إنباءٌ عن دوام الجهاد مع الأعداء أبداً؛ لأنه كلما فُتح ناحيةٌ صار الذين بقُوا وراء هؤلاء يلونهم(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾: قال الضحاك: أي: عنفاً، وقال مجاهد:

---

(١) في (ف): «كان لهم محاربة الأبعد».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١٢)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٩٦) واللفظ له.

(٣) روي نحو هذا عن ابن عمر عند الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١٢)، وعن ابن عباس عند الواحدي في «البسيط» (١١/ ٩٦).

(٤) في (أ): «يجاور».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥١١ ـ ٥١٢).

أي: شدة، وقال عطاء: أي: شجاعة، وقال الحسن: أي: صبراً[١].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أي: معكم إن اتَّقيتُموه[٢] في أوامره ونواهيه من الجهاد وغيره، ومعكم؛ أي: مُعِينكم وناصرُكم وحافظُكم.

(١٢٤) ـ ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾: أي: فمِن المنافقين مَن يقول لأصحابه أو لضَعَفة المؤمنين على سبيل الهزء والاستخفاف بالقرآن عند نزول السورة: أيُّكم زادته هذه السورة تصديقاً؛ أي: إنَّا لم نزدَدْ بهذه إيماناً، ولا أحدث بنا[٣] نزولُها تصديقاً بما يدَّعيه محمد من الوحي والشرائع التي فيها المشاقُّ والمخاطرةُ بالنفوس والأموال والأولاد.

ثم أجيبوا عن هذا بما يذكر بعده، وهو قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي: فأما المخلِصون فإن هذه السورة صارت سبباً لزيادة تصديقهم ويقينهم وإخلاصهم، وهم يفرحون بما نزل فيها من الوعد على الإيمان والعمل حتى يتبيَّنُ ذلك في وجوههم وبشرتهم.

(١٢٥) ـ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي: شك، وقيل: أي: نفاق، وقيل: غلٌّ، وقيل: ضغنٌ على المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾: أي: صارت سبباً لزيادة كفرهم وتكذيبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

---

(١) ذكر هذه الأقوال الواحدي في «البسيط» (١١/ ٩٧) وقول عطاء عزاه لابن عباس.

(٢) في (ر): «اتبعتموه».

(٣) في (ف): «لنا».

وقيل: الرِّجس: الأذى، ومعناه: امتلاءُ صدورهم من الغيظ مما يَرون من علوِّ المسلمين وقهرِ الكافرين والمنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾: وهو إخبار عن إصرارهم عليه إلى الموت، وهو كقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١١٠].

وقال القشيري رحمه الله: إنزالُ[١] القرآن لقوم شفاءٌ ولقوم شقاء، فأما المخلصون فزادتهم السورة إيقاناً فارتقَوا من حدِّ تأمُّل البرهان إلى روح البيان، ثم من روح البيان إلى أُنس العِيان، فشُموسُ العِرفان طالعة على أسرارهم، وأنوار التحقيق مالكةٌ لأرواحهم، فلا لهم تعبُ الطلب، ولا عليهم سلطان الفكر والدأب، وشعاعُ شُموس العرفان مستغرقٌ لأنوار العلم والبيان، يقول قائلهم:

فلمَّا استبانَ الصُّبحُ أَدْرَجَ ضوءُه ... بإسفاره أنوارَ ضوءِ الكواكب[٢]

(١٢٦) - ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: قرأ حمزة: ﴿أَوَلا تَرَوْن﴾ بتاء المخاطبة للمؤمنين، وقرأ الباقون بياء المغايبة خبراً عن المنافقين[٣]؛ أي: عجباً منهم كيف قستْ قلوبهم وعَمِيت أبصارهم عما يَتتابع عليهم من أنواع المحن حتى لا يخلو كلُّ عامٍ من محنةٍ أو محنتين، ثم لا يرجعون عن كفرهم ولا يتَّعظون بما يصيبهم.

وقال الحسن وقتادة: هذه الفتنة هي القتلُ[٤] والسبيُ ونصرُ المؤمنين[٥].

---

(١) في (ف): «أنزل»، وفي «اللطائف»: (جعل الله إنزال).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

(٤) في (أ): «القتال».

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩٢)، وعن الحسن عبدُ الرزاق في «تفسيره» (١١٤٥)، =

وقال مجاهد: القحط والجوع(١).

وقيل: بهتك أستارهم كإخراجهم من المسجد وطردِهم عن المحافل.

وقيل: بالمرض والحوادث.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: يُبتلَون بالجهاد والغزو، فيتخلَّفون عنه فيظهر بذلك نفاقُهم(٢).

وقال عكرمة: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون(٣).

وقال يمان بن رئاب: ينقضون عهدهم مرةً أو مرتين.

وقال القشيري رحمه الله: ثم إن سنةَ الله تعالى ألَّا يُخلي أرباب التكليف من دلائل التعريف، والتحريكِ لهم في كل وقت بنوعٍ من البيان، والتعريك في كلِّ أوانٍ بضربٍ من الامتحان، فمنهم مَن لا يزداد بإيضاح البرهان إلا زيادةَ الخذلان، والحَجْبةَ عن فوائد البيان، وأما أصحاب الحقائق فما يكون لغيرهم في كلِّ عامٍ مرة أو مرتين فلهم في كلِّ نَفَسٍ مرات وتارات، لا يخليهم الحق سبحانه من زواجرَ توجِب بصائر، وخواطرَ زواهرَ تتضمن تكليفاتٍ وأوامر، قال قائلهم:

كأن رقيباً منك حلَّ بمهجتي إذا رُمتَ تسهيلاً عليَّ تصعَّبا(٤)

* * *

(١٢٧) ـ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

= وكلها بلفظ: (يبتلون بالغزو في سبيل الله في كل عام مرة أو مرتين).

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥١٥).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١٣).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٥).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: بعضُ هؤلاء المنافقين إلى بعضٍ إيماءً ببصره واستخباراً بإشارته.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾: أي: هل يتفقَّد[1] انصرافكم أحدٌ من المخلِصين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾: أي إذا وجدوا غفلةً من المؤمنين انصرفوا كراهيةً لسماع القرآن.

وقيل: خوفاً مما ينزل من ذكر مقابحهم.

وقيل: حذراً من نزول الأمر بالجهاد، وتكليفِ النبيِّ ﷺ إياهم بالخروج، واضطرارِهم إلى الإجابة إذا خاطبهم به.

وقيل: هي كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾: حيث اختاروا الانصراف عن الإيمان، وعلِم الله ذلك منهم فصرفهم عنه، وهو دليلُ خلقِ الأفعال، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال الحسن: ثم انصرفوا على عزم الكفر والتكذيب بمحمدٍ والقرآن[2].

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾: أي: استحقُّوا ذلك عقوبةً لهم على تركهم التدبُّر في القرآن كمَن لا يفقهُ ذلك.

* * *

(١٢٨) - ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) في (ف): «يتقصد».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٠٤).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: ختم السورة بذكر صفات الرسول الذي أنزل عليه القرآن، ومنه كان لهم البيان؛ كما في هذه السورة وسائر الفرقان.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: آدميٌّ مثلِكم.

وقيل: هو خطاب للعرب؛ أي: من نسبكم عربيٌّ مثلُكم، وذاك أقرب إلى الألفة، وأبعدُ من اللَّجاجة، وأسرع إلى فهم الحُجة.

وقيل: لمَّا كان منكم وقد عرفتُم صدقَه وأمانته لم يقع في قلوبكم كذبُه ولا خيانتُه(١).

وقرأ ابن عباس وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها: (مِن أَنْفَسِكم) بفتح الفاء(٢)؛ أي: من أشرَفكم وأفضلِكم، من قولهم: شيءٌ نفيسٌ؛ أي: خطير.

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: أي: شديدٌ عليه عنتُكم؛ أي: هلاكُكم، وقيل: مشقَّتُكم، وقيل: إثمكم.

وقيل: العنتُ: الأذى الذي يَضيقُ به الصدر، ولا يهتدي للمخرج منه؛ أي: لشفقته عليكم يَشُقُّ عليه ما يسوءكم.

وقيل: أي: لا يدعوكم إلى شيء فيه ذلك، بل إلى كلِّ يُسرٍ وخفَّه(٣).

وقال عبد العزيز بن يحيى الكِنانيُّ: ﴿عَزِيزٌ﴾ نَعَتَه بالعزَّة على ربِّه ثم قال: ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: عليه الشفاعةُ فيما أثمتُم كالدِّية على العاقلة(٤).

---

(١) في (أ): «وهم كذب وخيانة» وفي (ف): «كذب ولا خيانة» بدل: «كذبه ولا خيانته».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٠).

(٣) في (ف): «كل سر وخفية».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٤٧) لكن باختلاف عما هنا، ولفظه: قال عبد العزيز بن يحيى: نظم الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾ =

وقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: أي: على إيمانِ مَن لم يؤمِن منكم.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: الرأفة: أشدُّ الرحمة، والرحمةُ أعمُّ من الرأفة؛ لأنها استعملت في كلِّ نفع كالمطر والسعة والعافية وغيرها، فكان المعنى في الرؤوف: الشَّفيق[1] العطوف، وفي الرحيم: النافع الـمُفْضِل[2].

وقال الحسين بن الفضل: لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا لنبيِّنا محمدٍ ﷺ، فإنه قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال لإبراهيم: ﴿حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال لإسماعيل: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] وليحيى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩].

* * *

(١٢٩) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أي: قرَّرنا صفاتك عندهم، فإن أعرضوا عنك ولم يصدِّقوك بل خالفوك وعادَوك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فعرِّفْهم أن الله أن الذي لا إلهَ إلا هو كافيكَ مكروههم[3] وناصرُك عليهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: أخبرهم أنك فوَّضْتَ أمورك إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي: ذو القدرة والسلطان والملك، والعرشُ عبارةٌ عن الملك، يقال: ثُلَّ عرشُه؛ أي: زال ملكه.

وإنْ حُمل على العرش الذي فوق السماوات فذكرُه ذكرُ كلِّ المخلوقات لأنه

= رَّحِيمٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، لا يهمه إلّا شأنكم، وهو القائم بالشفاعة لكم، فلا تهتموا لما عنتم ما أقمتُم على سنَّته فإنه لا يرضيه إلّا دخولكم الجنة.

(١) في (ر): «الشفوق».

(٢) «المفضل» ليست في (ف).

(٣) في (أ) و(ر): «مكروههم».

أعظمُها فذكرُه ذكرها، وإضافةُ الله إليه إضافةُ[١] بيانِ خَلْقه ومُلْكه وقدرته وعلمه وعظمته وسلطانه[٢].

وقال القشيري رحمه الله: لقد جاءكم رسولٌ يشاكِلُكم في البشرية لكنه يأتيكم فيما أفردناه[٣] به من الخصوصية، وألْبسناه لباسَ الرحمة عليكم، وأقمناه بشواهدِ العطف والشَّفقة على جملتكم، قد وكَل همَّته بشأنكم، [و]أكبر[٤] همَّته في إيمانكم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أمرَه أن يدعوَ الخلق إلى التوحيد، ثم قال: فإن أعرضوا عن الإجابة فكنْ لنا بنعتِ التجريد.

ويقال: قال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] ثم أمره بأن يقول: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ عينُ الجمع، وقوله: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ تفرقةٌ، بل هو جمع الجمع؛ أي: قل، ولكنْ بنا تقول، فنحن المتولُّون عنك، وأنت مستهلَكٌ[٥] في عين التوحيد، فأنت بنا، ومحوٌ عن غيرنا[٦].

وروَى الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبيٍّ بن كعب: أنهم جمعوا القرآن في مصحفٍ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فكان رجال يكتبون يملي عليهم أبيٌّ بن كعب، فلما انتهوا إلى هذه الآية: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ظنُّوا أنه آخرُ القرآن، فقال لهم أبي بن كعب: إن النبي ﷺ قد أقرأني بعد هذه آيتين: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة، فهذا آخر ما أنزل من القرآن، فخُتم الأمرُ

---

(١) «إضافة» زيادة من (ف).

(٢) «وسلطانه» ليس من (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «أوردناه».

(٤) في (أ): «أكثر».

(٥) في (ر): «ستهلك»، وفي (ف): «المستهلك».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٦).

بما فُتح به؛ بـ: لا إله إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥][1].

وقال البراء بن عازبٍ: آخرُ سورةٍ نزلت كاملةً براءة[2].

وقال يحيى بنُ جَعْدَةَ: كان عمر رضي الله عنه لا يَكتب آيةً في المصحف حتى يَشهَدَ عليها رجلان، فجاءه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة التوبة، فقال عمر رضي الله عنه: والله لا أسألك عليهما بينةً كذلك كان رسول الله ﷺ، فأثبته[3].

والحمد لله رب العالمين، قد أتممت هذه السورة بعون الله وطاقته، وتوفيقه ورأفته.

---

(١) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائده على «المسند» (٢١٢٢٦)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص: ٥٦ و١١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٩)، والضياء في «المختارة» (١١٥٥).
وقوله: «إلا يوحى» هكذا جاءت في النسخ الخطية و«المسند»: بالياء التحتية المضمومة، وفتح الحاء، وهي قراءة جمهور القراء، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿نُوحِيٓ﴾، بالنون المضمومة وكسر الحاء.
قوله: «فختم بما فتح به...»، يعني: أن الله تعالى افتتح الدِّين بالتوحيد، واستدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ وختم الدين بالتوحيد أيضاً فقال في آخر آية مِن سورة براءة: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

(٢) رواه البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٥٣ ـ تفسير)، وإسناده منقطع لأن يحيى بن جعدة لم يسمع من عمر كما في «المراسيل» لابن أبي حاتم (ص: ١٨٨). ورواه من طريق آخر الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٠)، وفيه سفيان بن وكيع وهو ضعيف جدًّا. وخبر وجود هاتين الآيتين مع خزيمة الأنصاري رواه البخاري (٤٦٧٩) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه حين أمره الصدِّيق بجمع القرآن.